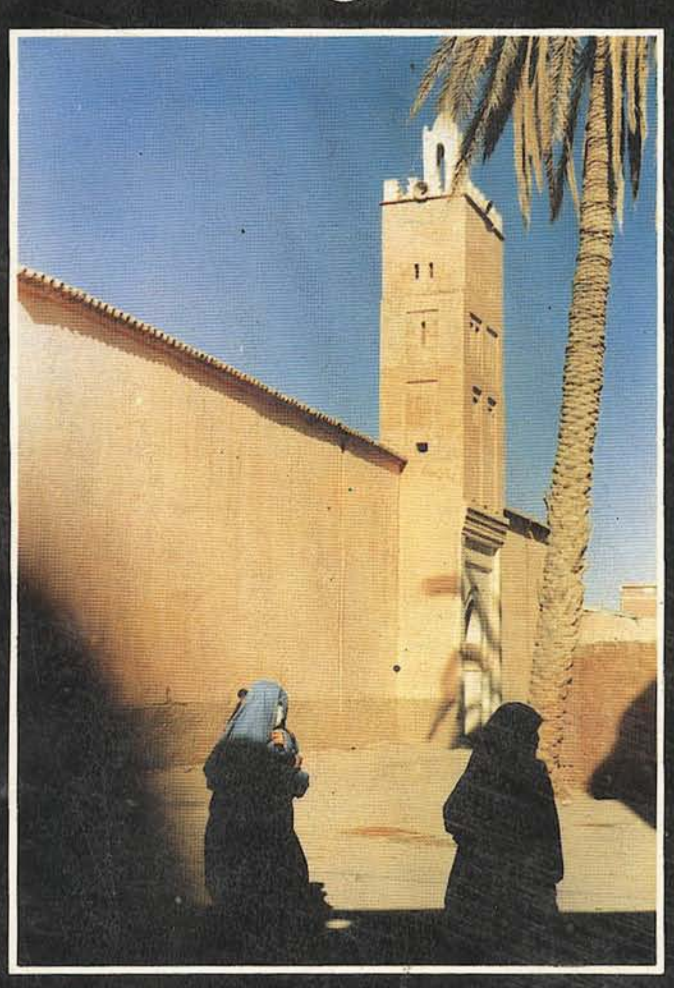


جامعة ابن زهر
كلية الآداب والعلوم الانسانية أكادير

تارودانت

حاضرة سوس



المملكة المغربية
جامعة ابن زهر
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير
سلسلة الندوات والأيام الدراسية رقم 2



تارودانت

حاضرة سوس

أعمال الأيام الدراسية
7 — 8 — 9 أبريل 1988

الطبعة الثانية
1997

الايداع القانوني : 937 / 1992

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط -

لجنـــة التنظيـــم

التنسيــق :

الأستاذ حسن بنحليمة : عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية أكــاديــر

1. اللجنــة العلميــة للمتابعـة والإعــلام :

الأساتـذة : ابراهيم أبو الصواب
مولاي الحسن السكراتي
عثمان هناكا
أحمد المقري
محمد النوحي

2. لجنــة الاستقبــال :

الأساتـذة : الحسيــن أفــا
ابراهيم أبو الصواب
محمد سفيــر
ادريس الزعري لمباركي
السيد عبد الرزاق لمسيم

3. لجنــة المعــرض :

الأساتـذة : الحسين الركالـي
محمـد الماكـري
عثمـان هنـاكـا
المدنـي المنتصيـر

4. لجنــة الرحلــة العلميــة :

الأساتـذة : عثمـان هنــاكــا
سليمـــان أزيكـــي
محمـــد اللحيـــة
مـولاي الحســن السكراتــي

5. لجنــة التنظيــم المــادي :

الســادة : عبد الرزاق لمسيــم
محمـــد العســـري
محمـــد عبيـــد
سعيـــد جبـــران
عبد الله الشويــخ

الفهرس

المحور الجغرافي

برنامــج النــدوة

ــ الخميـس 07 أبريـل 1988

*** صبــاحـــا**

س. 00.09 ــ افتتاح الأيام الدراسيـة
ــ كلمـة عميـد الكليـة
ــ كلمـة اللجنـة المنظمـة
ــ زيـارة معـرض الوثائـق والأعمال التشكيلية

الجلســة الأولــى :

التطور التاريخي لمدينة تارودانت منذ الفتح الإسلامي (المدرج 1).

الرئيس : عبد اللطيف فضل الله، كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
المقرر : ذ. حسن الصادقي، كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.

س. 30.10 ــ ذ محمد زنيبر : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
* «ازدواجية دور تاردوانت بين المساندة والمعارضة في العصر الوسيط»
س. 50.10 ــ ذ عمر بنميرة : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
* «مدينة تارودانت من خلال أوصاف الجغرافيين خلال العصر الوسيط»
س. 10.11 ــ ذ. ابراهيم القادري بوتشيش كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ مكناس.
* «تارودانت وأزمة المصادر التاريخية».
س. 30.11 ــ ذ. علي المحمدي : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
* «ملاحظات عن تاريخ تارودانت».
س. 50.11 ــ مناقشـــة.

الخميــس مســاء :

(جلستان منعقدتان في نفس الوقت : جلسة 2 و 3، ثم الجلسة الرابعة في الأخير)

الجلســة الثانيــة :

تارودانت على عهد دولتي الشرفاء (مدرج رقم 4)

ــ الرئيـس : ذ. محمد زنيبر : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
ــ المقـرر : ذ. ،مولاي لحسن السكراتي : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ أكادير.

س. 00.15 ــ ذ. عبد الكريم كريم : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
* «تارودانت أو المحمدية قاعدة بلاد السوس وأم القرى والامصار».
س. 20.15 ــ ذ. عبد القادر زمامة : كلية الآداب العلوم الانسانية ــ فـاس.
* «تارودانت في أقلام المؤرخين إلى نهاية العصر السعدي».

س. 40.15 ـــ ذ. حسن الصادقي : كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ الرباط.
* «تارودانت والمشرق في مطلع العصر الحديث من خلال ابن سليمان الروداني وتلامذته المشارقة».
س. 00.16 ـــ مناقشـــة
س. 20.16 ـــ استراحـــة

الجلســـة الثالثـــة :

مساهمات اقتصادية وعمرانية (مدرج رقم 2)

ـــ **الرئيـس** : ذ. عمر أفا، كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ الرباط.
ـــ **المقـرر** : ذ. النوحي محمد الحبيب، كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ أكادير.

س. 00.15 ـــ ذ. نايت بالك أحمد : جامعة السبون، باريز ـــ فرنسا.
* «حصون الأطلس الصغير الغربي (إكودار) : الأصول، الوظائف الأدوار السوسيو اقتصادية».
س. 20.15 ـــ ذ. زكي علي المجاطي : ثانوية الزرقطوني ـــ أكادير.
* «تطور البنية الاقتصادية لمدينة تارودانت عبر التاريخ».
س. 40.15 ـــ ذ. حنداين محمد : ثانوية ابن خلدون ـــ أكادير.
* «الاعلام الجغرافية لمدينة تارودانت».
س. 00.16 ـــ مناقشـــة
س. 20.16 ـــ استراحـــة

الجلســـة الرابعـــة :

الاطار الطبيعي والسكان.

الرئيس : ذ. حسن بنحليمة عميد كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ أكادير.
المقرر : ذ. هناكا عثمان، كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ أكادير.

س. 00.17 ـــ ذ حسن المحداد : كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ أكادير.
* «عناصر الوسط الطبيعي السوسي».
س. 20.17 ـــ ذ مبارك بوزليم، باحث
* «مدينة تارودانت من إطارها الطبيعي العام : دينامية الارساب في حوض أداوزداغ شمال شرق تارودانت»
س. 40.17 ـــ ذ. علي أيت احساين، كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ أكادير.
* «المعطيات الطبيعية لموقع وموضع تارودانت ومظاهر التعرية في القطاع الغربي والشمالي الغربي للمدينة».
س. 00.18 ـــ ذ. سعيد خليل، كلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ أكادير.
* «عملية النتح ـــ التبخر وانعكاساتها في المجال الحيوي والاقتصادي لتارودانت».

س. 20.18 — ذ. عبد اللطيف فضل الله : كلية الآداب والعلوم الانسانية — الرباط.
*«تطور السكان بمدينة تارودانت ونواحيها»
س. 40.18 — مناقشــة.

الجمعـة 08 أبريـل 1988 :

* صبـاحـا :

الجلسـة الخامسـة :

الأنشطة الاقتصادية واشعاع مدينة تارودانت.

— **الرئيـس** : عبد الرحمن حنان، مدير مكتب الاستثمار الفلاحي لسوس ماسة — أكاديـر.
— **المقـرر** : ذ. المدني المنتصير، كلية الآداب والعلوم الانسانية — أكادير.

س. 00.09 — ذ. عبد اللطيف فضل الله كلية الآداب والعلوم الانسانية — الرباط.
* «تطور الأنشطة الحضرية بمدينة تارودانت».
س. 20.09 — لحسن أكريم، مهندس بمكتب الاستثمار الفلاحي لسوس ماسة.
* «النشاط الفلاحي باقليم تارودانت».
س. 40.09 — ذ. أمال المشرفي : كلية الشريعة — أيت ملول — المزار.
* «تعاونيات القطاع الفلاحي بتارودانت واقع وانجازات».
س. 00.10 — ذ. عبد القادر محاين : المركز التربوي الجهوي — انزكان.
*«الأسواق الأسبوعية بمدينة تارودانت وظهيرها : دراسة اقتصادية ومجالية».
س. 20.10 — ذ. سليمان أزيكي، كلية الآداب والعلوم الانسانية — أكادير.
* «الصناعة الفلاحية بتارودانت»
س. 40.10 — ذ. عثمان هناكا، كلية الآداب والعلوم الانسانية — أكادير.
* «تارودانت في المجال السوسي».
س. 00.11 — استراحــة.
س. 20.11 — مناقشــة.

الجمعـــة مســـاء :

(جلستان 6 — 7 منعقدتان في نفس الوقت ثم بعد ذلك الجلسة الختامية)

الجلســة السادســة :

اسهامات تارودانت الفكرية (المدرج رقم 4)

— **الرئيـس** : ذ. عبد القادر زمامة، كلية الآداب والعلوم الانسانية — فاس.
— **المقـرر** : ذ. أحمد المقري، كلية الآداب والعلوم الانسانية — أكادير.

س. 00.15 — ذ. عباس الشرقاوي : مدير ثانوية الادريسي التقنية — أكادير.
* «قيمة المنتوج الفكري بتارودانت خلال القرنين 10 و 11 هـ».

س. 20.15 ــ ذ. علال معكول، كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ مكناس.
★ «النشاط الفكري والأدبي لتارودانت في عهد الأمير محمد العالم في ق 12 هـ».
س. 40.15 ــ ذ. محمد بنعبد الجليل، كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ فاس.
★ «تارودانت بين الناصري والمختار السوسي»
س. 00.16 ــ ذ. اد الفقيه أحمد، كلية الشريعة ــ أيت ملول ــ أكادير.
★«تأملات في فقه الفتاوي والنوازل بتارودانت».
س. 20.16 ــ مناقشة.
س. 40.16 ــ استراحة.

الجلسة السابعة :

مظاهر من التراث الثقافي لتارودانت (المدرج رقم 2).

الرئيس : ذ. أحمد بوكوس : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
المقرر : ذ. الماكري محمد : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ أكادير.

س. 00.15 ــ ذ. محمد المنوني : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
★«الخزائن العلمية في تارودانت وما إليها».
س. 20.15 ذ. ابراهيم أبو الصواب : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ أكادير.
★«دراسة بيبليوغرافية تحليلية للمخطوطات الموجودة ببعض المكتبات الخاصة والعامة بتارودانت».
س. 40.15 ذ. محمد أبو طالب : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الرباط.
★«تارودانت وسوس عند بعض الكتاب الانجليز».
س. 00.16 ــ ذ. عمر أمرير : كلية الآداب والعلوم الانسانية بن امسيك البيضاء 2.
★«الادب الشعبي ودراسة التراث بتارودانت».
س. 20.16 ــ ذ. صالح أزوكاي : كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ أكادير.
★«المناهج التربوية بالمدارس العتيقة بسوس».
س. 40.16 ــ مناقشة.

الجلسة الختامية :

تقويم الأيام الدراسية (مدرج رقم 4).

س. 00.18 ــ تلخيص أعمال الأيام الدراسية.
ــ استنتاجات عامة

السبت 09 أبريل 1988.

زيادة ميدانية لتارودانت وناحيتها

★ صباحا

س. 00.08 ــ انطلاق الحافلة

كلمة السيد عميد الكلية

الأستاذ حسن بنحليمة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد ممثل عامل صاحب الجلالة على إقليم أكادير
السيد ممثل عامل صاحب الجلالة على إقليم تارودانت
السيد رئيس جامعة القاضي عياض ممثل السيد وزير التربية الوطنية
السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة أكادير
السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة تارودانت
السادة العمداء
السادة الفضلاء العلماء والأساتذة
حضرات السيدات والسادة
معشر الطالبات والطلبة

يسعدني أن أرحب بكم بالاصالة عن نفسي ونيابة عن هيئة التدريس والادارة بكلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير في هذه التظاهرة العلمية التي تنظمها كليتنا في إطار أنشطتها العلمية للسنة الجامعية الحالية ومن حسن الطالع أن يقام هذا النشاط العلمي والشعب المغربي يحتفل بالذكرى السابعة والعشرين لتربع صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله على عرش أسلافه المنعمين.

وتظاهرة من هذا النوع في مستوى اهتماماتها لتعتبر بحق عملا نعتز به كامل الاعتزاز بما سيسهم به في التعريف بحاضرة سوس العريقة مدينة تارودانت نظرا لأهمية القضايا التي سيتم التطرق إليها والتي ستسلط الضوء على مقومات هذه المدينة من الناحية الجغرافية والتاريخية والاقتصادية والعمرانية والثقافية. وهو ما سيساعد في نظرنا الجهات المختلفة من هيئات أكاديمية ومؤسسات تقنية أو جماعات محلية في أن تتلمس ما يمكن تلمسه من معطيات لانجاحها في مساعيها النبيلة خدمة لأهداف التنمية المختلفة.

وهكذا يمكن أن نعتبر أن هذه الأيام الدراسية تشكل فرصة سانحة لنخبة من الفضلاء العلماء والمفكرين والباحثين كل في نواحي تخصصه لمعالجة موضوع حاضرة سوس ماضيا وحاضرا دون إغفال الأبعاد الجهوية لهذا التجمع.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل الباحثين الذين استجابوا لدعوتنا وأن أرحب بكل الذين تحملوا مشاق السفر للمساهمة في هذه الملتقى العلمي الهام.

سيداتي سادتي.

ستستغرق أعمال هذه الأيام الدراسية حول مدينة تارودانت مدة ثلاث أيام وهي تشتمل على تنظيم ندوة علمية تصحبها جولة ميدانية وكذا على معرض يضم مجموعة من الوثائق والمخطوطات والكتب والخرائط والصور والتحف والابداعات التشكيلية.

إن آمالنا عريضة في أن تحقق هذه التظاهرة العلمية الأهداف المتوخاة منها وأن تتمخض عنها النتائج المرغوب فيها بحول الله وقدرته ولا يفوتني بالمناسبة أن أنوه بجهود كل الذين قدموا لنا الدعم لاقامة هذه التظاهرة وأخص بالذكر منهم السيد عامل صاحب الجلالة على إقليم أكادير والسيد عامل صاحب الجلالة على إقليم تارودانت والسيد رئيس المجلس البلدي لمدينة أكادير والسيد رئيس المجلس البلدي لمدينة تارودانت.

كما أريد أن أتقدم بالشكر إلى السيد رئيس جامعة القاضي عياض على دعمه المستمر لكليتنا وإلى السيد عميد كلية العلوم بأكادير على كل ما قدم لنا من مساعدات. وأشكر كذلك كل الذين ساهموا في تطعيم مواد المعرض وأخص بالذكر منهم السيد عبد الله الكرسيفي رئيس المجلس العلمي لمدينة أكادير وتارودانت والسيد مندوب وزارة السكنى والسيد رئيس قسم التعمير بنفس المدينة والسيد نائب وزير التربية الوطنية بتارودانت والسيد مندوب التخطيط للجهة الجنوبية والسيد مدير مكتب الاستثمار الفلاحي لسوس ماسة.

كما أنوه في نفس المناسبة وفي هذا الصدد بالمجهودات الكبيرة التي بذلها أعضاء اللجنة التنظيمية المكلفة بإعداد هذا الملتقى العلمي الهام.

وفقنا الله لما فيه خير التعليم العالي والبحث العلمي بوطننا في ظل موحد البلاد وحامل لواء العلم والعرفان جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأقر عينه بولي عهده الأمير المحبوب سيدي محمد وصنوه الجليل الأمير مولاي الرشيد إنه سميع مجيب والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمـة اللجنـة المنظمـة

للأستاذ محمد الماكري

السيـد عامـل إقليم أكادير
السيد ممثل عامل إقليم تارودانت
السيد رئيس جامعة القاضي عياض
السادة العمداء السادة رؤساء المجالس العلمية
زمـلائـي الأساتـذة إخـواني الطلبـة

يسر اللجنة المنظمة لهذا اللقاء العلمي الجامعي بأن ترحب بكم وتشكر حضوركم انطلاق أشغال الأيام الدراسية حول تارودانت.

إن اختيار مدينة تارودانت موضوعا لهذا النشاط الجامعي يعتبر خطوة جديدة في إرساء تقاليد البحث القائم على انفتاح المؤسسة الجامعية على محيطها في مختلف مظاهره بعد ندوة أكادير الكبرى التي سبق للكلية تنظيمها منذ سنتين.

ومدينة تارودانت باعتبارها إحدى حواضر المغرب العتيقة. وبالنظر إلى أدوارها التاريخية والسياسية والإقتصادية والثقافية في تاريخ سوس والجنوب وبالنظر لثراء موروثها الفكري ومؤهلاتها الطبيعية والإقتصادية تعتبر موضوع اهتمام الباحثين في حقول وتخصصات علمية مختلفة.

ففي تاريخها مادة لعمل الباحث التاريخي. وفي طبيعتها وبيئتها وسكانها ونشاطها الإقتصادي مجال لعمل الجغرافيين والإقتصاديين. وفي غنى وتنوع موروثها الثقافي، ومظاهر ثقافتها الشعبية المحلية وتاريخ عمارتها حقل واسع لانشغال الباحث في تاريخ الثقافة والعمارة والفنون.

وهكذا فإن الأيام الدراسية عبر جلساتها السبع ستمكن الأساتذة والباحثين وعموم المهتمين والطلبة من بسط وتدارس ومناقشة مختلف المظاهر تاريخية كانت أو جغرافية أو ثقافية.

ففي مجال التاريخ سنتتبع عبر مساهمات المشاركين موضوع تطور المدينة التاريخية منذ الفتح الإسلامي حتى عهد دولتي الشرفاء.

وفي مجال الجغرافيا سنتعرف من خلال تدخلات الأساتذة على الإطار الطبيعي والسكان وأنشطة المدينة وإشعاعها الإقتصادي.

أما في المجال الثقافي فستمكن مساهمات الزملاء الأساتذة من إبراز الإسهامات الفكرية والعلمية للمدينة ومظاهر ثرائها الثقافي المتنوع.

كما سيكون بوسع المتتبعين لأشغال الأيام الدراسية أن يقفوا من خلال مواد المعرض الموازي على بعض الوثائق والصور ذات القيمة التاريخية والمعمارية. وعلى بعض التصاميم والخرائط وعينات من المنتوج الفكري المخطوط للمدينة.

أيها الحضور الكريم :

باسم اللجنة المنظمة أجدد الترحيب بكم وأشكر حضوركم. وباسمكم جميعا أتقدم بجزيل الشكر لجميع الجهات التي رعت هذا المشروع كفكرة ثم عملت على بلورته واقعا ملموسا تعيش فصوله هذه الأيام وأخص بالذكر السلطات المحلية بمدينتي تارودانت وأكادير ورئاسة جامعة القاضي عياض والسيد عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير وجميع الزملاء والإخوة الإداريين ممن ساهم من قريب أو بعيد على تحويل هذا الحلم إلى حقيقة تجمعنا اليوم.

فمرحبا بكم مرة أخرى

والسلام./.

المحـــور التاريخـــي

عناصر الاتصال والقطيعة
في تاريخ تارودانت «الوسيط»

إبراهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكنـــاس

إن الإشكالية التي تحاول هذه المداخلة طرحها، انبثقت من نتائج بعض الدراسات الأوروبية في حقل التاريخ المونوغرافي المغربي. ففي كتابه في «المغرب الصحراوي من البداية إلى سنة 1670» يعالج «مونييه» J.J. MEUNIE في إحدى فصوله تطور منطقة سوس في العصر الموحدي، فيطالعنا بتخريجات أن منطقة سوس ــ بما في ذلك تارودانت ــ لم تخضع قط للسلطة المركزية (المخزن) [1]، بل يعمم أحكامه تلك، فيؤكد على «قطيعة» المنطقة مع المغرب الشمالي، عازيا أسبابها إلى ظروف جغرافية، وإن كان يناقض نفسه فيقول في موضع آخر بأن تلك القطيعة لم تكن موجهة نحو الحكم المركزي [2].

مثل هذا التخريج دفعنا إلى إعادة قراءة تاريخ تارودانت الوسيط على ضوء ثنائية الاتصال والقطيعة، مع تاريخ المغرب، وذلك عن طريق لَمِّ شتات النصوص المبعثرة في المدونات التاريخية وغيرها، مسترشدين بتساؤلات شكلت محاور هذا العمل، وهي تساؤلات إجرائية من الأهمية بمكان، يمكن اختزالها على الشكل التالي :

1) هل عرفت تارودانت طوال العصر الوسيط فترات شكلت قطيعة مع تاريخ المغرب كما تزعم ذلك بعض الكتابات الأجنبية ؟

2) هل يمكن اعتبار بعض الثورات التي شهدتها خاصة خلال العصر الموحدي، وكذا استقلال زعماء الثورة عن السلطة المركزية دليلا على ظاهرة الانفصال ؟

3) ماهي الأدوار التي لعبتها تارودانت لربط جنوب المغرب بشماله بل لربط المغرب برمته «بدار الاسلام»، وبالتالي تكريس ظاهرة الاتصال والتفاعل مع أحداث التاريخ المغربي ؟

في البداية، لا سبيل لانكار أن الدور التاريخي لمدينة تارودانت وتفاعله مع تاريخ المغرب يضرب بجذوره في التاريخ القديم. ولا غرو فإن المدينة عرفت في الكتابات القديمة باسم Vala[1]، وهو اسم يدل على أنها كانت على علاقة مع شعوب البحر المتوسط. وقد تم تشييدها حسب رواية الحسن الوزان[3] من طرف الافارقة القدماء، مما ينهض حجة على ريادتها لدور حضاري بدأ إشعاعه في العصور الموغلة في القدم، واستمر حتى العصر الوسيط وهو موضوع اهتمامنا، فأين كان موقع تارودانت خلال هذه المرحلة، وما هو الدور الذي لعبته في تفاعلها أو قطيعتها مع تاريخ المغرب العام ؟

من المتفق عليه لدى الباحثين أنه لا يمكن – انطلاقا من منظور علمي تصور منطقة معزولة عن البنيات الخارجية، وتفاعل أحداثها معها في عمق وشمول، ومن ثم تبدو مسألة الاتصال ضرورة حتمية. إلا أن الرؤية الجهرية المؤسسة على المنظور ذاته تكشف أحيانا عن قطيعة نسبية مع جملة المؤثرات الخارجية والتاريخ العام ، وإن كانت هذه القطيعة لا تغني في نهاية التحليل أكثر من نتيجة تجسد التفاعل مع المحيط الخارجي، وهو ما يخيل إلينا أن تاريخ تارودانت قد خضع له في بعض مراحله. ولذلك فإن هذه الورقة تطمح إلى تتبع مسار تاريخ المدينة للكشف عن لحظات الاتصال والقطيعة في المرحلة الوسيطية.

وليس ثمة شك في أن النصوص التي توفرها المصادر التاريخية وغيرها هي الاداة القمينة بالكشف عن هذه الاشكالية. لكن ما قيمة هذه الأخيرة وأهميتها في تتبع معالم تاريخ تارودانت الوسيط لملاحقة الاشكالية المطروحة ؟

إن أول ما يلاحظه الباحث في هذا الشأن، هو هذا الصمت الذي تواجهه به المصادر، خاصة إذا وضعنا في عين الاعتبار أن MEUNIE السالف الذكر اتخذها ذريعة لاثبات بعض أحكامه[3] ويزداد الألم حدة عند الوقوف على النصوص الهزيلة المتوفرة، فهي لا تقدم لنا ما يمكن من تعقب المشكل وتفكيك خيوطه، وبالتالي لا تساهم في توفير عناصر الاجابة عن عوامل الاتصال والقطيعة المطروحة.

ونعتقد أن عدم ورود تارودانت بشكل مكثف في المصادر العربية الوسيطية لا يعزى إلى استقلالها عن السلطة المركزية كما يرى MEUNIE[4] كما لا يرد إلى حكم كوتييه GAUTIER المتعسف الذي ذهب إلى أن أحداث المغرب بعد انتهاء الحكم البزنطي أصبحت مشوشة بدون بداية ولا نهاية، بل يمكن إرجاعها إلى غوامل يقدمها لنا التفسير السوي والموضوعي.

وأول ما يتبادر إلى الذهن بخصوص هذه الاشكالية، هو أن المصادر كثيرا ما اقحمت تارودانت في السياق العام لتاريخ منطقة سوس[5]وإذا كان هذا المزج صحيحا من الناحية الجغرافية، فإنه حرم المؤرخ من الوقوف على ملامح تاريخ المدينة وحتى المصادر التي ذكرتها، لم يفتها أن تربطها بسوس، فنعتتها بـ«حاضرة السوس»[6]، أو «مدينة السوس»[7].

ومن المتعارف عليه أن اهتمام المؤرخين، انصب أساسا على العواصم والحواضر السلطانية في حين همشت المدن الأخرى ويزداد هذا التهميش تفاقما بالنسبة للمدن التي شكلت بؤر توتر كما هو الحال بالنسبة لتارودانت وهي التي ظلت غمة في حلق الحكم الموحدي، خاصة في مراحله الأخيرة، والمرحلة الأولى من الحكم المريني. و قبل هذه المرحلة التاريخية، هناك إشارات تشير إلى تجذر البجلية من أصحاب المذهب الشيعي فيها[8]، مما جعلها منطقة من مناطق المعارضة، «المغضوب عليها»، فمن البديهي أن لا يوليها المؤرخون كامل اهتمامهم.

ومن الأكيد كذلك، أن المصنفات التاريخية، لم تهتم بالمدن الصحراوية بل قصرت اهتمامها على مدن المغرب «النافع» سياسيا، وهذا ما يفسر سكوتها عن المدن الصحراوية[9] بما في ذلك تارودانت.

وإذا ما حاولنا التماس الحل في كتب الجغرافيا والرحلات، فإننا نلاحظ أن مؤلفيها اعتادوا على ترداد ما ذكره سابقوهم، فباستثناء قلة قليلة منهم[10]، تظهر أغلب الأوصاف في إيقاع واحد، مما يجعل الخبر الخاص بتارودانت يعيد إنتاج نفسه، ومن ثم يبقى صورة طبق الأصل للحالة الأولى.

كما أن هؤلاء الجغرافيين لم يهتموا سوى بكبريات المدن، في حين أهملوا القرى أو أوردوا بصددها إشارات طفيفة. وبما أن تارودانت لم تكن تدخل في عداد المدن الكبرى[11]، فإن تغييبها يفسر من هذه الناحية.

من ناحية أخرى، يمكن تلمس التفسير لهذه الظاهرة في التراث البربري، فنحن لا نعرف الشيء الكثير عن هذا التراث إلى درجة يمكن الحديث معها عن قلة — إن لم يكن انعدام — كتابة بربرية محلية فمما لا شك فيه أن سكان تارودانت كانوا طيلة العصر الوسيط، إما شاهد عيان، أو رواة لأخبار بلدتهم. غير أن مشكل الكتابة البربرية حال دون تسجيل ما اختزنته قرائحهم عن تاريخ هذه المنطقة. والحاصل أنهم لم يخلفوا —حسب حدود معرفتي — تراثا محليا مكتوبا يمكن من إزاحة الستار عن معالم تاريخ مدينتهم خلال العصر الوسيط.

ومن الأسف، فإنه حتى على مستوى المصادر العربية المحلية، نكاد لا نعثر على مصنفات مونوغرافية خاصة بتاريخ تارودانت. فصاحب «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» عدد مجموعة ضخمة من مصادر المدن المغربية ونواحيها وقبائلها، غير أنه لم يذكر ولو مصدرا واحدا خاصا بتارودانت، مما ينهض حجة على الفقر المونوغرافي في الأسطوغرافيا الخاصة بالمدينة[12].

أما المصادر العربية المشرقية، فرغم سبقها إلى تدوين أحداث المدن المغربية، فالملاحظ أنها أشارت إليها بكيفية خجولة، فلم تذكرها إلا بنصف الكلمات. وآية ذلك أن المغرب شكل ولاية من الولايات النائية في الامبراطورية الاسلامية، فلم يحظ بالتالي سوى بنصيب ضئيل من المعلومات التي جاءت في إطار السياق العام لتاريخ «**دار الاسلام**»[13]. وكان هذا الحظ القليل من نصيب المدن السلطانية في حين همشت المدن الأخرى، أو ورد بشأنها نصوص متناثرة ومشتتة في بطون الكتب والمصنفات المتنوعة، بينما أدمجت بعض المصادر التاريخية المشرقية مدينة تارودانت في نطاق السوس[13].

وثمة تفسير خلدوني يمكن الاستعانة به لفهم هذا التهميش الممارس على مدينة تارودانت في المصادر التاريخية. فابن خلدون المتبحر في علم العمران، يرى أن المدن والامصار في افريقية والمغرب قليلة، والسبب في ذلك راجع إلى الطابع البدوي الذي غلب عليها منذ أن كانت بربرية في القديم، ولم تستطع الدول التي ملكتها من الافرنجة والعرب أن ترسخ فيها حضارتها[14]، ولذلك ظلت أقرب إلى القرى منها إلى المدن «**الراقية**»، الشيء الذي جعل الكتابات التاريخية تتعامل معها بهذا المستوى، وتدخل تارودانت في هذه المنظومة من المدن دون شك. ولعل هذا ما يفسر اعتبارها من قبل صاحب كتاب الاستبصار غير متجاوزة لمستوى قرية كبيرة[16] مجرد «بليدة» رغم أن المصادر تصورها كحاضرة للسوس[17].

حصيلة القول أن تارودانت غيبت في المصادر التاريخية الوسيطية مما يوحي «بقطيعة» بينها وبين الكتابة التاريخية التي كانت تجسد البناء الفوقي للسلطة المركزية. غير أن الظاهرة تعزي إلى العوامل التي حللناها آنفا. أما النصوص المتوفرة، فعلى الرغم من شحتها، يمكن القول أن جلها أو أن معظمها على الأقل ينحو منحى واحدا ألا وهو تكريس ظاهرة الاتصال، وهي مسألة ترد إلى موقف المؤرخ مغربيا كان أم مشرقيا. فهو يرى وحدة الأمة كمنظومة مرجعية في كل كتابة تاريخية، وهذا ما يفسر غضبه الجام الذي يصبه على الحركات المكرسة «للقطيعة» ولذلك فإن الاخبار التي نجدها اليوم تصب في هذا الاتجاه، أي في اتجاه، «الاتصال» والتكامل، لا «القطيعة» وهو ما سنبينه الآن تطبيقا على

تارودانت وانطلاقا من مستويات متعددة، فعلى المستوى السياسي، تظهر تارودانت في خط الاتصال التاريخي لا بالمغرب فحسب، بل بدار الاسلام التي بدأت تشب ويطيب عودها، ذلك أن جحافل الفاتحين العرب، يمموا وجههم صوبها، مصداق ذلك ما تذكره المصادر من أن عقبة بن نافع انتهى في فتوحاته إلى تارودانت[18]. وظلت هذه الأخيرة طيلة الفترة ما قبل دخول المرابطين، مركزا لصراع القوى السياسية والمذهبية. ولعل تواجد المذهب الشيعي[18 مكررة] بها، كاف للدلالة على وصول ظل الشرق الاسلامي إليها، وتفاعلها مع أحداثه. ولما جاء الملثمون كانت تارودانت إحدى البوابات الهامة التي منها بدأ خط الاتصال ينسج، حيث جعلوها نقطة عبور مكنتهم من تعبيد طريق زحفهم، حتى أن أحد الباحثين[19] اعتبر استيلاءهم عليها خطة ذكية مكنتهم من إحراز النجاح في مخططهم العسكري.

وقد أشاد ابن أبي زرع[20] بفتح «رودانة» كما سماها، واعتبر ذلك إنجازا بطوليا من طرف يوسف بن تاشفين.

وفي العصر الموحدي، تدل كتابات البيدق[21] على أن تارودانت استعملت كممر عبرته القوات الموحدية لسحق «المجسمين». وبقدر ما كانت قنطرة لإقامة الحق كما فهمته الايديولوجية الموحدية، بقدر ما أصبحت بعد ذلك حصنا للثورة على الانحرافات السائدة في عصر هذه الدولة[22]، وكل هذا يدل على أن الاتصال التاريخي كان يجد مرجعيته في الاسلام ووحدة المغرب.

بينما يظهر هذا الاتصال التاريخي في عصر المرينيين من خلال ما أشارت إليه المصادر من أن تارودانت أصبحت مقرا لنائب السلطان المريني.

أما على الصعيد الاقتصادي، فلا نعلم من القرائن ما يدل على هذا الإتصال، وحسبنا أن تارودانت كما يصورها الجغرافيون «أكثر بلاد الله قصب سكر وأخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات»[23]، وهو ما أهلها لكي تكون مركزا هاما يقوم بعملية تموين المدن المغربية بهذه المادة بل تجاوزت الإطار المغربي، حيث وصل هذا المد إلى افريقية والأندلس. وفي هذا الصدد ذكر أحد الجغرافيين[24] أن «منها يجلب السكر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وإفريقية». ولذلك وضعها ابن خلدون[25] في نطاق أماكن إنتاج السكر، وهو ما يفسر الحركة التجارية التي أصبحت تمر بها، وهو أمر يدل على التفاعل بينها وبين مختلف المناطق، ويشكل بالتالي اتصالا تاريخيا بها، وهذا ما لاحظه المراكشي بالعيان[26].

ونحن في غنى عن ذكر اتصال تارودانت بخلافة المشرق، فقد سبق أن أكدنا في إحدى الدراسات[27] على أن ولع خلفاء المشرق بسكر سوس ـــ تارودانت ـــ واعتبار المنطقة قناة للمرور نحو ذهب السودان، جعل هؤلاء يوثقون علاقتهم بها، وحسبنا أن البكري[28] نسب تعمير وادي سوس الذي توجد عليه تارودانت إلى عبد الرحمٰن بن مروان أخ الخليفة الأموي محمد بن مروان، الشيء الذي يقوم دليلا على أن تارودانت ظلت مصدر تموين دمشق بحاجياتها الأساسية والكمالية.

وعلى المستوى الاجتماعي، يبرز اتصال تارودانت بالعنصر العربي المهاجر بكيفية جلية، خاصة في العصر الموحدي، حيث انتقل بنو حسان بفروعهم المختلفة من ملوية نحو تارودانت، فوجدوا تشابها بين نمط الحياة السائدة فيها ونمط حياتهم[29]، ولعل هذا الانصهار، فضلا عن الدور الذي لعبه العرب في المنطقة، جعل أحد الباحثين[30] يذهب إلى القول بأن إمارة مستقلة في تارودانت قامت على أكتاف هؤلاء العرب.

وفي نفس السياق يمضي باحث آخر[31] إلى الحديث عن تعريب العرب الذين استقدمهم علي بن يدر للمنطقة، كما أن إقامة الجند النصراني في المدينة[31 مكررة] يبين تنوع مصادر الاتصال البشري، أما على المستوى المغربي فيورد الوزان[32] نصا هاما يقول فيه : «وتشبه تارودانت من حيث مواردها وعاداتها المدن التي ذكرناها» وهو نص قيم، يبين هذا الاتصال الحضاري بين تارودانت ونظيراتها من المدن المغربية.

وبالرجوع إلى بعض المصنفات من كتب الطبقات والتصوف، يظهر مدى الاتصال على المستويين الثقافي والديني، وحسبنا أن جملة من المتصوفة ممن يرجع أصلهم إلى تارودانت أوصلوا إشعاعهم الروحي إلى أكثر من مدينة مغربية[33]، مما يدحض دعوى «مونييه» MEUNIE[34] القائلة بعدم انتشار التصوف في المناطق الجنوبية حتى القرن 15 م(9 هـ).

وتخبرنا كتب السير والتراجم أن بعض علماء تارودانت، درسوا في مدن مغربية مختلفة[35]. كما أن الحج للديار المقدسة، رغم خطورة الطريق وعدم ضمان الأمن، شكل حلقة من حلقات هذا الاتصال.

كل هذه القرائن تبين بجلاء أن تارودانت كانت تعيش على الاتصال التاريخي، لا مع المغرب فحسب، بل مع العالم العربي الاسلامي، كما أنها لم تكن بعيدة التفاعل مع ما حدث في «دار الحرب»، فمتى حدثت القطيعة ؟ وما هي ظرفيتها ؟

إن قلة النصوص لا تسمح بذكر «اللحظات» التي تكرست فيها القطيعة، إذ أن هذه اللحظات قليلة حسبما في النصوص على الأقل، وحتى هذه الظاهرة في حد ذاتها، لا

يمكن استجلاء معالمها لمعرفة مع من حدثت القطيعة : مع دار الاسلام ؟ مع منطقة من مناطق المغرب ؟ وما هي الأسباب والعوامل التي جعلت تارودانت تدخل في هذا المنعطف ؟

تتعرض مصادر العصر الوسيط إلى نموذج من هذه اللحظات/ القطيعة، ولكن باقتضاب كبير، مما يجعل مهمة الباحث شاقة وعسيرة لمعرفة كنهها وسبر غورها. إنها ثمانون سنة من عمر تارودانت، تزامنت مع أواخر العصر الموحدي وبداية الدولة المرينية وأسفرت عن قيام إمارة مستقلة بقيادة عائلة بني يدر، وهي السلالة التي حكمت المدينة. وسنحاول أن نكشف ما إذا كانت هذه القطيعة تامة، أو نسبية فقط.

على الرغم من أهمية إمارة بني يدر، وما تجسده في تاريخ تارودانت من معلمة بارزة، فإنها تكاد تكون شبه منعدمة في الدراسات الحديثة حسبما نعلم. وحتى الدراسات التي تناولتها، فإنها عزلتها عن ظروفها الاقتصادية الاجتماعية[37]، فكرست بالتالي مقولة القطيعة، في غياب نصوص واضحة تتجه نحو هذا التخريج. وإن كانت استنتاجات الأستاذ محمد المنوني[38] من الأهمية بمكان، إذ يقرر أن هذه الامارة لا تعدو «محاولة لاسترداد سلطة تسلسلت في أسرة بكرية (نسبة إلى أبي بكر) ثم ضاعت منها.

والواقع أنه ــ حسبما نعتقد ــ لا يمكن القول بالقطيعة في ظل واقع فقر النصوص وعدم استنطاق المتاحة منها. فعلى عكس بعض الثورات التي قامت في المغرب، وانتهت بتأسيس إمارات، لا نجد المؤرخين ــ وهم قلائل ــ يوضحون أهداف حركة علي بن يدر والأسس الايديولوجية التي حركتها، والنظام الذي تبنته في مرحلة السلطة حتى يمكن رسم صورة واضحة لمعالم الاتصال أو القطيعة مع المحيط الخارجي. فلو أوضحت هذه المصادر ايديولوجية هذه الامارة على سبيل المثال، وهل كانت خارجية أو شيعية أو أنها إيديولوجية «محلية» لأمكن معرفة مصدر الاتصال أو نفيه كليا. غير أن صمت المؤرخين، يجعلنا لا نجزم بالقول بانقطاع في تاريخ تارودانت، كما أنه ليس لدينا من النصوص ما يبرهن على مقولة الاتصال. إلا أننا سنسعى في هذه الدراسة إلى ربط الحركة التي اسفرت عن تأسيس إمارة بني يدر بالظروف العامة التي كانت تعمل في محيطها، مع استنطاق بعض النصوص، علنا نستنبط بعض عناصر الاتصال والقطيعة.

تشح معلوماتنا حول الزعيم المؤسس لهذه الامارة، باستثناء شذرات مقتضبة حول بداية حركته. إلا أن الذي يهمنا هو معرفة ظروفها، إذ أن المرحلة التاريخية التي انطلقت فيها، قمينة بكشف النقاب عن جوانبها الغامضة. ذلك أنها انبعثت في مرحلة التدهور

الموحدي، وهي فترة تميزت بتعدد الأزمات وتنوعها. ونعتقد أن حركة علي بن يدر مؤسس الامارة، لم تكن سوى الابنة الشرعية للظروف العامة التي اجتازتها تارودانت والمغرب عموما، ولعل التحليل الموضوعي لتلك الظروف، يتطلب الوقوف على بنية الدولة والظرفية الخارجية السائدة آنذاك.

فعلى المستوى الأول، يمكن الحديث عن تصدع في أهم ركائز وأسس الدولة الموحدية، وهي العصبية والايديولوجية الدينية. فزمرة بني عبد المومن استأثرت بالسلطة، وأدارت ظهرها لمختلف القبائل التي ناصرتها، مما أثار حفيظة هذه الأخيرة، فأخذت تسعى للاطاحة بها لاسترجاع حقها «المشروع»[39]. ومن المعلوم أن علي بن يدر ينتمي إلى قبيلة هنتاتة[40] التي كان لها ضلع واسع في تأسيس الدولة الموحدية، لذلك ليس من قبيل الصدفة أن يعلن التمرد، والانشقاق عن العصبية التي تنكرت لقبيلته.

كما شكل إلغاء الايديولوجية المهدوية تحولا خطيرا على صعيد الحكم السياسي، إذ أن مثل هذا الالغاء[41] كان يعني فشل الأساس الايديولوجي الذي قامت عليه الدولة، وتحول المهدوية من أداة ثورية تستقطب الجماهير، وتوحد البلاد إلى مؤشر لعملية التفكك والانفصام، وهو ما ظهرت نتائجه بسرعة حين انفصلت إفريقية، وذرت التجزئة قرنها في الأندلس والمغرب.

وتتجلى أزمة الدولة كذلك في بقائها وفية للتراث القبلي[42] رغم اتخاذها صبغة الدولة فلم تتمكن بالتالي من تكسير القشرة القبلية وعدم توليد طبقة اجتماعية ناضجة وقادرة على مسايرة واقع التوسع، وفرض سيادتها الاقتصادية والايديولوجية على المجتمع الجديد الذي أفرزته، ولذلك ظل التناقض قائما بين السلطة والمجتمع ولعل هذا التناقض هو الذي كان وراء ابن يدر، وهو ما يفسر قول أحد الدارسين[43]، بأن طبيعة المغرب القبلية شكلت مناخا صالحا لذوي الطموح السياسي، كما بقي الخطاب السياسي بين الطرفين، خطابا يقوم على أساس العنف والقمع، الشيء الذي لم يسمح بتكتل جميع القوى «الوطنية» لاتمام مرحلة بناء الدولة، بل على العكس، أصبح الاتجاه يميل نحو تيار الانفصال والاستقلال[44]، وهو المنبع الذي انبثقت منه حركة علي بن يدر فمكنت لنفسها بناء كيان مستقل في تارودانت.

غير أن ظاهرة الانفصال لا يمكن الكشف عنها سوى بالرجوع إلى أساسها المادي المتمثل في انتشار «الاقطاعات خلال العصر الموحدي، واستفحاله في أواخرحكمهم. ومن خلال تصفح المصادر، يتبين سيادة عدة اشكال من «الاقطاع»، فمنها ما كان يقطعه

الموحدون لمن يتخوفون فتنته، أو يريدون كسب وده[45]، ومنها ما كانوا يقطعونه لابناء الأمراء السابقين حفاظا على ولائهم[46].

وتتردد في المصادر المغربية كلمة «إسهام»[47] كتعبير عن الأراضي المقطعة، بينما ترد في المصادر الشرقية تحت اسم إقطاع[48].

وإذا كنا لا نعرف بالضبط مقدار الأراضي المقطعة، فبالامكان من خلال بعض الاشارات الكشف عن ذلك، فقد بلغ إقطاع شعبان الغزي نحو تسعة آلاف دينار كل سنة[49]، بينما توصف إقطاعات ابن همشك بأنها «املاك ذات خطر»[50]، وكان المقطع أحيانا يملك أراضي متفرقة في أماكن متباعدة[51] في حين أقطعت بعض الأسر كورة بأكملها أو نصفها على الأقل[52].

وإلى جانب الاقطاع، انتشرت ظاهرة شراء الأراضي خاصة من طرف الأندلسيين الذي استهوتهم أراضي المغرب، فأقبلوا على اقتناء الضياع، وساعدهم في ذلك مناخ الهدوء والاطمئنان الذي خيم طيلة عصر ازدهار الدولة الموحدية.

ونتيجة لذلك تكونت ملكيات إقطاعية شاسعة تمكن أصحابها من جني أرباح طائلة من ريعها، مما أسفر عن نمو نفوذهم وبروز قوتهم، فاستغلوا ضعف الحكم المركزي، وأخذوا يتخذون القرارات السياسية بمحض إرادتهم، ويعلنون انفصالهم. وهكذا تكونت إمارات إقطاعية مستقلة في الأندلس[53] كإمارة ابن مردنيش التي كانت على شاكلة الامارات الاقطاعية في أوروبا. وبدأ حكام الولايات يستبدون بمقاطعاتهم دون رقيب، حتى أن باحثا شبه الصورة التي كانت عليها الأندلس وبعض أجزاء المغرب بما يسميه الماوردي بإمارة الاستيلاء[54]. ولا يخامرنا شك في أن إمارة علي بن يدر جاءت استجابة لهذه الصورة خاصة وأنه كان من حاشية الوزراء.

وبسبب ضعف السلطة المركزية بدأت أعناق المرتزقة تشرئب نحو السلطة[55]، كما بدأت النساء تحشرن أنوفهن في أمور السياسية[56] وأصبح من المعتاد أن يصير على رأس الدولة أكثر من خليفة، فسقطت نتيجة ذلك هيبة الخلافة[57]، وتفاقمت التجزئة السياسية وحركات الانتزاء، حيث استولى أبو بكر بن عبد الحق على مكناسة، وتولى يغمراسن بن زيان على تلمسان، في حين تجرأ محمد المستنصر والي افريقية فسمى نفسه أمير المومنين «احتقارا لدولة السعيد» كما يقول ابن أبي زرع[58]. ويلخص صاحب الحلل الموشية عصر هذا السلطان الموحدي بقوله : «وكانت أيامه نكدة لكثرة الخالفين عليه»[59]، ويصف مؤرخ معاصر[60] دولة الموحدين في هذا العصر بأنها أصبحت لا تمثل أكثر من مراكش.

وفي هذا الجو المشحون، أصبح دور الأشياخ الموحدين يتصاعد، ويشكل خطرا على وحدة الدولة حتى أنهم «أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ»[61] بل إن باحثا معاصرا[62] شبه دورهم بدور الأتراك في الدولة العباسية.

وإذا كان جوليان[63]، يرد أسباب هذه الأزمة إلى طابع الغزو الذي ميز أعمال الموحدين في الأندلس ودول المغرب، فإننا نعتقد أن تفاقم ظاهرة الاقطاع كان وراء ذلك.

ونجم عن هذه الوضعية المتردية إفلاس اقتصادي عميق حيث قلت موارد الدولة، وغدا بيت المال يشكو من الفراغ بسبب انقطاع الجبايات وتبذير الأموال من طرف الأمراء[64] وتخريب العرب للبوادي التي استولوا عليها[65] ناهيك عن فقدان الحكم الموحدي سيطرته على الطرق التجارية نتيجة تصدع الامبراطورية وتحولها إلى فسيفساء من الدويلات المستقلة.

وزاد من حدة الافلاس الاقتصادي، المجاعات والأوبئة التي عصفت بالسكان[66] وهم الطاقة المنتجة والمحركة لعجلة النماء الاقتصادي.

من كل ما سبق، يتضح أن وحدة الدولة المركزية عرفت أزمة عميقة نتيجة انتشار «الاقطاع»، وما ترتب عن هذه الظاهرة من أزمة بنيوية في هياكل الدولة، ومقومات العصبة والايديولوجية، فضلا عن الافلاس الاقتصادي، وهو ما هيأ الجو الملائم والتربة الخصبة لحركة علي بن يدر. لكن ما هو أثر المحيط الخارجي؟ وكيف تفسر ارتباط هذه الحركة بها ؟

إن الأمر يتطلب هنا الوقوف على أحوال «دار الحرب» ومدى تأثيرها على الحركة. ففي هذه الفترة بالذات كانت طلائع النهضة قد بدأت تخيم على أوربا، وأخذت آخر ذيول الاقطاع تنحسر لصالح البورجوازية، بما يعكسه ذلك من تماسك على الصعيد السياسي، وتوحد على الصعيد الديني، وانتقال إلى مرحلة الهجوم والاكتساح، مما يفسر تكالب قوى قشتالة وأراجون على أراضي المسلمين بالاندلس، وهجومات ملك أراغون خايمي الأول الملقب بالفاتح Conquistador، هذا في الوقت الذي تفشت عوامل التجزئة في الكيان الموحدي، فلم يفلح أمير افريقية في رد هجوم خايمي على بلنسية سنة 636 هـ[67]. وقد جر هذا الجنويين إلى مهاجمة سبتة مرتين، ولم يَبْرَحُوهَا في المرة الثانية إلا بعد أن دفعت إليهم الأموال[68]، وأحرز ملك قشتالة نصرا مؤزرا على الأسطول الموحدي سنة 649 هـ[69]. وبلغ تحدي القشتاليين ذروته عندما دخلوا سلا سنة 658 هـ وخربوا معالمها، مما جعل الدولة الموحدية تفقد أسطولها نهائيا في عهد السعيد[70]. ولعل هذا الوهن العسكري الذي نخر بنية الجيش كان منذرا بتحول البنية السياسية نفسها خاصة وأن بنية الجيش كانت هي بنية الدولة ذاتها[71].

ولا يخامرنا شك في أن هذا الضغط المسيحي على الدولة الموحدية، وعدم قدرة هذه الأخيرة عن ردعه، أفقدها مناعتها، وكان وراء حركات الانتزاء التي بدأت تظهر. وفي هذا الصدد يتحدث المراكشي[72] عن انتزاء ابن هود وتأسيسه إمارة إقطاعية بقوله : «فاستولى على مدينة مرسية وأعلن نفسه أميرا عليها »وفي ذلك دلالة على أن مسألة السلطة أصبحت تحسم عن طريق السيف، وأن هذه الحالة هي التي أهلت علي بن يدر لاعلان حركته، ومن ثم تأسيس إمارته على غرار الامارات السابقة.

ولا يمكن كذلك إغفال فتنة ابن غانية[73]، وتظافر جهود العرب[74] والمرينيين[74] في إضعاف الحكم المركزي والتمهيد للحركات الاستقلالية.

يتضح إذن أن حركة علي بن يدر لم تكن معزولة عن الأوضاع العامة السائدة في المغرب وبلاد الافرنج والمشرق الاسلامي، بل إن هذه الأوضاع هي التي حتمت على إمارة بني يدر «الانقطاع» عن الحكم المركزي الذي أصبح من الهشاشة والضعف ما جعله يكرس هذه الظاهرة.

في ضوء هذه المعطيات، يمكن رصد حركة علي بن يدر. ويلاحظ الدارس لأول وهلة أن المصادر نظرت إلى الحركة نظرة تنم عن المقت والكراهية. فابن عذاري، وهو أحد مؤرخي المرينيين ــ يصف صاحبها «بالشقي» و«الغوي» و«المفسد» إلى غير ذلك من عبارات الدم الأخلاقي[75] غير أن شد الحركة إلى جذورها الاقتصادية ــ الاجتماعية قمين بإبطال هذا الزعم.

بل إن البعد الاجتماعي في الحركة يتضح من خلال ما ذكره ــ بكيفية عفوية ــ هذا المؤرخ نفسه فهو يؤكد أن هدف ابن يدر تجلى في هدم حصن تيويوين معقل ولاة النظام الموحدي، بينما «لم يتعرض إلى شيء مما جاوره من الديار والأملاك التي بخارجه، فإنها كانت مساكن الرعية»[76]. وفي هذا دليل على أن الصراع كان مع ممثلي الحكم المركزي، ومن كان على شاكلتهم من الطبقات الارستقراطية وهو ما يوضحه أكثر بقوله : وكل من كان بهذه البلاد يكابره ويعانده لم يبق له اسماً ولا لدياره وأملاكه رسما»[77]، الشيء الذي يبطل إلى حد بعيد، ما لفق له من صفات المتمرد والمخرب. ولعل ابن خلدون[78] أنصفه حين سماه بـ «صاحب السوس». بل لا يساورنا الشك في أن حركته كانت نابعة من صميم الواقع السياسي المغربي المتمثل آنئذ في أزمة السلطة السياسية، والتنافس الذي استعر بين أجهزة النظام الموحدي، ولا غرابة فإن علي بن يدر هو أحد أفراد حاشية السلطان الموحدي[79]، ومن أعوان الوزير الهنتاتي أبي محمد بن يونس[80]

أحد وزراء الخليفة المرتضى. وتذكر الرواية أن هذا الأخير سخط على وزيره فعزله وألزمه «الاقامة الاجبارية في داره بتامصلحت. ويبدو أن العلاقة ساءت بين الجانبين من قبل، إلا أن المرتضي ظل يحافظ على «شعرة معاوية» وهو ما يؤكده قول ابن عذاري[81] «وكان مع ذلك المرتضي يعامله بالقبول والرضى». وإلا أن النقطة التي أفاضت الكأس، بدأت حين عُثر على مراسلات جرت بينه وبين ابن يدر الذي كان قد التجأ إلى السوس منذ عزله فتم اعتقاله وقتله 652 هـ، وهنا تبدأ المرحلة الأولى من حركة ابن يدر.

المرحلة الأولى : مرحلة النشأة وبسط السلطة

تميزت هذه المرحلة بقوة ونفوذ حركة علي بن يدر الذي استطاع أن يضم تحت سلطته عدة مناطق محصنة، ويؤسس إمارة مستقلة. ولأول وهلة، استهان الخليفة الموحدي بها، فأرسل بعضا من قواته لتلتحم بالقوات المتواجدة في تارودانت، غير أن انصار ابن يدر حصدوا رؤوس الجيش الموحدي، ورجعت الحملة خاسرة إلى مراكش[82]، وهذا ما شجعهم على التقدم لمحاصرة تارودانت ورغم أن الحصار لم يعط ثماره نتيجة وصول تعزيزات للمدينة، فإنهم سرعان ما عاودوا الهجوم بمجرد ما انسحبت الجيوش الموحدية[83].

وبعد خمس سنوات، وبالذات في سنة 655 هـ، ونتيجة استفحال ضعف الدولة الموحدية، أرسل الخليفة الموحدي المرتضي جيشا أقام في تارودانت، غير أن ابن يدر المتحصن في حصن تيويوين تمكن من هزمه ورده على أعقابه خاسرا «ورقي ابن يدر في سوسة شديد بأسه» [84].

ولم تكن الحملة العسكرية التي بعثها الخليفة الموحدي سنة 659 أحسن من سابقاتها، بل تمكن ابن يدر من الظفر بقائدها علي أزلماط الذي كان يتبجح بالانتصار، **فهلك وهو يحمل معه خيبة أمل كبيرة**[85].

وحوالي 660 هـ كان ابن يدر ــ بدون مدافع ــ سيد تارودانت وسوس بصفة عامة إذ تمكن بفضل المساعدات التي تلقاها من عرب الشبانات وذوي حسان يضم تحت **سلطته كل القبائل، ويجبي منها الضرائب التي بواسطتها كان يدرب الجنود الذين بلغ عددهم** ألف فارس[86]، وينظم الحملات الموفقة[87].

ولم يقدر للبعثة العسكرية التي ترأسها أحد الجنود النصارى المدعو «بذي اللب» أن تفوز بطائل، بل تمكن ابن يدر من استئصال شأفتها، وردها تجر أذيال الخيبة والفشل، فكان هذا النصر سببا في قتل رئيس الحامية المسيحية الذي اتهم بالخيانة والتخاذل[88]، وهكذا تمت هذه العملية بتأسيس إمارة هنتاتية في تارودانت[89].

المرحلة الثانية : مرحلة الانحسار

تميزت هذه المرحلة بتكريس الحكم المركزي كل قواه للقضاء على إمارة بني يدر، وتمثلت خطته في تأليب قبائل جزولة، لمطة، جنفيسة وزناكة عليها ونجحت هذه الخطة — التي يمدنا حولها ابن عذاري بتفاصيل كبيرة — في حصار حصن تيويوين والتضييق على ابن يدر إلى درجة حتمت عليه طلب الأمان، فقبل منه[90]. ولم يكن له اختيار آخر غير الاستسلام، خاصة بعد أن كان ابن عمه بوحمدين قد استسلم بدوره في حصن تيزيخت بتارودانت[91]، وضمن طاعته[92].

وأسفر هذا الاستسلام على عكس ما وعدت به السلطة المركزية، حيث دخلت قواها إلى الحصن، ونكلت بمن كان به «بما لا يحاط بالحصر والاحصاء من رجال ونساء وأولاد وبهائم»[93] وأخذت أخت ابن يدر أسيرة في هذا الحادث.

وبتتبعنا لرواية ابن عذاري، تتضح أسباب هذا الانتصار، ففي هذه السنة (665 هـ) دخل أبو يحي يغمراسن في طاعة الخليفة الموحدي، كما أن الجو النفساني الذي خيم على الجيش أهله لهذا الانتصار[94]. كما أن الحكم الموحدي كان يعرف صحوة ولو أنها قصيرة الأمد[95].

وتمضي رواية ابن عذاري مشيرة إلى الخراب الذي تعرضت له تارودانت محملة المسؤولية لابن يدر الذي «صيرها كالقفر درسا وعفاء[96] ولم يبق منها إلا جامع الخطبة، وهو أمر ذو مغزى، إذ أن ذلك يجسد احترام هذا الزعيم للمقدسات الدينية. كما أنه لم يمس بسوء الديار والمنازل الموجودة في الربط. ومما ينفي صفة الهدم والدمار على حركة ابن يدر ما ذكره ابن عذاري[97] عن الساقية الممتدة من وادي سوس إلى تارودانت، إذ يؤكد أنها بقيت على حالها من الخيرات والوفر والعمران.

المرحلة الثالثة : مرحلة الصحوة والانتعاش

بدأت هذه المرحلة الجديدة مع بداية الحكم المريني، فما كاد المرينيون يستولون على مراكش حتى عاود علي بن يدر انتفاضته «وتملك قطر السوس واستولى على تارودانت وسائر قراه ومعاقله»[98] ودخل في صراع مع جزولة الرحل. ولما تأكد من عدم تكافؤ موازين القوى استدعى بني المعقل الذين وجدوا نمط الحياة لا يختلف عن نمط حياتهم الذي اعتادوه في سهول ملوية، ثم استولوا على منطقة سوس بأسرها وبمدنها الهامة[99] غير أن سياسة التعايش السلمي بين ابن يدر وهذه القبائل لم تستمر، مما أدى بالجانبين إلى الدخول في مناوشات انتهت بالقضاء على الزعيم الهنتاتي سنة 668 هـ[100].

وفي خضم هذا الجو المشحون، بعث السلطان المريني أبو يوسف يعقوب ابنه أبا مالك لتطهير السوس وإخضاعها نهائيا. ويبدو أنه تمكن من ذلك، والملاحظ أن المصادر لا تذكره وهي تعرض لحملة أبي مالك استيلاءه على تارودانت. فهل ظلت خارجة عن الحكم المركزي رغم مقتل زعيمها ابن يدر ؟

يبدو أنها ظلت مستقلة عن السلطة المركزية بقيادة ابن أخ علي بن يدر وهو المعروف بعبد الرحمٰن بن الحسن بن يدر الذي لا نعرف عنه الشيء الكثير بسبب شحة المعلومات، عدا أنه كان يقيم في تارودانت، وأن حكمه امتد عبر نصف قرن[101]. وقد بعث المرينيون عدة حملات عسكرية، غير أن أهمها كانت الأخيرة التي أجبرت عبد الرحمٰن بن الحسن بن يدر عل الفرار مؤقتا من تارودانت، وهو ما استنتج منه أحد الباحثين[102] بأن ملكية بني يدر على تارودانت استمرت إلى هذا التاريخ...

غير أن المدينة تعرضت لخراب إحدى الغارات التي شنتها الجيوش السلطانية سنة 704 هـ. وكان على عبد الرحمٰن بن الحسن بن يدر أن يبادر بخوض غمار حروب مع عرب هذه المنطقة وبعد هزائم متكررة، تمكن في الأخير من استعادة سلطته وإنقاذ تارودانت من خرابها، ومن إهلاك رؤساء العرب في نفس المدينة سنة 708 هـ[103].

المرحلة الرابعة مرحلة الضعف والانهيار

غير أن الاحداث اتخذت اتجاها عكسيا، ذلك أن أبا علي بن السلطان المريني أبا السعيد الذي أصبح حاكم سجلماسة بعد أن أقطعه إياها أبوه، ثم إغراؤه من طرف عرب بني معقل لمهاجمة عبد الرحمٰن بن يدر في تارودانت فاستجاب لهم، وتمكن من احتلال المدينة وقتل «الأمير الثاني» لامارة بني يدر[104].

لكن هذا الهجوم لم يضع نقطة النهاية لهذه الامارة، ذلك أن علي بن الحسن بن يدر تمكن من الفرار نحو جبال نكيسة[105]، وبمجرد ما انسحبت الحامية المرينية، عاد إلى تارودانت ليركز سلطته ويصبح «الأمير الثالث»، ولسوء الحظ فإن الغموض يلف هذا الحدث، إذ لا نعلم كيف تمكن علي بن الحسن من استرجاع سلطة عائلته بهذه السهولة. فهل كان القصد من الحملات المرينية الاقتصار على جمع الضرائب ثم العودة إلى العاصمة ؟

يركز أحد الباحثين[106] على أهمية الضرائب كعلاقة بين السلطة المركزية وعرب بني معقل في السوس وعاصمتها تارودانت، وهو ما يدعو إلى التخمين بأن الجيوش

السلطانية كانت تنسحب بمجرد ما تحصل على الضرائب، وهو افتراض يدعمه قول ابن خلدون[107] بأن الذي يهم السلطة هو الجباية فقط، وهذا ما يفسر استرداد علي ابن الحسن بن يدر «أمجاد» إمارة أسلافه.

وللأسف، فإن معلوماتنا حول هذا الأمير تظل كذلك شبه منعدمة، إذ لا نعرف هل كان آخر أمير بالنسبة لهذا الامارة، أم أعقبه أمراء آخرون قبل انتهاء حكم عائلة بني يدر، ودخول ابنه عبد الرحمٰن في حاشية الحكم المريني[108]، فالمصادر شحيحة في هذا الشأن ؟ وعلى العكس فإنها تجمع على أن السلطان المريني أبا الحسن تمكن من اجتثاث جذورها، ونصب على تارودانت عاملا من جانبه[109]، وأعطى للعرب إقطاعات ستصبح فميا بعد خطرا على الوحدة المركزية[110].

من كل ما سبق، يتضح أن حركة علي بن يدر كانت معلمة هامة في تاريخ تارودانت، بدليل النتيجة التي تمخضت عنها، والمتمثلة في إقامة إمارة استمرت حوالي 80 سنة. وقد أبان التحليل ــ بعد ربطها بظروفها العامة أنها تفاعلت على الخصوص مع ظاهرة «الاقطاع» التي ساءت الحقبة الأخيرة من الحكم الموحدي، وما ترتب عن ذلك من ضعف السلطة المركزية، وفقدان هيبتها. إلى أن التساؤل المحوري الذي يظل قائما هو : هل إن تأسيس هذه الامارة، وبهذه المرحلة الزمنية الكبيرة تشكل «قطيعة» مع تاريخ المغرب و«دار الاسلام» وحتي «دار الحرب» ؟

إن الأحداث التي أسفرت عن تأسيس إمارة بني يدر تجيب بداهة عن التساؤل المطروح، فالبعد الاجتماعي الذي دفع الحركة، يبين أنها لم تشكل قطيعة بقدر ما هدفت إلى حسم المسألة الاجتماعية، وسيكون طرف الصراع المضاد هنا هو الحكم المركزي. ولعل انتساب علي بن يدر إلى حاشية الوزير أبي محمد بن يونس وانسلاخه عنها، ولجوئه إلى تارودانت للقيام بهذه الحركة يؤكد لا محالة البعد الاجتماعي لهذا الحدث. كما أن بعث الحملات العسكرية من قبل السلطة المركزية، دليل في نظرها على «عدم شرعية» إمارة بني يدر، وهذا العمل العسكري يعكس في حد ذاته رؤيتها للحدث فهي لم تعتبره من قبيل القطيعة، وإنما انقطاع مؤقت يمكن أن يحسم بحد السيف، وهو ما حدث بالفعل.

والملاحظ أن عرب الشبانات وبني المختار كان لهم ضلع كبير في أحداث هذه الامارة، مما يعطي حجة على اتصال تاريخ تارودانت بمختلف العناصر البشرية في خضم «القطيعة» نفسها. كما أن تأكيد النصوص على أن قوات علي بن يدر خربت تارودانت باستثناء جامع الخطبة يؤكد على التواصل الديني لتارودانت مع تاريخ العرب والاسلام. ولاشك أن خوضها غمار الصراع ضد القوى النصرانية يزكي هذا الطرح.

ويبين تتبع الأحداث كذلك أن علي بني يدر استسلم سنة 659 هـ، وليس صدفة أن يأتي هذا الاستسلام في الوقت الذي جنح أبو يحي يغمراسن للطاعة، وهو ما يبين هذا التفاعل بين تارودانت وتاريخ الغرب الاسلامي وقد تنبه أحد الباحثين[111] الذي انطلق من نص لابن عذاري إلى أن إمارة ابن يدر لم تتخذ شارة خاصة، بل استخدمت ما تصير لها من أعلام الموحدين. وفضلا عن ذلك فإنه لا توجد لدينا نقود باسم بني يدر، وكل ذلك يحمل على القول بأن الامارة ظلت متشبثة بمبدإ الوحدة.

وأخيرا فإن عودتها للسلطة المركزية في نهاية المطاف، وقبول أحد أبناء بني يدر للخدمة في حاشية السلطة المرينية، يعد أقوى دليل على أن إمارة بني يدر لم تكن تعبر عن قطيعة تاريخ تارودانت عن التاريخ العام.

خلاصة القول تتجلى في الاجابة عن التساؤلات التي طرحناها في بداية هذه الدراسة وهو أن تاريخ تارودانت في العصر الوسيط كان يحوي عناصر الاتصال أكثر من عناصر القطيعة. بل إن لحظات القطيعة كانت في الغالب الأعم لحظات قصيرة الأمد، فضلا عن أن مضمونها عبر عن عمق سياسي ــ اجتماعي تجلى في رفض الوضعية السائدة في تلك اللحظة، الشيء الذي يفسر انتهاءها بمجرد انتفاء العوامل الممهدة لها.

* * *

الهوامش

(1) MEUNIE (J.) : Le Maroc Saharien des origines à 1670. Ed. KILINCKSIECK Tome 1, p : 276

(2) Ibid. 277 ومن مظاهر هذا التناقض أنه يذكر عدة حجج لاظهار انفصال السوس عن شمال المغرب كعدم أداء الضرائب للحكم المركزي، وعدم وجود دار للسكة، وكذا عدم تأثر المناطق الصحراوية بالتصوف الذي انتشر في الشمال، وعدم تأثرها كذلك بالفن الأندلسي، ثم يعود فيقول بأن كل ذلك لم يكن يعني موقفا مضادا للحكم المركزي.

(3) GODARD (L.) : Description et histoire du Maroc. Ed. Paris-Madrid d'Alger 1860, Tome 1 p. 78

(4) بنعبد الله : معلمة المدن والقبائل (الملحق 2). طبعة المحمدة فضالة 977، ص 125 - 126.

(5) وصف افريقيا. طبعة الرباط 1980 ج 1 ص 93.

(6) عندما يتحدث عن استقلال سوس يذكر بأن صمت المصادر وإحجامها عن ذكر أداء سكانه ضريبة للسلطة المركزية دليل على استقلاله. انظر ص 76 من المرجع السابق.

(7) Ibid p. 276

(8) انظر في هذا الشأن : ابن حوقل صورة الأرض. طبعة بيروت 1979، ص 99 حيث يجمع كل المدن في سوس ودرعة : «ومن بالسوس ونواحي درعة شيعة». وكذلك ابن عبد الحكم حين يتحدث عن سكان المنطقة الجنوبية فيقول : «وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية» فتوح إفريقية والأندلس طبعة بيروت 1964 ص 58 وانظر كذلك ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4. طبعة بيروت 1964 ص 219 حيث يقول عن إحدى الغزوات العسكرية : «فسير ابن الحبحاب إلى السوس وأرض السودان وغنموا».

(9) المراكشي : المعجب، طبعة البيضاء 1978 (ط 7). ص 508.

(10) ابن سعيد : كتاب بسط الأرض في الطول والعرض تطوان 1958 ص 58.

(11) ابن حوقل : م.س ص 99.

(12) العروي : مجمل تاريخ المغرب. طبعة الرباط 1984 ص 124.

(13) نذكر من ذلك المراكشي الذي زار تارودانت كما يصرح بذلك. انظر المعجب ص 509.

(14) مجهول : كتاب الاستبصار طبعة البيضاء 1985 ص 211 - 212 ويصفها بأنها قرية كبيرة.

(15) ابن سودة. دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج 1. طبعة البيضاء 1960. لاحظ هذه المسألة ابتداء من ص 27 إلى ص 121 بينما نجد عددا هائلا من المصنفات حول المدن الأخرى.

(16) مثلا في قضية فتوحات موسى بن نصير للمدن المغربية يكتفي الطبيري بقوله : «وفيها (سنة 91 هـ) غزا موسى بن نصير الأندلسي ففتح على يديه أيضا مدائن وحصون. تاريخ الأمم والملوك ج 8 طبعة بيروت (دون تاريخ) ص 75.

(17) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج 4 طبعة بيروت 1978 ص 219 حيث يذكر «وفيها — 116 هـ — سير ابن الحبحاب جيشا إلى السوس وأرض السودان فغنموا وظفروا وعادوا».

(18) المقدمة. طبعة بيروت 1979 ص 298 - 299.

(19) مجهول : كتاب الاستبصَار : ص 211.

(20) المعجب : ص 508.

(21) الوزان : م. س. ص 93.

(22) الناصري : الاستقصاء ج 1. طبعة البيضاء 1954 ص 82 - ابن خلدون : كتاب العبر. بيروت 1979 ج 6 ص 108.
(23) محمود اسماعيل : مقالات في الفكر والتاريخ. طبعة البيضاء 1979 ص 73 - 74.
(24) الأنيس المطرب. طبعة الرباط 1973 ص 128 - 129. انظر كذلك الناصري : م. س. ج 2 ص 14.
(25) أخبار المهدي بن تومرت. طبعة الرباط 1971 ص 48، 91
(26) تمتل هذا الحصن في حصن تيويوين الموجود بالقرب من تارودانت. انظر : ابن غداري : البيان المغرب. القسم الموحدي. طبعة بيروت — البيضاء 1985 ص 410.
(27) الحسن الوزان : م. س ص 93.
(28) يذكر الادريسي أن أهل مدينة تارودانت يتمذهبون بمذهب إلى الكلية من المسلمين وهم حشوية (ص 39).
(29) مجهول : الاستبصار ص 211 - 212. انظر أيضا : ابن حوقل : صورة الأرض ص 90 ولو أنه أدمجها مع بلاد السوس.
(30) نفسه ص 212.
(31) العبر ج 6. طبعة بيروت 1979. ص 274.
(32) المعجب ص 509
(33) علاقة الخلافة الاسلامية بسوس إبان عصر الولاة : قراءة وملاحظات. بحث ساهم به صاحب هذه الدراسة في ندوة أكادير الكبرى 10 - 11 - 12 أبريل 1986.
(34) المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. طبعة الجزائر 1211 ص 161.
(35) ابن خلدون : العبر. ج 6 ص 8.
(36) أبو ضيف : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصر الموحدين وبني مرين. طبعة البيضاء 1982 ص 305.
(37) المنوني : إمارة بني يدر بسوس. مجلة دراسات - كلية الآداب أكادير العدد الأول ص 30.
(38) ابن عذاري : م. س. قسم الموحدين ص 402.
(39) وصف إفريقيا. ص 93.
(40) ابن الزيات : كتاب التشوف إلى رجال التصوف. طبعة البيضاء 1984 ص 347.
(41) MEUNIE Loc. op. cit. p 277
(42) ابن القاضي : جذوة الاقتباس. ج 2. طبعة الرباط 1973 — ص 521 — ابن الزيات. م. س. ص 97.
(43) نفسه : ص 453 ويشير بذلك إلى الفقيه عبد السميع بن محمد الكنفيسي الذي استدعاه المهدي لتارودنت.
(44) انظر دراسات كل من :
(45)
- MEUNIE (J.) : Loc. op. cit. p 273-275 ; 303-308
- KHANBOUBI : Les premiers Sultans Mérinides. Ed. Paris 1987, p 74-75.
- TERRASSE (H) : Histoire du Maroc. Tome : 1 ; éd. Casa, 1946 - p 357

ومن الانصاف القول أن دراسة الاستاذ المنوني عن إمارة بني يدر تميزت بنظرتها الثاقية في معالجة هذه الامارة. انظر مرجعه المشار إليه آنفا والمنشور في مجلة دراسات كلية الآداب بأكادير ص 27 - 37.
(46) نفسه ص 34.
(47) مؤلف مجهول : الحلل الموشية. طبعة البيضاء 1979 ص 164 — LAROUI (A.) Histoire du Margheb. Tome : I, Paris 1975 p 178
(48) بدليل قول ابن خلدون أنه كان من قرابة الوزير ابن يونس الهنتاتي انظر : العبر ج 6 ص 272.
(49) جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ج ح. طبعة تونس 1978 ص 169.
(50) حركات : المغرب عبر التاريخ : ج I طبعة البيضاء 1965 ص 307.
(51) عز الدين موسى : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي. طبعة بيروت 1983. ص 99

(52) جوليان : م. س. ص 167 - 168.
(53) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري. طبعة بيروت 1983 ص 145.
(54) نفسه ص 145.
(55) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة على المستضعفين طبعة بيروت 1964 ــ 429 - 438.
(56) العبر ج 6 ص 162، 176.
(57) عز الدين موسى : النشاط الاقتصادي... ص 148.
(58) نفسه ص 146.
(59) عز الدين : م س ص 151.
(60) عز الدين موسى : م س ص 151.
(61) نفسه ص 152.
(62) جوليان : م. س ص 156.
(63) عز الدين موسى : دراسات ص 90 - 91.
(64) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص 254 ويذكر كيف ساهم قائد الروم في بيعة عبد الواحد الرشيد.
(65) ن م م ص 254.
(66) عز الدين موسى : م. س ص 83.
(67) الأنيس المطرب : ص 256.
(68) مؤلف مجهول : الحلل الموشية : ص 169.
(69) TERRASSE. Loc. op. cit p 356.
(70) عز الدين موسى : م. س. ص 89 TERRASSE (H.) : Ibid p 357
(71) حركات : م. س ص 309.
(72) تاريخ افريقيا الشمالية ج 2 ص 169.
(73) ابن عذاري : م. س. ص 409 ويذكر أن المرتضى شرع سنة 654 في بناء الديار القصور لابنائه الكبار وأنه أنفق أموالا خطيرة.
(74) عز الدين موسى دراسات ص 114.
(75) يتحدث ابن أبي زرع عن مجاعات وقعت سنة 617 هـ 624 هـ و635 هـ. انظر الأنيس المطرب ص 273، 274، 276، 277.
(76) عبد العزيز سالم والعبادي : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس. طبعة بيروت 1969 ص 285.
(77) نفسه ص 288 ع عز الدين موسى : دراسات 97 وعن اشتداد حركة الزحف المبيحي انظر : حركات. م. س ص 309 - 310.
(78) عز الدين موسى : م. س. ص 97 LAROUI (A.) : Loc. op. cit. p 177
(79) TERRASSE(H.) : Loc. op. cit. p 344 - 45
(80) عز الدين موسى : م. س. ص 97.
(81) المعجب ص 475.
(82) حركات : م. س. ص 305.
(83) TERRASSE (H.) : Loc. op. cit. p 345...
(84) حركات : م. س. ص 310 TERRASSE (H.) : Loc. op. cit. p 351
(85) البيان : قم الموحدين : ص 451، 454، 459.
(86) نفسه ص 459.

(87) نفس المرجع والصفحة.

(88) العبر ج 6 ص 68.

(89) الناصري : م. ساج 2 ص 253.

(90) يذكر ابن عذاري أنه كان «من جملة رجاله وخدامه» انظر م. س. ص 402.

(91) نفسه ص 404.

(92) ابن عذاري : م. س.ص.401—Loc. op. cot. p 74 : MEUNIE (J.)

(93) Ibid p 274 MEUNIE

(94) ابن عذاري : م. س. ص. 410.

(95) ابن خلدون : م. س. ج 6 ص 273.

(96) ابن خلدون : ن. م. ص. 69.

(97) ابن خلدون : م. س. ص 273. ابن عذاري : م. س. ص. 410.

(98) ابن عذاري : م. س.ص429—Loc. op. cit. p 274 : MEUNIE (J.)

(99) Loc. op. cit. p 74 : KHANBOUBI

(100) الناصري : م. س. ج 2ص254— Loc. op. cit p 275 MEUNIE(J.)

(101) ابن خلدون : م. س. ج 6 ص 273.

(102) ابن عذاري : م. س. ص 457.

(103) نفسه ص 458.

(104) نفسه ص 453 – 454.

(105) مما قيل في تهنئة الخليفة الموجدي الواثق بالله هذه الأبيات.

أهلا وسهلا وحيا الله من وفدا ... قوما أرادت بهم أيامهم رشدا

كانوا كموسى أتى نارا ليقبسها ... بأهله فأصاب النار نور الهدى

شدوا المطي وأتوا طائعين وقد ... نالوا من الصفح أقصى غاية وجدا

انظر نفس المصدر ص : 462.

(106) نفسه ص 455.

(107) ن. م. ص 455.

(108) الناصري : م. س. ج 2 ص 254.

(109) Loc. op. cit. p 74 KHANBOUBI - Loc. op. cit. p 304 MEUNIE

(110) Ibid p 304

(111) Ibid p 305

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

1 – ابن أبي، أبو الحسن علي بن عبد الله (توفي قبل (74 هـ).
الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. طبعة الرباط 1972 ـــ دار المنصور للطباعة ـــ.

2 – ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (توفي بالموصل سنة 630 هـ) الكامل في التاريخ. ج 4. طبعة بيروت 1978 (دار الفكر).

3 – ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل الموصلي (توفي سنة 367 هـ).
صورة الأرض. طبعة بيروت 1979. نشر دار مكتبة الحياة.

4 – ابن خلدون، عبد الرحمٰن محمد (تونس 732 هـ – القاهرة 808 هـ).
كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. الجزء السادس. طبعة بيروت 18979.

5 – المقدمة. طبعة لبيروت 1979.

6 – ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي (توفي سنة 617 هـ).
التشوف إلى رجال التصوف. تحقيق أحمد التوفيق. طبعة البيضاء 1984.

7 – ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك الأندلسي (غرناطة 610 – تونس 685 هـ).
كتاب بسط الأرض في الطول والعرض. تحقيق خوان فرنيط خينيس طبعة تطوان 1958 معهد مولاي الحسن.

8 – ابن صاحب الصلاة «أبو مروان. (عاش في العصر الموحدي).
المن بالإمامة على المستضعفين. تحقيق عبد الهادي التازي. طبعة بيروت 1964

9 – ابن الحكم، عبد الرحمٰن بن عبد الله (187 هـ – 257 هـ).
فتوح افريقية والأندلس. تحقيق عبد الله أنيس الطباع. طبعة بيروت 1964.

10 – ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (عاش بعد سنة 712 هـ).
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. القسم الخاص بالموحدين تحقيق الأساتذة : محمد ابراهيم الكتاني ـــ محمد زنيبر ـــ محمد بن تاويت ـــ عبد القادر زمامة. طبعة بيروت 1985. دار الغرب الاسلامي.

11 - ابن القاضي، أحمد بن محمد بن أحمد (960 هـ - 1025 هـ).
جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس. الجزء الثاني.
طبعة الرباط 1973. دار المنصور للطباعة.

12 - الادريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (سبتة 493 هـ - 560 هـ). وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية. (من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). نشر هنري بيريس. طبعة الجزائر 1957.

13 - البكري، أبو عبيد الله (1040 - 1094 م) (432 هـ - 487 هـ).
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب. نشردي سيلان. طبعة الجزائر 1911.

14 - البيدق، أبو بكر بن علي الصنهاجي (عاش في النصف الأول من القرن السادس الهجري).
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين. طبعة الرباط 1971. تحقيق عبد الوهاب بنمنصور لا دار المنصور للطباعة.

15 - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (طبرستان 224 هـ - بغداد 310 هـ)
تاريخ الأمم والملوك. الجزء 8. طبعة بيروت (دون تاريخ) نشر دار القلم.

16 - الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (توفي بمرسية عام 599 هـ).
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. تحقيق فرانسيسكو كوديرا طبعة مدريد 1984.

17 - مؤلف مجهول : (عاش في القرن الثامن الهجري).
كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة.
طبعة البيضاء 1979. دار الرشاد الحديثة.

18 - مؤلف مجهول : (عاش في القرن السادس الهجري).
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار : وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. طبعة البيضاء 1985.

19 - المراكشي، محيي الدين محمد بن علي (مراكش 581 هـ - 647 هـ).
المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي. طبعة البيضاء 1978 (السابعة).

20 - الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد (سلا 1250 هـ - 1315 هـ).
الاستقصاء لاخبار دول المغرب الأقصى. الجزءان الأول والثاني ـــ طبعة البيضاء 1954.

21 - الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بجان ليون الافريقي (غرناطة 888 هـ 957 هـ ؟). وصف افريقيا. الجزء الأول. ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر طبعة الرباط 1980.

ثانيا : المراجع والدراسات الحديثة بالعربية

22 – إبراهيم حركات (دكتور) : المغرب عبر التاريخ. ج 1 طبعة البيضاء 1965. دار السلمي.

23 – ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر المري : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج 1 — طبعة البيضاء 1960.

24 – شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية. ج 2 ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة طبعة تونس 1978. الدار التونسية للنشر.

25 – عبد العزيز بنعبد الله (دكتور) : معلمة المدن والقبائل (الملحق 2).
طبعة المحمدية — فضالة 1977. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية.

26 – عبد العزيز سالم (دكتور) وأحمد مختار العبادي (دكتور) : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس. طبعة بيروت 1969. دار النهضة العربية.

27 – عز الدين أحمد موسى (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي طبعة بيروت 1983. دار الشروق.

28 – عز الدين أحمد موسى (دكتور) : النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن السادس الهجري. طبعة بيروت 1983. دار الشروق.

29 – محمود إسماعيل (دكتور) : مقالات في الفكر والتاريخ. طبعة البيضاء دار الثقافة.

30 – مصطفى أبو ضيف (دكتور) : أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين. طبعة البيضاء 1982.

31 – المنوني محمد : إمارة بني يدر بسوس. مجلة دراسات عدد 1 كلية الآداب بأكادير ص 27 – 34.

ثالثا : المراجع الدراسات الأجنبية

33 - GODARD (L) : Description et histoire du Maroc.
Paris - Madrid - Alger, 1860.

34 - LAROUI (A) : Histoire du Maghreb. Essai de synthèse.
Ed. Paris, 1975. Maspéro.

35 - KHANBOUBI : Les premiers sultans Mérinides 1269 - 1331 :
Histoire politique et sociale. Ed. Paris, 1987. L'Harmattan

36 - MEUNIE (J) : Le Maroc Saharien des origines à l'établissement du protectorat Français.
Tome I, Ed. Casa, 1946.

تارودانت والمشرق في العصر الحديث
من خلال ابن سليمان الروداني وتلامذته والمشارقة.

حسن الصادقي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط

إذا كان المتدخلون في هاته الندوة قد تناولوا وسيتناولون بالدراسة مدينة تارودانت داخل اطار بلاد السوس الأقصى والمغرب عامة، فاني سأحاول الخروج من هذا الاطار، وذلك بالحديث عن اشعاع مدينة تارودانت وشهرتها خارج بلاد المغرب ويتمثل ذلك في الصلات الفكرية بين هاته المدينة والأقطار المشرقية، وتأثير المدرسة الرودانية المغربية في المدرسة المشرقية.

لقد انجبت مدينة تارودانت، قاعدة بلاد السوس الأقصى في العصر الحديث العديد من رجال العلم والأدب ممن ذكرتهم كتب التراجم. واهتم بهم مؤرخ سوس محمد المختار السوسي في مؤلفاته الجامعة، كالمعسول، سوس العالمة، اليغ قديما وحديثا، ومن خلال جزولة.

إلا أنه يمكن اضافة اعلام آخرين من غير أبنائها، ليسوا من تارودانت ولا المغرب، بل من أقطار أخرى وبالضبط من المشرق.

فماذا يمكن قوله عن مدينة تارودانت وبلاد المشرق ؟

في الواقع عرفت تارودانت نوعا من العلاقات مع المشرق، تتمثل في العلاقات الثقافية، والتي توطدت مع صعود السعديين إلى الحكم واعتنائهم باقليم سوس مهد دولتهم، لذا حظيت تارودانت[1] باهتمامهم، إذ جعلوها مدينة خليفية للدولة «فيها دار المخزن مقر خليفة السلطان من بين ابنائه وفيها قاضي الجماعة ومفتي الديار السوسية»[2] هذا الانتعاش السياسي للمدينة صحبه انتعاش ثقافي، وهكذا اصبحت تارودانت عاصمة سوس

الثقافية بمساجدها الثلاثة، جامع سيدي أو سيدي، وجامع القصبة السلطانية، والجامع مأوى أفئدة طلاب العلم وأساتذته، الذين قصدوها من الأندلس والمغربين الأوسط والأدنى وبلاد المشرق، حيث لقوا الترحاب والقبول، «اذ في مساجد مراكش والمحمدية التف الطلبة حول هؤلاء الأدباء المشارقة يأخذون عنهم»[3]. وسعد طلبة تارودانت بهؤلاء المشارقة ونالهم الحظ، وخاصة الذين لم يكن بمقدورهم الرحلة إلى المشرق، ولا تحضرني هنا أسماء المشارقة الذين دخلوا تارودانت ودرسوا بها، والذين عملوا على ربط الصلات الفكرية بين هاته المدينة وأقطارهم.

وبالمقابل توجه بعض المغاربة إلى المشرق لسبب أو لآخر، إما للحج أو طلب العلم، أو للتجارة، أو السفارة ومرافقة ركب الحاج المغربي، أو السياحة بما فيها السياحة الصرفة العلمية والسياحة الصوفية، إلى غير ذلك من الأسباب[4]. وكان منهم بعض أبناء تارودانت، وخاصة بيت القصيد محمد بن سليمان الروداني، الذي جال في البلاد المشرقية ووصل حتى بلاد الروم (تركيا حاليا)، فاتحا بذلك صفحة مشرقة وايجابية في تاريخ العلاقات بين مدينته تارودانت وبلاد المشرق، اذ لا تذكر تارودانت في المشرق إلا بذكر ابن سليمان الروداني، فهو خير مذكر للمشارقة بمدينته وبالمغرب، وأكبر دعاية لها.

وقد كان في نيتي تتبع ابن سليمان الروداني في رحلته إلى المشرق، والتي لم يفكر في تدوينها وياللاسف، كما فعل معاصره وصديقه ابو سالم العياشي بل اكتفى بتسجيل مروياته وشيوخه في فهرسه صلة الخلف موصول السلف[5]. وإذا كان العياشي قد عرف بابن سليمان الروداني في رحلته، كما عرفت به بعض كتب التراجم المشرقية، وإذا كان الروداني قد سجل شيوخه في فهرسه، فاني ارتأيت أن أقوم بعمل لم يقم به ابن سليمان الروداني نفسه لان من عادة الأساتذة والشيوخ الا يقوموا بذلك، واعني به محاولة جمع معجم لبعض تلامذة الروداني المشارقة.

وإن من شأن هذا العمل، بالاضافة إلى ذكر الأنشطة المتنوعة لابن سليمان الروداني في المشرق، ان يعطي للقارىء صورة عن الدور الذي كان لهذا العالم العامل في البلاد المشرقية، والتأثير الذي خلفه فيمن أخذ عنه من المشارقة شيخه في الغالب الأعم، ولا غرابة ان وجدنا أن بعض المشارقة قد تأثروا بابن سليمان الروداني، الذي كان استاذا عالما محدثا والذي قضى معظم وقته في التدريس والتأليف والابتكار.

ولا بأس هنا من التعريف بابن سليمان الروداني سفير تارودانت في المشرق في العصر الحديث وحامل لواء المدرسة المغربية هناك بدون منازع.

هو محمد بن سليمان الروداني السوسي، ولد حوالي 1037 هـ بمدينة تارودانت قاعدة بلاد السوس الأقصى وعاصمتها العلمية بمساجدها العتيقة، التي لقيت العناية في عهد دولتي الشرفاء السعديين والعلويين.

درس ابن سليمان الروداني بمسقط رأسه، ورحل في طلب العلم، فجال في المراكز الثقافية المغربية الحضرية منها والقروية، كمراكش وفاس وسجلماسة وتادلة والزاوية الدلائية والزاوية الناصرية، وقد كان الروداني محظوظا اذ عاصر جماعة من فطاحل العلماء والرجال الصلحاء ممن تطلعوا في مختلف العلوم الدينية والدنيوية، والذي سعد بلقياهم ومجالستهم واستفاد منهم وتأثر بهم وأفرد لهم خاتمة فهرسة صلة الخلف بموصول السلف ومن هؤلاء الأساتذة كما ذكرهم في فهرسه :

1 – الامام البارع المحقق اقضى القضاة ابن مهدي عيسى السجتاني المراكشي[6]، المتوفي سنة 1062 هـ. مفتي مراكش وقاضيها، اجازه في المرة الأولى بجميع مروياته ثم **أخذ عنه مرة ثانية سنة 1060 هـ أي بعد ثمان سنوات من لقائه الأول. ولم يكن في زمانه من يقاربه في العلوم العقلية والنقلية في المغرب.**

2 – «عالم العلماء الراوية في علوم الشريعة والطريقة المحقق في فنون الآلات والآداب الدقيقة شمس العلم والدين ابى عبد الله محمد بن سعيد الميرغيتي السوسي المراكشي»[7] **المتوفى سنة 1090 هـ وهو عالم في التفسير والحديث والفقه والأوقاف والتنجيم والفلك.**

3 – «أمام أهل الطريقة الجامع بين علوم الشريعة والحقيقة أبو عبد الله محمد بن ناصر الدرعي صاحب الاشارات الباهرة والكرامات الظاهرة»[8]. قرأ عليه أصول الدين والنحو والتفسير والحديث والفقه والتصوف.

4 – «الداعي إلى الله أبو عبد الله محمد بن محمد الواوزغتي التادلي»[9] وهو شيخ مربى.

5 – «الداعي إلى الله سيدي محمد بن عبد الله الفاسي صاحب المخفية حومة بفاس»[10].

6 – «أوحد زمانه علما وعملا أبى عثمان سعيد بن ابراهيم الجزائري[11] عرف بقدورة ومن يده لبس الخرقة الصوفية.

– نادرة الدهر محمد بن محمد المرابط الدلائي. محقق النحو وشارح التسهيل[12].

هذا عن ابن سليمان الروداني وهؤلاء بعض شيوخه المغاربة ممن تعددت فنونهم ومعارفهم فبعضهم جمع بين المنقول والمعقول، وهو بذلك ينتمي إلى مدرسة مغربية في المجمل، قبل ان ينتقل إلى المشرق.

مع ابن **سليمان الروداني** في المشرق :

الظاهر من أمر رحلة الروداني إلى المشرق أنها للحج والمجاورة بالحرمين، لدوافع نفسية، بحسب ما حكاه الروداني لصديقه أبي سالم العياشي، ذلك أن الروداني دخل الجزائر وأقام بها مدة وأخذ بها عن الشيخ سعيد قدورة الجزائري وذات يوم ضاقت عليه نفسه ولم يدر أين يتوجه من البلاد، فجاء إلى أحد الشيوخ الصلحاء فلما جلس عنده قال له : **أنت مسجون عند النبي ﷺ وقد آل الأمر به كذلك[13]. ومهما يكن من أمر هاته الحادثة التي ذكرها إلى المشرق ودخل مصر كأول محطة له في طريقه إلى بلاد الحجاز التي استقر بها لسنين حاجا ومجاورا. وزار الرملة ودمشق من بلاد الشام، قاصدا بلاد الروم سنة من قبل الوزير الفاضل، الذي كان يقدره، ولم يغادر الروداني بلاد الروم إلا وقد «فوض إليه النظر في أمور الحرمين ... حتى صار شريف مكة لا يصدر إلا عن رأيه»[14].**

لكن لم ينعم الروداني بهذا المنصب لمدة طويلة، إذ بعد أن مات الوزير الفاضل، تمكن حساده من الغلبة عليه سنة 1083 هـ، وارغامه بأمر سلطاني على ترك مكة إلى الشام، فخرج بعد مدة وبعد أن أعيته الحيلة، ونزل عند نقيب الاشارف بدمشق، عبد الكريم بن حمزة الدمشقي وبدار هذا الأخير التقى به المؤرخ الأديب فضل الله المحبي صاحب كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر والذي لم يفته تسجيل ذلك اللقاء فقال «اجتمعت به ثمة مرة... فرأيت مهابة العلم قد أخذت بأطرافه وحلاوة المنطق في محاسن أوصافه»[15].

وقد اتخذ الروداني من بلاد الشام دار قرار وذاع صيته، إلى أن توفي بدمشق سنة **1094 هـ،ومن الملاحظ أنه زيادة على العلاقات الطيبة التي كان لابن سليمان الروداني** مع المشارقة الذين لقيهم في البلاد التي زارها أو استقر بها لمدة، فإنه كانت له صلات اجتماعية مع أهل المشرق، اذ استقر الروداني أولا بمكة وتزوج هناك وخلف عقبا بداره التي في ملكه قرب المسجد الحرام ونستشف ذلك من رحلة الاسحاقي الحجازية التي دون فيها حجة الأميرة خناتة بنت بكار زوجة المولى اسماعيل، وقد قال الاسحاقي في رحلته : «وممن لقيناه بالمسجد الحرام وتكررت مجالستنا معه الفقيه الوجيه النزيه السيد محمد بن الفقيه العلامة الرحالة الورع الزاهد السيد محمد بن سليمان الروداني وولده هذا له دار قرب المسجد الحرام ورثها عن أبيه»[16].

ابن سليمان الروداني والعلماء المشارقة :

اتصل الروداني بشيوخ العلم المشارقة في البلاد التي دخلها للاستزادة والاستفادة ووجدناه وهو العالم المغربي المالكي المذهب، يأخذ عن علماء المذاهب الثلاثة الأخرى، وهكذا :

– أخذ الفقه الحنفي : عن شيخ الفتيا الفقيه خير الدين الرملي في الرملة في فلسطين، وعن قاضي القضاة الشهاب أبي العباس أحمد بن محمد الخفاجي في مصر.

– وأخذ الفقه الشافعي عن الشهاب أبي العباس أحمد بن العجمي الشافعي القاهري.

– وأخذ الفقه الحنبلي عن قدوة الحنابلة في زمانه أبي عبد الله بن بدر الدين البلباني الصالحي في الصالحية من الشام، واخذ عنه كذلك الطريقة القادرية كما أخذ علم الافراد والتجويد عن سلطان بن أحمد المزاحي.

هؤلاء بعض من شيوخه المشارقة ممن استكمل منهم وبهم معرفته للمذاهب الأربعة فجمعها فأوعاها، وبذلك استحق منصب النظر في أمور الحرمين الشريفين المشارفة دون الافادة ؟

في الواقع لم يغادر الروداني المغرب إلى المشرق الا وقد استوى عوده، ونضج للعطاء، وكانت بلاد المشرق هي التي استفادت من ثمرات نشاطه الأدبي والعلمي.

نشاط ابن سليمان الروداني في المشرق. ودوره في ربط الصلات بين تارودانت والمشرق :

سبقت الاشارة إلى بعض أنشطة الروداني في المشرق، ومنها ممارسته لمهام النظر في أمور الحرمين بالحجاز ولقاءاته بشيوخ العلم المشارقة، وكذا رحلته إلى القسطنطينية من بلاد الروم ومناظرته مع بعض الشيوخ حول شرب القهوة والدخان، وهو أحد المفتين بها «حتى شاع في البلد مغربيا دخل على المفتي وناظره في كذا وكذا حتى أفحمه» [17].

وإلى جانب ذلك، هناك بعض الأنشطة التي غلبت على ابن سليمان الروداني، منها :
– النشاط التربوي التعليمي :

اشتهر الروداني في المشرق كاستاذ عالم ومحدث وشيخ كبير وقد أهله تكوينه المتين وثقافته المتنوعة ومعرفته للمذاهب الأربعة وتضلعه في العلوم واتصافه بالتقوى والصلاح،

إلى اكتساب ثقة المشارقة الذين سعوا إلى مجالسته والتفوا حوله أين ما حل وارتحل. ويكفي أن نستخرج الالقاب العلمية التي حلاه بها المشارقة والمغاربة على حد سواء، ويكفي أن نسجل المشارقة الذين تتلمذوا عليه وأخذوا عنه جميع العلوم والفنون، وأجازهم والذين تأثروا بمدرسته المغربية وصار بعضهم على نهجه في التأليف والتصنيف :

وهناك يأتي دوري المتمثل في محاولة جمع معجم لبعض تلاميذ الروداني المشارقة اعتمادا على كتب التراجم المشرقية.

معجم تلاميذ ابن سليمان الروداني :

1 – ابراهيم بن سليمان الجنيني ت 1108 هـ نزيل دمشق.
«العالم الفاضل الأديب... كان فقيها نحريرا مفننا مؤرخا حافظا للوقائع رحل إلى مصر وأخذ فيها عن مشايخ اجلاء... وأخذ عن الشيخ محمد بن سليمان المغربي»[18].

2 – ابراهيم بن محمد بن كمال المعروف بابن حمزة الدمشقي ت 1120 هـ.
العالم الإمام المحدث النحوي «قرأ على جماعة من العلماء والشيوخ وأخذ عنهم منهم... الشيخ محمد بن سليمان المغربي»[19].

3 – أبو المواهب بن عبد الباقي الحنبلي الدمشقي ت 1126 هـ.
مفتي الحنابلة بدمشق... شيخ القراء والمحدثين... أخذ العلم عن جماعة كثيرين من دمشق ومصر والحرمين وأفرد لهم ثبتا ذكر تراجمهم فيه... وأجازه الشيخ محمد بن سليمان المغربي»[20].

4 – أحمد بن أبي بكر بن سالم ابن شيخان ياعلوي ت 1091.
«المقدم في العلوم المنفرد بالفنون الأدبية... لازم محمد بن سليمان ملازمة تامة واتقن عدة فنون منها الحديث والفقه والأصول والعربية والفرائض والحساب والميقات والمعاني والبيان والعروض، وأمره شيخه ابن سليمان بالتدريس فجلس بالمسجد الحرام»[21].

5 – أحمد بن تاج الدين الدمشقي الأصل المدني المكي 1081 هـ.
«موقت الحرم النبوي وكاتب الانشاء للشريف سعد بن الشريف زيد... كان واحد عصره في معرفة العلوم الغربية كالرياضة والنجوم والسيميا وما شاكلها، وله في وضع الآلات الفلكية اليد الطولي... أخذ الفنون عن الأستاذ الكبير محمد بن سليمان المغربي نزيل مكة المشرفة وعن غيره»[22].

6 – أحمد بن محمد بن سويدان الدمشقي.
«الشيخ الفاضل العالم... الفقيه... طلب العلم وأخذ عن المتصدرين بدمشق من العلماء (منهم) المحدث بن سليمان المغربي نزيل دمشق[23].

7 – أحمد بن عبد الله بن علوان الشراباتي الحلبي ت 1136.
«المحدث الفقيه... أخذ عن جماعة من الأئمة المسندين (منهم) محمد بن سلبمان المغربي»[24].

8 – أسعد بن محمد المالكي الدمشقي ت 1147.
مفتي المالكية بدمشق... اجازه الأستاذ المحدث الكبير الشيخ محمد ابن سليمان المغربي نزيل الحرمين والمتوفي بدمشق»[25].

9 – الياس بن ابراهيم الكردي نزيل دمشق ت 1138.
«قرأ على جماعة من مشايخنا... وأجازه الشيخ محمد بن سليمان المغربي»[26].

10 –درويش بن ناصر الدين الحلواني الدمشقي ت 1107.
«الشيخ العالم... قرأ على جماعة من الشيوخ وبهم انتفع... واجتمع بدمشق بمحدث العصر الشيخ محمد بن سليمان المغربي الفاسي نزيل الحرمين وطالع عليه وأخذ عنه»[27].

11 –السيد سعدي بن عبد الرحمن، ابن حمزة الدمشقي ت 1132.
«العالم المحدث الفرضي الحيسوب كان ماهرا بالفرائض وله خبرة ومعرفة بالهندسة والمساحة... أخذ عن الأستاذ الشيخ عبد الغني النابليسي وعن الشيخ محمد بن سليمان المغربي»[28].

12 –صالح بن ابراهيم الجنيني الدمشقي ت 1170 هـ : (النعمان الثاني) «كان عالما محدثا فقيها... عزيم النظر في فقه أبي حنيفة النعمان... استجاز والده له من جماعة وأخذ عنهم كالمحدث الكبير الشيخ محمد بن سليمان المغربي صاحب التآليف المشهورة»[29].

13 –عبد الرحمن بن تاج الدين التاجي الدمشقي ت 1116 هـ
«كان عالما فاضلا هماما بليغا أديبا... أخذ عن الشيخ ابراهيم الكوراني المدني والشيخ محمد بن سليمان المغربي»[30].

14 –عبد القادر بن بهاء الدين المعروف بابن الهادي الدمشقي ت 1100 هـ.
«شيخنا الجهيد المحقق المدقق.. كان أغلب معلوماته أصول الدين والفقه وبهما

تقوى وضبط التحقيقات مع الاتقان للعلوم الطبيعية والرياضية... وكان سافر إلى الروم صحبة الأستاذ العالم الكبير محمد بن سليمان المقري السوسي نزيل مكة وتقرب إليه وأخذ عنه فنونا كثيرة وبسببه عرف فضله عند الوزير الأعظم الفاضل»[31].

15 – عبد الكريم بن عبد الله الخليفتي المدني ت 1113 هـ.
«الفقيه البارع الشاعر مفتي السادة الحنفية بالمدينة النبوية... أخذ بطلب العلم فأخذ عن الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي... والشيخ محمد بن سليمان محدث الحجاز»[32].

16 – عبد الكريم بن محمد الحسيني، ابن حمزة الدمشقي ت 1118 هـ.
«نقيب الاشراف بدمشق الفاضل العالم العلامة الأديب البارع... قرأ وحصل بدمشق على جماعة منهم والده محدث دمشق الشام والأستاذ الشيخ محمد البلباني الصالحي وأجاز له نزيله العلامة المشهور الشيخ محمد بن سليمان المغربي نزيل الحرمين وكان نزيل داره بدمشق»[33].

17 – عثمان بن أبي بكر النحاس الدمشقي ت 1131 هـ.
«الفقيه النحوي الفرضي... أخذ وقرأ على جماعة كثيرين (منهم) محمد بن محمد بن سليمان المغربي»[34] (كذا).

18 – محمد بن ابراهيم العمادي الدمشقي ت 1135 هـ.
«كان هذا المترجم صدر الشام علامة العلماء جسرا فقيها... عالما محتشما أديبا بارعا قرأ القرآن ثم اشتغل بطلب العلم... وأجاز له الشيخ يحيى الشاوي المغربي... والشيخ محمد بن سليمان المغربي»[35].

19 – محمد بن ابراهيم الكوراني المدني ت 1145 هـ.
«أخذ في طلب العلم فقرأ على والده.. وأخذ.. عن محدث الحجاز محمد بن محمد بن سليمان المغربي»[36].

20 – محمد بن أبي بكر باعلوي الشلي الحضرمي المكي ت 1093 هـ
«كان صاحب الترجمة من العلماء الاجلاء أصحاب التصنيف وقد ترجم نفسه في تاريخه نفائس الدرر فقال: «كان مولدي منتصف شعبان سنة ثلاثين وألف... وقرأ علم الميثاق والحساب بسند الخرقة والصحبة على شيخنا خاتمة المحققين محمد بن محمد بن سليمان المغربي وأجازني واطمعني

الأسودين بسنده إلى سيد المرسلين... وطلب مني جماعة أن أولف في علم الميقات فألفت رسالة في علم المجيب... وألفت رسالتين مطولتين في علم الميقات بلا آلة ورسالة في معرفة ظل الزوال كل يوم لعرض مكة ورسالة في معرفة اتفاق المطالع واختلافها ورسالة المقنطر ورسالة الاصطرلاب»[37].

21 - محمد بن عمر بن شيخان باعلوي الحسني المكي ت 1122 هـ
«لازم العلامة علي بن الحمال والوجيه السيد محمد الشلي وأجاز له المسند محمد بن سليمان المغربي بمروياته وأخذ عنه عدة علوم، وبرع وفضل ودرس بالمسجد الحرام»[38].

22 - محمد أمين بن فضل الله المحبي ت 1111 هـ
وهو صاحب كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.
«العلامة الأديب... المؤرخ... اشتغل بطلب العلم... وأجاز له الشيخ يحيى الشاوي والشيخ محمد بن سليمان المغربي»[39].

23 - يوسف بن محمد بن محمد الدمشقي ت 1173 هـ.
«مفتي المالكية بدمشق الشيخ العالم الفاضل المعمر... قرأ على علماء عصره وأجاز له خاتمة المسندين محمد بن سليمان المغربي نزيل دمشق والمتوفي بها سنة ألف وأربع وتسعين»[40].

هذا عن معجم بعض تلامذة ابن سليمان الروداني وفي الغالب فإن عددهم يفوق ما جمعناه لأن بعضهم لا تذكره كتب التراجم المشرقية.

مما لاشك فيه أن المشارقة الذين أخذوا عن ابن سليمان الروداني قد تأثروا به، كل في ميدان اختصاصه، نظرا لتضلعه في جميع العلوم والفنون : فمن خلال الألقاب العلمية نعرف أنه شيخ ومحدث، وخاتمة المسندين، وعلامة مشهور، وأستاذ كبير. ويظهر تأثير ابن سليمان الروداني مثلا، في الكتب التي ألفها المشارقة على منوال كتب أستاذهم الروداني، فهذا محمد بن أبي بكر الشلي الحضرمي (رقم 20) قرأ علم الميقات والحساب على الروداني، وألف رسالة في علم الميقات ورسالة في الاصطرلاب، على غرار استاذه الروداني الذي سبقه في تأليف مثل هاته الكتب، وقد ترجم الشلي لشيخه الروداني في كتابه «عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر»[41]. وهي ترجمة فريدة اعتمدها المحبى بعده ونقلا منها.

ونجد أن تلميذا آخر وهو عبد القادر ابن عبد الهادي الدمشقي الذي كان عارفا بالعلوم الطبيعية والرياضية، يسافر مع الروداني إلى بلاد الروم ويتقرب إليه ويأخذ عليه فنونا كثيرة. وأما أحمد بن أبي بكر باعلوي فقد عمل بوصية شيخه الروداني الذي أمره بالتدريس فجلس بالمسجد الحرام.

وأما أحمد بن تاج الدين الدمشقي، موقت الحرم النبوي فانه أخذ علم التوقيت عن ابن سليمان الروداني.

هذه أمثلة من كثير، لما خلفه الروداني من تأثير في المشارقة الذين أخذوا عنه وما لمدرسة تارودانت المغربية من عطاء ومالها من دور في اغناء وسيرورة الحياة العلمية في المشرق.

- تأليف الكتب والقيام ببعض الابتكارات :

إلى جانب النشاط التربوي انكب الروداني طيلة مقامه بالمشرق على التأليف والتصنيف، خاصة عندما ينقطع عن الناس وقد تنوعت تآليفه وتعددت، وقد ذكرها من ترجم له من المشارقة أو المغاربة كالشلي الحضرمي، والمحبي وأبي سالم العياشي ومحمد المختار السوسي. ومن هاته التآليف :

- فهرسه «صلة الخلف بموصول السلف».
- رسالة في وصف آلة التوقيت التي اخترعها، وقد أورد العياشي مقدمتها في رحلته[42]
- قصيدة في علم التوقيت.
- شرح على قصيدته السابقة الذكر.
- جمع الكتب الخمسة من الموطأ.
- حاشية على توضيح ابن هشام في النحو.

إلى غير ذلك من التآليف، ومن الملاحظ أن الروداني تميز بتأليف الكتب العلمية وهذا كان نتيجة لاهتماماته وولوعه بأعمال الابتكار والاختراع، يقول عنه صديقه أبو سالم العياشي في رحلته :

«وله يد طولى في عمل الاسطرلابات وغيرها من الآلات التوقيتية والأرباع والدوائر والأنصاف والمكانات»[43]. ويقول عنه كذلك «ومن ألطف ما أبدعه وادق ما صنعه

وأجل ما اخترعه الآلة الجامعة النافعة في علمي التوقيت والهيئة ولم يسبق إلى مثلها ولا حادي أحد على شكلها بل ابتكرها بفكره الفائق وصنعه الرائق وهي كرة مستديرة الشكل...[44].

ويقول عنه تلميذه أبو بكر الشلي «واخترع كرة عظيمة فاقت على الكرة القديمة واسطرلاب»[45]. هذه بعض أقوال معاصري ابن سليمان الروداني حول اختراعاته وابتكاراته، وبذلك يظهر أن الروداني قد أعطى الكثير للمشارقة، فهو معلم مربي، مكون للتلاميذ ومساهم في اغناء المكتبة العربية بتأليفه للكتب الأدبية والعلمية، إلى جانب كونه أستاذ عالم مبتكر بالمفهوم العلمي المحض بحكم اختراعاته للآلة الدقيقة والغريبة عن زمانه ومكانه.

وبعد، فلا ادعي أني وفيت الكلام عن تارودانت والمشرق، اذ لم تتوقف الصلات الفكرية بين تارودانت والمشرق عند ابن سليمان الروداني فحسب، بل هناك بعض الرودانيين الذين رحلوا إلى المشرق للحج أو طلب العلم أو للتجارة وغيرها من الأسباب وهناك بعض المشارقة الذين دخلوا تارودانت، وان كانت كتب التراجم لا تذكر أسماءهم.

ومن الروادنيين الذين رحلوا إلى المشرق هناك مثلا : عبد الله أبو مدين بن أحمد الروداني من أهل القرن الثاني عشر الهجري، وقد ذكر محمد المختار السوسي أن لهذا الشخص رحلة حجازية[45].

وهناك مثال آخر هو قاضي تارودانت محمد الطيب بن محمد السوسي الروداني الذي حج، واعجب بالمطبعة الحجرية. فعمل على ادخالها معه سنة 1281 هـ الموافق لسنة 1864 م، وصحب معه طبيع مصري ملم بشؤون الطبع[46].

وقد أردت من خلال كل هذا التأكيد على الصلات التي كانت بين تارودانت وباقي الأقطار الاسلامية وخاصة المشرقية منها. وهذا يدل على الاشعاع الكبير الذي كان للمدينة وعلى الدور الذي لعبه أبناؤها في استمرار التواصل والتفاعل بين المغرب والمشرق عبر العصور.

الهوامش

(1) عرفت تارودانت في عهد السعديين باسم المحمدية كذلك نسبة إلى محمد الشيخ السعدي.
(2) محمد حجي : الحركة الفكرية في عهد السعديين. مطبعة فضالة المحمدية 1976. ج 1 : 70.
(3) محمد حجي : المرجع السابق ج 1 : 70.
(4) عن أسباب توجه المغاربة إلى المشرق انظر رسالتنا الجامعية لنيل د.د.ع. تراجم مغربية في العصر الوسيط والحديث كلية الآداب 86 – 1987.
(5) تحقيق محمد حجي وهو منشور في مجلة معهد المخطوطات العربية. من المجلد 1982/26 إلى المجلد 1985/29، صدار جديد. الكويت.
(6) فهرسة صلة الخلف للروداني، تحقيق محمد حجي، مجلة معهد المخطوطات العربية الكويت 1985. المجلد 29 ج 2 ص 534.
(7) المصدر نفسه ص 535.
(8) المصدر نفسه ص 548.
(9) المصدر نفسه ص 546.
(10) المصدر نفسه ص 547.
(11) المصدر نفسه ص 533.
(12) المصدر نفسه ص 544.
(13) العياشي : الرحلة العياشية ط 2 بالاوفسيط الرباط 1977 ج 2 : 31.
(14) المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ج 4 : 205. المطبعة الوهبية مصر 1284 هـ.
(15) المصدر نفسه ج 4 : 205.
(16) رحلة الاسحاقي بنقل الكتاني في فهرس الفهارس. الطبعة الجديدة الطالعة فاس 1346 . ج 1 : 320 – 321.
(17) العياشي : رحلة ماء الموائد. ج 2 : 32.
(18) المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. المطبعة الميرية بولاق مصر 1301 ج 1 : 6 – 7.
(19) المرادي : المصدر السابق ج 1 : 22.
(20) المصدر نفسه 1 : 67.
(21) المحبي : خلاصة الأثر ج 1 : 163 – 164.
(22) المصدر نفسه ج 1 : 178 – 179.
(23) المرادي : سلك الدرر ج 1 : 168.
(24) المصدر نفسه 1 : 171.
(25) المصدر نفسه 1 : 241.
(26) المصدر نفسه 1 : 272.
(27) المصدر نفسه 2 : 112.
(28) المصدر نفسه 2 : 156.

(29) المرادي سلك الدرر 2 : 208.
(30) المرادي سلك الدرر 2 285.
(31) المحبى : خلاصة الأثر 2. 437 – 438.
(32) المرادي : سلك الدرر 3 : 66.
(33) المرادي : سلك الدرر 3 : 55 – 67
(34) المرادي : سلك الدرر 3 : 147.
(35) المرادي : سلك الدرر ج 4 : 17.
(36) المرادي : سلك الدرر ج 4 : 27.
(37) المحبى : خلاصة الأثر 3 : 336 نقلا عن الشلي نفسه.
(38) المرادي : سلك الدرر 4 : 68.
(39) المرادي : سلك الدرر ج 4 : 86.
(40) المرادي : سلك الدرر ج 14 : 245.
(41) يوجد جزء من هذا المخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 1834 ضمن مجموع حول المخطوط وصاحبه انظر رسالتنا الجامعية تراجم مغربية في العصر الوسيط والحديث، مرجع سابق.
(42) الرحلة العياشية. ج 2 : ص 38.
(43) المصدر نفسه ج 2 : ص 38 وما بعدها.
(44) الشلي : عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، مخطوط الخزانة العامة بالرباط. د 1834. ورقة 271.
(45) محمد المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث. مطبعة الأمنية الرباط 1973. ج : 205.

مصادر ومراجع

محمد بن أبي الشلي الحضرمي : عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر»
مخطوط الخزانة العامة الرباط تحت رقم د 1834.

محمد أمين المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر
المطبعة الوهبية مصر 1284. أربعة أجزاء

محمد خليل المرادي : سلك الدرر في الحيان القرن الثاني عشر.
المطبعة الميرية بولاق مصر 1301.

أبو سالم العياشي : الرحلة العياشية. ماء الموائد. ط 2 بالاوفسيط، الرباط 1977.
تحقيق الدكتور محمد حجي.

ابن سليمان الروداني : صلة الخلف بموصول السلف.
منشور بتحقيق محمد حجي في مجلة معهد المخطوطات العربية من المجلد
1982/26 إلى المجلد 1985/29. الاصدار الجديد الكويت.

عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.
المطبعة الجديدة الطالعة فاس 1346.

محمد حجي : الحركة الفكرية في عهد السعديين.
مطبعة فضالة المحمدية 1976.

محمد المختار السوسي : سوس العالمة مطبعة فضالة المحمدية 1960.

حسن الصادقي : تراجم مغربية دفينة في العصر الوسيط والحديث.
د.د.ع. مرفون كلية الآداب الرباط 1988 - 1987.

محمد المنوني : مظاهر يقظة المغرب الحديث. مطبعة الأمنية الرباط 1973.

تطورات البنية الاقتصادية لتارودانت عبر التاريخ

زكي علي المجاطي
ثانوية الزرقطوني
أكادير

تحتل تارودانت مركز الدائرة في سهل سوس على الضفة اليمنى لنهر سوس فهي في موقع متوسط بين الأطلس الكبير شمالا والأطلس الصغير جنوبا، وفي موقع وسط كذلك بين رأس وادي سوس شمالا والمحيط الأطلسي غربا.

ويتكون السهل عموما من تربة رسوبية جيدة صالحة للزراعة، يتغذى نهر سوس من مسايل الأنهار والجداول التي تنحدر من الأطلسين الكبير الصغير، والسطح منحدر انحدارا خفيفا يتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وتتوفر المنطقة على فرشة هامة من المياه الجوفية التي تتغذى من الفيضانات في الخريف والشتاء ومن الثلوج التي تتراكم عادة على الأطلس الكبير، وأحيانا حتى على الأطلس الصغير ثم تذوب تدريجيا.

تتراوح التساقطات بين 400 ملم و600 ملم في السهل تقريبا وبين 600 ملم وألف ملم تقريبا في الجبل عند ارتفاع 800 م فاعلى. وينمو نبات السدر وغابة اركان في السهل وفي سفوح الأطلس إلى ارتفاع 800 م تقريبا.

ويتميز الصيف بجو حار جاف اما الشتاء فجوه بارد ليلا متقلب نهارا، وتهب على الوادي رياح النسيم البحري الذي يشتد غالبا في المساء حاملا حبات الرمل الدقية التي ساهمت في تكوين تربة غرينية هامة في عدة جهات من السهل.

من الناحية البشرية سكنت المنطقة قبائل الامازيغ من لمطة وجزولة ومصمودة منذ أقدم العهود، وانضافت إليها القبائل العربية الهلالية من بني معقل الحسانية الشبانية، وذلك منذ أواخر العصرالموحدي في منتصف القرن السابع الهجري. وقد امتزجت القبائل العربية بالامازيغ في السهل بينما بقي الجبل خالصا للامازيغ.

ويشكل تاريخ المنطقة جزءا من تاريخ المغرب بادواره المعروفة ولكن بحثنا هذا سينصب فقط على بعض الجوانب الاقتصادية لتاريخ هذا الاقليم السوسي الذي يعتبر في مقدمة الأقاليم المغربية التي ساهمت بالنصيب الأوفر في النشاط الاقتصادي للبلاد طيلة أحقاب من التاريخ، فقد سجلت كتب التاريخ والرحلات التي دونت في عهود مختلفة وصفا حيا وحافلا لغنى تارودانت وناحيتها مبرزة على الخصوص تميز المنطقة بحقول قصب السكر الذي يعز نظيرها لدرجة لفتت أنظار الجميع.

ومن الكتب التي تواتر عنها هذا الوصف كتاب «صورة الأرض» و«المسالك والممالك» لابن حوقل في منتصف القرن الرابع الهجري[1] وكتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الادريسي في منتصف القرن السادس الهجري[2] وكتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار» لمؤلف مجهول في العقد التاسع من القرن السادس هـ وكتاب «البيان المغرب في ذكر أحوال الأندلس والمغرب» لابن عذاري المراكشي في منتصف القرن السابع الهجري[3] وكتاب «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» لابن الوردي في أواسط القرن الثامن الهجري[4] وكتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»[4] لأبي العباس ابن فضل الله العمري وكتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر...) لابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري[5] وكتاب وصف افريقيا للرحالة الحسن الوزان في مطلع القرن العاشر الهجري[6]، وكتاب «مناهل الصفا» لعبد العزيز الفشتالي في مطلع القرن الحادي عشر الهجري[7]، هذا اضافة إلى تقارير بعض الرحل الأجانب[8]. ومن الأمثلة على ما كتبه أولئك المؤرخون هذه العبارة التي ننقلها عن مسالك ابن حوقل قال : «عن سوس وليس في المغرب كله بلدا أجمع ولا ناحية أوفر وأغزر وأكثر خيرا منها، قد جمعت فنون المأكل كلها، ذات الصرود والجروم[9]، فيها الأترج، والجوز واللوز والنخل وقصب السكر والسمسم والقنب وسائر البقول التي لا تكاد تجمتع بغيرها...»[10].

لا ريب أن هذا الازدهار الاقتصادي وهذا الترف العريض والغنى الواسع هو السبب الرئيسي لشهرة بلاد سوس وهو السر في اجتذابها لكثير من المهاجرين من مختلف اصقاع المغرب بل ومن خارج المغرب، فاستقروا واستطابوا المقام، وهو الركيزة التي انبنى عليها تميز هذه البلاد في المجالات الثقافية والفنية، والاجتماعية، كما أنه الباعث على ما تعرضت له من محاولات التسلل إليها من قبل الأجانب كالبرتغال والاسبان وغيرهم. وهو المسؤول كذلك عما انتابها من موجات الاجتياح والغزو من جانب بعض القبائل وخاصة القبائل

العربية الهلالية، وهو أخيرا الملهم والمحرك والمثير لسلسلة من القلاقل والثورات السياسية التي اندلعت في الاقليم والتي غطت سائر العهود في مختلف العصور التي مر بها تاريخ المغرب.

إن هذه الأحداث وتلك الحركات جميعا، يمكن إيضاح أسبابها العميقة وكشف عللها الغامضة ببيان علاقاتها الوثيقة المتينة بالأحوال المادية والظواهر الاقتصادية في الاقليم. فما هي هذه الظواهر الاقتصادية ؟ وما هي أبعادها و وما مجرى تطوراتها عبر التاريخ ؟

تلك هي الأسئلة التي يحاول هذا العرض مناقشتها في محاور ثلاثة وهي : أ – الفلاحة ب – الصناعة ج – التجارة.

أ. الفلاحـــة

البنيـة العقاريـة

الوضعية القانونية للعقار بهذه المدينة لم تكن دائما مستقرة على حال، بل تأثرت بالتقلبات السياسية والتطورات الاجتماعية التي شهدتها المنطقة، فكلما انتقلت مقاليد الأمور السياسية إلى أيدي جديدة انتقلت معها ملكية الأرض إلى ملاك جدد، وأعيد توزيعها حسب ما يتطلبه استقرار الوضع الجديد. ذلك أن كل متغلب يزعم أنه سيعيد الحق إلى نصابه بتنظيم الملكية وفق مقتضى الشريعة الاسلامية التي تعطي الحق للإمام في تخميس الأرض المفتوحة عنوة وفرض الخراج على البلاد المفتوحة صلحا، وقد تمسك المتغلبون دوما بالقول : ان البلاد فتحت عنوة مستدلين على ذلك بالأحداث الأولى للفتح لاسلامي، فالفاتحون الأولون منذ عهد عقبة بن نافع وموسى بن نصير قد اعتبروا أرض المغرب كلها فيئا وغنما، بل اعتبروا سكانها كذلك فيئا، فاسترقوهم واستعبدوهم، ولقي عقبة بن نافع وكثير من قادة الفتح مصرعهم من أجل ذلك كما هو معروف في التاريخ. وساق موسى بن نصير إلى المشرق عشرات الآلاف من أبناء البلاد وبناتهم سبايا توزع على أسواق النخاسة بالمشرق. قيل : أنه سبى سبعين ألف رأس من السبي في غزوة واحدة[11] وقيل : إن عقبة بن نافع لما دخل مدينة ايجلي بضاحية تارودانت أخذ منها سبيا «كانت تباع الجارية منه بألف دينار فأكثر لحسنها وتمام خلقها»[12] ويصف ابن عذاري اسراف موسى بن نصير في استرقاق البربر على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية فيذكر أنه كان في ركبه حين عودته إلى المشرق مئة من وجوه البربر «منهم كسيلة ابن لمزم ومنهم بنو يسور

ومزدانة ملك السوس»[13] وقال في معرض وصفه لاحتفال موسى بن نصير بعودة ابنه مروان من السوس : «خرج للقائه مع وجوه الناس، فلما التقيا قال مروان مروا لكل من خرج مع والدي بوصيف أو وصيفة. وقال موسى : مروا انتم لهم من عندي بمثل ذلك فرجع الناس كلهم بوصيف أو وصيفة»[14].

بهذه الوقائع يبرر المتغلبون تصرفهم في أراضي البلاد بالتوزيع والتخميس غير أن سكان سوس رفضوا هذا التصرف كما رفضه سائر المغاربة فثاروا عليه مما اضطر الفاتحين الذين جاءوا بعد موسى بن نصير إلى إعادة الفتح عدة مرات، فكتب عبيد الله بن الحبحاب إلى عماله في الأقاليم، ومنهم ابنه اسماعيل الذي ولاه على سوس يامرهم باسترقاق جميع البربر وتخميس أموالهم حتى ولو اسلموا[15] فتوالت الثورات وقتل اسماعيل المذكور ولم يستقر الحكم الاسلامي بالبلاد ولم يتم فتحها النهائي إلا بعد اعتناق أهلها الاسلام عن اقتناع ونهوضهم لنشره والدفاع عنه فاشكل بذلك أمر طبيعة الفتح، هل كان عنوة فيكون للدولة خمس الأرض ويوزع الباقي على الفاتحين أم كان صلحا فتكون البلاد أرض خراج وفق مقتضى الصلح ومنبع الإشكال تاخر الفتح الحقيقي إلى ما بعد اسلام أهل البلاد.

طرح السؤال منذ القرون الأولى،طرحه جوهر الصقلي عامل العبيديين وطرحه بعض عمال الحاجب المنصور ابن أبي عامر الأندلسي حين امتد حكمه إلى شمال المغرب[16] بل طرح السؤال قبل ذلك فاختلف فقهاء المالكية في الجواب، فروى ابن القاسم عن مالك أنها فتحت عنوة بالسيف ولذلك جعل المعادن ملكا للدولة، وروى غيره أنها فتحت صلحا فهي أرض خراج، وقال ثالث : بعضها عنوة وبعضها صلح، فمن بقي بيده شيء كان له، وجمهور أهل المغرب الأقصى يقولون أن أرضهم أسلم عليها أهلها فهي ملك لأصحابها لم تفتح لا عنوة ولا صلحا، وبهذا الرأي أجاب أهل فاس قائد المنصور ابن أبي عامر على لسان أبي جيدة بن أحمد اليزغتني المتوفي في الستينات من القرن الرابع الهجري[17].

أما بخصوص أرض سوس وبلاد المصامدة فقد تواترت الفتاوى بأنها كذلك أرض خالصة لأهلها ليس فيها صلح ولا عنوة، نقل ذلك الونشريسي في معياره (ج 9 د 6 ص 96)[18] وأيد ذلك أكثر فقهاء سوس.

ومع ذلك جرت العادة أن يصادر الغالبون أملاك المغلوبين يعيدوا توزيعها وفق مرادهم وبذريعة تطبيق الشريعة. كما أن كل الدول التي تعاقبت على المغرب قد فرضت الخراج على القبائل فيما بقي لها من الأراضي. ذكر ابن أبي زرع في القرطاس أن عبد المومن بن علي الكومي قد ذرع المغرب من طرابلس إلى أقصى سوس وقسط خراجه على القبائل[19].

في ضوء هذه الوقائع يتراءى لنا أن الوضعية القانونية للملكية العقارية قد تحددت منذ القرن الأول للهجرة على أساس الغلبة فاحتفظت الدولة في شخص حكامها بأجود الأراضي وأوسعها وأخصبها في السهول واقطعت منها لخدامها وأعوانها ما يكفي لسد حاجياتهم وفوتت البعض منها للخواص عن طريق البيع والاهداء كما أوقفت بعضها للمصلحة العامة ولخدمة الدين والعلم وغيرهما من الموافق الاجتماعية واقتدى الملاكون الخواص بالدولة في هذا المضمار فتصرفوا في أملاكهم بالبيع والإهداء والوقف وغير ذلك من ضروب التصرف.

أما جماهير السكان في البوادي فقد تركت الدولة لهم معظم أراضيهم في السهول والجبال يستغلونها مقابل واجبات سنوية بمثابة الخراج، فتحصل من هذا الجرد أن البنية العقارية لهذه المدينة وإقليمها قد انتظمت كما يلي :

1 – **ملكية الدولة** : تشغل مساحات شاسعة في المناطق المسقية حول وادي سوس وفي مناطق الدير الملاصقة للاطلسين الكبير والصغير الذين يحفان سهل سوس حيث تتفجر العيون والأنهار، وتتدفق السواقي والجداول.

وإذا كنا لا نتوفر على احصاءات مضبوطة نتيجة اغفال المصادر التاريخية لهذا الجانب، فإنه يمكن استنتاج أن الدولة كانت تستحوذ على أكثر من خمس الأراضي الصالحة للزراعة، وذلك اعتمادا على قانون الشريعة الاسلامية الذي هو مصدر هذا التملك ﴿واعلموا انما غنمت من شيء فان لله خمسه..﴾[20]. وتزيد هذه الملكية عن الخمس كلما اقدمت الدولة على مصادرة املاك بعض الخواص من العصاة أو من أعوان الدولة المتهمين بالخيانة والتآمر، الشيء الذي لم يكن يخلو منه زمان.

وفي العهد السعدي تعاظمت هذه الملكية حتى صارت أغلب الأراضي ــ من الناحية النظرية على الأقل ــ ملكا للدولة. يقول أحد المؤرخين الأجانب عن محمد الشيخ السعدي : «كان سيدا مطلقا في كل ما يملكه رعاياه، ولم يكن باستطاعة أحد أن يعتبر نفسه مالكا لأي شيء سواء كان مالا أو ربعاً[21]. وجاء في رسالة لأبي زيد عبد الرحمن ابن الوقاد التلمساني[22] قوله «فإن أمير المؤمنين الشريف الحسني مولانا محمد الشيخ رضي الله عنه وأولاده أمراء المسلمين قالوا : ان أرض سوس على حكم بيت المال وباعوا بقعها من يريد شرائها واذنوا للناس في احياء العيون والسواقي...»[23] وجاء في جواب لأبي مهدي السكتاني[24] قوله : «إن تارودانت مدينة قديمة، وما بازائها من الأراضي لأهلها، انجلوا عنها وتركوها وإن غارة العرب حادثة، وما انجلى عنه أهله وجهلت أربابه

فهو لبيت المال... وما يحتج به أولاد يحيى من أن البلاد لهم، وغصبوا فلا ينهض لأن البلاد كانت عامرة قبلهم... ولأن الغالب أنهم اجلوا أهلها وغصبوهم فيها على ما هو دأبهم إلى الآن...»[25].

2 – **ملكية الخواص** : أصل هذا النوع من الملكية هو الاقطاع الذي يكافىء به الملوك والأمراء خدامهم من الوزراء والولاة وقادة الأجناد والعلماء وبعض الأشخاص من ذوي النفوذ الروحي، ولذلك كانت في الأصل ملكيات واسعة ثم تفتحت لتصبح ملكيات صغيرة عن طريق تصرف الملاكين في أملاكهم بالبيع والإهداء، والوقف، ويمكن أن نميز هنا نوعين من هذه الملكية احدهما ملكيات صغيرة، والثاني ملكيات كبيرة ومتوسطة :

أولا : **الملكيات الصغيرة** : هذا النوع من الملكية هو السائد في تارودانت وفي أطراف سوس عموما طيلة الأحقاب الماضية من التاريخ. وهناك عدة عوامل ساهمت كثيرا في تفتيت الملكيات الكبيرة وانتشار ظاهرة الملكيات الصغيرة جدا، اذكر منها ما يلي :

1 – تعلق السوسيين بالأرض : لأنها عندهم المصدر الأساسي للعيش، فمهما كان الانسان فقيرا لابد أن يملك عقارا فلاحيا، أو يسعى لامتلاكه بالشراء أو بالزواج من امرأة تملكه، وإذا تعذر عليه الامتلاك بأي حيلة فإنه يبحث عن أرض مهجورة، أو في ملك الجماعة ويعمل في استصلاحها وفلاحتها حتى يمتلكها بالتعمير وطول مدة التصرف، وبسبب هذا الالتصاق بالأرض يحرص السوسي على الاحتفاظ بأرضه، ويمتنع من تفويتها، ويبذل كل ما يملك من الأموال المنقولة في سبيل امتلاك الأرض أو الحفاظ على ملكيتها. ونظرا لهذه العادة المستحكمة استثنى فقهاء سوس بيع الأملاك العقارية من صلاحيات الوكيل، قال أبو مهدي السكتاني «ان البلاد بأعرافها، والأملاك ببلاد سوس أعظم من دار للسكنى، فلا يتعدى الوكيل إلى بيع الأملاك خاصة»[26].

2 – **اشتراط العقار في صداق المرأة**[27]، من العادات القديمة والتي لا تزال قائمة في بعض بوادي سوس اشتراط العروس على الزوج أن يجعل صداقها أو هدية عرسها جزءا من ملكه العقاري مما يجعل الزواج في بعض الأحيان مقرونا بتجزئة الأرض. وإنما يعد أهل العروس إلى هذا الشرط لما يعرفونه من شدة حرص الزوج على عدم تفويت أي جزء من أرضه، فكلما فكر في الطلاق وتذكر الأرض التي سيفقدها بسببه تراجع عنه، غير أن الطلاق يصبح أحيانا ضرورة لا مفر منها فتترتب عنه تجزئة الأرض.

3 – **تفويت العقار بالرهن** : كثيرا ما يجد الفلاح أو مالك العقار نفسه أمام أزمة طارئة يضطر معها لرهن جزء من عقاره في مبلغ مالي أو قدر من الحبوب الغذائية أو نحو ذلك، فيتم ابرام عقد بين الراهن والمرهون له يتنقل العقار بموجبه من الأول للثاني الذي يحوزه ويستغله إلى أن يتمكن الأول من أداء دينه وارجاع المبلغ الذي تسلمه، ويسمون هذه العملية «بيع الثنايا والاقالة» وقد جرى العرف في أرض سوس بهذه المعاملة التي تنطوي على الربا المحض لأنها مجرد «سلف جر نفعا»[28] وفي أيام الدولة السعدية قام الفقهاء ضدها واستنكروها، وحدروا الناس منها وطلبوا من العدول عدم كتابة عقودها[29] لكن العوام تمسكوا بها لما فيها من تيسير عملية الاقتراض والذي يهم موضوعنا هو ان هذه العملية كثيرا ما تؤدي إلى تفويت نهائي للأرض لأن المدين يعجز في أغلب الأحيان عن الوفاء بدينه، فيبقى العقار في حوزة دائنه بصفة دائمة.

4 – **تجزئة الاراثة** : وهذا هو العامل الأكثر تأثيرا في تفتيت الملكية، وإن كان يسهم أحيانا في تضخيمها، وقد أراد ملوك الدولة السعدية الحد من تأثير هذا العامل لتحافظ الملكيات على حجم معقول يضمن للاستغلال حدا أدنى من المردودية، فقرروا منع النساء من الارث في نواحي شتى من أرض سوس، «... فالأمر الشائع الذائع، الظاهر عند العامة والخاصة أن سادتنا الشرفاء... قد اسقطوا ارث النساء ومهورهن[30] وصدقات الأحباس في جميع الشائعة من الأراضي المصلبة المعروفة لبيت المال في جل أماكن وادي سوس، وهو زيوة، والملت، وزكَمزي، وغيرهما... وحتموا الامتثال لذلك على القبائل من عهد الامام ممدا لشيخ المهدي الأمر بذلك عن مشورة القضاة والعلماء...»[31].

ولعل هذا الاجراء كان أقدم من عهد السعديين، فقد بحث القاضي أبو مهدي عيسى السكتاني عن مرجع المسألة ومستندها الشرعي فلم يجده. قال : «وكنا سألنا غير واحد عن المستند الشرعي في ذلك فلم نجده، وكنت كلمت السلطان الأعظم مولاي أحمد المنصور رحمه الله عن ذلك فقال لي : كذلك وجدنا ذلك !»[32] ومعلوم أن للسوسيين تقاليد وأعرافا بمثابة قوانين يضعها نفاليسهم[33] ويسطرونها في ألواح هي عمدتهم في كثير من القضايا الجنائية والجنحية خاصة. وقد انتقد الفقهاء هذه الألواح لان بعضها مخالف للشريعة الاسلامية[35]، فهل يكون منع النساء من الارث آتيا من تلك الألواح ؟

ثانيا : **الملكيات الكبيرة والمتوسطة** : كان هذا النوع من الملكيات موجودا بتارودانت وناحيتها ويكرس أحيانا عن طريق الاقطاعات السلطانية والامتيازات التي تتمتع بها بعض العائلات وخاصة تلك التي تتصدر للقيام بأعمال البر والاحسان في إطار زوايا

ومؤسسات دينية وتعليمية، يستنتج ذلك مما يمنح لتلك العائلات من ظهائر التوقير والتحرير من الكلف المخزنية والانعام باعشار وزكوات منطقة معينة، ويمكن أن نشير هنا إلى بعض النماذج لكبار المتملكين من أهل الزوايا وأشباههم :

1 – **عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي** :[36] فقد ورد إلى سوس وأذن له السلطان عبد الله الغالب بالنزول في قرية تافيلالت بإذاوزداغ بضاحية تارودانت، فاشتغل بالتدريس والتربية الدينية، واستفاد من عطف ورعاية الدولة فنمت أملاكه نموا كبيرا في السهل والجبل[37] وازداد نفوذه حتى حامت حوله الشكوك والشبهات فاتجه نحوه جيش المنصور السعدي وخيم بازاء زاويته يتربص به ففر منها إلى قلعة له بأعلى الجبل، وعكف فيها زمنا حتى استدعى المنصور جيشه في إطار التعبئة لغزو السودان[38].

وفي نوازل أبي مهدي السكتاني «نازلة الشيخ سيدي عبد الله بن سعيد الذي ملك نصف ساقية جيرانة..»[39].

2 – عياد بن عبد الله السوسي :[40] الذي توفي ودفن بقرية (تامازت) في أولاد برحيل شرق تارودانت سنة 983 هـ كانت له أملاك واسعة يفلحها وينفق منها بسخاء على رواد زاويته فيقصده العديد من المحتاجين في أوقات شح المؤن يطلبون منه الزرع بالسلف قال عنه التمنارتي في الفوائد الجمة : «الولي الصالح الفلاح عيادي بن عبد الله السوسي... إذا فضل الزرع عن قوام زاويته سلفه للناس وقت الحاجة، وإذا جاء وقت الزرع قطع بروات السلف ويقول للمتسلفين : اذهبوا فقد كفيتمونا مؤونة الطبخ[41].

3 – وفي نوازل أبي مهدي السكتاني عدد من الشكايات التي يتقدم بها سكان بعض الأحياء من مدينة تارودانت ضد كبار الملاكين يطالبونهم بأداء واجباتهم مع الجماعة إزاء مساجد أحيائهم حسب ممتلكاتهم من الدور والأراضي وليس حسب عدد افرادهم أو أسرهم فمن ذلك نازلة «رجل سكن دربا بحضرة تارودانت بسوس في زمن الشرفاء وملك أكثر دور الدرب الذي سكنه...»[42] ومنها نازلة «رجل بهذه المدينة (تارودانت) له دور في الحومة سكن بعضها وبقي البعض بلا عمران وردم منها بقاعا جعلها بحائر بعد أن هدم انقاضها وغرسها...»[43] ومنها «مسألة وقع النزاع عليها بهذه الحاضرة السوسية المحمدية، وذلك أن سيدي يحيى بن عبد الله التملي بنى مسجدا بدربه لم يعنه أحد ولا اتفق معه في بنائه ممن له دار بخارج دربه وكان يقوم به وحبس عليه حوانيت، واستمر كذلك من حيث بني إلى الآن...»[44].

فهذه اللقطات تشير إلى وجود ملكيات كبيرة ومتوسطة إلى جانب الملكيات الصغيرة التي هي الظاهرة السائدة في المنطقة، بل وتشير حتى إلى التناقض الطبقي هناك.

3 - **أراضي الأحباس** : تنتشر أراضي الأحباس في المناطق السقوية على الخصوص وقد نمت على مر الزمن فاحتلت مساحات شاسعة، وكان النظر فيها للامام، ثم عهد بالسهر عليها للقضاء ثم جعل شأنها لمشرف يدعى «الناظر» وتميز هذا القطاع بكونه ينمو أكثر من غيره بما يضاف إليه كل عام من هدايا وتبرعات المحسنين في حين أنه غير قابل للتفويت. في الغالب يمكن تقديم حجم ملكية أراضي الأحباس المسقية في أواسط القرن الحالي بنحو النصف من مجموع الأراضي التي تسقيها ساقية تارودانت[44م].

4 - **أراضي الجماعات** : توجد أراضي الجماعات في السهوب الجافة والمراعي الجبلية موزعة حسب القبائل ومواطن استقرارها وانتاجعها، فروعي في التقسيم أن تحتل كل قبيلة نصيبها في السهل للزراعة ونصيبها في الغابة للرعي والانتفاع بالأشجار البرية ونصيبها في الجبل للانتجاع صيفا، وللاعتصام وقت الخوف. وهذا التقسيم الطولي ما زال قائما الآن[45].

كيفية استغلال الأراضي

1 - **في القطاع الخاص** : في هذا القطاع يتم استغلال الأرض مباشرة حيث كان كل فلاح يعمل في أرضه بمساعدة عياله وأفراد أسرته وخاصة أصحاب الملكيات الصغيرة، وقد يفتقر الملاك الصغير إلى وسائل العمل كالبذور أو حيوان جر المحراث فيستعين بغيره في إطار شركة يساهم فيها ذلك الغير بما ينقصه. وقد احتفظت كتب النوازل بصور لهذه الشركات في العهد السعدي أسوق منها «مسألة كثر ارتكان الناس إليها في هذا الوقت، وهي أن يجعل أحد المزارعين بقرته خاصةويجعل الآخر العمل بيده والزريعة والأرض على أجزاء يتراضيان عليها مثل الثمن لصاحب البقرة والباقي للآخر[46].

أما أصحاب الملكيات الكبيرة والمتوسطة فإنهم يعتمدون أيضا على الاستغلال المباشر مستخدمين العبيد والخدم والاجراء، وقد يقطعون العمل في أراضيهم لصغار الفلاحين مقابل حصة من الانتاج وهي في الغالب الربع في البور والخمس في الأراضي المسقية[46].

2 – **في أملاك الدولة والأحباس** : يتم استغلال أراضي الدولة مباشرة عن طريق السخرة المنتظمة بواسطة العبيد وعن طريق السخرة الاجبارية مناوبة بين السكان كما يتم كراؤها واقطاعها مقابل نصيب محدد، وقد تميز العهد السعدي بتوسع الدولة في استغلالاتها المباشرة بأرض سوس كما سنرى ذلك عند الحديث عن التجهيزات والتقنيات الفلاحية أما أراضي الاحباس فإن استغلالها انما يتم بالكراء، أو مقابل نصيب معين كالخمس مثلا.

3 – في الأراضي الجماعية : ويتم استغلال الأراضي الجماعية من طرف أفراد القبيلة كل لحسابه الخاص ويقوم البعض باحياء أرض موات فتكون له، وذلك باستصلاحها وتمهيدها واجراء المياه فيها، واذا تكرر استغلال فرد لبقعة معينة سنوات متوالية صارت في عداد ملكه الخاص، فانحصرت بذلك أراضي الجماعات في الغابات والمراعي التي ينتفع منها الجميع على قدم المساواة.

التقنيات والتجهيزات الفلاحية

اهتم سكان المنطقة منذ عهود سحيقة باستغلال مياه نهر سوس وروافده وكذا مياه الأنهار والنهيرات والجداول التي تنحدر من الجبال المجاورة وخاصة أوقات الفيضان وذوبان الثلوج، فبذلوا في ذلك جهودا حثيثة استهدفت السيطرة على هذه المياه وتنظيم استغلالها على أحسن وجه، وأثناء تلك الجهود اكتشفوا جملة من الينابيع في المجرى الرئيسي للنهر فساقوها لتغذية شبكة من السواقي تخترق المدينة وأحوازها فتستغل في ادارة الأرحية وفي سقي الحقول، كما فجروا العيون والسواقي عند سفوح الجبال وساقوها عبر قنوات مبنية ومحمولة أحيانا فوق الأسوار والقناطر لتصل إلى خزانات وصهاريج لتنظيم الري في الأراضي الصالحة لذلك.

ولما كانت الدولة تملك أوسع الأراضي الفلاحية واغناها في المنطقة فإنها كانت تتدخل بواسطة الحاكم[47] في الاقليم لشق الترع ومد السواقي وبناء الخزانات وصيانة شبكات الصرف، ولا تزال آثار بعض تلك الأعمال قائمة وهي تنم عن خبرة عالية في فنون البناء وهندسة المياه، والهندسة الزراعية.

ولعل التوسع في هذه المشاريع كان قد انطلق منذ عهد المرابطين الذين ظهر من آثارهم في أحواز مراكش وبلاد الأندلس وغيرهما ما لابد أن يكون له امتداد في جهات أخرى من البلاد، وخاصة حوض السوس الذي يتوفر على خصائص ومميزات فريدة تجعله

أيسر استغلالا وأغنى انتاجا فيها لو قورن بحوز مراكش مثلا ونظرا لبساطة التجهيزات التي يتطلبها استغلال الثروات المائية في المنطقة آنذاك (عيون — آبار — سواقي — صهاريج) فانه يمكن القول بأن هذه التجهيزات كانت تنشأ وتندثر ثم تجدد حسب الحاجة إلى أن جاء العهد السعدي الذي بلغ فيه التوسع الفلاحي أوجه باقليم تارودانت.

ومهما يكن فقد خلفت لنا العهود الماضية شبكة واسعة من القنوات والمصارف المائية تغطي كل السهل الذي تتوسطه تارودانت ويمتد من سفوح الأطلس الكبير شمالا إلى سفوح الأطلس الصغير جنوبا، ومن رأس وادي سوس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. ولذلك سيقتصر وصفي على عدد محدود من فروع هذه الشبكة حسب ما تتبعته في الميدان مستعينا بخريطة تارودانت الطبغرافية ذات القياس **1/50000** التي انجزها قسم الخريطة سنة **1922** واعيد طبعها سنة **1955**، وفيما يلي هذا الوصف :

– **ساقية تافلاكت** : توخذ هذه الساقية من وادي سوس إلى الشرق من تارودانت قبالة (فريجة) وعند نقطة من النهر تعلو عن مستوى سطح البحر بـ **259** م وتسير في اتجاه المدينة فتدخل إليها من جهة الشمال عند باب الخميس، وبعد أن تخترق حقولها الداخلية تغادرها من الشمال الغربي عند باب أولاد بنونة، فتستمر محاذية للوادي الواعر إلى دوار الطالعة بالكلالشا، فيكون طولها حوالي **20** كلم.

هذه هي الساقية الكبيرة التي شاهدها بتارودانت الرحالون والمؤرخون فوصفوها أوصافا ظلت تحتفظ بها إلى وقت متأخر من عصرنا هذا. قال فيها ابن عذاري : «... وشاهدت (الناس) وصفا حفيلا وبلدا خصيبا، وذلكم أن ساقية كبيرة ارتفعت من وادي سوس إلى تارودانت وعليها العمارة والسكنى والرياضات وكل دار بازائها رياض، وفيها من الأشجار أنواع واتصل هذا المجموع بعضه ببعض في بسيط معتدل الهواء فسيح الأرجاء...»[48].

وفي وقت سابق من التاريخ ولعل ذلك كان في العهد السعدي تم تمديد هذه الساقية حتى عبرت الوادي الواعر في منطقة الكلالشا المسماة (الصهريج) وذلك عبر قناة محمولة فوق أقواس محكمة البناء لتنقل المياه إلى الضفة اليمنى للوادي الواعر، وتوجد هناك آثار صهريج كبير لتجميع المياه قبل ارسالها نحو الأراضي الواسعة في منطقة اداو مومن وأولاد ابراهيم. وقد بذلت في تشيد القناة المعلقة جهود جبارة تكشف عن همة عالية وطموح كبير، وهي تذكر بالسواقي المحمولة فوق الأسوار التي شيدها السعديون لتنظيم الري وادارة أرحية المعامل في كثير من الجهات، كما تذكر بالقنوات المدفونة والمنحوتة من الصخر أحيانا

والتي أنشأها المرابطون في أحواز مراكش وغيرها. ولا تزال آثار وأطلال هذه الساقية العجيبة ماثلة شامخة تتحدى صروف الدهر في زهو وخيلاء رغم أنها تقوم في وسط نهر اختص في المنطقة بلقب (الواعر) أي الشديد الصعب، وهذا ما جعل الخرافة الشعبية تنسب بناءها للجن أو لبرقيس (البرتغال)، وقد انجز بول ميريتيني بحثا ضافيا حول ساقية تافلاكت وتوقف كثيرا عند هذه القناة المعلقة فوق الوادي الواعر فمال إلى نسبة بنائها للرومان والبحث منشور في أحد عداد مجلة هيسبريس تمودا... تتميز ساقية تافلاكت بامتدادها بمحاذاة الحافة العليا لمجال تارودانت الواقع بين وادي سوس والوادي الواعر، ولذلك فهي قادرة (بحكم طبيعة الأرض المائلة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، على اختراق جميع أجزاء هذه الخاصية فهي تتدفق بقوة وتشق سائر الحقول وتخترق السواقي الأخرى وتصب فيها عند الحاجة وهذه المعاني هي التي توديها كلمة (تافلاكت) في الأمازيغية. ويمكن أيضا أن تكون قد اخذت اسمها من اسم احد الأشخاص، فقد ورد اسم (الفلاكي) وهو اندلسي يشار إليه أحيانا بـ (العلج) وكان قائدا لجيش المرابطين الذي تصدى وقتا طويلا لهجمات الموحدين على تارودانت ومنطقة سوس. قال ابن القطان في نظم الجمان :

«... وصارت حصون الفلاكي كلها لهم (للموحدين)، وصار الفلاكي يغير على جهات السوس...»[49] فهل تكون الساقية انجزت تحت اشراف هذا القائد فحملت اسمه ؟ مهما يكن فإن البعض قد ذهب إلى أبعد من هذا وتخيل أن إسم تارودانت القديمة كان هو (فالا) إذن هذه الساقية قد أخذت اسمها من هناك أو لم لا ؟

2 – **ساقية تاملالت** : توخذ من نهر سوس جنوب أولاد عرفة شرق المدينة عند نقطة ارتفاع 250 م عن مستوى سطح البحر وتستمر موازية لتافلاكت من الجنوب إلى أحد أحياء المدينة اسمها (تاركا نتملالت) كما يسمى احدا لاحياء التي تمر منها : (أكافاي) وهو مصطلح يعني في الأمازيغية محطة توزيع المياه. وبعد ان تخرج الساقية من غرب المدينة شمال باب تارغونت تستمر في اتجاه الغرب إلى الكلالشا.

3 – **ساقية تارغونت** : تشق مجراها إلى الجنوب من مجرى تاملالت وتوخذ من نهر سوس في المكان المسمى (بولبارود) عند نقطة ارتفاع 239 م ثم تنساب جهة الغرب فلا تدخل إلى المدينة ولكن اسمها يطلق على أحد أبوابها لأنه يودي إلى المناطق التي تسقيها، وتمر بعدد من أرباض المدينة مثل (بويفركان) و(بوتاريالت) وعندما تصل إلى (الزيدانية)[50] يصبح اتجاهها شمالي غربي حتى تلتقي بتاملالت وتافلاكت.

4 - **ساقية (تافوكت) أي الشمس** : توخذ من وادي سوس في نفس المكان الذي توخذ منه تارغونت وتشق مجراها جنوب مجرى تارغونت فتمر في أولاد الحلوف ودوار الصهريج وتنتهي إلى حيث انتهت السواقي السابقة.

5 - **ساقية بادازا** : توخذ من نهر سوس عند ارتفاع 215 م قريبا من اولاد الحلوف ثم تمتد غربا إلى الكلالشا، فينحدر فرع منها إلى دوار البيضة عند قدم كدية (البيضة) بينما يرتبط فرع منها بمنطقة الصهريج التي تلتقي فيها كل السواقي السابقة حيث يمكن ربطها جميعا بالقناة المعلقة فوق الوادي الواعر.

6 - **ساقية المحارزية** : تمتد هذه الساقية مسافة لا تقل عن ثلاثين كلم وتؤخذ من نهر سوس عند ارتفاعه عن مستوى البحر بـ 241 م أمام دوار أولاد عميرة في الضفة اليسرى للنهر شمال كدية سيدي بورجا، ثم تبتعد عن النهر شيئا فشيئا في اتجاه الجنوب الغربي منحدرة نحو هوارة فتمر على دواوير أولاد ترنة — أولاد عبو — أدوار تتخلل بلاد النبك والبراكيك حيث الارتفاع يتراوح بني 210 م و220 م وهناك ترتبط بالسواقي الاتي ذكرها، ويكاد يقتصر استعمال هذه الساقية الآن على مواسم الفيضان. وإن كانت في الماضي من أهم السواقي التي اعتمدت عليها زراعة السكر.

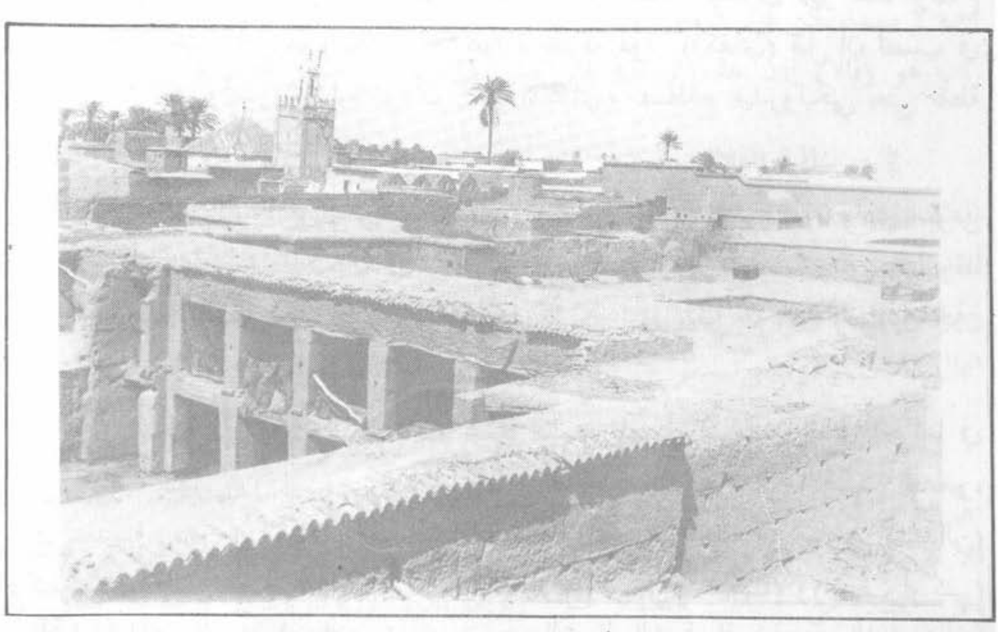
7 - **ساقية تارحوزين (تاوزينت)** : توخذ من الضفة اليسرى لنهر عند ارتفاع 200 م إزاء مأخذ (بادازا)، وتنحدر نحو هوارة مخترقة دوار (أكفاي) قبل أن تصب في ساقية (العيساوية)، وتجدر الاشارة إلى أن كلمة (أكفاي) مصطلح هيدروليكي يعني نقطة توزيع أو تغيير اتجاه ماء الساقية.

8 - **ساقية العيساوية** : توخذ من الضفة اليسرى للنهر عند قنطرة وادي سوس وتنحدر نحو هوارة مخترقة الكردان في اتجاه الغرب، وتصب فيها المحارزية وتاوزينت وقد جفت الآن هذه الساقية لكنها ما زالت تلعب دورا كبيرا في سقي الزياتين وبساتين التين وحقول الزرع في أيام الفيضان.

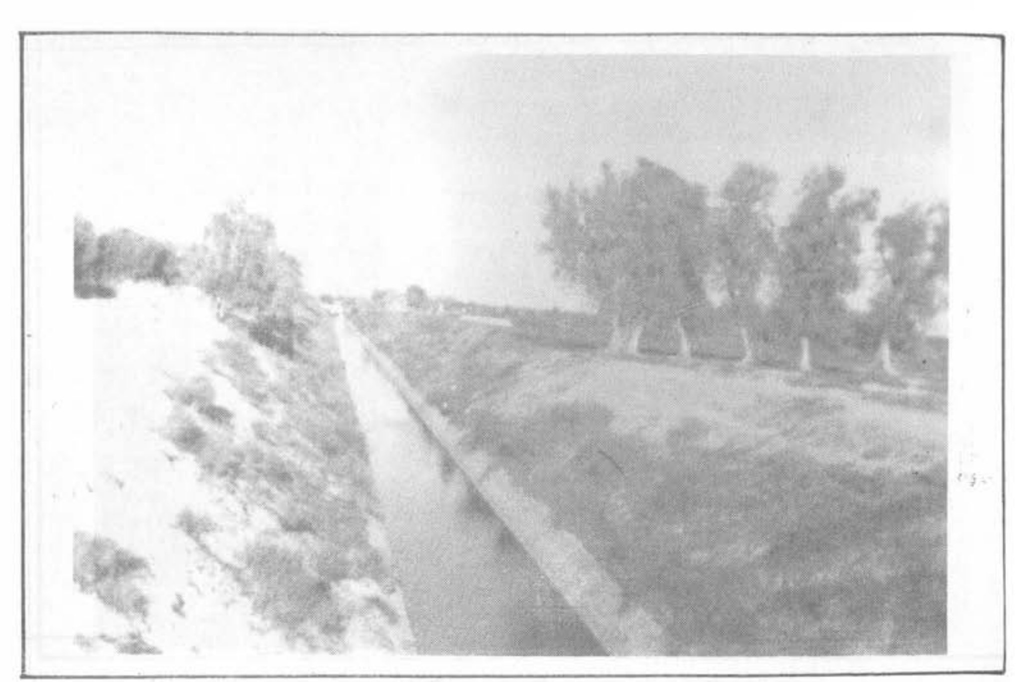
9 - **ساقية المهدية** : سميت باسم محمد الشيخ المهدي السعدي الذي اجراها في أقصى جنوب سهل تارودانت مستغلا مخاريط الانصبابات المنحدرة من الأطلس الصغير، فساق لتغذيتها عددا من العيون والجداويل المنحدرة والمتفجرة خاصة من مناطق (اسندالن) و(كطيوة) بالأطلس الصغير مثل (أسيف أوفرا) و(أسيف ايمي نتيدكت) و(أسيف أوكني) أو (أضاروامان) و(أسيف اوساضس) وتنحدر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي محاذية السفح وخط ارتفاع 250 م تقريبا.



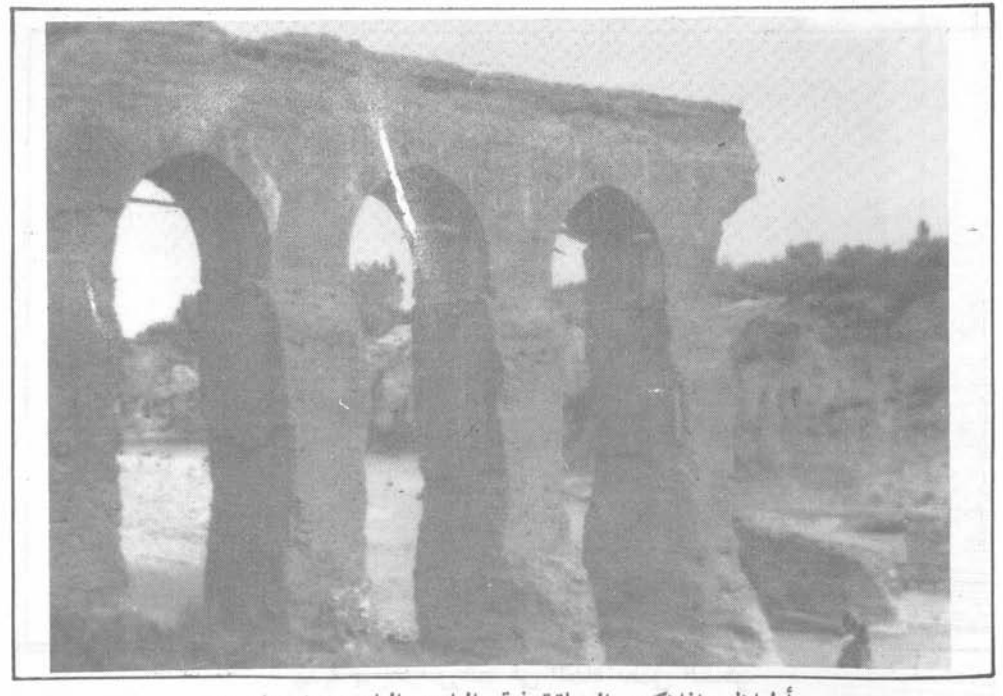
فرسان تارودانت أمام باب القصبة
في مطلع القرن العشرين



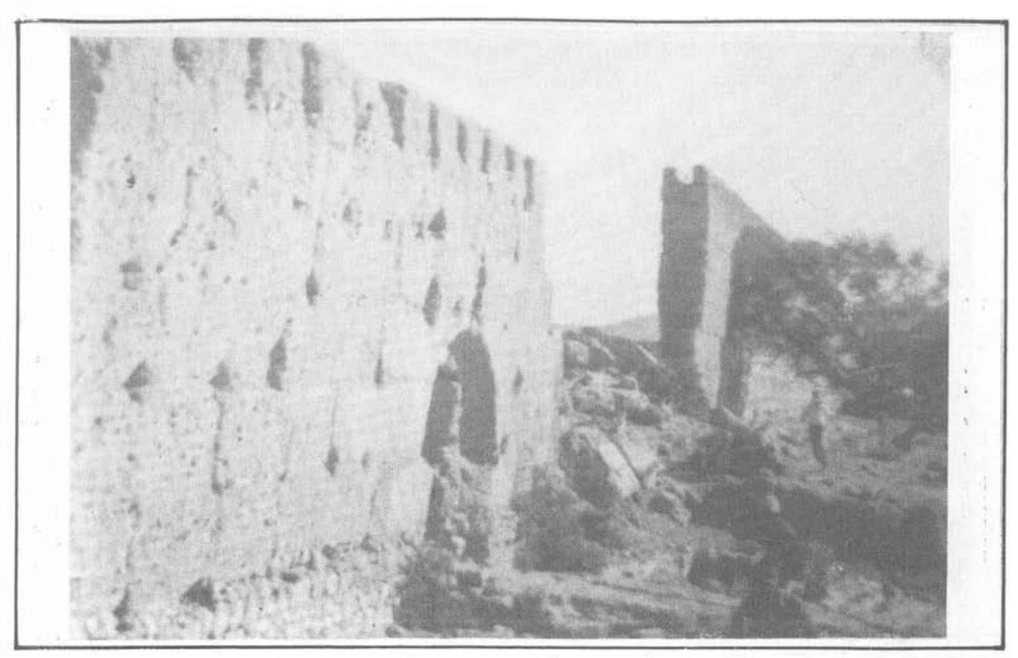
جانب من بقايا أحد الفنادق ـ تارودانت (فندق الجلد)



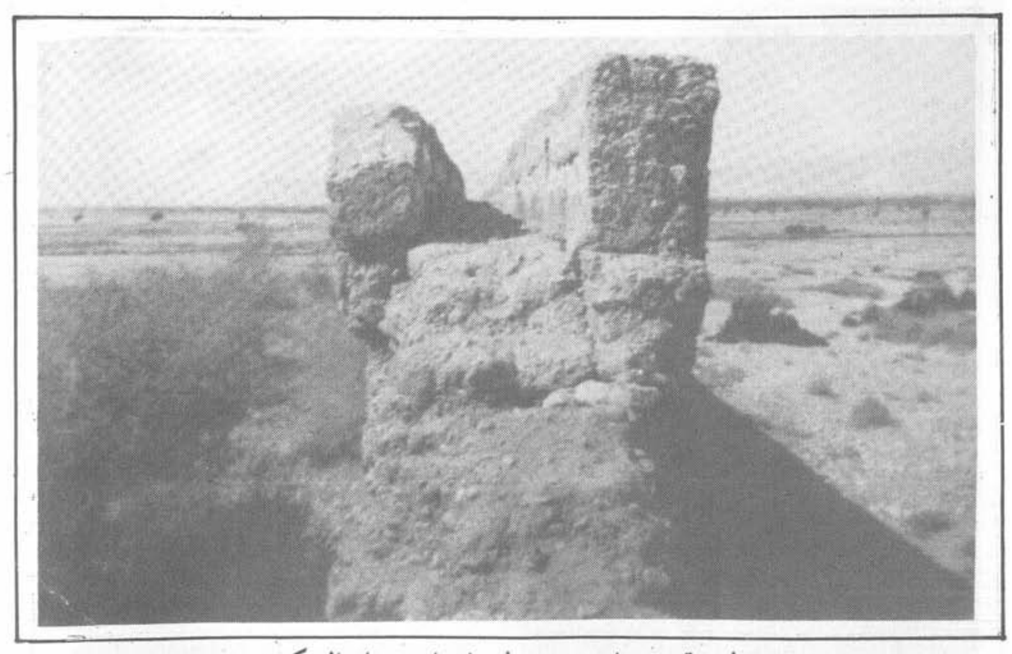
ساقيــة تارودانــت (تافلاكـت)



أطـلال تافلاكت المعلقة فوق الوادي الواعر بتـارودانــت

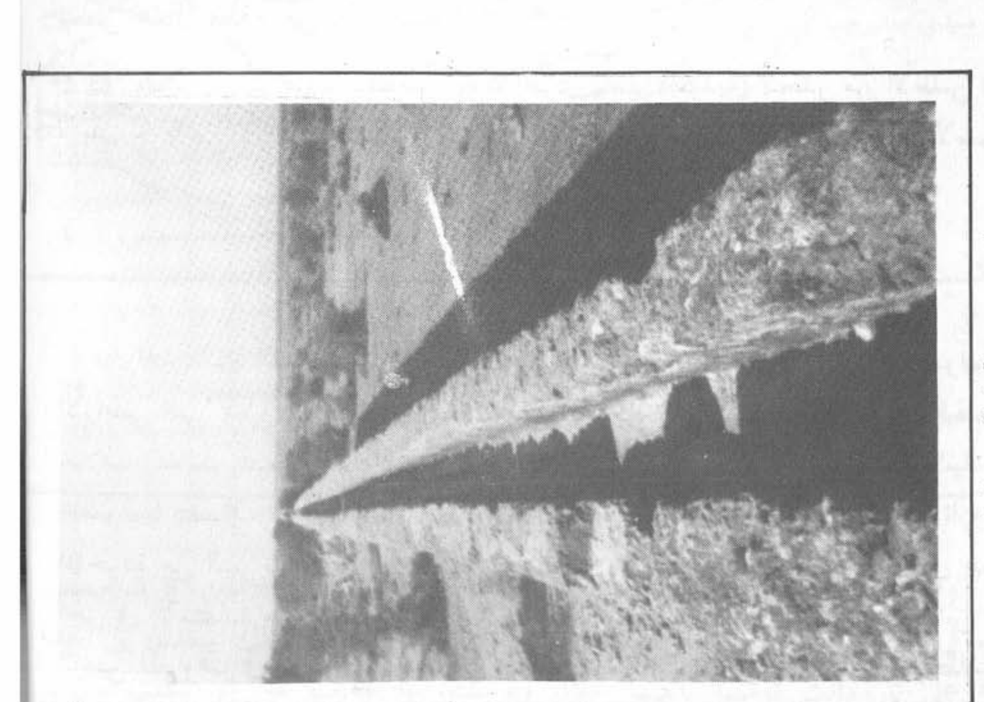


جانب من أطلال معمل السكر بضاحية تارودانت



لهدبة بـ «تازمورت» في اتجاه معمل السكر

منتهى الساقية والشلال المحرك
لطاحونة المعمل – تارودانت –



جانب من ساقية المهدية بإميز
في اتجاه معمل السكر

وقد اندرست الآن هذه الساقية التي كانت تتشكل في الحقيقة من مجموعة من السواقي يغذي كل واحدة منها أحد الجداول المذكورة آنفا وخاصة أيام الفيضان. وكانت مياه كل ساقية تجمع في السفح بعد خروجها من الجبل ثم تحمل عبر قناة، محمولة فوق سور ضخم يختار له مكان خفيف الانحدار في اتجاه الغرب فيمد مسافة نحو ألف ميتر تقريبا ثم ينتهي بميزاب يعلو حوالي 10 م تتساقط منه المياه بقوة لتدير عجلة مائية ضخمة ثم يمر الماء إلى خزان ضخم يجمع فيه لاستغلاله في السقي بقدر الحاجة، وتلك هي القنوات المتخذة لا دارة أرحية معامل السكر في أولاد مسعود وتازمورت وايميز والكردان وغيرها.

ونظرا لتواجد هذه القنوات في خط واحد تقريبا فقد زعمت الخرافة الشعبية أنها ساقية واحدة كانت تمتد من أولوز برأس وادي سوس إلى أكادير أي حوالي 160 كلم تقريبا فمال حتى بعض الباحثين لتصديق هذه الخرافة[51]. أما تسمية مجموعها باسم المهدية فإن المقصود به تسمية مجموع الأراضي المسقية في الناحية بهذا الاسم لانتظامها جميعا في منظومة زراعية واحدة من تخطيط وإنشاء محمد الشيخ السعدي المهدي. وقد اعطت هذه الساقية اسمها لاحد دواوير المنطقة، فيدعى (المهادي) ولعله كان قرية خاصة ببعض عمال قطاع من هذه الساقية.

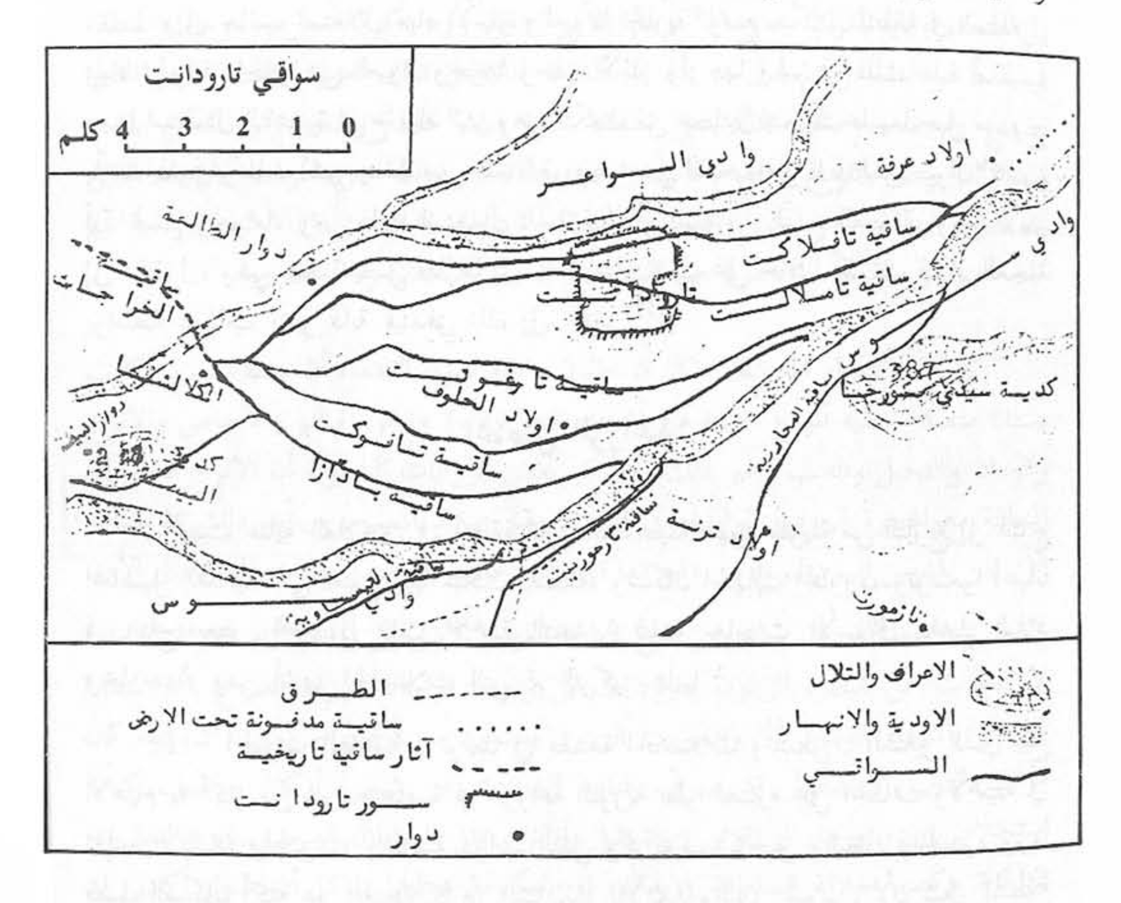
ونشر إلى أن هناك منظومة سقوية أخرى باسم (المهدية) تنحدر من الأطلس الكبير كما أن جزءا من الأراضي المسقية في منطقتي تافلاكت وتاملالت تحمل أيضا هذا الاسم[52].

ملكية مياه السواقي

تعتبر مياه السواقي في تارودانت مياها عمومية تستفيد منها على حد سواء جميع الأراضي التي يمكن أن تسقى بها مع تحديد الأماكن التي تسقيها عادة كل ساقية وذلك خلاف التقاليد المتبعة في سواقي وعيون جهات سوس الأخرى[53] حيث تعتبر المياه ملكا خصوصيا يتصرف فيه مالكوه بالبيع والوقف والرهن والكراء، فمياه السواقي في تارودانت المأخوذة من النهر تابعة للأراضي وكل من امتلك أرضا في مجال احدى السواقي صار له الحق في الاستفادة من مائها ومن أجل ذلك لا يتم تقسيم المياه على الفلاحين بأساس المعيار الزمني المعروف في كل جهات سوس بـ(اليوم) أو (تيرمته) أو (الساعة) أو (الطاسة) أو (تناست).. إلخ[54] وفي ذلك تطبيق للشريعة الاسلامية، اذ نص الفقهاء على أن مياه الأنهار شأنها شأن الغابات تعد من الملك العام[55].

ومن أجل توزيع المياه على الحقول بالعدل ينتخب الفلاحون العاملون في كل ساقية موزعا يسمونه (أمازال) أي الساعي، ويعتبر (أمازال) هذا مرجعا وحكما في بعض المنازعات التي تنشأ بين الفلاحين بخصوص الأراضي وطرقاتها وحدودها ومصارف مياهها.

بقي أن نشير إلى أن هذه السواقي توخذ من النهر بواسطة سدود من الأتربة والحجارة تسمى (أوكوك) وهذه السدود تتعرض لعتو النهر أيام الفيضان فيقوم الفلاحون باصلاحها وتنظيف قنواتها كلما حل بها عطب.



وقد يشتط بعض الحكام في فرض هذه الخدمة على صغار الفلاحين كما قد يجحف بحقهم في استغلال نصيبهم من المياه، يتضح ذلك من رسالة وجهها ملك سعدي إلى أحد عماله على تارودانت يوصيه بأهلها خيرا، ولاشك أنها جاءت على إثر تظلم، قال: «واردعوا من يشتغل بالظلم، فان ذلك مما لا نرضاه، ولا نقبله، كمثل فريضة خدمة السواقي

التي يفرضها الحاكم ويجحف بالمساكين فيها، فلهذا كان ذلك في أيدي العدول الثقاة، دفعا للحيف ورفقا بالمساكين، كساقية تارودانت، فلا تخرقوا العادة الواصلة فيها للمساكين من عهد أوليائنا قدسهم الله...»[56]

استغلال المياه الجوفية

وإلى جانب استغلال مياه الأنهار والعيون الجارية توسع سكان المنطقة في استغلال المياه الجوفية بالحفر على العيون وجرها وحفر الآبار ونزحها ولهم في ذلك عدة أساليب ومنها استعمال الناعورة لنزح مياه البئر وهي تتكون من عجلتين يتحرك عليهما حبل مزدوج يأخذ بطرفي وطاب كبير يتخذ من جلد البقر ويستعمل لسحبه من قاع البئر حيوان كالثور أو الجمل ونحوهما، ومن ذلك استعمال السانية لنزح المياه من الترع العميقة، ومن الأبار إلى الحقول، وهي عجلة يصل قطرها إلى عدة أمتار تثبت على حافتها أكواب فتدار العجلة بواسطة دولاب تدير دابة فيتدفق الماء إلى الحقل[57].

المحاصل الزراعية

اتجهت عناية الفلاحين في منطقة تارودانت طيلة عهود طويلة من التاريخ إلى انتاج المحاصيل الغذائية التي يحتاج إليها سكان المنطقة، وسكان الجهات المجاورة، وتوسعوا أحيانا في انتاج بعض المحاصيل ذات الأهمية التجارية لتلبية حاجات الأسواق داخل البلاد وخارجها، ومن أشهر الحاصلات التي تم التركيز عليها :

1 – **الحبوب الغذائية** : توجد في مقدمة الحاصلات وتشمل : **الشعير** الذي يقع الاهتمام به أكثر من غيره وخاصة في الزراعة البورية نظرا لصبره على الجفاف ولأهميته في تغذية الانسان والحيوان، وخاصة دواب النقل والركوب كالخيل والبغال والحمير، وربما فضل السكان أكله على الحنطة كما هو الشأن إلى الآن بوادي سوس، لأن شعير المنطقة يتميز بجودة خاصة لاحظها حتى بعض المؤرخين القدماء.

قال الوزان عند وصف جبل هنكيسة (الأطلس الصغير) بجنوب تارودانت : «ولا ينبت القمح في هذا الجبل، إنما يكثر فيه الشعير والعسل»[58] وقال عند وصف تيوت بضاحية تارودانت : «وتنتج هذه الأرض كمية عظيمة من القمح والشعير وغير ذلك من الحبوب

والخضر»[59] وعند الحديث عن تيدسي قال : «وهذه البلاد منتجة خصبة تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر، وأشجار النيلة...»[60] ومن هذه الحبوب **الذرة** والمقصود بها الذرة الشامية البيضاء التي كانت تزرع في الأراضي المسقية، وتصلح سيقانها علفا للماشية وخاصة الأبقار الحلوب، كما يتخذ من حبوبها الخبز ونوع من السميد (باداز) وقد ذكرنا إحدى السواقي باسم (بادازا)، ولعلها قد أخذت إسمها من هذا الغذاء الذي يتخذ من أهم محصول يزرع عليها وهو هذه الذرة، أما الذرة الأمريكية فقد تأخر دخولها إلى المنطقة وإلى المغرب عموما[61]،ومنها **الأرز** : فقد ورد ذكره ضمن مزروعات المنطقة في عدد من المصادر مما يدل على أن الامكانات المائية في تلك العهود كانت بالقدر الذي يسمح بزراعته، وصف الادريسي المنطقة بأنها (بلد حنطة وشعير وارز ممكن بايسر قيمة[62]، ومنها القمح : فقد كانت زراعته شائعة وخاصة من طرف الأغنياء الذين يخصصون لزراعته جزءا من أراضيهم الواسعة، أما صغار الفلاحين فإن الشعير بالنسبة لهم كان أهم من القمح لما ذكرنا من صلاحيته لتغذية الانسان والحيوان معا.

2 – **الأشجار المثمرة** : ذكر الرحالون والجغرافيون القدماء أن منطقة سوس كانت بستانا متصلا تغطيه أنواع مختلفة من أشجار التين واللوز والجوز والتمر والاجاص والاترج والرمان والنخيل والعنب وغير ذلك، وتذكر بعض الروايات الشفوية أن الاترج دخل إلى المنطقة مع الهجرة اليهودية الوافدة من فلسطين قبل ميلاد المسيح، ويتأيد ذلك بما يشاهد الآن من تقديس اليهود لنوع من هذه الفاكهة التي تحتفظ بها بعض جهات المنطقة إلى الآن.

ويلاحظ أن أغلب المصادر التي غطت العهود الأولى إلى أواخر أيام الدولة السعدية لا تتحدث عن شجرة الزيتون بتارودانت بل وجدنا الرحالة الوزان يصرح بأن المنطقة تخلو من أشجار الزيتون[63] وإن زيت الزيتون يستورد من نواحي مراكش[64] وقبله كان مؤلف كتاب الاستبصار قد صرف عنايته للحديث عن شجرة أركان ووصف كيفية استخلاص زيته، وجاء في تقرير (صموئيل بالاش) ممثل السلطان السعدي في هولندا سنة 1612 «كتب جلالة السلطان (زيدان) إلى حكومة هولندا يذكر أن عامل أكادير قد اشترى باخرة مملوءة زيتا في ملك تجار من زيلندا...»[65].

غير أن هذا كله لا يعني أن سوس لم تعرف زراعة الزيتون في تلك العهود بل يدل فقط على ندرة هذه الشجرة في المناطق التي استأثرت بها زراعة السكر، كما يدل على أن غابات الزيتون الحالية انما ترجع إلى العهد العلوي بعد توقف زراعة السكر، وقد

أشار إلى ندرة هذه الشجرة في تارودانت الكاتب الاسباني (ديكودي طوريس) مؤلف كتاب (تاريخ الشرفاء) حيث قال : «ويستخرجون من زيت الزيتون القدر الكافي لمؤونتهم»[66]

3 – **قصب السكر** : ولعل أهم ثروة تجارية اشتهرت بها المنطقة خلال العصور الوسطى هي «قصب السكر الذي ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضا وحلاوة وكثرة ماء»[67] هكذا وصفه الشريف الادريسي في منتصف القرن السادس الهجري ووصفه بما يشبه ذلك ابن حوقل في المسالك والممالك حوالي منتصف القرن الرابع الهجري[68] ثم تواتر هذا الوصف كذلك طيلة العهود الموالية. وقد شجع على العناية بهذه الزراعة إقبال التجار من كل الآفاق على شراء السكر السوسي الذي طبقت شهرته الأقطار المغربية والمشرقية وأوروبا وافريقيا، حتى اعتقد الناس أن هذا السكر من خصوصيات جو المنطقة ومياهها، فعندما أمر أحمد المنصور السعدي بانشاء مشاريع جديدة لانتاج السكر خارج المنطقة حاول العديد من مستشاريه اقناعه بأن ذلك لا يتأتى الا في أرض سوس[69]، ولعل هذا الاعتقاد هو الذي افرز العبارة التي ذيل لها ابن عذاري اعجابه بوادي سوس ومائه الكوثر الزلال وجوه اللطيف الجميل، اذ قال : «وناهيك من واد ينعقد من مائه السكر !..»[70].

ومما يلفت الانتباه حقا وجود نوع من النبات الطبيعي تتعرق سيقانه وتمتد تحت الأرض في شكل عروق غليظة يحفر عليها السكان في عرض وادي سوس فتستعمل للاستياك ولمعالجة أمراض الحلق وتتميز بحلاوتها المركزة، وهي معروفة بعرق سوس. وقد أشار إلى وجود هذه العروق بكثرة في القرن الماضي تقرير الديبلوماسي الأمريكي (فيليكس ماثيوس) سنة 1981[71] وفي الوقت الحاضر لا زالت هذه العروق تملأ حوانيت العطارين في كل مكان.

ويبدو أن زراعة السكر كان يدريها الخواص قبل قيام الدولة السعدية، فظلت زراعة تقليدية بسيطة منحصرة في الحقول الضيقة حول الأنهار لكن عندما قام السعديون تولت الدولة العباء الأكبر في النهوض بهذه الزراعة فمهدت لها الحقول وتوسعت في الانتاج، وافتتحت لتصرفه أسواقا عريضة في أوروبا وغيرها.

والجدير بالذكر أن هذه الزراعة قد نجحت بسبب اعتمادها على تقنيات مضبوطة توارثها الخلف عن السلف ودونت في وقت متأخر كما يلي :

«... يجب أن يغرس القصب في مارس في سهل محفوظ من الرياح الشرقية وبمقربة من الماء، ويجب أن تغطي الأرض بغبار البقر، وأن تسقى مرة كل أربعة أيام حتى تصل النبتة إلى علو شبر، وفي هذا الوقت يجب تقليب الأرض واستعمال غبار الخروف وتسقى الأرض مرة كل ثمانية أيام حتى شهر أكتوبر، وفي شهر يناير يقطع القصب قطعة صغيرة وتسحق..»[72].

4 – **الحناء والسواك** : وتعتبر شجيرة الحناء من بين الزراعات ذات الطابع التجاري وكانت هذه الشجرة تزرع بوفرة في تارودانت واقليمها، فيعرض المحصول في الأسواق المحلية والجهوية، ويشتد الاقبال عليه من طرف تجار الآفاق لما تمتاز به حناء الاقليم من جودة وجمال، ومما يقرن بالحناء أعواد الاستياك المفرزة لمادة صابغة للشفاه، وتتخذ هذه الاعواد من لحاء جذوع أشجار الجوز التي تغرس بكثرة وخاصة في الجبال المجاورة لتارودانت، ويعتبر الحناء والسواك من أطيب مواد التجميل والتعطير التي لا يستغني عنها أي بيت في المنطقة. ذكر الشريف الادريسي أن سكان تارودانت يغسلون شعورهم كل جمعة بالحناء في كل مناسبة، بل وحتى بدون مناسبة، ففي الحناء جمال تغنى به شعراء القوم مثلما لا يزال يتغنون به الآن.

5 – **الخضروات والقطاني** : العناية بالخضراوات والقطاني يوازي العناية بالحبوب الغذائية لأن تلك متممة لهذه فعندما تشح المحاصيل من الحبوب يضاعف الفلاح مجهوده البستني فيزرع اللفت والجزر والفول والعدس إلى جانب البصل والثوم والفلفل وغيرها. وتحسبا لازمات الخصاص الغذائي يركز الفلاح على الخضر القابلة للتجفيف كالجزر واللفت والقطاني فيدخر الفائض منها إلى وقت الحاجة أو يصرفه في أسواق المناطق المجدبة، كذلك يتم تجفيف بعض الفواكه مثل التين والعنب والتين الشوكي. وقد لاحظ الادريسي على السوسيين كمظهر من مظاهر تقشفهم اسرافهم في اكل الجراد مقلوا أو مملحا، رغم وفرة خيراتهم الزراعية[74].

6 – **تربية الماشية** : حرفة الرعي قديمة في المنطقة أشار إليها تقرير حانون القرطاجي، وقد اهتم سكان الناحية بتربية الأغنام والماعز والبقر والخيول والجمال والدواب والدواجن والنحل. وقد ازدادت أهمية هذه الحرفة بوصول العرب الحسانيين والشبانات إلى المنطقة في أواخر عهد الموحدين.

وكان أهل تارودانت يستكثرون إلى وقت متأخر جدا من تربية الخيول للحاجة إليها في أعمال الحرث وكذا في الحروب التي تخيم انداراتها باستمرار.

مراحل تطور الاستغلالات الفلاحية

1 – **مرحلة ما قبل الاسلام** : لا ريب أن ظهور مدينة تارودانت قد ارتبط أساسا باستيطان المنطقة واستقرار سكانها وتمرسهم بالأعمال الفلاحية والمهن المرافقة لها وتشكيل أنظمة ادارية وسياسية لضبط الشؤون الاجتماعية وتنظيم المرافق الاقتصادية، وهذه المرحلة موغلة في القدم لا نستطيع تحديدها بالضبط. غير أن المنطقة كانت خلالها بلاشك على اتصال بالأقطار المغاربية، كما تشير إلى ذلك رحلة حانون القرطاجي[75] الشيء الذي يسمح بالاستنتاج أن المنطقة عرفت خلال تلك العهود الفينيقية والرومانية عددامن التقنيات الفلاحية كاستعمال المحراث الذي يجره الحيوان وزراعة القمح والشعير، واستعمال المنجل في الحصاد، وغراسة الأشجار المثمرة كالزيتون والتين واللوز والجوز والرمان والكروم، وتربية الأغنام والماعز والجمال والأبقار والخيول والبغال والدواجن والنحل واستعمال غبار الدواب لتسميد الحقول[76].

2 – **عصر الفتوح واستقرار الأوضاع الاسلامية** : تمتد هذه الفترة من القرن الاسلامي الأول إلى منتصف القرن الخامس الهجري، وخلالها عرفت الفلاحة في المنطقة تطورا مهما تمثل في ادخال اصلاحات بل محاصيل جديدة كالسكر والقطن والذرة والأرز والتوت نتيجة الهجرات الاسلامية[77]. يذكر الدكتور فيليب حتى أن شجرة البرتقال قد نقلت من شمال الهند إلى غرب آسيا وشواطيء البحر المتوسط في مطلع العصر الوسيط[78]، كما يذكر أن قصب السكر (وهو بنغالي فيما يرجح) قد انتقل من بلاد فارس إلى الشام ثم إلى أوربا[79]. وسواء جاء إلى سوس عن طريق الأندلس أو عن طريق الشرق مباشرة فمما لاشك فيه أن هذه الغلة عرفت في تارودانت منذ وقت مبكر وقبل القرن الرابع الهجري على الأقل[80].

3 – **عصر المرابطين والموحدين** : عرف النشاط الفلاحي بتارودانت خلال هذا الدور ازدهارا كبيرا بسبب تدخل الدولة لتنظيمه وتوسيع نطاقه وإشاعة الأمن وترسيخه، كما تطورت التقنيات المستعملة بسبب تزايد الاتصال مع الشرق وبلاد الأندلس فقد تعرف المغاربة عموما في هذا العهد على التجارب العربية والاسلامية في الشرق والغرب ووصلت إليهم المؤلفات العربية في علم الفلاحة.

4 – **العصر المريني** : في هذا العصر تدهور النشاط الفلاحي بتارودانت واقليمها تدهورا كبيرا بسبب الأحداث التي سببها انتزاء علي بن يدر الزكندري وخلفائه منذ أواخر

عهد الموحدين، فقد دمرت تلك الأحداث المدينة وعطلت نشاطها فترة طوية من الزمن، فرغم أن ابن يدر لم يستهدف سوى خصومه من رجال السلطة ومؤسساتهم إلا أن عمله قد أثر عموما في اضعاف اقتصاد الناحية.

ومما زاد الأحوال سوءا زحف القبائل الهلالية على سوس بعد أن استقدمها ابن يدر[81] فاستولت على سهل سوس وعلى حقول تارودانت ولم يكن لأولئك العرب عهد بالزراعة وشؤونها ولا علم بشؤون المدنية وحياة الاستقرار. إنما كانوا أهل بداوة وترحال يرعون الماشية ويجتاحون بها حتى الحقول المزروعة والبساتين المغروسة مع الاغارة على القرى الآمنة والاحياء المسالمة.

تضاف إلى ذلك عواقب الطاعون الذي اجتاح اقطار المغرب في منتصف القرن الثامن الهجري[82] فقد استمرت آثاره زهاء نصف قرن حتى تجددت الأجيال، وتغيرت الأحوال، في أكثر أقطار البلاد، غير أن تارودانت بقيت في أسوأ حال وأضحت تحت سطوة الأعراب طللا دارسا وقفرا موحشا، ومدت حقولها مرتعا للسوائم ومأوى للهوام والوحوش ومكمنا لقطاع الطرق واللصوص إلى نهاية هذا العصر[83].

5 – العصر السعدي : ولما جاءت الدولة السعدية كسرت شوكة الاعراب واجلتهم عن أراضي تارودانت والجأتهم إلى الغابات وأراضي البور، فاعادت للمدينة حياتها وللزراعة انتعاشها، وصرف السعديون كبير اهتمامهم إلى أعمال التجديد وإعادة التعمير للمدينة ببنائها وتحصينها واستصلاح الأراضي حولها وتوسيع نطاق الزراعة فيها وخاصة زراعة السكر وذلك منذ الأيام الأولى لتطلع أبي عبد الله القائم بأمر الله للأخذ بزمام الامامة، لأنهم أدركوا أن الانتعاش الاقتصادي هو الذي سيمهد للانتصارات العسكرية، وهو الركيزة التي سيقوم عليها بناء الدولة الجديدة ولما كانت الحقول كما اسلفنا قد تحولت إلى أحراش ومراعي نتيجة الاهمال وعيث الذي تتم به محاربة الغزاة الاعداء. وهكذا «لم تمض إلا أيام قليلة حتى اجتثت الأشجار كلها وأحرقت باستثناء غابات صغيرة تركوها ليستغلوها فيما يحتاجون إليه وغرسوا حول المدينة عددا كثيرا من قصب السكر... ولم يكونوا آنذاك شبيهين برجال الحرب بل بالبنائين والفلاحين !»[84].

وقام محمد الشيخ باستكمال بناء المدينة وباعادة توزيع الأراضي الفلاحية وتنظيم استغلالها وباستصلاح أراضي جديدة واجراء سواقي عرفت باسمه (المهدية) وفي أيام أحمد المنصور تزايد الاهتمام بتارودانت وأحوالها وتم التوسع في زراعة قصب السكر إلى أقصى حد ممكن.

6 - **العصر العلوي** : وأثر زوال دولة أحمد المنصور عادت الفوضى إلى دينها بتارودانت وعاد عرب أولاد يحيى وأولاد الحلوف إليها فاحتلوا أراضيها بالقوة مدعين أنهم أصحابها الأولون، وان محمد الشيخ اجلاهم عنها ظلما وعدوانا[85]، وزاد في تفاقم الأوضاع ما خلفه الوباء الذي اجتاح سوس في مطلع القرن الحادي عشر الهجري فقد قلص هذا الطاعون عدد السكان وأثر كثيرا في سير الأعمال، ثم تواصل التدهور في ظل الفتن والقلاقل السياسية التي عرفتها المنطقة فيما بين وفاة المنصور وانتقال السلطة إلى أيدي الدولة العلوية.

وهكذا رتع الدمار في الحقول من جديد وتلاشت التجهيزات وانقرض العمل بها وانقطع الأمل في اصلاحها واحيائها،وصادف ذلك بداية تدفق منتجات العالم الجديد على الأسواق الأوروبية وخاصة السكر الأمريكي الذي نافس السكر المغربي وقضى عليه.

ب - الصناعة

من الواضح أن استقرار السكان وتمرسهم بالأعمال الزراعية يدفع تلقائيا إلى نشوء فئة من الناس تختص في صناعة بعض الحاجيات كالأواني والأفرشة والأدوات المنزلية والملابس والأسلحة ونحوها، ولذلك جاز لنا أن نقول : ان سكان تارودانت كانوا منذ أقدم العهود متمرسين بأنواع من الصناعات اليدوية اللازمة لتلبية الحاجات اليومية للحقول والمنازل وساحات الحروب.

لكن رغم كل ما طرأ على هذه الصناعات من تطورات وتحولات بسبب الاحتكاك بالأمم الأجنبية من فينيقيين وقرطاجيين ورومان وبيزنطيين وأفارقة وغيرهم فإنها قد ظلت على العموم حرفا يدوية تمارس في المنازل وفي معامل صغيرة مستقلة عن المنازل، و لم تعرف الصناعة تحولا ملموسا في تارودانت إلا في العهد السعدي حين تدخلت الدولة وأقامت بعض المشاريع الصناعية ذات الحجم الكبير، على أن فترة الازدهار السعدي نفسها لم تدم طويلا.

هذا، ورغم الطابع التقليدي لهذه الصناعات التي لم تكن تعتمد إلا على أدوات يدوية بسيطة ومواد أولية محلية في الغالب فإن مهارة الحرفيين السوسيين قد أعطت لمنتوجاتهم الصناعية شهرة ذائعة في سائر الآفاق، فقد غزت هذه المصنوعات مختلف

الأسواق المغربية والأجنبية في افريقيا وأوروبا والشرق حتى غدا مجرد نعت البضاعة بـ«السوسية» مرادفا لوصفها بالجودة والشفوف على غيرها، وفيما يلي ذكر لبعض هذه الصناعات :

1 – **صناعة التعدين** : لا ريب أن السوسيين قد تعرفوا على المعادن وعلى طريقة استخلاصها وتصفيتها منذ عهود قديمة، وإذا كانت مسألة البداية ومسألة المؤثرات الأولى في تطوير هذه الصناعة بالمنطقة تفتقر إلى مستندات، فإن مما لاشك فيه أن هذه الصناعة قد وصلت إلى مرحلة ناضجة قبل العهد المرابطي على الأقل، فابن حوقل في منتصف القرن الرابع الهجري يشير إلى معادن يجري استغلالها بنشاط في بلاد لمطة والصحراء المجاورة[86]، وعبد الواحد المراكشي في العهد الموحدي يشير إلى وجود عدة معادن في سوس منها **معهد للفضة في (زكندر) شرق تارودانت[87] ومنها معدن للنحاس، بل معدنان لم يحدد موقعهما، ومنها معدن للتوتيا التي يصبغ بها النحاس الأحمر ليصير أصفر[88]**. والحسن الوزان يذكر أن سكان جبل «يلالن» **«يتحاربون فيما بينهم باستمرار من أجل منجم للفضة يوجد في جبل»[88 م]وعن إقليم جزولة بالأطلس الصغير يقول الوزان «تكثر معادن النحاس والحديد في هذا الاقليم لذلك يصنعون عددا من أنواع ماعون النحاس، ويحملونه إلى البلاد المختلفة»[89]. ويعد (ديكودي طوريس) في تارخ الشرفاء من** بين الشروات **في تارودانت «مناجم فضة ومعادن أخرى كثيرة تشبه السكة»[90]**.

ان بداية الاستغلال لهذه المعادن تضرب في القدم كما تدل على ذلك طبيعة الكهوف والمغاوير الواسعة الانتشار في كل جهات الأطلس الصغير، فهذه الكهوف تبدو أحيانا وكان لا نهاية لها، والسكان المجاورون لها يستغربون من أمرها ويستعظمون عمل حكومات قوية مرت بالمنطقة. وتستثنى من ذلك بعض المناجم التي ظل شأنها معروفا بسبب تواصل الاستغلال فيها إلى عهود متأخرة مثل :

أ – **منجم الفضة في زكندر** : فهذا المنجم الذي انتزعته الدولة الموحدية من السكان الذين كانوا يستغلونه مستعملة القوة حتى خرج الخليفة بنفسه للوقوف على تأمين استغلاله وبناء حصن قوي عليه كما جاء ذلك في القرطاس[91] قد تواصل الاستغلال فيه إلى عهود متأخرة، ومغلوم أن حصن زكندر هذا، هو موطن علي بن يدر الذي ثار على الموحدين، وإليه ينسب هذا الثائر[92]. وفي العهد المريني تواصل استغلال المنجم في ظل صراع شاركت فيه عدة جهات حتى ذكر أن رباط قد بني عليه لمقاتلة طائفة من النصارى تسربت إليه في عصر تدهور الدولة المرينية[93].

ب – **منجم الفضة في أكوتام** : يوجد في قبيلة رسموكة باقليم تزنيت وقد حقق الأستاذ عمر أفا موقعه[94] وأوضح أن أبا حسون السملالي كان يستغله ويضرب من فضته نقوده[95] وقد توالى استغلال السكان له قبل ذلك وبعده، ولاشك أنه هو المنجم الذي أشار إليه الوزان في وصفه لجبل «ايلالن»

ج – **منجم النحاس في تازالاغت** : يوجد في ايت عبد الله شرق تافراوت، وهو كذلك من المناجم التي استغلها السكان، فنمت حوله قرية كبيرة يقيم فيها عدد من صناع الأواني والأدوات النحاسية حتى صارت اشبه بالمدن، فعاملها جباة الخراج في العهد السعدي معاملة المدن[96] ربما لأن سكانها لا يفلحون ولا يرعون وإنما يشتغلون بالصناعة والتجارة.

د – **منجم النحاس في اكجكال** : يوجد في دائرة تافراوت قرب (الغ)، وقد وصفه المختار السوسي، وذكر أن استغلاله ضارب في القدم وان نحاسه كان ينقل إلى تازالاغت وإلى تارودانت حيث يتوافر الصناع المهرة[97] وقد باشر الاستغلال فيه والد المختار السوسي الشيخ الحاج علي الدرقاوي لغاية تزويد زاويته بالأواني النحاسية[98].

هـ – **مجموعة مناجم النحاس في اغرم** : توجد باحواز مركز اغرم بدائرة تارودانت مجموعة من مناجم النحاس كان السكان يستعملونها منذ القدم ثم توقفوا عن استغلالها في وقت متأخر بعد أن توفر لهم النحاس الصافي في الأسواق بأقل التكاليف ومازال سكان تلك الناحية محافظين على صناعة الأواني والأدوات النحاسية بمهارة فائقة إلى الآن لكنهم قد نسوا كيفية استخلاص المعدن التي تولت بعض الشركات استغلاله بالطرق الحديثة.

1 – **مناجم الذهب** : أما مناجم الذهب في سوس فإنه رغم تعدد الاشارات إليها من قبل المؤرخين والجغرافيين القدماء فإن أحدا لم يتمكن من تحديد موضع وجودها بالذات، وذلك في نظري راجع إلى سببين : أولهما ندرة هذا المعدن النفيس بالمنطقة بسبب الاستنزاف الذي تعرض له في العصور الغابرة، وثانيهما السرية الشديدة التي يحاط بها استغلال هذا المعدن النادر، والشأن في ذلك كشأن مناجم الذهب في السودان نفسه، فكثيرا ما حاول المغامرون من التجار معرفة مواقع المناجم السودانية فلا يفلحون في ذلك[99].

ومهما يكن فإن الذهب كان يروج في سوس على نطاق واسع حتى قال البكري : ان التعامل في «اوداغوست بالصحراء وايجلي بالسوس الأقصى يتم بالتبر»[100] ويضيف ان

مثاقيلهم غير المضروبة تسمى «القزديرية»[101] فهي إذن مكيال يكال به التبر الذي هو مسحوق الذهب الخام. وقال الحسن الوزان عن قرية تيوت بضاحية تارودانت : «ان السكة الوحيدة المتعامل بها هناك هي التبر»[102].

الحدادة : هذه الصناعة قديمة لما لها من الارتباط الوثيق باعمال الحرث والبناء والحروب، وقد تمرس بها سكان سوس في البوادي والحواضر على السواء، واعتمدت على مناهك الحديد والنحاس التي كانت تستغل في المنطقة على نطاق واسع وعلى خشب الغابات التي زال معظمها من هذه الجهات بسبب هذه الصناعة، وتوجد إلى يومنا هذا، وخاصة في المناطق الجبلية بسوس أطلال بارزة لقرى كبيرة تحفها ركامات ضخمة من رماد المعامل، وهذه القرى توجد غالبا بجوار الغابات وقرب مناجم الحديد والنحاس، كما أن عددا كثيرا من القرى المندثرة او التي لا تزال قائمة في الاقليم ظلت الى الان تحصل أسماء تشير الى ماضيها في الحرفة مثل «المعلمين» و «إمزيلن» أي الحدادة.

وفي المدن يجتمع أصحاب هذه الحرفة في حي واحد يفتحون فيه معاملهم ويعرضون فيه خدماتهم ومصنوعاتهم، ولا يزال الى الان في تارودانت حي يعرف باسم «الحدادة» وفي تزنيت حي باسم «قصبة امزيلين».وكان الحسن الوزان قد لاحظ في تيدسي «عدد كثير من الصناع اليهود كصياغين وحدادين»[103]. كما مر في تيوت على «عدد كثير من الصناع اليهود»[104] وأشار في تارودانت الى عدد كثير من الصناع[105].

والجدير بالذكر ان هناك تقليدا كان شائعا في سوس، ولاتزال بعض آثاره أو بقاياه قائمة في بعض القبائل[106]وهو أن كل مجموعة من الأسر تتعاقد مع أحد الحدادين على أن يصنع لها على مدار السنة ما تحتاج إليه من سكك المحاريث ومساميرها وكذا المناجل والفؤوس والمساحي والسكاكين، وأن يجدد لها ما بلي من هذه الادوات وغيرها مقابل اجرة سنوية تدفع للحداد حبوبا وأداما وتبنا بعد جمع المحاصيل ودرسها، فتدفع كل عائلة بقدر محصولها، هذا فضلا عن تحملها لمصاريف المادة الخام والطاقة النارية.

ويبدو ان هذه الحرفة نظرا لطبيعة عملها الشاق قد استلزمت تسخير العبيد فيها وجلبهم من افريقيا السوداء، فكانوا مسخرين في الحرفة اولا ثم استقلوا بها بعد ذلك، وهذا ما يستنتج من كون جميع أو أغلب العائلات المتأصلة في هذه الحرفة من أصل زنجي[107]، وإذا صح هذا الاستنتاج فإن جلب العبيد وتسخيرهم في الحدادة يكون ضاربا في القدم، وعائدا الى أيام المرابطين وما قبلهم لأن هؤلاء قد فقدوا كثيرا من أصالتهم

الزنجية بسبب طول مدة اختلاطهم بالبيض عن طريق التزاوج، يظهر ذلك في الوانهم التي تتراوح بين السمرة والسمرة الضاربة الى السواد، أما أهم ما كانوا يصنعون فكما يلي :

أ – الأدوات الحديدة على اختلاف أصنافها : فمنها ما يخص الأعمال الفلاحية مثل سكك المحاريث والفؤوس ومنها ما يهم أشغال البناء كالمطارق والشواقير والأزاميل، ومنها ما يليق للنجارين كالمسامير والاقفال والمفاتيح ومزاليج الابواب والمناشير، ومنها ما يخص الدواب كاللجم والاسنة وصفائح الدواب ومساميرها والاوتاد والسلاسل ومهاميز الخيول وحلقات السروج، ومنها ما يخص الاستعمال المنزلي كالسكاكين ومغارف الجمر والملاقط وغيرها.

ب – الأدوات النحاسية : وتشمل المراجيل والأكواب والصحون والقدور والجفان والمصابيح الزيتية وحوامل الشموع والعلب والصناديق والمغاريف والقداح والاباريق. ومنهم من يجمع بين الحدادة والصياغة فيصنع من النحاس بعض أدوات الزينة كالاساور، والاقراط والخواتم والخلاخل، والمشابك أو الخلالات (تيزرزاي) التي تتزين بها النساء وتشد بها ازر التحافها، وقد أشار الوزان الى أنواع من هذا الحلي لدى نساء حاحا[108]، كذلك يصنع هؤلاء انواعا من التشابيك المستعملة للزخرفة على الالواح في الأبواب والصناديق ونحوها.

3 **صناعة الأسلحة** : هي من أقدم الصناعات في تارودانت واقليم سوس عموما فاعتبارا لطبيعة المنطقة التي كانت في الماضي شبه موحشة تلفها الغابات المليئة بالوحوش الضاربة، واعتبارا لما جبل عليه السوسي من حب الترحال والسفر بحثا عن الرزق، فإن السلاح كان كالقوت وكاللباس لا يستغني عنه أي انسان لذلك كنت ترى الرجل لا يخرج من بيته الى السوق او الحقل أو المرعى او حتى الى المسجد إلا وهو مسلح، وقد جاء في وصف الادريسي للسوسيين قوله : (ولا يمشي الرجل منهم أبدا الا وفي يده رمحان... !)[109].

ذلك ما كانت عليه الحال في زمن الادريسي في القرن السادس الهجري، وقد شاهدنا نحن أهل الجيل الماضي من السوسيين وهم يتقلدون الخناجر المفضضة ويتسلحون بالهروات والسكاكين، وقبل حلول نظام الحماية بالبلاد كانوا يتسلحون أيضا بالبنادق، والكوابيس والسيوف، ولا ترى الرجل منهم الا وفي يده عدته التي يحفظ بها نفسه ويؤمن بها ساحته.

في نهاية العصر المريني وصف الحسن الوزان هندام سكان جزولة السوسيين فلم يغفل كونهم «يتسلحون بخناجر مقوسة عريضة ذات حدين ورأس متناه في الدقة»[110] ثم وصف سيوفهم بأنها كسيوف أهل حاحا الذين قال عنهم : ((للرجال منهم خناجر

عريضة مقوسة وسيوف من نفس الشكل ظهرها عريض كظهر المناجل... وعندما يذهبون الى الحرب يحملون في أيديهم ثلاثة رماح أو أربعة !))[111]. وفي موضع آخر يذكر شدة بأس السوسيين وتمرسهم بالقتال في نجدة فائقة وشجاعة نادرة حتى ان الواحد من مشاتهم لا يتردد في مهاجمة فارسين اثنين (بالرمحين الصغيرين الذين يحصلهما عادة)[112].

فكما أن هذه الحال لم تتغير فيما بين عهد الادريسي وعهد الوزان (ثلاثة قرون) بل لم يصبها التغير فيما بين ذلك ومطلع القرن الحالي (ثمانية قرون) فإنها تكون أيضا أكثر تجذرا وإيغالا في القدم مما رأينا.

إن صناعة هذه الأدوات الحربية البسيطة قد ارتبطت كما هو الشأن في سائر المجتمعات، بظهور المعادن ولما كانت منطقة سوس من أغنى الجهات بمعادن الحديد والنحاس ونحوهما فقد نشطت فيها هذه الصناعة لتغطي حاجة المنطقة ولتصدر الى الجهات المجاورة والبعيدة. إن منطقة سوس لم تتأخر كثيرا في مسايرة التطور الذي حصل على مستوى الصناعة الحربية في القرون الأخيرة، رغم ما لا حظناه من تعلق الأهالي بالأسلحة اليدوية الخفيفة التي تلائم حالتي السلم والحرب معا في مجتمع قلما خضع لسلطة قارة.

فمنذ العصر المريني عرفت سوس صناعة البارود واستغلت مناجم الكبريت والملح لصناعة هذه المادة المتفجرة، ومهر الصناع السوسيون في صناعة البنادق واستعملوها في مواجهة الاستعمار البرتغالي.

وعندما نظموا انفسهم في إطار الدولة السعدية في مطلع القرن العاشر الهجري تسنى لهم أن يستفيدوا من جميع المعطيات المتوفرة لهم، ومنها ما يلي :

— أموال ضخمة اكتسبوها من تجارة السكر ومن القوافل.

— مواد أولية مهمة كالنحاس والرصاص والحديد، والملح، والكبريت.

— خبراء تقنيون، مغاربة، وأجانب من المرتزقة الاوروبيين والاتراك[113]. فقد جند السعديون هذه الامكانيات لبناء صناعة حربية ضاربة، وقد وصف الحسن الوزان المراحل الأولى لتأهب السعديين للحرب ضد البرتغال أيام أبي عبد الله القائم بأمر الله فقال : «واكتفى سكان سوس بأن يدفعوا للشريف المبلغ اللازم لتجهيز خمسمائة فارس، فلما استلم الشريف أموالا باهضة... واكتسب الخبرة اللازمة... أعلن الدعوة لنفسه واستقل بالحكم، ولما غادرت بلاط هذا الشريف كان عنده أكثر من ثلاثة الاف فارس وعدد لا يحصى من المشاة، وكميات هائلة من الذخيرة الحربية»[114].

لاشك أن السعديين قد بذلوا المستحيل من أجل الحصول على الأسلحة الأوروبية المتطورة غير ان الحصار البرتغالي على الشواطىء السوسية والحاحية قد عرقل مساعيهم فاضطر محمد الشيخ الى إقامة معامل للسلاح في تارودانت كانت تنتج البنادق والمدافع فضلا عن الأسلحة الخفيفة كالسيوف والخناجر والرماح، وبهذه الترسانة تمكن محمد الشيخ من تحرير مدينة أكادير فقد ذكر أنه استعمل في حصارها عددا كثيرا من المدافع الثقيلة من بينها ستة مدافع كبيرة[115] فكان النصر ساحقا فاجأ دولة البرتغال التي بذلت كل جهدها في تحصين المدينة.

ومنذ ذلك الحين اكتسبت سوس شهرة واسعة في صناعة الاسلحة، فكانت بنادقها توصف بالجودة والدقة في اصابة الهدف، كذلك كان البارود يصنع في كل جهات الاقليم، وكانت تارودانت تضم معامل كبيرة لصناعته، وقد تمكن (سيرميرفيل) بطل قصة ذهب سوس من زيارة بعض معامل البارود في تارودانت بإذن من باشا المدينة أيام احمد المنصور الذهبي، ولا يزال إلى الان موقع أحد المعامل في المدينة يحصل اسم (دار البارود)، وهو مجاور للقصبة التي يقيم فيها الجند وأعضاء هيئة السلطة كذلك استمر الصناع السوسيون في انتاج البنادق السوسية (أسوسي ــ بوشفر ــ بوحبة) مع الذخيرة اللأزمة لها حتى احتلت فرنسا البلاد وصادرت السلاح وحظرته.

4- **الصياغة** : من أهم الصناعات التي اشتهرت بها تارودانت وناحية سوس عموما الصياغة، وهي تعني بسبك المعادن النفيسة كالذهب والفضة لصناعة الحلي الذي تتزين به النساء، ولسك النقود التي تدخل في التداول والمبادلات ولتفضيض بعض الأواني والأغمدة والخناجير والبنادق وغير ذلك مما يتباهى به الرجال.

إنه مما لاشك فيه أن القناطير المقنطرة من الفضة التي يتم استخلاصها من المناجم السوسية التي ذكرناها، وكذا القناطير المقنطرة من التبر الذي يتدفق من الصحراء والسودان ومن المناجم السرية التي ربما تكون موجودة بالإقليم (يوجد في الجزء الجنوبي من الاطلس الصغير جبل يحصل اسم «اكني وورغ» أي جبل الذهب [116].

إنه مما لاشك فيه أن الاثقال من المعدنين النفيسين تمر أولا الى مراكز الصياغة المنتشرة في الاقليم وفي مقدمتها مدينة تارودانت التي تسبك هذين المعدنين وتصوغهما في قوالب مختلفة تدخل في التجارة، كما يتم تحويل جزء منها الى حلي للزينة مثل الخلاخل والاقراط والاخراص والمشابيح والخواتم والقلائد والخلالات، والمحازم والخناجير وغير ذلك. كما ان جزءا كبيرا من هذين المعدنين يحوله الصاغة الى نقود بطريقة سرية احيانا وعلن أحيانا أخرى وذلك

لتلبية حاجات الاسواق التي يعمها رخاء مفرط أحيانا بسبب قلة النقود كما ينتابها الغلاء الشديد احيانا أخرى إذا هبط اليها سيل دافق من النقد، ولما كانت تارودانت بعيدة عن دار الملك في مراكش أو فاس فإن النقود كانت تضرب بها كما كانت تسك في سائر الاقاليم لتخفيف العبء على دار السكة في العاصمة. فقد أسس المرابطون معامل لسك نقودهم في كل الاقاليم ومنها معمل لسك النقود الذهبية في نول لمطة[117].واتخذ الموحدون معملا لسك النقود الذهبية في فاس، بينما كانت النقود الفضية ترد من كل الآفاق ويتعامل بها الناس على اختلاف في أوزانها وأماكن ضربها[118]. يضاف الى ذلك ان تارودانت كانت في أغلب الفترات معقلا للثوار ومقرا للمتأمرين والمخالفين مما يقضي أن تضرب بها النقود بإسم هؤلاء، ورغم أننا لا نملك شواهد على ذلك إلا أننا نتساءل كيف يمكن مثلا أن يكون علي بن يدر وخلفاوه الذين حكموا الاقليم عدة عقود من السنين وهم يسيطرون على مناجم الفضة ويتحكمون في تجارة القوافل دون ان تكون لهم عملة ؟

على أن هذا التاريخ الذي انطمس جله قد بقيت منه بقايا يمكن الاستدلال بها على ما ضاع، ففي العهد السعدي نشطت بتارودانت حركة ضرب النقود، وقد عثر مؤخرا على نماذج للعملة الرودانية تعود الى أيام احمد المنصور الذهبي منها أربع قطع نقدية يتراوح تاريخها بين 1002 هـ و 1006 هـ[119] ومنها قطعة ذهبية للمنصور أيضا[120]. وفي العهد العلوي ظلت دار السكة في تارودانت تعمل، وتوجد نماذج من نقودها تعود الى عهد سيدي محمد بن عبد الله وهي محفوظة في متحف بنك المغرب[121].

والجدير بالاشارة أن سك النقود خارج الاطار الشرعي الرسمي شائع وذائع وقلما التفت الناس اليه واستنكروه إلا عندما يثبت لهم الغش في النقد من جهة الوزن أو من جهة المادة المسكوكة. وقد كان ممن اتهم بترويج النقد المغشوش في تارودانت أيام السلطان الحسن الأول، السيد عبد الرحمان بن مبارك الروداني قاضي تارودانت ومتولي خطة أبي المواريث فيها، وقد وبخه السلطان على ذلك في رسالة مطولة[122].

ذكر (ديكودي طوريس) في تاريخ الشرفاء ان تارودانت كان بها في زمنه ملاحان يسكنهما أزيد من الف يهودي[123]ومعلوم أن أكثر هولاء يشتغلون في الصياغة وسك المعادن كما أشار الوزان لذلك في تيدسي[124]وغيرها.

إن من شواهد نشاط الصياغة في المنطقة ندرة النقود القديمة بها بل وانعدامها وكذلك ندرة الحلي العتيقة لأن هذه النقود وهاتيك الحلي يتم تحويلها من قبل الصاغة كلما مسها البلى أو تغيرت الأحوال وتجددت الأجيال فيصوغونها صياغة جديدة ويطبعونها بطابع

العصر. وفي كتب النوازل عدد من الاشارات الى المشاكل التي تترتب عن التغيرات المتلاحقة في السكة حيث لا يتمكن المدينون من تسديد ديونهم بالسكة التي استدانوا بها أذيتم اختفاؤها من التداول بسرعة[125].

5 – **صناعة النسيج** : نشأت هذه الصناعة في تارودانت وفي سوس عموما من زمن قديم، واستغلت فيها اصواف الضان واشعار الماعز وأوبار الابل والياف الحرير والكتان والقطن والنيلة، وعرفت تطورات مهمة بالتدريج على مستوى الاساليب المتبعة في معالجة الالياف كالتنظيف والتصنيف والتلوين والحلج والغزل ثم النسيج.

في القرن السادس الهجري وصف الشريف الادريسي هذه الصناعة بالبراعة والبلوغ الى حد الاتقان فقال «ويعمل ببلاد السوس من الاكسية الرقاق والثياب الرفيعة ما لايقدر أحد على عمله بغيرها من البلاد[126]. وهذا المستوى الرفيع الذي يضع سوس في مقدمة الاقطار المتفننة في صناعة النسيج لم تكن سوس لتبلغه لولا تجربة قرون عديدة وممارسة لأزمان طويلة.

ولما كانت هذه الصناعة في أول امرها من الصناعات المنزلية فقد كانت النساء يحذقنها حذقا عاليا،فبعد ان وصف الادريسي نساء سوس بالجمال الفائق والحسن البارع أضاف لأوصافهن «حذق الافرشة والخيام والاكياس، وغيرها. وفي القرن الثامن الهجري يدون ابو حفص ابن الوردي في خريدة العجائب ما قرأه وسمعه وعرفه عن أحوال تارودانت وبلاد سوس فيقول عن هذه البلاد «وبها تعمل الاكسية الرفيعة الخارقة والثياب الفاخرة السوسية المشهورة في الدنيا..»[128].ان ابن الوردي لم يكن ليجازف بمثل هذه الأوصاف لمجرد النقل عمن تقدمه، ولكنه يؤكد حقيقة لمسها بنفسه في أسواق مصر والشام وغيرها، فالثياب السوسية الفاخرة قد غزت أسواق العالم ونالت بها شهرة ذائعة. وفي العهد السعدي كانت تارودانت تضم عددا من حوانيت الدرازة يشتغل فيها صناع النسيج فيساعدهم المتعلمون، وبعد ان يمهر هؤلاء في الحرفة يستقلون عن معلميهم فيكترون آلات أو يشترونها[129]. وتسمى الة النسيج عندهم ((المرمة)) والغالب على هؤلاء الصناع نسج الثياب، أما الغزل فيتم غالبا في المنازل بأيدي النساء.

ورغم ان هذه الصناعة ظلت حرفة يدوية لم تعرف آلا تها تطورات كبيرا، فإن منسوجاتها قد اشتهرت كما ذكرنا بالجودة والاتقان في كثير من بقاع العالم فقد كان من صادرات سوس في اتجاه افريقيا المنسوجات القطنية الجيدة والقطنية الصوفية والقطنية الحريرية[130]، وقد اشتهرت في السودان انواع من الأثواب الرفيعة ذات الالوان تعرف

بالسوسية، سداها من القطن ولحمتها من الحرير الطبيعي وهي غالية لا يقتنيها الا الموسرون[131]، جاء في تاريخ السودان للسعدي ص 120 اثناء حديث له عن جنازة أحد النبلاء المترفين في السودان على عهد الاسقياد أورد قوله : «شرع في غسله وأتي بثلاث شقوق من السوسية العالية لكفنه»[132].

والجدير بالاشارة كما تقاس به سائر الاطوال وخاصة قد اتخذوا لهم مقياسا خاصا يقيسون به الاثواب كما تقاس به سائر الاطوال وخاصة منها ما يتعلق بالحرفة ولوازمها، ويسمى هذا القياس ((القالة)) التي تعني الذراع، وقد اشتهرت (القالة السوسية) في جميع المدن المغربية، وطولها 55 سم، وهي المعتمدة في قياس القطنيات الحريريات والكتانية وسائر الاثواب الرفيعة، وتقابلها (القالة الإدريسية) أو الفاسية، وطولها 46 سم وتستعمل في قياس الاثواب الصوفية ولذلك تسمى أيضا (القالة الدرازية) وقد اعتمد ابو عنان المريني القالتين وأثبت كل واحدة منهما على رخامة بيضاء في جدار السوق المتخصصة بفاس، وذلك عام 755 هـ[133].

6 - **الصناعة الجلدية** : تحتاج الصناعة الجلدية الى الجلود الخام والى بعض المواد الكيماوية إضافة الى اليد العاملة المدربة والمقتدرة، وكلها عناصر كانت متوفرة لتارودانت وإقليم سوس عموما منذ الأزل، فبالنسبة للجلود كانت مصادرها من المواشي وحيوانات الصيد من أهم الثروات التي اغتنى بها سوس على مر الازمنة، جاء في تقرير (حانون القرطاجي) عن السوسيين سنة 480 ق م مايلي :

«... وصلنا الى نهر اليكسوس الاتي من ليبيا وعلى ضفتيه رعاة من البدويين اللكسيين **يسرحون أغنامهم** ... ويعيش فوقهم أقوام من الحبش لايكرمون الضيف في أرض كلها **حيوانات ضارية** ...))[134]. وجاء في رحلة الحسن الوزان عن اقليم جزولة بسوس قوله : «سكان هذه الناحية خشنون لامال لهم لكنهم يملكون ماشية كثيرة[135]. وقال (ديكودي طوريس) عن تارودانت بـ «وفي ضواحي المدينة غابات كثيفة يربون فيها خيولا جيدة وعددا كثيرا من الابل»[135]م.

ولما وصل عرب بني معقل في أواخر العصر الموحدي الى المنطقة جلبوا معهم كثيرا من قطعان الماشية كالأغنام والماعز والإبل والخيل، فكانت هذه الثروة الضخمة مصدرا وفيرا للمادة الخام التي تعتمد عليها الصناعة الجلدية.

أما المواد الكيماوية المستعملة في هذه الصناعة فهي وافرة أيضا ومنها الملح الذي يستخلص عدد كثير من الابار والينابيع والأحواض في سفوح الأطلسين الكبير والصغير

كما يستخلص من مياه البحر، ومن بعض المناجم في الصحراء المجاورة ومنها الشب، وهو حجر ملحي قابض يسمى باللغة المحلية (أزاريف) ويوجد في المنطقة بوفرة، وهناك في ناحية أيت حامد بإقليم تزنيت قرية تسمى «أزاريف» ولعلها قد أخذت اسمها من منجم لهذه المادة هناك. ومنها مواد نباتية مثل لِحاء الحناء وأوراق بعض الأشجار كالجوز وأركان، وقشور الرمان وغير ذلك مما يساعد في الدباغة ويلون الجلد باللون المطلوب، وكل هذه المواد متوفرة بايسر كلفة.

أما التقنيات فكانت في البداية بسيطة لكنها تطورت بعد ذلك وخاصة بعد الاتصال بالأندلس وبلاد الشرق فضلا عن المدن المغربية الهامة كفاس ومراكش، لذلك ازدهرت الصناعة الجلدية بالاقليم واستعمل السكان الجلود المدبوغة لصناعة النعال والأحذية والاكياس والمزاود والافرشة وسروج الخيل والدواب والقلائد والاغمدة والحقائب وتجليد الكتب، وصنع القرب والاوطاب والدلاء وغيرها، وإلى جانب ذلك يستعمل الجلد كلباس لبعض أجزاء الجسم أو كلها من طرف عمال البناء والحفر في أعماق الآبار والكهوف المعدنية.

وقد أشار غير واحد من الرحالين والمؤرخين لهذه الصناعة التي دخل إنتاجها ضمن الصادرات التجارية لمنطقة سوس طيلة العصور الوسطى، فمن ذلك إشارة الحسن الوزان إلى إنتاج الجلد القرطبي الجيد في تيوت بضاحية تارودانت، مع بيان ثمن بيعه بالجملة محليا، وثمن بيعه بالجملة كذلك في فاس، كما أشار إلى كون هذا الجلد معروفا في إيطاليا بإسم ((المغربي)). قال : «ويصنع في تيوت الجلد القرطبي الجميل الذي يسمى المغرب في إيطاليا، وتباع هذه الجلود بستة مثاقيل لاثني عشر جلدا، وفي الفاس بثمانية مثاقيل...»[136].

فهذه الصناعة قد بلغت إذن مستوى عاليا استحقت معه وصف إنتاجها بالجميل مما جعل التجار يحملون هذه البضاعة الى مراكش وفاس والى العواصم الأوروبية وغيرها. وقد أفادنا الوزان بمصدر التأثير الذي حسن هذه الصناعة وورفع مستواها حين نسبها الى مدينة قرطبة الاندلسية.

وإذا كانت هذه الصناعة قد وصلت الى هذا المستوى في تيوت ونحوها من القرى فإنها تكون قد وصلت الى مستوى أعلى في تارودانت التي هي عاصمة الاقليم والتي تحتوي منذ القديم على حومة خاصة بالدباغة تسمى «دار الدباغ» وموضعها ظل إلى وقت متأخر مجاورا لساحة أساراك من جهة الشمال، بالقرب منها كان يوجد سوق الجلد كما توجد قريبا منها حومة الخرازة الباليين، وكذا الخرازة الجدد، وأيضا درب الجزارة وكلها في خط واحد تقريبا.

٧ – **صناعة السكر** : عرفت هذه الصناعة في تارودانت وفي سوس منذ القديم فقد رود ذكرها في مسالك ابن حوقل الذي مضى على تأليفه أزيد من ألف سنة حين كان السكر يزرع على نطاق واسع، ويعصر في معاصر حجرية كمعاصر الزيتون فيختزن سائله أو يطبخ فيصنع منه العسل، ويستعمل لتحلية المشروبات والأطعمة، ويصدر إلى سائر أنحاء المغرب كما يصدر إلى الصحراء والسودان وأوربا وغيرها، فاشتهر السوسيون في أنحاء العالم باتقان فن زراعته وفن تصنيعه.

ولما كان ملوك الدولة السعدية الأوائل قد نشأوا في سوس وتعرفوا عن كثب على هذه الصناعة وأدركوا أهميتها القصوى ومدى تهافت التجار الأجانب عليها فإنه لم يكد يستتب لهم الأمر حتى صرفوا إليها كبير اهتمامهم ووظفوا فيها أموال ضخمة واستعانوا بأمهر الصناع وأحذق التقنيين في كل مايلزم لها، فمحمد الشيخ بعد أن فتح فاس «أمر بإنشاء سبعة معامل للسكر في تارودانت، كان يكلفه كل منها سبعة آلاف وخمسمائة مثقال، أي حوالي ستين مليون فرنك (حسب تقدير بعض الباحثين) وكان يكلفه إنتاج السكر الذي كان يصنع في كل منها خمسة عشر ألف مثقال..» (137).

كانت هذه المعامل عبارة عن مركبات ضخمة للصناعة تمتد كل واحدة منها على مساحات شاسعة وتستعمل الطاقة المائية لإدارة أرحيتها الحجرية الضخمة بدلا من الطاقة البشرية والحيوانية، وتضم معمل الطحن والعصر وأفران الطبخ والتكرير، وإلى جانبها معامل الخزف الطيني الذي تتخذ منه القوارير الهرمية المخروطية التي يفرغ فيها السكر لتشكيله وإخراجه في قوالب لا تختلف عن القالب المخروطي المعروف حاليا إلا في تعدد أحجامها. هذا، إلى جانب مرابط الدواب ومخازن السكر ومحلات لتجميع الآلات وصنعها وإصلاحها، ومستودعات الاعلاف التي تتكون من بقايا القصب المعصور، وهذه من الأعلاف الجيدة وتذكر ضمن بضائع الصادرات.

وبجانب كل معمل قرية لسكني العمال الذين يعدون بالمئات. يقول عبد العزيز الفشتالي في وصف بعض هذه المعامل : «وإذا ألقيت عصا التسيار بمعصرة منها رأيت مجمع الورى وأول الحشر، وقرية النمل وكورة النحل ومدرج الذر لكثرة ما ضمت من العملة، وحشرت من الخلق، و لا تسأل عن هولها ولغلط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها، وضخامة أحوالها..» (138).

كان هذا الوصف لمعاصر حاحا وشيشاوة التي أنشأها أحمد المنصور لكنه ينطبق أيضا على معاصر سوس التي لا تزال أطلالها قائمة، وقد شبه الفشتالي معاصر السكر في

تارودانت ب « أهرام مصر، يتقاصر عن تشييدها أولو القوة من عاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد.. » (139)

وتوجد اطلال هذه المعامل الى يومنا هذا بضواحي تارودانت في أولاد مسعود وفي تازمورت وايميز،وغيرها ويلاحظ أنها موزعة على مواقع متباعدة نسبيا حول المدينة، وذلك راجع الى ان القصب يتعين طحنه وعصره فور حصاده وباقصى سرعة قبل ان يذبل وتجف فيه المادة السكرية، فهذه الحقيقة قد تنبه لها تقنيوا ذلك العهد الذي يتميز ببطء المواصلات ووسائل النقل، ولذلك وزعوا المعامل على المناطق التي تتجمع فيها كل الشروط من تيار مائي لا دارة الطواحين، وتربة خصبة لزراعة القصب، فكان الماء المستعمل في الطحن يجمع في صهاريج ضخمة ليسقي الحقول بانتظام. ويلاحظ ان أوقات طحن القصب يصادف أوقات الفيضان في شهر يناير الذي تعزز فيه المياه عادة.

وصف أحد الكتاب في القرن الحادي عشر الهجري بعض العمليات التقنية المتعلقة بزراعة وصناعة السكر، وقد سبق أن أوردنا ما يتعلق منها بالجانب الفلاحي ونورد هنا ما يخص الجانب الصناعي (قال : « ... في شهر يناير يقطع القصب قطعا صغيرة ويسحق ويغلى بعد ذلك العصير في قدور جديدة حتى يصفو لونه، ويغلى من جديد ويوضع في قوارير فخارية على شكل هرمي دائري في الظل حتى يتجمد، بعد ذلك يسحب السكر من القوارير لكي يبرد وتستعمل بقايا القصب لتغذية الخيل والجمال التي تقبل عليه بكثرة كما يقويها.... » [140].

كان الملوك السعديون يقطعون العمل في هذه المؤسسات لبعض أهل الذمة مقابل أموال ضخمة، فاستفادت خزينة الدولة من ذلك أعظم استفادة وجبت منه أوفر جباية[141]. وهكذا يبدو أن المغرب، وانطلاقا من بلاد سوس، ومن تارودانت بالذات كان قد وضع أقدامه على أبواب ثورة صناعية حقيقية منذ أواخر القرن السادس عشر غير أنه، وللاسف الشديد، لم تلبث هذه المشاريع أن عصفت بها تقلبات الدهر ونكبتها تصاريف الأقدار، وأطاح بها سواء الحظ وشوم الطالع، فمنيت بنكسة مفاجئة وانطفأت شعلتها على حين غرة، فزالت من الوجود مع زوال الدولة السعدية.

وهنا لا بد من وقفة تأملية لاستجلاء الاسباب التي ادت الى هذا الاندثار السريع وجرت الى هذا الفشل الذريع، الواقع ان هناك مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية تظافرت على توجه الرياح ضد مصلحة سفينة البعث الاقتصادية في المغرب وتواطأت على اجهاض محاولة الدولة السعدية الاقلاع بقطار النهضة والتجديد في هذه البلاد.

أ – في مقدمة هذه الأسباب الوباء الذي حل البلاد السوسية وغيرها من أقطار المغرب بدءا من سنة 1005 هـ ففتك بالأهالي وتفشى في العمال والتقنيين فهجروا الحقول والمعامل وتركوها للتلاشي والخراب.

بـ – وثاني الأسباب الفتن الداخلية التي شبت في البلاد اثر وفاة أحمد المنصور سنة 1012 هـ والتي مزقت البلاد الى دويلات ضعيفة وممالك طائفية عاجزة زادت في تعميق الاثار السلبية التي خلفها الوباء.

ج – و ثالثها يتمثل في المنافسة البرتغالية و الاسبانية للمغرب، و ذلك أن هاتين الدولتين كانتا قد وصلتا الى العالم الجديد، و نقلتا اليه زراعة السكر التي استكثرتا منها في البرازيل و جزر الانتيل، واعتمدتا في انتاجه على الرقيق الذي جلبتاه من افريقيا، و على الظروف الطبيعية التي هي أكثر ملاءمة من ظروف المغرب، فأغرقتا أسواق العالم و المغرب أيضا بالسكر الذي أصبح يباع بثمن أقل مما يكلفه انتاجه في المغرب، فتوقف تصدير السكر المغربي، و أهملت مؤسسات الدولة التي كانت تعنى أكثر من غيرها بزراعته و تصنيعه، ثم ارتفعت بعدئذ أسعار السكر الأمريكي.

والجدير بالذكر أن التجار الأوروبيين وخاصة الانجليز قد تأسفوا لتوقف معامل السكر المغربي في سوس، فاقترحوا على حكوماتهم ان تحث حكومة ايليغ وحكومة مراكش على أحياء هذه المعامل حتى يمكنهم الحصول على سكر ارخص من سكر البرازيل[141].

ج – التجارة

من الطبيعي أن تكون تارودانت، وهي البلد الغني بخيراته الفلاحية ومنتوجاته الحرفية والصناعية مقصودة من سكان الجبال والسهول المجاورة ومن أطراف الصحراء والأقاليم النائية، فهي سوق تقصدها القبائل المجاورة والنائية لتبادل البضائع والسلع وصرف المحاصيل الزراعية والحيوانية، والصناعية، واقتناء الحاجيات المختلفة.

وباعتبارها عاصمة للاقليم كان يقصدها تجار الأفاق الذين يربطونها بالاقاليم البعيدة من الوطن، وبالأقطار الأجنبية النائية، وذلك لأن حوض سوس قد تميز منذ القديم بغناه الواسع حتى فاضت خيراته وتطورت مبادلاته ونمت صادراته فاتجهت عبر ممرات الأطلس صوب مدن الشمال، كما انحدرت نحو الجنوب عبر الشريط الساحلي للصحراء في اتجاه

السودان، وعبر مرتفعات الأطلس الصغير نحو تامدولت ووادي درعة كذلك اتجهت نحو الشرق عبر جبل صغرو في اتجاه سجلماسة والبلاد المغاربية، كذلك ارتبطت بالأقطار الأوروبية وحوض البحر المتوسط عبر ميناء أكادير وميناء ماسة على المحيط الأطلسي، وفيما يلي نظرة عن بعض هذه المحاور :

1 – **خط تارودانت غانا** : هو اقدم الخطوط التي تربط سوس بالعالم الخارجي وقد نشط منذ أقدم العهود لتوريد الذهب، والبضائع الصحراوية والافريقية الى سوس حيث يتم توزيعها على مناطق المغرب الشمالي، وتسريبها الى شواطئ البحر المتوسط ولاريب أن هذا الخط كان قد تمهد حتى قبل تأسيس تارودانت، وكان تحت سيطرة السوسيين الذين تمرسوا بالتجارة منذ عهود سحيقة، وتعودوا على الإغتراب والترحال وتعرفوا على اللغات واللهجات السائدة في إفريقيا من طنجة الى ساحل غانا، فعندما بلغت اليهم البعثة الإستكشافية القرطاجية بقيادة (حانون) سنة 480 ق م لم يجدوا صعوبة في التفاهم والتعامل معها، بل رافق بعضهم هذه الرحلة الى شواطىء إفريقيا الإستوائية كمرشدين وتراجمة بين القرطاجيين والأفارقة مما يدل على خبرتهم بالمنطقة واحوالها، ومسالكها ولغات سكانها وعاداتهم (142). وسواء أكانت تارودانت قائمة في تلك العهود أم كانت ما تزال في طي العدم، فالذي يهمنا هنا هو الإشارة الى أن تقاليد التجارة لدى السوسيين عريقة وقديمة قدم تاريخهم.

ومهما يكن فإن الروابط التجارية بين تارودانت وساحل غانة كانت قائمة قبل الإسلام[143]. ثم كان من نتائج الفتح الإسلامي إزدهار هذه الحركة التجارية بين الشمال والجنوب في غرب إفريقيا[144] مع ازدياد الإعتماد على الجمل الذي هو وسيلة النقل في المسافات البعيدة، بل إن التجارة قد لعبت الدور الأكبر في انتشار الإسلام بواحات الصحراء وبلاد السودان[145].

يمر الطريق من سوس الى السودان عبر وادي نول حيث المدينة العريقة «نول لمطة» ثم الى اوليل فـ «واداغوست» ثم الى «اوالاتا» ثم الى «كمبي صالح عاصمة غانا او الى تمبكتو عاصمة مالي.

ان الأعمال الحربية التي شهدتها المنطقة بين مختلف الطوائف، وعلى مدى سائر العصور لم تمنع ابدا انتظام الرحلات التجارية عبر هذه الطريق، وغيرها من طرق التجارة السوادنية، لأن التجار — كما هو شأنهم الى الان — يتميزون بالمرونة وحسن التعامل مع سائر الفرقاء، فكانوا يودون واجبات المرور للخفارين ورؤساء العشائر المتحكمة في المحطات

الرئيسية، بل ان المتحاربين أنفسهم يلتزمون الهدنة في أسواقهم ومواسمهم التجارية، كما اشار الى ذلك الحسن الوزان عند قبائل جزولة السوسية[146]. ومع ذلك فإن هذه الطريق قد أصابها بعض الشلل وتأثرت تأثرا سلبيا في أواخر العصر المريني والوطاسي نتيجة عاملين اثنين.

أ – التواجد البرتغالي بالشواطىء السوسية، فقد كان البرتغاليون يحصلون البضائع السوسية من سكر وملح ونحاس وفضة وأدوات ومنتوجات وجلود وغيرها من البضائع التي تحملها القوافل عبر الصحراء فينقلونها على ظهر السفن ليقايضوا بها الافارقة مباشرة في سواحل غانا والسينغال، فحولوا بذلك جزءا من تجارة الذهب الى المحيط الأطلسي، مما كان له أسوء الاثر على الحركة التجارية والاقتصادية عموما في تارودانت ومنطقة سوس في ذلك العهد.

ب – استيلاء العرب الحسانيين على وادي نول وطرق التجارة في سوس : فقد أدت غارات من هذه القوافل نحو الشرق، فتتجه نحو سجلماسة أو نحو الجزائر وليبيا فقد ذكر ابن خلدون في أواخر عهده ان الطريق القديم « من ناحية سوس الى «والاتن» قد أهمل لما صارت الاعراب من البادية السوسية يغيرون على سابلتها... »[147].

غير أن هذه الحالة ستتغير في العهد السعدي عندما تسترجع الدولة هيبتها وتظهر الشواطىء السوسية من رجس الاحتلال البرتغالي، وتقر الامن في البلاد، وتعيده الى ما كان عليه أيام اعتزاز الدولة في عهد الموحدين وعظماء بني مرين. قال ابن خلدون : «... ولم يكن هؤلاء العرب يستحمون من أطراف المغرب وحلوله حمى، ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولاغيرها من بلاد السودان باذية ولا مكروه لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم.»[148].

ورغم كل ما بذله الأوروپيون من جهد لتحويل التجارة الصحراوية الى المحيط فإن سوس قد ظلت على ارتباط بالسودان الى أواخر القرن التاسع عشر[149].

وأهم البضائع التي تحمل من سوس الى السودان السكر والعسل والشمع والحبوب والجلود والثياب والأواني النحاسية والأسلحة والملح والسبائك المعدنية من فضة ونحاس وحديد، وغيرها.

أما أهم واردات السودان الى سوس فكانت تشمل في المقدمة التبر، والعنبر وريش النعام، والعاج والعبيد، والصمغ.

ونتيجة لهذا التواصل التجاري اختار العديد من السوسيين الاقامة في مدن السودان للوساطة في الاعمال التجارية أو لممارسة بعض المهن الأخرى كالتعليم والتطبيب أو شغل بعض الوظائف لدى الحكومات السوادنية. يذكر ابن بطوطة انه قبل دخوله مالي، كتب الى بعض المغاربة هناك «وكبيرهم محمد ابن الفقيه الجزولي»[151] يضيف «وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان»[152].

2 – **خط تارودانت – فاس** : تشكل تارودانت واحدة من المحطات الرئيسية التي تعبرها تجارة الصحراء والسودان في اتجاه المدن المغربية الشمالية، فقد كان تجار فاس ومراكش يفدون الى سوس للتزويد بمنتجات الإقليم كالسكر والعسل والشمع واللوز، والجلود الخام والجلود المدبوغة، والأنسجة الصوفية والقطنية والحريرية والزرابي، والحنابل، ومعادن النحاس والفضة والرصاص، الى جانب واردات السودان وفي مقدمتها الذهب وريش النعام والعنبر والعاج والعبيد.. الخ. ويورد هؤلاء الى سوس البضائع الشمالية والخزفية والكتب والورق والاصباغ والعطور وبعض المصنوعات الجلدية كما يحملون معهم بعض البضائع الأجنبية الورادة من الأندلس وأوروبا والشرق كالمرجان واللبان والحرير وغير ذلك. وقد أشار عبد الواحد المراكشي الى هذا التيار التجاري المتدفق بين سوس والجهات الشمالية من البلاد فقال : «فأما تارودانت وزجندر فدخلتهما وعرفتهما، ولم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم وخاصة الى مدينة المعدن المعروفة بزجندر»[153]، ويؤكد الحسن الوزان استمرار هذه العلاقات التجارية في عهده بين تارودانت والعواصم الشمالية من جهة، وبينها وبين السودان من جهة أخرى، فقد قال عند حديثه عن تيوت بضاحية تارودانت «ويقصد تيوت عدد كثير من تجار فاس ومراكش وبلاد النيجر لشراء السكر»[154] كما أشار الى استيراد الزيت من نواحي مراكش[155]. وتحدث عن وسق البضائع واستعمال الجمال، مبينا الثمن العادي لسوق ثلاثة أو ستة احمال من البضاعة، مميزا بين الاثمان الصيفية والأثمان الشتوية مما يفهم منه ان الحمالين من أصحاب الجمال (الرفاكة) يشكلون يومئذ فئة عريضة مستقلة عن التجار، وانما تتعامل معهم كما يتعامل تجار اليوم مع أصحاب الشاحنات. كذلك أفادت إشارة الوزان استمرار الرحلات التجارية طيلة أيام السنة.

وقد أشرت سابقا الى رواج الجلد القرطبي السوسي بأسواق فاس والى اشتهار القالة السوسية واعتمادها قياسا رسميا بفاس.

3 - تارودانت وأوروبا : اتصلت تارودانت مع التجار الأوروبيين عبر مينائي أكادير وماسة، فقد كان سبب تأسيس حصن فونتي البرتغالي بأكادير عائدا الى بحث الوجود البرتغالي الذي لم يلبث أن تحول الى استعمار تجاوز مسألة المبادلات الى فرض المغارم والاتاوات، ومع ذلك فقد رأى سكان الناحية في التعامل مع هؤلاء البرتغال وغيرهم بعض الفوائد التجارية، فكانوا يبيعون لهم كميات كبيرة من السكر والصوف والجلود والعسل والشمع واللوز ومعادن الفضة والنحاس وملح البارود وبضائع السودان ويشترون منهم البضائع الأوروبية كالرخام الايطالي والأسلحة الانجليزية والفرنسية والأثواب الكتانية والحريرية.

اهتم السعديون منذ بداية أمرهم بالتجارة مع الاوروبيين عبر البحر مستهدفين الحصول على الاسلحة النارية الهجومية اللازمة لتحقيق النصر في جهادهم ضد البرتغال، ولما كان السكر والذهب مادتين استراتيجيتين تزايد الطلب عليهما من قبل الأوربيين فقد عمل السعديون على توفيرهما عن طريق مضاعفة اعداد القوافل الرابطة بين تارودانت وبلاد غانة من جهة، وعن طريق اقامة مشاريع ضخمة لزيادة انتاج السكر من جهة أخرى.

ورغم الحصار البرتغالي على الشواطىء السوسيةفقد استطاع السعديون ايجاد منافذ لتجارتهم عبر موانىء سرية يرتادها المهربون، الاوربيون بما فيهم بعض التجار البرتغاليين أنفسهم فجنى السعديون من ذلك أرباحا عظيمة فقد توصلوا في نونبر سنة 1500م بمبلغ ستمائة الف (كروزادو) من تجار بوركو مقابل تفضلهم بامتياز تصدير السكر السوسي[156].

ولما تم طرد البرتغال من أكادير اختط محمد الشيخ ميناء المدينة وافتتحه في وجه تجار جميع الافاق فأصبح يومئذ أعظم ثغر تجاري في المغرب يقصده البنادقة الايطاليون والتجار الانجليز والفرنسيون والاسبان وغيرهم لحمل القناطير المقنطرة من السكر الذي يعلب في صناديق سعة كل واحد منها ثلاثمائة رطل[157]. يقول (دييكودي طوريس) عن محمد الشيخ : «وعامل معاملة حسنة المسيحيين الذين يتجرون في هذه البلاد واعطاهم ضمانات، ولما علم ذلك تسارع العديد من التجار الى هذه المناطق لاقتناء السكر من مملكة تارودانت»[158].

وفي عهد أحمد المنصور اتسع نطاق التجارة مع أوروبا وخاصة من ثغر أكادير فقد كان من أهم النتائج التي أسفر عنها اندحار البرتغال في معركة وادي المخازن زوال منافسة هذا العدو للمغاربة في تجارة ذهب السودان فانتعشت الخطوط الصحراوية من جديد

وعاد تدفق الذهب من السودان عبر طرقه المعهودة ومنها الطريق الذي يفضي الى تارودانت، ثم تعززت السيطرة المغربية على منابع الذهب بعد عمليات الغزو المسلحة التي قام بها المنصور السعدي لبلاد السودان[159]وبذلك عادت السفن الأوروبية الى الموانيء المغربية ومنها ميناء أكادير تتلمس فيها ما كانت تحاول البحث عنه مباشرة في الموانيء الإفريقية من ذهب وعاج وريش نعام الخ.

وبعد تدهور الدولة السعدية وقيام دولة ابي حسون السملالي في سوس وبلاد الصحراء نقص دور تارودانت في التجارة مع أوروبا لأن قوافل التجارة السودانية قد اتجهت الى «ايليغ» عاصمة ابي حسون الذي مد نفوذه على موانى أفني وماسة وأكادير. كذلك عمل زيدان السعدي وخلفاؤه في مراكش على محاربة التجارة السوسية بمحاولة صرف التجار الاجانب عن أكادير وماسة الى أسفي والصويرة[160]لكن محاولتهم باءت بالفشل، فاستمر اتصال تارودانت بميناء أكادير حتى أغلقه السلطان محمد بن عبد الله العلوي[161].

وبعد إغلاق ميناء أكادير حافظت تارودانت على صلاتها التجارية بالخارج عن طريق ميناء الصويرة الذي اضطرت قوافل تجار تارودانت الى شد الرحال اليه في ظروف قاسية لتصدير البضائع المحلية والسودانية، وللتزويد بالسلع الاجنبية كالشاي والقهوة والسكر الذي أصبح حينئذ يتورد بعد انهيار صناعته بالأقليم. ومن واردات ذلك العهد الاثواب والأواني الزجاجية والخزفية، فكان لطول المسافة بين سوس والصويرة ووعورة الطريق وإلزام التجار بواجبات المرور (النزلة) من طرف حكام القبائل أثر في شل حركة المبادلات بين سوس وأوروبا، وفي اقفار تارودانت شيئا فشيئا، فشعر بذلك التجار الاجانب أنفسهم، فحاولوا اقناع السلطات المغربية بإعادة فتح ميناء أكادير لكن دون جدوى، فعمدوا الى التسرب من بعض الثغور النائية مثل افني وثغور الصحراء بعد أن لاحظوا ان السوسيين يسيطرون على 75%[162] من تجارة الصحراء والسودان وان هذه التجارة تزداد تكاليفها عندما تصل الى الصويرة ناهيك بالرسوم المفروضة على التعامل بالميناء.

وقد اشتهرت في هذا العهد عائلات كانت لها مؤسسات تجارية كبرى تربط بين الصويرة وتارودانت، أذكر من بينها عائلة (أيت او لامين) التي اشتهرت بتوريد الشاي الصويري الى سوس[163] وهي عائلة مازالت لها شهرة في عالم التجارة بتارودانت وقد كان الحاج الامين محمد من أهل توفلعز السوسي قد استقر بالصويرة منذ عهد سيدي محمد بن عبد الله فنال حظوة مخزنية وامتيازات تجارية[164].

4 – **تارودانت وبلاد الشرق** : يلتقي التجار السوسيون في مدن السودان بالتجار المصريين والمغاربيين، فتتم المبادلات بينهم هناك، فترد الى السوس عن طريق هذا التبادل الذي يتم أيضا في المراكز الشمالية من البلاد مثل سجلماسة ودرعة بعض واردات الشرق الاسلامي والشرق الأقصى كما يحمل أولئك التجار بعض الصادرات السوسية كالسكر السوسي الذي أعجب به المشارقة واعتبروه أجود من سكر مصر(165) وقد ذكر ابن حوقل ان تجار العراق يردون اسواق سجلماسة فأثورا على هذا البلد بعاداتهم وفي أنماط اللباس والعيش(166) ومن الطبيعي أن يكون ارتباط التجار السوسيين بسجلماسة ارتباطا وثيقا خاصة وان إقليم سوس تقام فيه مواسم تجارية ضخمة تستمر أسابيع ويقصدها تجار جميع اقطار الشمال الافريقي، وقد أشار الوزان الى بعض هذه المواسم في جبال جزولة(167) كما ذكر ابن خلدون السوق التجاري لـ (تاكاوصت) بمنطقة نول واعتبره من أشهر الاسواق في عهده(168).

ومن أهم واردات الشرق الى تارودانت توابل الشرق الأقصى كالقرنفل والفلفل الأسود وغيرهما من البهارات كما كان يرد من الشرق الأوسط الحرير الصيني والعطور والبخور والورق والكتب والمنسوجات الكتانية والقطنية. يؤكد أحمد بو شارب أن أكثر الأثواب رواجا في أكادير وماسة وأسفي وأزمور هي أثواب قطنية تجلب من مصر على الخصوص وتسمى (البردات)، وكانت تدر أرباحا باهضة أكثر من غيرها من الاثواب(169).

وتشكل زيارة الديار المقدسة لاداء فريضة الحج مناسبة ترتبط فيها تارودانت بجزيرة العرب والتي تلتقي فيها واردات العالم الإسلامي جميعا.

ولعل أعظم شاهد على الدور الريادي لتارودانت في مجال الانفتاح على العالم الخارجي كون أحد مواطنيها هو أول من جلب الى المغرب الة الطباعة فلقد عرف الناس اليوم أن المطبعة الحجرية الأولى بالمغرب والتي تعرف بالمطبعة الحجرية الفاسية، قد كان من الحق أن تسمى بالمطبعة الرودانية، وذلك لأن الذي قام بجلبها الى المغرب لأول مرة وبمبادرة شخصية منه قاضي تارودانت الفقيه سيدي محمد بن الطيب التملي فقد جلبها من مصر عند حجه سنة 1280 هـ وجلب معها خبيرا مصريا في الطباعة بعد ان تعاقد معه على أن يعمل معه بتارودانت على تلك المطبعة لمدة سنة تبتدىء من ربيع الأول 128 هـ.

ثم تشاء الأقدار ان تحول المطبعة مع خبيرها الى فاس، ذلك ان المطبعة قد حجزت في ميناء الصويرة من طرف الجمارك ونقل أمرها الى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان

الذي أبدى إعجابه بها وبمبادرة القاضي الروداني فاهداها القاضي للسلطان الذي أمر بنقلها مع طبيعها المصري الى فاس. ولحسن حظ تاريخ تارودانت ظلت الوثائق المتعلقة بهذه العملية محفوظة الى يومنا هذا، وقد نشرها برمتها الأستاذ محمد المنوني في العدد 10 من مجلة تطوان سنة 1965 صحيفة 135.

أسواق تارودانت

بالاضافة الى المواسم التجارية الكبرى التي كانت تنظم في مختلف جهات الاقليم وبالاضافة الى السوق الأسبوعية التي كانت تقام يوم الخميس خارج المدينة أمام الباب الذي احتفظ الى يومنا هذا بإسم (باب الخميس) تشير مصادر العهد السعدي الى انتظام الأسواق الدائمة داخل المدينة حسب الاختصاص، فهذه الحوانيت للبزارين، وتلك للعطارين،، وهاتيك للبقالين أو الجزارين، ومازال أحد الأحياء يعرف بإسم ((درب الجزارة). وقد وصف شاهد عيان في عهد ازدهار الدولة السعدية هذه الاسواق، فقال[170] : «هناك أزقة جميلة، ومنازل جيدة، وساحات أسواق فسيحة يقيم بها الصناع وتباع فيها طرائد الصيد واللحوم وسمك البحر والنهر ويقام كل يوم خميس سوق، قرب المدينة». ويشير الى تواجد التجار الاجانب واعتزالهم في قيسارية خاصة فيقول : «وللتجار المسيحيين ديوانة، وهي أول دار بناها الشرفاء ليسكنوا فيها، وتشتمل على غرف جميلة وماء عذب فرات يخترقها». كما يشير الى اعتزال مساكين اليهود، وقد سبقت الاشارة الى ذلك.

وعن الحياة العامة بالمدينة يقول : «وأسلوب المعاش هو ما عليه الحال بمراكش[170]م» والجدير بالذكر ان عددا من الأحياء التي أدركناها مندثرة كانت في عهود أخرى مزدحمة بالسكان وزحفت عليها الأسواق كحومة باب الزركان وحومة باب القصبة التي وردت الاشارة الى حوانيت فيها بالفوائد الجمة للتمنارتي.

- **حوانيت الأحباس** : وكان أكثر الدكاكين في ملك الأحباس يكثر بها التجار من ناظر الأوقاف وكان بيع مفتاح الحانوت وتولية عقد الكراء للمشتري أمرا شائعا[171] كما جرى العرف منذ ذلك العهد بأن يقوم التجار ببناء الدكاكين أو تجديد بنائها في الأملاك الحبسية مقابل الرفق بهم في كرائها[172].

القيسارية : ومن الأسواق المتميزة «القيسارية» فقد كانت قيسارية تارودانت ذات تحصين خاص وحراسة دائمة، ويشغلها كبار التجار في البضائع النفيسة كالحلي بإيداع وتأمين أموالهم ومجوهراتهم وممتلكاتهم الغالية لدى تجار هذه القيسارية التي تعرضت غير ما مرة للنهب، أو الاحتراق.

والجدير بالذكر أن أهل الذمة لم يسمح لهم بمزاحمة المسلمين في هذه القيسارية بل بلغ الامر سنة 1068 هـ الى حد الزامهم بنزع السبائط (الاحذية) لدى دخولهم إليها لقضاء مأربهم[173].

أسواق أخرى : ومن الأسواق المشهورة بأسمائها إلى الآن ((سوق الحبوب)) أو الرحبة، وسوق الدجاج، وتنتشر المخابز في الأحياء كما تنتشر طواحين التي تستعمل الطاقة المائية عند مجاري السواقي ويقوم كبار المتجرين في الحبوب بطحنها وتوزيع الدقيق على أرباب الحوانيت لبيعه بالتقسيط[174]. ولعل باب الزركان قد أخذ إسمه من ((ايزركان)) بمعنى الطواحين التي تنصب على السواقي لطحن الحبوب أو لطحن الزياتين، وقصب السكر منذ عهود قديمة. وقد ورد في أجوبة السكتاني أواخر عهد الدولة السعدية إشارة الى حي باب الزركان فوصف بأنه كان أهلا بالسكان وبالمساجد في عهود مضت ثم «خرجت الحومة وعمارة ترجى لها الآن»[175].

الفنادق : ومن المؤسسات ذات الطباع التجاري الفنادق، فقد كان بالمدينة عدد كثير من الفنادق لايواء المسافرين والتجار الغرباء، وكان الفندق يضم ماوى للدواب وعددا من غرف السكنى[176]، وبعض هذه الفنادق خاص بكبار التجار يكترون حجراته ويتخذونها مستودعا لبضائعهم، ويباشرون من داخله البيع بالجملة وتشتهر هذه الفنادق بإسم البضائع التي تروج فيها مثل فندق التمر و فندق السلعة وفندق الجلد.

الجوطية : ونشير كذلك الى وجود سماسرة للتوسط في بيع الاملاك وغيرها وقد اتخذوا لهم حوانيت يقصدون فيها[177] كما يوجد سوق البيع بالمزاد العلني (الجوطية) وهو لايزال قائما في مكانه الى اليوم والى الغرب منه كان يوجد فندق السلعة، والقيسارية.

تلك بعض معالم البنية الإقتصادية كما نشأت وتطورت في تارودانت خلال مدة تزيد عن أربعة عشر قرنا من الزمن، وقد اتضح من خلال العرض ان تارودانت قد ساهمت في مختلف العهود مساهمة فعالة في النشاط الاقتصادي للبلاد حتى قامت أحيانا بدور ريادي

عديم المثال في زمانه، وانها ظلت على العموم تتقدم قافلة الحضارة في الأقاليم المغربية الجنوبية طيلة المدة المشار إليها، و لم تفقد هذه المكانة إلا في مطلع القرن العشرين بعد انطلاقة مدينة أكادير الحديثة.

وفي الختام أشير الى أن هذا العرض لم يستهدف الإحاطة بالتاريخ الاقتصادي لتارودانت وناحيتها بقدر ما يستهدف إثارة الموضوع وابراز محاوره الكبرى في رووس أقلام عسى أن يجد من شبابنا من يتصدى لاستقصاء الجزئيات واستنطاق كل الشواهد وتعنيق بحثها، فحسبي إذن هذه المساهمة المتواضعة والتي أوحت بها مناظرة الأيام الدراسية لتارودانت، في رحاب كلية الأداب والعلوم الإنسانية بأكادير 1988 والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

هوامــش

(1) - أبو القاسم بن حوقل النصيبي كتاب صورة الأرض بدءا من صفحة 90
(2) - القطعة الخاصة بوصف افريقيا ص 92
(3) - ابن عذاري ج 3 من طبعة تطوان والمجلد 4 من طبعة دار الثقافة - بيروت
(4) - الطبعة الثانية بدار العلم للجميع القاهرة ص 17
(5) - تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 272
(6) - وصف افريقيا ج 1 ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر - الدار البيضاء 1988
(7) - ملخص الجزء الثاني المنشور في طبيعتين الأولى بتحقيق عبد الله كنون والثانية بتحقيق عبد الكريم كريم.
(8) - تقارير الاجانب عن سوس تبدأ من العصر السعدي وتشمل رحلات وتقارير دبلوماسية وكتابات تاريخية.
(9) - الرطبة واليابسة.
(10) - صورة الأرض ص 90
(11) - ابن خلدون ــ التاريخ ــ ج 4 ص 187.
(12) - ابن عذاري ــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 1. 72 ــ بيروت .
(13) - نفس المصدر ج 1 ص 45.
(14) نفسه ص 44
(15) - الاستقصا ــ للناصري.
(16) - أحمد ابن القاضي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس 12 ص 13 ــ دار المنصور ــ الرباط 1973.
(17) - نفس المصدر والصفحة ــ وكذالك الناصري في الاستقصا ج 1 ص 90.
(18) - العباس بن ابراهيم : الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام 1 ص 140 ــ المطبعة الملكية ــ الرباط ــ 1976.
(19) - الناصري : الاستقصا ج 2 ص 139 مطبعة دار الكتاب ــ الدار البيضاء 1954.
(20) - القران الكريم : سورة الانفال.
(21) - ديكودي طوريس : تاريخ الشرفاء ترجمة محمد حجي وحمد الأخضر ــ الدار البيضاء
(22) - ترجمته في الفوائد الجمة للتمنارتي ــ مخطوط
(23) - أجوبة عيسى السكتاني ــ مخطوط
(24) - نفس المصدر
(25) - نفسه ص 188
(26) - نفس المصدر ص 74
(27) - عادة الانزال متبعة في ماسة بسوس
(28) - العبارة تعريف فقهي للربا
(29) - أجوبة عيسى السكتاني ص 47 وانظر محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج 1 ص 314 فضالة 1977 وكذا الفوائد الجمة للتمنارتي.
(30) - يقصد بالمهر، جزء الصداق المعين بالعقار.
(31) - مخطوط الأجوبة السُكتانيّة. ص 198.

(32) – نفس المصدر ص 189.
(33) – مفرده أنفلوس وهو ممثل القبيلة في مجلس الشورى.
(35) – التعليق رقم 34 قد ادرج في الصلب وانظر فيمايلي الألواح : المختار السوسي المعسول ج 8 ص 152 والأجوبة السكتانية ص 164 و165 و169 .
(36) – انظر ترجمته في الفوائد الجمة
(37) – اخبرني بعض المنحدرين في سلالته أنه لايزال يملك أراضي من ارث الزواية في ناحية تارودانت .
(38) – التمنارتي : مخطوط الفوائد الجمة.
(39) – أجوبة عيسى السكتاني ص 89 مخطوط.
(40) – ترجمته عند التمنارتي في الفوائد الجمة.
(41) – نفس المصدر
(42) – يستفاد ذلك من الوضعية الحالية لتوزيع مياه الساقية.
(45) – انظر خريطة المنطقة الجنوبية الغربية – مراكش – مقياس 000 1.500.
(46) – أجوبة السكتاني ص 101 مخطوط.
(47) – المختار السوسي : المعسول ج 11 ص 226.
(48) – ابن عذاري جعل من طبعة تطوان
(49) – ابن القطان : نظم الجمان 210
(50) – قرية تنسب لزيدان بن اسماعيل المختار السوسي : خلال جزولة ص 152.
(51) – محمد حجي : الحركة الفكرية ج 1 ص 50
(52) – خريطة تاردوانت : مقياس 000 1.50
(53) – مياه العيون في سوس تباع وتكرى وترهن، وهي مستقلة عن ملكية الأرض.
(54) – كلها مقاييس زمانية تضبط بالساعة المائية.
(55) – قال ملك : (لأرى لما النهر كراء) انظر أحمد لسان الحق : منهج الاقتصاد الاسلامي 2ص 285 – دار الفرقان – 1987
(56) – انظر الهامش رقم 47.
(57) – ذكر بطل قصة (ذهب سوس) أن موسيقى هذه السواني لا تنقطع حول نهر سوس.
(58) – الحسن الوزان : وصف افريقيا ص 96
(59) – نفس المصدر ص 91.
(60) – نفس المصدر ص 95.
(61) – أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي ص 283
(62) – الادريسي – النزهة ص 39
(63) – الحسن الوزان – ص 92.
(64) – نفس المصدر والصفحة
(65) – المختار السوسي : يليغ قديما وحديثا – ص 169
(66) – ديكودي طوريس : تاريخ الشرفاء ص 167.
(67) – نزهة المشتاق :
(68) – ابن حوقل : صورة الأرض : ص 90
(69) – عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفاء – تحقيق كنون ص 185
(70) – ابن عذاري : البيان المغرب تطوان

(71) – عبد الهادي التازي : ساحل غرب افريقيا ووادي نول – مجلة البحث العلمي عدد 31 – السنة 16 – 1980 ص 99.
(72) – نفس المصدر.
(73) – نزهة المشتاق.
(74) – نفس المصدر
(75) – أحمد صفر – مدينة المغرب العربي في التاريخ 1 ص 128 – دار النشر تونس دار النشر بوسلامة – تونس 1959
(76) – نفس المصدر بدءا من ص 158.
(77) – غوستاف لوبون – حضارة العرب الطبعة الرابعة ص 274 – 1984
(78) – فيليب حتى – تاريخ العرب (مطول) ط 2 ص 430.
(79) – نفس المصدر. ص 431.
(80) – لعل أقدم إشارة اليه عند ابن حوقل.
(81) – ابن خلدون – المقدمة ص 27.
(82) – ابن خلدون – المقدمة ص 27.
(83) – ديكودي طوريس : تاريخ الشرفاء ص 32 – 84 نفس المصدر ص 33
(85) – أجوبة السكتاني – مخطوط ص 185
(86) – صورة الارض، بن حوقل : ص 91
(87) – عبد الواحد المراكشي – المعجب في تلخيص اخبار المغرب ص 361 مطبعة الاستقامة – القاهرة – تعليق محمد سعيد العريان سنة 1950.
(88) – نفس المصدر ص 362. الوزان : وصف افريقيا ص 96.
(89) – نفس المصدر، ص 114.
(90) – تاريخ الشرفاء المتقدم ص 168
(91) – الاستقصا للناصري .
(92) – ابن خلدون ج 6 ص 60.
(93) – المختار السوسي – المعسول : ج 10 ص 177 – وكذلك : أفا عمر (مسألة النقود في تاريخ المغرب في ق 19) ص 301. مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء
(94) – المصدر السابق 298
(95) – نفس المصدر ونفس الصفحة فما بعدها
(96) – ديوان قبائل سوس في العهد السعدي تحقيق ونشر : أفا عمر.
(97) – المختار السوسي : المعسول جزء 1 ص 41
(98) – المختار السوسي – الترياق المداوي ص 69 – ط. تطوان 1960
(99) – زاهر رياض : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا – ص110
(100) – موسى القبال – الحسبة المذهبية في المغرب العربي ص 77 ط : الجزائر 1971
(101) – نفس المصدر
(102) – الحسن الوزان : وصف افريقيا ص 92
(103) – نفس المصدر : ص 95.
(104) – نفس المصدر ص 93
(105) – نفس المصدر : ص 93

(106) – المختار السوسي – المعسول ج 1 ص 36 والظاهرة عامة في جبال سوس.
(107) – المصدر السابق ج ص 36 ونفس الملاحظة في التاريخ ص 128.
(108) – الحسن الوزان : ص 187
(109) – االادريسي : نزهة المشتاق
(110) – الوزان : وصف افريقيا ص 114.
(111) – المصدر السابق ص 88
(112) – نفس المصدر السابق ص 96
(113) – احمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي : ص 384
(114) – الحسن الوزان : وصف افريقيا ص 94.
(115) – أحمد بوشرب (دكالة .... ص 395).
(116) – الشاعر الحسن البنعماني قال «انتر» معادنه تحكى خصائصها و«أكني ورغ» حري بالحفر والفاس
– عمر الساحلي : المعهد الاسلامي بتارودانت ج 1 ص : 387
(117) – مصطفى ناعمي : أهمية التجارة بالنسبة للبنية الاقتصادية والاجتماعية غرب الصحراء : مجلة البحث العلمي عدد 36 سنة 1985 ص 512.
(118) – محمد المنوني : العلوم والاداب والفنون على عهد المرابطين والموحدين 2 الرباط – 1977 ص 257.
(119) – عبد الهادي التازي : مدينة المحمدية دعوة الحق عدد 10 1960
(120) – افا عمر : مسألة النقود في تاريخ المغرب ص 281.
(121) – المصدر السابق : ص 182.
(122) – المختار السوسي : خلال جزولة ج 4 123
(123) – دييكودي طوريس : تاريخ الشرفاء : 167
(124) – الحسن الوزان : وصف افريقيا : 199
(125) – مخطوط الأجوبة السكتانية.
(126) – الادريسي : نزهة المشتاق.
(127) – المصدر السابق.
(128) – جريدة العجائب ص 18
(129) – أجوبة عيسى السكتاني.
(130) – عبد القادر زبادية مملكة سنغاي في عهد الاسقيين – ط الجزائر ص 221
(131) – المصدر السابق
(132) – المصدر السابق ص 114
(133) – محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين ط 197 ص 107
(134) – أحمد صفر : مدنية المغرب العربية في التاريخ ص 128.
(135) – الوزان في وصف افريقيا : 114.
(135)م – تاريخ الشرفاء ص 167.
(136) – الوزان في وصف افريقيا 92.
(137) – السكر في المغرب القديم :مجلة دعوة الحق عدد 9 غشت وانظر ديكودي طوريس : تاريخ الشرفا ص 53
(138) – الفتشالي في مناهل الصفاء ط كنون ص 187.
(139) – المصدر السابق 182.
(140) – عبد الهادي التازي : مجلة البحث العلمي عدد 131 وأكتوبر 1980 ص 99.
(141) – الفشتالي في مناهل الصف: ص 187 وقد سقط الرقم المعبر عن حجم الجباية في كل من طبعتي كنون وكريم.
(142) – أحمد صفر : مدنية المغرب العربي في التاريخ ج 1 ص 128.

(143) – مصطفى ناعمي : أهمية التجارة... مجلة البحث العلمي عدد 35 سنة 1985 ص 148.
(144) – المصدر السابق ص 156.
(145) – نفس المصدر ص 161.
(146) – الوزان في وصف افريقيا ص 114.
(147) – ابن خلدون
(148) – المصدر السابق ج 6 ص 148 .
(149) – عبد الهادي التازي ــ ساحل غرب افريقيا : سوس وادي نون الصحراء مجلة البحث العلمي عدد 31 سنة 16 ص 85
(150) – عبد القادر زبادية : مملكة صنغاي في عهد الاسيقيين ص 221.
(151) – رحلة ابن بطوطة دار صياد لبنان 1964 ص 661.
(152) – المصدر السابق
(153) – عبد الواحد المراكشي ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ــ نشر محمد سعيد العريان 1954 ــ ص 361.
(154) – الوزان في وصف افريقيا ــ ص 91
(155) – نفس المصدر.
(156) – أحمد بوشرب : (دكالة والاستعمار البرتغالي... 383.)
(157) – السكر في المغرب القديم ــ مجلة دعوة الحق ــ عدد 9 سنة 1968.
(158) – دييكودي طوريس في تاريخ الشرفاء ص 105.
(159) – محمد حجي : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ج أ 1 ص 50.
(160) – المختار السوسي ــ ايليغ قديما وحديثا ــ المطبعة الملكية ص 169.
(161) – على اثر مصرع (الطالب صالح) الثائر في أكادير، 1160 هـ اتخذ محمد بن عبد الله الذي بويع سنة 1171 هـ قرارا بإغلاق ميناء أكادير وافتتاح ميناء جديد بالصويرة.
(162) – عبد الهادي التازي : مجلة البحث العلمي عدد 31 السنة 16.
(163) – الصديقي محمد بن سعيد : ايقاظ السريرة لتاريخ الصويرة ــ ج ــ أ 1 ص 72
(164) – المصدر السابق.
(165) – جريدة العجائب ص 18.
(166) – ابن حوقل (صورة الأرض) ص 96
(167) – الوزان في وصف افريقيا : ص 14
(168) – ابن خلدون ــ ج 6 ص 273.
(169) – أحمد بوشرب ــ دكالة. والاستعمار البرتغالي ص 310 و 331.
(170) – دييكودي طوريس، تاريخ الشرفاء ص 167.
(171) – المصدر السابق ص 168.
(172) – مخطوط الأجوبة السكتانية.
(173) – المصدر السابق نفسه
(174) – نفسه
(175) – نفسه
(176) – نفس المصدر
(177) – نفس المصدر السابق .

تارودانت في أقلام المؤرخين
إلى نهاية العصر السعدي

عبد القادر زمامه
كلية الآداب والعلوم الانسانية
فـــاس

الرودانيون ورودانة وتارودانت في تاريخ المغرب أعلام شهيرة، تداولتها بكثرة الالسنة والاقلام في القديم والحديث، وذكرها في الكتب والمؤلفات شرق، وغرب وأعجم، وأعرب...

ولكنه بقدر ما كانت الشهرة متسعة على ممر العصور كانت معالم الآثار ونصوص التوثيق، يصفها سابقون ولاحقون من الباحثين في التاريخ بأنها شحيحة ، لا ترو ظمأ ، ولا تشفي غليلا . ولاتناسب مكانة هذه المدينة التاريخية التي تحدث بمعطياتها البشرية، والطبيعية والعلمية وغيرها. كل ما تعرض له من تقلبات وتناقضات عبر تاريخها الطويل....

وإذا نحن تأملنا أيضا فيما يقال ويكتب من أن كان هناك مدينة قديمة تسمى ڤالا (vala) اندثرت في حقبة ما من التاريخ القديم وقامت على انقاظ مدينة تارودانت التاريخية... فإننا نجد أنفسنا أمام مدينة يصح أن يقال فيها إنها مدينة استكملت عناصر متنوعة لاقامة مجتمع حي نشيط له إشعاعات معروفة في تاريخ المغرب...

من أجل هذا نقف اليوم مع المؤرخين لنرى ما خطت أقلامهم حول تاريخ هذه المدينة... ونحن نعلم بالاستقراء والتتبع أنهم — ومع الأسف — لم يجودوا عليها، ولا على كثير من أخواتها في الاقليم السوسي والاقاليم المغربية الأخرى بما يكفي ويشفي ويفيد من المعلومات أو هكذا يخيل الينا...

وأول ما يلفت النظر عند الباحثين في تاريخ المغرب ان مدينة تارودانت لم تكن غائبة عن أقلام المؤرخين القدماء، وهم يتحدثون عن امتداد حركة الدعوة الاسلامية في المغرب على يد عقبة بن نافع...

فإننا نجد المؤرخ الإفريقي أبا اسحق ابراهيم بن القاء القيرواني الملقب بالرقيق، أو بابن الرقيق، يتحدث عن أعمال هذا القائد العظيم في إقليم سوس ويذكر مدينة تارودانت، وذلك في القطع الباقية من كتاب : تاريخ افريقية والمغرب[1].

وإلى جانب نصوص الرقيق نجد نصوص المؤرخ المغربي : ابن عذاري المراكشي في كتاب : البيان المغرب، حيث يتحدث عن أعمال عقبة في كل من درعة وسوس، وحيث بنى مسجدا بمدينة إيكلي[2].

وهذه المعلومات التاريخية التي أشار إليها كل من الرقيق وابن عذاري نجد لها تكميلا وتوضيحات في النص التاريخي الذي اكتشفه المستشرق ليڤي بروڤنصال ونشرته مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمدريد[3]. ولا بد أن نشير هنا إلى أن الرحالة البغدادي : ابن حوقل زار بلادنا في القرن الرابع الهجري، ودون معلومات ذات أهمية كبيرة عنها. وكان من جملتها تلك المعلومات التي كتبها عن المنطقة التي تضم كلا من تارودانت وإيكلي ولاسيما منها المعلومات الاقتصادية... والاجتماعية... وهو التاجر الجوال الخبير بأنواع البضائع، وأحوال الأسواق[4].

والمعلومات المتنوعة التي أعطاها ابن حوقل عن هذه المنطقة استفاد منها الجغرافي المغربي الشريف الادريسي في كتاب : نزهة المشتاق وزاد عليها ما جد في عصره مما شاهده بنفسه ومارواه عمن شاهده...[5].

ولا يذكر المؤرخون والجغرافيون مدينة تارودانت إلا مقرونة بثروتها العظيمة من أشجار الفواكه والزيتون والصناعات المعدنية ومناسج الثياب ومعاصر قصب السكر وما الى ذلك مما اشتهرت به هذه المدينة في عصور مختلفة... وتطور مع تطور الزمان... فيها وفيما حولها...

وأود هنا أن أشير باقتضاب الى تلك النصوص المفيدة التي كتبها قلم صاحب «الاستبصار» وهو كاتب كان على صلة بدولة يعقوب المنصور الموحدي. وجاء ما كان مألوفا عند كتاب الرحلات في المغرب والاندلس...

ونصوص صاحب الإستبصار شملت إيكلي وتارودانت ودرعة وسوس وطرق القوافل التجارية المتنقلة بين المغرب وأقاليم السودان عن طريق الصحراء وتفلالت...[6].

ومن المعلوم بالاستقراء والتتبع أن صاحب كتاب الاستبصار ينقل عن الجغرافي الاندلسي أبي عبيد البكري، ولكن لا يقع في الاخطاء، التي وقع فيها، بل أننا نجده يصححها

في كثير من الأحيان.. لأن البكري كتب ما كتب وهو ببلاده الاندلسية و لم يتأث له زيارة هذه المنطقة ولا غيرها من مناطق المغرب فيما نعلم... بخلاف صاحب الاستبصار كاتب دولة الموحدين...

وإذا تجاوزنا ما كتب صاحب الاستبصار الى ما كتبته شخصية أخرى من الشخصيات الوثيقة الصلة بدولة الموحدين وهي شخصية عبد الواحد المراكشي...

فإننا نجد هذا الاديب المؤرخ وهو في بلاد المشرق، يملي من ذاكرته ويكتب معلومات تاريخية واقتصادية وحضارية وأدبية عن المغرب كون منها مادة كتاب : المعجب في تلخيص أخبار المغرب. وضم إليها بعض أخبار الاندلس.. نجده لاينس مدينة تارودانت ويسميها حاضرة سوس. ويقول : إن لها ذكرا وبها حضارة...[7].

وما أشار إليه المراكشي في المعجب أيدته إحدى الرسائل التي كتبها أبو عقيل بن عطية عن عبد المومن في شأن زيارة إقليم سوس والاجتماع بوفود القبائل التي اجتمعت بتارودانت معلنة تأييدها وولائها لدولة الموحدين[8].

وإذا انتقلنا الى لون آخر مما خطته أقلام المؤرخين عن الأحداث السياسية وتعاقب الدول المغربية... وجدنا صاحب الانيس المطرب يحدثنا مفصلا عن الظروف التي تم فيها دخول المرابطين، وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين الى مدينة تارودانت[9].

كما نجد المؤرخين : البيدق وابن القطاب وغيرهما يتحدثون عن المعارك التي خاضها الموحدون من أجل الاستلاء على هذه المدينة التي التجأ إليها بعض قواد المرابطين مع إحدى فرق الجيش...

وتمتعت تارودانت على عهد الموحدين بشهرة وأنماط من الحضارة والعمران والاقتصاد... إلا أنها في آخر أيامهم شملها ما شمل البلاد من الانتكاسات والنكبات المعروفة...

ولا تخلو كتب التاريخ وطبقات الرجال وتراجمهم التي تؤرخ عصر الموحدين من ذكر أحداث تاريخية وقعت في تارودانت وحواليها... وشخصيات : دينية وعلمية وسياسية زراتها أو سكنتها...

ففي تاريخ ابن عذاري وكتاب التشوف وغيرهما شيء كثير من ذلك. ولعل أشهر ما يعرف الآن من عهد الموحدين هو ضريح أبي صالح المعروف بسيدي وسيدي...

وإذا كنا لا نملك نصوصا كافية للحديث عن تارودانت في عصر المرينيين، ولا نجد في رحلة ابن بطوطة ما يدل على أنه عرج عليها، لأنها لم تكن في طريقه.. فإننا نجد عند الوزان معلومات مفيدة عن تارودانت في عصر المرينيين...! فقد ذكر أنهم جعلوها مركز حكمهم لسوس. وأقاموا بها قصبة عسكرية.. شاهد ماءال إليه أمرها من خراب في عهده.. وكان يمثلهم بها نائب رسمي.. ثم يذكر أنها دخلت بعد حكم المرينيين تحت نظام خاص من حكم الأعيان...[10].

وفي القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي استقبلت تارودانت والمراكز السوسية الأخرى عهدا ذهبيا حيث تشير المصادر الى : زداغة وتييوت وماسة وغيرها من مراكز العلم والحضارة.

وبخصوص تارودانت نجد محمد الشيخ المهدي السعدي يبني أسوارها ويؤسس عددا من المرافق بها ولاية المسجد الكبير الذي يدل على عظمة ذلك العصر وما كان يملكه رجاله من مقدرة وذوق.

ومن مجموع المصادر التي بين أيدينا عن هذا العصر (مخطوطة ومطبعة) نستنتج أن تارودانت أراد لها السعديون أن تكون مركزا ذا أهمية عسكرية واقتصادية وعلمية، فيها مدخراتهم من الأسلحة والنقود ودار السكة...

كما أن بها من حلقات العلم ومجالس العلماء ما توزعته كتب الفهارس والأعلام والتراجم وغيرها...

هذه بعض المعلومات التي يسمح بها هذا الوقت... نكتفي بها الآن... لأن هناك بحثا مفصلا في الموضوع سينشر بحول الله.... والسلام.

مصـــادر

(1) تاريخ افريقية والمغرب للرقيق القيرواني. قطعة حققها : المنجي الكعبي. ص 2.45.تونس 1962.
(2) البيان المغربي لابن عذاري ج 1 ص 26 — 27. ط. بيروت.
(3) مجلة المعهد المصري بمدريد. المجلد 2 1954.
(4) صورة الأرض لابن حوقل. ص. بيروت 1979.
(5) وصف افريقيا الشمالية والصحراوية. هنري برين. ط. الجزائر 1957.
(6) الاستبصار ص 212. ط. الاسكندرية 1958.
(7) المعجب للمراكشي. ص 361. ط. القاهرة 1949.
(8) رسائل موحدية ص 85. ط. الرباط. 1941.
(9) الأنيس المطرب ص 129. ط. الرباط 1973.
(10) وصف افريقية ص 117.

المحمدية قاعدة بلاد السوس وأم القرى والأمصار وملاك باب السودان

عبد الكريم كريم
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الربـــاط

تعرضت سواحل بلاد السوس عند مطلع القرن 10 هـ / 16 م للحملات البرتغالية والإسبانية المتوالية التي انتهت بإقامة مراكز نفوذ واحتلال عليها، وذلك للأهمية الستراتيجية التي أصبحت لهذه السواحل القريبة من جزر كناريا بعد اكتشاف العالم الجديد والتعرف على طريق الهند البحرية من حيث التحكم في طريق التجارة العالمية الجديدة بين غربي أوروبا والهند والشرق الأقصى أو فيما يرجع لاتخاذها نقطة انطلاق للتوسع في بلاد السوس التي تشتهر بمزارع قصب السكر وبمراكز التجارة مع غربي افريقيا وبلاد السودان.

وهذه الحملات الاجنبية اثارت رد فعل قوي من قبل أهالي السوس الذين أعلنوا الجهاد ضد المحتلين ومن يتعاون معهم خاصة وأن بلاد السوس كانت المنطلق الأول للطريقة الجزولية التي عمت شهرتها كل بلاد المغرب، ومن أشهر الأئمة الذين عرفتهم بلاد السوس العالم الحسن بن عثمان شيخ جزولة بقرية (اسجاور) والإمام محمد بن مبارك بقرية (أقا) والشيخ علي بن محمد الأديب[1] وغيرهم من الذين عرفوا بالورع والتقوى والقيام بشؤون التعليم والتدريس والذين دعوا إلى محاربة الغزاة وتزعموا صفوف المجاهدين.

اتجهت أنظار قبائل السوس إلى الشيخ محمد بن مبارك بأقا الذي كان قد «وضع أياما معلومة في كل شهر يسمونها أيام سيدي محمد بن المبارك لا يحمل فيها أحد سلاحا ولا يقدر أحد على المشاجرة فيها ويجتمع الرجل مع قاتل أبيه وولده وما يقدر أحد أن يكلمه وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من أهل سوس»[2] فدلهم على أحد أشراف تاكمادارت ببلاد درعة وهو المولى محمد بن عبد الرحمن «فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب لكم وأليق بمقصودكم»[3] والمولى محمد بن بن عبد الرحمن كان يعرف بين قومه بسعة العلم و«التمسك بسيرة السلف الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[4] كما ذاعت

شهرته ببلاد السوس لقيامه بأعمال الجهاد والمرابطة إذ كان «يستنفر الناس للرباط بأقدير حيث كان النصارى[5]الشيء الذي يجعل له بين القبائل السوسية نفوذا كبيرا فقد كان يأمر أشياخ القبائل فيمتثلون أمره»[6]ومن مجريات الأحداث نعلم بأن اتصالات قد جرت مع المولى محمد بن عبد الرحمن الذي «بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل أو استدعوه إلى تقديمه عليهم وتسليم الأمر إليه فلبى دعوتهم وأجاب رغبتهم»[7].

وفي قرية (تدسي) القريبة من مدينة تارودانت اجتمع المولى محمد بن عبد الرحمن بزعماء القبائل ومشايخها حيث « خطبهم خطبة عجيبة بلسان البربر ذكر فيها ووعظ وحض على الجهاد»[8]واشترط على كل قبيلة تقديم عشرة أشخاص من أبنائها مجهزين بكامل الأسلحة والعتد «فاستحسنوا رأيه وأنعموا له بذلك وقدموا له خمسمائة رجل وكذا بسلاحهم وخيلهم»[9]أي أن القبائل السوسية التي أعلنت بيعة المولى محمد بن عبد الرحمن في قرية تدسي كانت خمسين قبيلة. تلقب المولى محمد بن عبد الرحمن (بالقائم بأمر الله) وأسند لأبنه الأكبر المولى محمد قيادة القوات المجاهدة وحسب رسالة الحاكم البرتغالي بأكاذير Ignacio MARTINS إلى الملك البرتغالي عمانويل الأول والمؤرخة بيوم 5 نوفمبر 1510 فإن بيعة القائم بقرية تدسي كانت في مطلع نوفمبر 1510 الموافق لمطلع شعبان 916 للهجرة[10]. استغلت القيادة الجديدة في تدسي امكانات البلاد وخاصة قصب السكر للاستعداد لمنازلة البرتغاليين الشيء الذي يفسر لنا انقضاء نحو السنة قبل أن يقوموا بأول هجوم ضد حصن سانتاكروز يوم 18 غشت 1511[11]وهو التاريخ الذي يعد بداية انطلاق الحركة الجهادية الرامية الى تحرير السواحل المغربية من الاحتلال الأجنبي.

وفي عام 1516 تمكن المجاهدون من الدخول الى مدينة تارودانت[12]أعظم المراكز ببلاد السوس والباب الموصلة إلى الحوز عبر جبال الأطلس وارتبطت منذ هذا التاريخ مدينة تارودانت بحركات الجهاد وأصبحت الرباط الأول للمجاهدين.

استمرت تارودا[13]، المركز الرئيسي لأعمال الجهاد ضد قواعد الاحتلال البرتغالي بالسواحل السوسية وتضاعفت هجوماتها عام 1518 مما أجبر القائد البرتغالي Don Francisco de Gastro الأول مرة الى طلب النجدة من لشبونة كما جاء بلاد السوس، وفي مطلع يناير 1525 تمكن المولى أحمد الأعرج من دخول مدينة مراكش بعد أن استخلف أخاه المولى محمد الشيخ على تارودانت « ارتحل من رودانة وقصد مراكش فنزل عليها وحاصرها وملكها أحمد الأعرج وبايعه أهلها وقبائلها وخرجت من حكم بني وطاس»[14].

تضاعفت هجومات المجاهدين وحصارهم لقواعد الاحتلال وتمكن أحد المجاهدين من اغتيال الحاكم البرتغالي لسانتا كروز[15] وعندما كان يوم 12 مارس 1541 تحقق أول نصر حاسم وذلك بفتح حصن سانتا كروز بقيادة المولى محمد الشيخ[16] وعن الأوضاع الجديدة لمدينة تارودانت يطلعنا تقرير للتاجر الأوروبي Sebastiao Alvares بتاريخ 5 يناير 1542 على مدى استغلال المولى محمد لموانىء ساحل السوس في الاتصال مع العالم الخارجي وكيف أن واردات مدينة تارودانت قد ازدادت فقد وصلت إليها حمولة تسعة مراكب معظمها ثياب مختلفة مقابل السكر والنيلة والشمع والعنبر والجلود[17].

ويضيف تقرير آخر بأن التجار الفرنسيين يبيعون المولى محمد الأسلحة والعتاد الحربي ويستوردون معدن النحاس لصب المدافع[18].

وهكذا أصبحت لمدينة تارودانت مكانة متميزة «اختط محمد الشيخ مدينة تارودانت وأذن للناس عامة في إحيائها والغرس فيها قصد عمارتها ورغبة في استيطانها»[19] ولم تلبث أن اتسع عمرانها بفضل العناية التي لقيتها «فهي من مشيدات مولانا الإمام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد السوس وأم القرى والأمصار وملاك باب السودان»[20] ومنذ عهد المولى الشيخ أصبحت تارودانت تعرف بمدينة المحمدية (إحدى الحواضر الثلاث وهي المحمدية ومراكش وفاس[21] وعندما انتقل المولى محمد الشيخ الى مراكش عام 1544 أولى على المحمدية ابنه المولى محمد الحران.

وفي عهد المولى أحمد المنصور ازدادت مكانة المحمدية بدليل ما يلي :

1 - لقد ولى عليها ابنه المولى أبا الحسن علي «هذا ظهير كريم أمر به عبد الله أمير المؤمنين.. لولده الاحظى... الأمير أبي الحسن... فقدناه إمارة حضرة السوس الأقصى وجميع أفقها السهل والجبل وفوضنا له فيها التفويض المطلق في القول والعمل»[22].

2 - جاء في إحدى مراسلات المنصور عن مدينة المحمدية «قاعدة مملكتنا السوسية مشرق شمس خلافتنا الشريفة ومحل انبعاث أشعة بدر مملكتنا المنيفة»[23].

3 - كانت لقاضي الجماعة بمدينة المحمدية مكانة خاصة فقد كان يطلعه الكثير من مجريات الأحداث ومن ذلك كما تحفظه الوثائق :

مراسلة فن المنصور الى قاضي الجماعة بالمحمدية في ربيع الأول 997 هـ الموافق ليبراير 1589 تتضمن بصفة خاصة الأخبار عن هزيمة الإسبان في معركة الارماد (غشت 1588) ووصول الأمير البرتغالي دون كريستوف بن دون انطونيو المطالب بالعرض البرتغالي لاجئا بالمغرب (محرم 997 الموافق يناير 1589) واستقباله لسفارة عثمانية بفاس[24] وعندما نجح المولى أحمد المنصور في فتح بلاد السودان كانت مدينة المحمدية أول

مدينة زف إليها البشير الخبر السعيد[25]. وعن المكانة الاقتصادية لمدينة تارودانت يهمنا بصفة خاصة أن نشير الى زراعة قصب السكر ومعاصره التي كانت في ضواحيها «معاصر السكر الجاثمة حواليها جثوم أهرام مصر... ما شئت من توطيد وتشييد وبرك مستجرة وجفان كالجواب وقدور راسيات وحركات هندسية ولوالب فلسفية..وأنهار تتسنم لإجراء ارحيتها العظيمة الاخشاب ذرى الاسوار الممتدة الأعراف الى عناد السماء بتدبير وفلسفة»[26]وحول كل معصرة نشأت قرية صناعية «وإذا ألقيت عصا التسيار بمعصرة وحشرت من الخلف ولاتسل عن هولها، ولغط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة أحولها على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة[27]وفي أولاد مسعود وتازموت وأميز وهي قرى مجاورة لتارودانت توجد حتى اليوم أطلال هذه المعامل السكرية.

ومن جهة أخرى ظلت تارودانت تحتفظ بموقعها الاستراتيجي في طريق المبادلات التجارية مع غربي افريقية وبلاد السودان « المحمدية من مشيدات مولانا الإمام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد سوس.. وملاك باب السودان»[28].

وفي الجانب العمراني ارتقت المحمدية الى مرتبة العواصم الكبرى كمراكش وفاس وأصبحت «أم القرى والأمصار.. ذات القصور المشيدة والأواوين الموطدة والرياض المفوفة والأنهار المطردة والمساجد المزخرفة والمآذن المقرطة بالآلي النجوم المشنفة.. لا يطير تحت جناحها البلد الجديد من فاس الذي هو عند بني مرين.. ولا قصبة مراكش التي هي عند الموحدين ... وإذا ذكرت المحمدية لف كل منهما رأسه استحياء» [29].

وأخيرا لقد قضى المولى أحمد شبابه بالمحمدية حيث درس بمختلف معاهدها «قال أيده الله : لما تحرك السلطان رحمه الله لسوس... رحلني معه رحمه الله فبدأت الرسالة بالسوس على الفقيه أبي عمران موسى السوسي رحمه الله وسلكتها على الفقيه أبي الربيع سليمان باللوح مرتين وكنت أقرأ مختصر خليل لنفسي واكتب منه لوحا وبعد خروجي من الكتاب أدرسه إذ لم يكن يكلفني السلطان رحمه الله قراءته لطوله ثم درست الرسالة أيضا باللوح على الفقيه النحوي أبي محمد عبد العزيز بن ابراهيم سلكتين وقراتها عليه قراءة فهم وتدقيق بعد حفظها وقرات عليه أيضا مقدمة ابن آجروم قراءة فهم وتدقيق مرار أو أعربها عليه وقرأت عليه أيضا الفية ابن مالك باللوح سلكتين أو ثلاثا وقرأت علم الحساب وقرأت علم العربية على الفقيه الأستاذ نحوي زمانه بلا مدافع أبي العباس أحمد القدومي رحمه الله وبدأت قراءة الألفية على الفقيه المتفنن الدراك الفهامة أبي عبد الله بن أبي القاسم الشريف وعاق عن التمام ماكان من تحرك الطاغية باستدعاء ولد أخينا فتحركت لفاس ومعه لبسيط أزغار»[30].

الـهـوامـــش

1 - المختار السوسي : سوس العالمة. ص 156.
2 - ابن عسكر : دوحة الناشر. ص 74.
3 - الافراني : نزهة الحدي. ص 12.
4 - الزياني : المعرب في دول المشرق والمغرب. مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 258). ص 343.
5 - المصدر السابق.
6 - نفس المصدر.
7 - الافراني : نزهة الحادي. ص 17.
8 - الزياني : المعرب. ص 343.
9 - المصدر السابق. ص 344.
10 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. والمجموعة الأولى البرتغال. المجلد الأول ص 255.
11 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. المجموعة الأولى. البرتغال. المجلد الأول ص 334.
12 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. المجموعة الأولى. فرنسا. هامش ص. 440.
13 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. المجموعة الأولى. البرتغال. المجلد الثاني ص. 93.
14 - الزياني : الترجمان. ص 345.
15 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. المجموعة الأولى البرتغال المجلد الثاني ص 450.
16 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. المجموعة الأولى. البرتغال. المجلد الثالث. ص 560.
17 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. المجموعة الأولى. البرتغال. المجلد الرابع. ص 6.
18 - المصادر الأصلية لتاريخ المغرب. المجموعة الأولى. البرتغال المجلد الرابع. ص 133.
19 - عبد الحسن التامنارتي : الفوائد الجمة. مخطوط. الخزانة الحسنية بالرباط رقم 513. ص 67.
20 - عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء. ص 253.
21 - ظهير التوقير والاحترام. مخطوط بدار الوثائق بالرباط (كلا 278). ص. 42.
22 - مخطوط بدار الوثائق بالرباط. (ك 278). ص 76.
23 - المصدر السابق. ص 176.
24 - المصدر السابق.
25 - الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء. ص 143.
26 - الفشتالي مناهل الصفا. ص 254.
27 - المصدر نفسه. ص 210.
28 - نفس المصدر. ص 253.
29 - الفتشالي : المناهل. ص 253
30 - نفسه المصدر. ص 266 .

تارودانت من خلال المصادر الجغرافية في العصر الوسيط

عمر بنميـرة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الربـــاط

يتناول الموضوع الذي نقترحه في هذا العرض مسألة التأريخ لمدينة مغربية خلال العصر الوسيط، وذلك انطلاقا من الأوصاف التي تركها الجغرافيون المسلمون. والموضوع لا يتوخى تقديم صورة جغرافية عن مدينة تارودانت خلال العصور الوسطى، بل سيقع الإهتمام على بعض الجوانب المتعلقة بطبيعة المصادر الجغرافية القديمة من حيث قيمة الأوصاف الواردة بها ومدى مسايرتها لايقاعات التطور التأريخي، من حيث، أيضا البنية اللغوية لهذه النصوص، والمكونات الفكرية لهؤلاء الكتاب الموسومون بالجغرافيين.

1 – ماهي هذه المصادر الجغرافية ؟

إن الكتابات الجغرافية التي تعنينا هنا هي تلك المؤلفات التي نشأت وازدهرت، بالخصوص، في أحضان الحضارة العباسية، لتلبي حاجة الأمبراطورية في معرفة أحوال أقاليمها، فهي لذلك كانت لها وظيفة إدارية تكمن بالخصوص في إمداد الدولة بمعلومات عن أحوال الأمصار من حيث السكان والموارد الاقتصادية وذلك لتنظيم ومراقبة الجباية[1].

وقد ساعد نمو واتساع النشاط التجاري وخصوصا التجارة البعيدة على ازدهار الأدب الجغرافي عند المسلمين إذ كان التجار في حاجة لمعلومات ترشد المسافر وتزوده بإشارات فلكية وجغرافية وبيانات إحصائية ومعلومات سياسية ودينية واقتصادية.

وكان لاتصال المسلمين بالحضارات القديمة الأثر الكبير في تطوير ونشر المعارف الجغرافية بين المسلمين ونخص بالذكر هنا اتصال العرب بالعلوم اليونانية حيث قام الخوارزمي سنة 833م بترجمة كتاب بطليموس في الجغرافية[2].

وقد اهتمت المصادر الجغرافية الإسلامية منذ نشأتها بما يحتاجه المسلمون من معلومات عن العالم من حيث تقسيماته وأقاليمه ومدنه وأنهاره واختلاف مناخاته وأنواع سكانه وأنشطتهم الإقتصادية وعاداتهم الإجتماعية وممارساتهم الدينية. ويمكن تقسيم الكتابات الجغرافية الإسلامية بصفة عامة الى ثلاثة أقسام، فهناك المعاجم التي تعرف بالبلدان والمدن والقرى والأنهار والجبال الخ... ثم هناك الكتابات الجغرافية التي تعتمد المصورات الجغرافية (خطوط الطول وخطوط العرض). وتبدي هذه الجغرافية اهتماما بأقسام العالم مستخدمة قياسات ومعارف رياضية وفلكية ينطلق منها الجغرافي في وصفه للعالم المعروف آنذاك. بينما تتخلى كتابات أخرى عن هذه المصورات فتهتم أساسا بالمسالك والممالك واصفة أحوالها من حيث المسافات الفاصلة بينها ذاكرة لمدنها وقراها وأسواقها وتتخلل ذلك استطرادات تاريخية يذكر فيها الجغرافي بعض الوقائع والأحداث التي طبعت بعض جهات هذه المسالك والممالك. وسواء تعلق الأمر بهذا الصنف أو ذاك فإن الجغرافي يوظف معارف ومعلومات متنوعة لتأليف عمله، حيث يستغل الكتابات الجغرافية القديمة من هندية وفارسية ويونانية ويصوبها وفق تصوراته للعالم كما يراه المسلمون ويملأ ذلك بمعلومات يكون أساس بعضها ما شاهده بنفسه، مستعينا، في نفس الوقت، بما سمعه من روايات لمعاصريه أو ما كتبه بعض الرحالة والاخباريين والأدباء السابقين. وعليه فإن هذه الكتابات التي قد يصح أن نطلق عليها أدب الجغرافية عند المسلمين هي في الواقع عبارة عن فسيفساء من المعارف والفنون والاخبار والأساطير، وفي نفس الوقت عبارة عن سلاليم تاريخية متفاوتة الأزمنة.

إن محتوى ومنطق هذه الكتابات يقتضي من الباحث التوقف عند بعديها الزماني والمكاني. فالتعامل مع هذه المصادر يستدعي منا أن نأخذ بعين الاعتبار الأصول الجغرافية للمؤلفين والتصورات التي يحطها كل جغرافي عن المجالات التي وصفها ثم علاقته بتلك المجالات. ومن جهة أخرى لا بد عند قراءة هذه المصادر من رصد مجموعة من الأزمنة تنطلق من عصر المؤلف وتمر عبر زمان المجال الموصوف لتنتهي عند أزمنة المصادر التي اعتمد عليها المؤلف. ونعتقد بأن التمكن من هذه الأبعاد هو الكفيل بتوفير شروط منهاجية تساعد الباحث على رسم لوحات جغرافية عن مجال ما وخلال فترة تاريخية معينة.

2 – هل نستطيع أن نرسم لوحات جغرافية عن مدينة تارودانت انطلاقا من أدب الجغرافية ؟

لنبدأ، أولا، باستقصاء هذه المصادر ونحاول ملاحقة ماطرأ على أوصافها من تطور ثم بعد ذلك مدى «مصداقية» اللوحات الجغرافية التي قد تمدنا بها.

أولا – الكتابات الجغرافية المشرقية الأولى.

سجلت نهاية القرن 3 هـ / 9 م وبداية القرن 4 هـ / 10 م. ظهور مجموعة من الجغرافيين العرب، وكانت معرفة هؤلاء بالمغرب ضعيفة، و لم يقدموا سوى معلومات مقتضبة عن منطقة سوس. على أننا يمكن أن نميز داخل هؤلاء الجغرافيين بين صنف كتب عن المغرب وسوس اعتمادا على الأخبار التي كانت تصل الى المشرق بعد الفتوحات الإسلامية للمغرب وصنف ثاني وصف المغرب انطلاقا من مشاهدات ميدانية، ويمثل الصنف الأول كلا من ابن خرداذبة (ت حوالي عام 300 هـ/ 912)[3]والاصطخرى (ت 346 هـ/957م)[4]. فالأول يلاحظ عليه عدم التدقيق في منطقة سوس حيث يفهم منه أنه يقصد به المغرب الأقصى، يقول : «وخلف طنجة السوس الأدنى... وخلف السوس الأدنى السوس الأقصى وبينهما مسيرة نيف وعشرين يوما»[5]. ويبدي الاصطخرى معرفة أكثر بالمنطقة، فهو يميز منطقة السوس عن بقية مناطق المغرب، إلا أنه يعتبر بأن «السوس الأقصى إسم المدينة إلا أنها عبارة عن كورة عظيمة ذات مدن وقرى...»[6].

أما الصنف الثاني من هؤلاء الجغرافيين المشارقة فيمثله كلا من اليعقوبي (ت. 284 هـ)[7]، وابن حوقل (كان حيا سنة 367 هـ/977 م)[8]، وتكمن أهمية اليعقوبي في كونه وصف البلدان اعتمادا على مشاهداته وفي كونه ذكر بعض مدن السوس مثل تامدلت وماسة، مع أنه من الذين اعتبروا السوس مدينة وهي السوس الأقصى[9]. على أن أهم هؤلاء الجغرافيين الأوائل هو ابن حوقل الذي تجول بالعديد من مناطق العالم الاسلامي، وأبدى اهتماما كبيرا بالجانب الاقتصادي، وقد أورد إشارات مفيدة عن أهمية التجارة بمنطقة سوس، وأكد على أنه «ليس بالمغرب كله بلد أجمع ولا ناحية أوفر أو أغزر وأكثر خيرا منها (السوس الأقصى)»[11]. كما ينفرد هذا الجغرافي بوصف الوضعية الدينية بالسوس حيث أشار الى أن «أهل السوس فرقتان مختلفتان مالكيون أهل سنة وموسويون شيعة» واصفا للصراعات الدموية التي كانت قائمة بين الفريقين وصابا غضبه على المالكيين حيث اعتبرهم من «فظاظ الحشوية وأنهم «بحسب ما نالوا من رفاهية العيش نالوا من الجهل والطيش»[12].

وبصفة عامة فإن ما يلاحظ على هذه الكتابات الجغرافية الأولى هو الغياب الكبير للمواقع الجغرافية بالسوس وإذا كان ذلك يفسر بعدم استيعاب هؤلاء الجغرافيين للمجال المغربي، لكونهم لم يزوروا المنطقة، واكتفوا ببعض الروايات التاريخية غير الدقيقة، وهو ما

يبدو بالخصوص في كتابات ابن خرداذبة والاصطخرى والمقدسي[13]، فإن الأمر بالنسبة لليعقوبي وبالخصوص ابن حوقل يطرح مجموعة من الإشكالات التاريخية تقتضي البحث في سبب ضعف المراكز الحضرية بالمغرب عموما وسوس بالخصوص خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين /8 – 9، أي البحث في الظاهرة في بعدها التاريخي من جهة وفي طبيعة النصوص الجغرافية المشرقية الأولى، ونحن نسوق هذه الملاحظة لنشير الى أن العديد من المراكز الحضرية لن يرد ذكرها عند هؤلاء الجغرافيين، ومن بين تلك المراكز هناك مدينة تارودانت موضوع هذا البحث.

ثانيا : عن «مسالك» البكري الى «استبصار» المؤلفين المجهولين.

شهد القرنان الخامس والسادس /11 و 12، تطورا معتبرا في مجال الكتابة الجغرافية الإسلامية، وأهم ما ميز هذه الكتابات هو أنها أنجزت من طرف جغرافيين ينتمون للغرب الإسلامي. ولذلك جاءت أوصافهم للمغرب وللسوس غنية من حيث المعلومات.

فالبكري (تـ. 487 / 1094)[14]الذي عاش في فترة تميزت بظرفية تاريخية عكستها أوصافه للمسالك والمدن، أمدنا بمعومات وإشارات تاريخية عن الخريطة الإقتصادية والاجتماعية لمنطقة سوس معتمدا على كتابات سابقيه تعتبر الآن مفقودة وعلى رويات شفوية استقاها من الذين زاروا المغرب[15]، وإذا تركنا، جانبا، المعلومات الإقتصادية القيمة التي أوردها البكري، فإننا نلاحظ بأن «مسالكه» جاءت غنية بالمعالم الجغرافية، فهو يذكر العديد من القبائل المحلية كما يذكر العديد من المدن والقرى والجبال والأنهار والأسواق. وأهم ما ذكر عن السوس هو مدينة ايجلي التي وصفها «بقاعدة بلد السوس ومدينته»[16] ورباط ماسة ومدينة نول وتامدلت ثم «مدينة السوس» التي نعتقد بأنه يعني بها مدينة تارودانت[17].

ومع الادريسي (تـ. 564 هـ/ 1160 م) في كتابه نزهة المشتاق [18]نلتقي للمرة الأولى مع ذكر مدينة تارودانت فحسب معلوماتنا فإن أي جغرافي من الذين سبقوا الادريسي، لم يذكر مدينة تاردوانت، بل نلاحظ أنه مع الإدريسي وقع بعض التبدل في خريطة المواقع الجغرافية، إذ ظهرت مواقع جديدة واختفت مواقع قديمة، وهذا بالرغم من أن الادريسي يشير الى نفس المعطيات الاقتصادية التي أوردها سابقوه. فهو يؤكد على أهمية مدينتين بسوس وهما تارودانت وتيويوين «مدينتي السوس أعني تارودانت وتيويوين

يوم في جنات وبساتين»[20]مشيرا الى الصراع المذهبي الذي كان قائما بين أهل سوس، وإلى انقسامهم الى فرقتين«... أهل تارودانت (و) يتمذهبون بمذهب المالكية من المسلمين وهم حشوية... وأهل تيويوين (و) يقولون بمذهب موسى بن جعفر... وبينهم أبدا القتال والفتنة وسفك الدماء وطلب الثأر...»[21].

أما الزهرى (كان حيا سنة 556 هـ /1161 م)[22]والذي عاصر الشريف الادريسي، فإننا في الوقت الذي نجده يورد إضافات مهمة حول المنطقة ومواردها الاقتصادية ونشاطها التجاري وخاصة علاقاتها ببلاد السودان، فإنه مع ذلك لم يخصص أوصافا لمدن وقرى سوس، وإنما أشار إليها باقتضاب شديد[23].

ونصل أخيرا الى كتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار»[24]والذي كثيرا ما اتهم صاحباه بنقل معلوماتهما من الكتب القديمة وخاصة «مسالك» البكرى فقد أضاف هذا الكتاب معلومات جديدة تهم بالخصوص مدينة تارودانت، فوسمها بأنها «أكثر بلاد الله قصب السكر، وفيها معاصر السكر كثيرة، وهذا البلد أخصب بلاد المغرب وأكثرها فواكه وخيرات،....»[25] على أنه اعتبر مدينة تارودانت مجرد «قرية كبيرة جدا»[26] في الوقت الذي أفاض في الحديث عن مدن أخرى مثل إيجلي التي اعتبرها قاعدة بلاد السوس[27] ومدينة تامدلت التي اعتبرها مدينة كبيرة وكثيرة العمارة[28].

ثالثا : تارودانت والكتابات الجغرافية خلال نهاية العصر الوسيط.

يبدو أن فترة التي أعقبت القرنين الخامس والسادس قد عرفت نضوبا في قيمة وكمية المعلومات الجغرافية المتعلقة بالمغرب عموما وسوس وتارودانت على وجه الخصوص، فكان علينا أن ننتظر مطلع القرن 16/10 لنتعرف على اللوحة التي انتهى إليها تطور المنطقة. وهكذا فإذا استثنينا «كتاب الجغرافية» لابن سعيد وخاصة وبصفة أكثر أهمية كتاب «وصف افريقيا» للحسن الوزان، فإن جل ما كتب لا يمدنا بعناصر جديدة ومفيدة عن المنطقة.

فياقوت الحموى (تـ. 1229/626 م) في « البلدان»[29]ظلت أوصافه رهينة بما كتبه الجغرافيون المشرقيون الاوائل حيث الغموض في تحديد المنطقة[30]. أما صاحب الروض المعطار، ابن عبد المنعم محمد الحميري (تـ. 726 هـ/1326 م)[31] فإن جل معلوماته منقولة عن الجغرافيين السابقين وخاصة البكرى والادريسي وصاحبا الاستبصار[32].

أما محمد بن إبراهيم الانصاري، صاحب كتاب «مناهج الفكر» (ت. 718 هـ 1318 م)[33] فقد جاءت أوصافه جد مقتضبة، ولم يضف أي شيء عن المنطقة واعتبر مدينة تارودانت من بلاد النفيس، وتوقف قليلا عند مدينتي تامدلت وايجلي.

ونعتقد بأن كتاب الجغرافية لابن سعيد الغرناطي (ت. 673 هـ/1274 م)[34] هو أهم مصدر جغرافي عن السوس خلال القرنين السابع والثامن /13 — 14. فقد أشار الى أن مدينة تارودانت هي عاصمة السوس. وهو أول جغرافي ذكر بأن مدينة تارودانت مدينة أزلية[35] وأن لها عمائر كثيرة[36].

ولم نعثر لدى أبي الفداء (1331/732)[37] على عناصر جديدة باستثناء إشارته الى علاقة مدينة تارودانت بالبحر[38].

وبالرغم من أهمية كتاب العمري[39] (ت. 1348/749) والذي تعتبر «مسالكه»[40] أهم موسوعة جغرافية كتبت خلال القرن الثامن/14، فإنه لم يذكر معلومات كثيرة عن المنطقة، فهو تحدث عن قصب السكر بالسوس والمغرب والى ما أصابه من تراجع[41] كما أشار الى أهمية المنظر الزراعي بسوس[42] وإلى أهم مدن المنطقة وهي تارودانت وتيويوين وتينملت ![43].

أوصاف الوزان.

يعتبر الوزان (ت. 1552/960 م)[44] أهم جغرافي كتب عن المغرب عند نهاية العصر الوسيط فأوصافه تعبير، في نظرنا، عن لوحة فريدة تعكس ما انتهت إليه العديد من بنيات سوس بصفة عامة ومدينة تارودانت على وجه الخصوص. فعلى مستوى الخريطة الحضرية يذكر الوزان ويصف أهم المدن التي كانت منتشرة بالسوس. وبينما يؤكد على أهمية مدن ماسة وتييوت وتيدسي وتكاووست، فإنه يعتبر بأن مدينة تارودانت بالرغم من أنها أزلية وعظيمة فإنها قليلة السكان، وهو ما يعني، في رأينا، أن الوزان لا حظ تفاوتا، بينا، بين الأهمية التاريخية للمدينة وبين وضعيتها خلال زيارته للمنطقة. وهذا التفاوت هو الذي سنحاول، بعد حين، التوقف عند خلفياته التاريخية.

3 — تارودانت : الظهور والتطور.

أول مشكلة تطرحها المصادر الجغرافية هو مسألة ظهور مدينة تارودانت كمركز حضري بمنطقة سوس، فالكتابات الجغرافية الأولى لم تذكر هذه المدينة فقد لا حظنا بأن

أول جغرافي تحدث عن تارودانت هو الشريف الادريسي. فلماذا تسكت الكتابات الأخرى عن المدينة ؟ هل لم يكن لها دور اقتصادي أو سياسي قبل القرن السادس ؟ لا نظن ذلك فالمصادر الإخبارية تحدثت عن المدينة منذ الفتوح الإسلامية للمغرب[45] كما كانت من المدن التي غزاها المرابطون وأزالوا منها الشيعة[46] وضمن نفس المصادر وصفت سوس المدينة على أنها قاعدة بلاد السوس[47].

فلماذا سكتت المصادر الجغرافية الأولى عن المدينة، يبدو أن الجغرافيين الأوائل استقطبت اهتمامهم مدن سوسية أخرى بلغت درجة أكبر من النشاط التجاري وذلك قبل القرن السادس / 12، وأهم هذه المدن هي تامدلت وايجلي وماسة مع رباطها، أما تارودانت فقد كانت تعرف خلال هذه الفترة أزمة «مذهبية» ممثلة في الصراع المالكي ــ الشيعي وبالرغم من أن المسألة تطرح مشكلة الحيز الزماني الذي اتخذه هذا الصراع، وأيضا مدى حضور الاسلام بالمنطقة حتى أن المدينة كانت تعرف نزاعات قد يكون لها مضمون غير الذي ألحت عليه بعض المصادر.

وقد دفعتنا هذه الإشارة للصراع المذهبي الى الاستنتاج بأن كلا من ابن حوقل والبكرى قد تحدثا عن مدينة تارودانت من دون أن يسمياها. فما أورده الادريسي عن انقسام أهل سوس الى فرقتين مالكية وشيعة[48] يتطابق مع ما ذكره البكري من أن «بنو لماس كلهم روافض»[49]، كما أنه لا يختلف كثيرا عما جاء عند ابن حوقل من أن «أهل سوس فرقتان مختلفتان مالكيون أهل سنة وموسويون شيعة يقطعون على موسى بن جعفر»[50].

ما هي وضعية المدينة خلال هذه الفترة ؟ هناك عنصران يظهر أنهما في حاجة الى تحقيق تاريخي، العنصر الأول ويتعلق بالوضعية الاجتماعية ــ الدينية أي ذلك الانقسام المذهبي الذي كانت تعيشه المدينة والذي لا شك أن له امتدادات اقتصادية، أما العنصر الثاني فهو أهمية المدينة من الناحية الاقتصادية وخصوصا زراعة وصناعة السكر. فالبكري يشير الى «أن الذي جلب الساقية الى مدينة السوس هو عبد الرحمن بن مروان»[51]، ونظن أنه يقصد بمدينة السوس مدينة تارودانت، لأن الأوصاف اللاحقة تؤكد على هذه الساقية بتارودانت، كما تؤكد على المشاريع المائية الخاصة بزراعة وصناعة السكر بضواحي المدينة، فقد ذكر ابن وادي السوس الى تارودانت وعليها العمارة والسكنى «البيان القسم الموحدي، ص. 455).

إن كلا من الصراع المذهبي الذي ألحت عليه المصادر الجغرافية، والمشاريع المائية، قد دفعتنا الى استخلاص بعض النتائج الأولية، فإذا كانت الاشارة الأولى قد ساعدتنا

على التوصل الى أن الجغرافيين الأوائل قد تحدثوا عن تارودانت من دون أن يسموها، فإن الوقوف عند الأوصاف الخاصة بالنشاط الزراعي والمشاريع المائية المرافقة له قد أدت بنا الى القول بأن النزاع الذي ظل قائما بين أهل تارودانت وأهل تيويوين طيلة العصر الوسيط قد يكون بسبب هذه المشاريع المائية لأنها كانت تقام على نهر تتحكم في صبيبه ظروف مناخية مضطربة تجعل الصراع بين سكان عالية النهر وسكان سافلته أمرا مزمنا.

القرن السادس : عصر الإزدهار.

تؤكد أوصاف كلا من الادريسي وصاحبي الاستبصار على أن مدينة تارودانت عرفت تطورا ملحوظا خلال العصر الموحدي. فقد اعتبر الادريسي أن تارودانت هي مدينة السوس، وأن بينها (أي تارودانت) وبين تيويوين يوم في جنات وبساتين وكروم وأشجار وأنواع من الفواكه واللحوم عندهم ممكنة رخيصة[52]. ويصف في فقرات أخرى أهمية السكر وصناعة الأكسية الرقاق والثياب الرفيعة مما لا يقدر أحد على عمله بغيرها من البلاد[53]. واعتبر صاحبا الاستبصار مدينة تارودانت هي أكثر بلاد الله قصب السكر وأكثرها فواكه وخيرات، و«منها يجلب السكر الى جميع بلاد المغرب والأندلس وافريقية»[53].

ما هي خلفية هذا التطور ؟

يبدو أن ذلك له علاقة باهتمام الموحدين بالمدينة التي جعلوا منها قلعة عسكرية وعاصمة إدارية لكل المنطقة السوسية، وقد أسهب ابن عذاري في الحديث عن الأهمية التي احتلتها مدينة تارودانت خلال العهد الموحدي، يقول ابن عذاري : «ولقد بني هذا الحصن (تارودانت) عدة مرات ووجه إليه الصناع من الحضرة، وعملت عليه أبواب الحديد »[54]. وعن الأهمية السياسية والعسكرية للمدينة يذكر «كان (حصن تارودانت) محلا لاستقرار الأجناد ومنه كان استيلاء الولاة على تلك البلاد»[55]، ثم يضيف : «حصن تارودانت الذي كان قاعدة البلاد السوسية ودار الولاة ومستقر أمرهم ومأوى كل غريب من التجار وغيرهم»[56].

هل يمكن الحديث عن وجود تطابق بين المجال الموصوف وبين ما ورد عند الادريسي وصاحبي الاستبصار ؟ نعتقد أن بعض التطابق موجود. فالإزدهار الذي عرفته مدينة تارودانت مع الموحدين هو الذي جعلها تحظى باهتمام الجغرافيين، وجعل بالتالي إسمها يرد

في كتاباتهم، وهو اهتمام جاء عقب سلسلة من المشاكل كانت تهز المدينة خاصة منها الصراع المذهبي، والتذمير الذي ألحقه المرابطون بالمدينة. والواضح أن ذكريات تلك الحقبة لم تنمح من ذاكرة الجغرافيين فالادريسي وصاحبا الاستبصار تحدثوا عن وجود نزاع مذهبي بين المالكية والسنة بالرغم من أن المنطقة تعرضت لمسح مرابطي وذلك عندما فتحوا المدينة عنوة وقتلوا بها خلقا كثيرا..[57]ثم مسح موحدي تصوره المصادر بشكل أكثر عنفا، مما يدفعنا الى ضرورة التحفظ في مسألة بقاء عناصر شيعية بالسوس خلال القرن السادس/ 12 وإن كنا لا نشك في استمرار بعض الممارسات والطقوس ذات الجذور الشيعية.

تارودانت و «أزمة» القرنين الثامن والتاسع/ 14 و15م

سبق وأشرنا الى أن أغلب المصادر الجغرافية التي كتبت خلال القرنين الثامن والتاسع/ 14، 15 كانت عبارة عن أوصاف إما مقتضبة أو أنها تكرارا حرفيا لما ورد في المصادر السابقة، والحالة هذه فإننا إذا استثنينا العمري والوزان فإن بقية المصادر، وهي عديدة، تتضمن أوصافا لا يظهر عليها أي انفعال مع المجال الموصوف. فبينما كانت المدينة تئن من وطأة أزمة خانقة مست كل مظاهر العمران، في ذات الآن كانت العديد من الكتابات الجغرافية تجتر صورا للمدينة لم تبق منها سوى الذكرى.

لقد عانت المدينة من عدة مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية استمرت من منتصف القرن السابع / 13 الى مطلع القرن العاشر/ 16، فالعمري، عند حديثه عن السكر بالمغرب أشار الى انتشار قصب السكر بالسوس ومراكش وسلا وعلق على ذلك بقوله : «ولولا عدم استقامة أهل السوس وتلك الأطراف وكثرة المواسم لكان كثيرا جدا»[58]، لاشك أن العمري، الذي كثيرا ما يدقق في ملاحظاته، قد لاحظ تفاوتا بين وضعية السكر في السوس خلال القرن الثامن /14 وبين شهرة هذا السكر التي اخترقت آفاق بلاد المغرب وأروبا. كما أن إشارة العمري تحيلنا على استنتاج آخر وهو أن تراجع زراعة وصناعة السكر بالسوس أدى الى ظهور مناطق أخرى تعاطت لهذا النشاط بالرغم من أنها لم تكن معروفة بهذه المادة من قبل.

وبعد العمري بأزيد من قرن ونصف وصف لنا الوزان الوضعية التي انتهت إليها مدينة تارودانت، وعكست أوصاف ماضي وحاضر المدينة، فتارودانت أكثر تحضيرا من المدن السوسية الأخرى ولكنها أقل سكانا وجل بناءاتها مهدمة. ولنتوقف عند مسألة السكان، لقد علق الأستاذ محمد حجي على مسألة قلة السكان بقوله أن ذلك يتناقض

مع ماذكر من أن تارودانت تشتمل على 3000 كانون وتييوت على 1000 وإلا أن يكون الناسخ زاد صفر فجعل 300 ثلاثة آلاف.

ما السبب في هذا التناقض ؟

يظهر أن المسألة تتعلق أولا بالرقم الذي أعطاه الوزان عن سكان المدينة فـ 3000 كانون (أي بين 000 12 ن و 000 15 ن) نظن أنه رقما مبالغا فيه، ولذلك نرجح فرضية الأستاذ محمد حجي بحيث قد يكون الخطأ من ناسخ «وصف افريقيا»، لكن إذا قبلنا بهذه الفرضية، فما هو سبب هذا النقص ؟ وما هي الظروف التي تحكمت في ديموغرافية المدينة ؟ لا شك أن الأزمة السياسية والاجتماعية التي شهدتها المدينة منذ منتصف القرن السابق/ 13 قد قلصت كثيرا من دورها وحجمها، وهو تقلص كان لصالح مراكز حضرية أخرى مثل تييوت (1000 كانون) وتكاووست (8000 كانون) التي اعتبرها الوزان، «أهم مدن سوس على الاطلاق»(59).

لقد عانت المدينة من أزمة امتدت زهاء قرنين ونصف وكانت المؤشرات الأولى لهذه الأزمة هو تدهور الدولة الموحدية وتمرد ابن يدر، بالمنطقة، والذي «لم يكن أهم أموره إلا تخريب هذا الحصن والذي متى خلا من الاجناد انتهز ابن يدر الفرصة إليه واحتشد القبائل عليه حتى صار طللا دارسا»(60). وفي وصف يبدو عليه الكثير من الأسف والحسرة يقول ابن عذاري : « تارودانت الشهيرة ذات الخيرات الكثيرة لكنها استولى عليها الخراب من ابن يدر حتى صيرها كالقفر درسا وعفاءً فإنه كان منها شجى الصدر ولم يبق بها إلا جامع الخطبة في قصبة الحصن....»(61)، وهي الوضعية نفسها التي أشار إليها ابن خلدون بقوله : «ومر (أبو ديوس) بتارودانت فوجدها قفرا خلاء الا قلائل من الدور بخارجها»(62).

لقد كانت تارودانت إحدى ضحايا أزمة الامبراطورية الموحدية، فباعتبارها حصنا عسكريا ومركزا إداريا للدولة فقد كانت هدفا للمتمرد ابن يدر، ولم تتمكن الحركات التي نظمها سلاطين الموحدين المتأخرين، وخاصة حركة أبي ديوس، من الحيلولة دون خراب المدينة. كما أن الظرفية العامة التي دخلها المغرب مع وصول المرينيين الى السلطة كرست التدهور الذي أصاب المدينة. فعند مطلع القرن الثامن (سنة 706 هـ) «أثخن يعيش بن يعقوب في بلاد السوس وهدم تارودانت قاعدة أرضها وأم قراها»(63).

إن أهم وأخطر مشكل عانت منه مدينة تارودانت خلال القرنين 14 و15 هو الغياب الشبه مطلق للسلطة بالمنطقة، فالسلاطين المرينيين، الذين انشغلوا بمشاكل الشمال

والشرق، اكتفوا باقطاع السوس لبنى معقل كوسيلة لادارة المنطقة. وبذلك دخلت المدينة في مرحلة أقول مثلها مثل جل المناطق الواقعة جنوب نهر أم الربيع مثل مراكش التي شهدت خرابا مشابها[64]. فعندما أقطع أبو الحسن المريني السوس الى عرب معقل كان. ذلك محاولة لتنظيم هذا الإقليم عن طريق هذه القبائل التي احتلت أجود الأراضي بالمنطقة وحاصرت سكان المدن وظلت تجني منهم الضرائب المختلفة الأنواع. ولم تتخلص هذه المدن وبالخصوص مدينة تارودانت من هذه الوضعية الا عند ظهور الحركة السعدية، فقد أشار الوزان الى أن مدينة تارودانت ثارت ضد هؤلاء الأعراب بمجرد ظهور الشريف السعدي[65]. وهو ما يعني خروج المدينة وبعدها جل مدن السوس والحوز ودكالة من انكماش طال قرابة القرنين[66].

* * *

إن الصورة القاتمة التي صورت بها بعض المصادر الاخبارية الوضعية التي آلت إليها تارودانت، خلال القرنين الثامن والتاسع / 14 – 15، لتقف على طرفي نقيض مع اللوحات المرسومة بداخل العديد من الكتابات الجغرافية المحسوبة على نفس الحقبة. فما السر في هذا التعارض بين هذين النوعين من المصادر، أو بالأحرى كيف نفسر «التنافر» الحاصل بين النص الجغرافي و «الواقع التاريخي» ؟ فالقبول باللوحات التي تمدنا بها الكتابات الجغرافية تجعلنا أمام حالات من الثبات في البنى الاقتصادية والاجتماعية وهو ما يتعارض مع منطق التاريخ، فالظرفيات التاريخية التي مرت منها تارودانت جعلتها تخضع لحركيات مد وجزر وهو ما لم تعكسه جل المصادر الجغرافية، والواقع أن هذه المصادر هي التي ظلت ثابتة وحبيسة قوالب فكرية جامدة، فمنذ القرن السادس/ 12 أصبح جل «الجغرافيين» يكتفون بما ذكره السابقون، فباستثناء الوزان، فإن معظم الكتابات الجغرافية الأخرى «قنعت» بما انتجته الأسلاف.

يبدو إذن، أن المصادر الجغرافية التي طالما اعتبرت أهم مصدر مكتوب عن المدن المغربية خلال العصر الوسيط، تحتاج الى كثير من التحليل والنقد لفهم إشاراتها المقتضبة، وفك تداخلاتها، ووضع أوصافها في سياقاتها التاريخية. وقد مكننا التعامل مع هذه المصادر، ومع مصادر مشابهة، من الوقوف على مشاكل منهاجية، فالكشف عن الثوابت والمتغيرات داخل مجال ما، يمر عبر انجاز قراءات نقدية لهذا الأدب الجغرافي، وذلك بمقارنتها فيما بينها، وغربلة ما يشوبها من تداخلات وفرز ما يمكن فرزه من تطبيقات تعكس بعضا من الواقع التاريخي.

الـهـوامـــش

1 وهذا ما يفسر، في نظرنا، وجود معلومات وأحيانا فصولا كاملة بكتب الخراج، ففي «كتاب الخراج وصناعة الكتابة» لقدامة بن جعفر، نجد أن المؤلف ألح على أهمية الجغرافية بالنسبة للدولة و موظفيها، فخصص الباب الأول من المنزلة السادسة «لعلم الجغرافية (ص. 132 ومابعدها) فضلا عن معلومات جغرافية تتوزعها أبواب وفصول أخرى .

قدامة بن جعفر : «الخراج وصناعة الكتابة»

بغداد، 1981.

2 عن نشأة الجغرافية عند المسلمين، يمكن مراجعة ما يلي :

مادة : Djughrafia

بالموسوعة الاسلامية. E.I

Mauny Tableau géographique.

نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب بيروت. 1962. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس.

مدريد، 1967.

3 ابن خرداذبة : أبو القاسم عبد الله الفارسي.

المسالك والممالك. ليدن، 1888.

4 الاصطخري : ابراهيم بن محمد الكرخي. مسالك الممالك ليدن، 1927.

5 ابن خرداذبة، ص. 89.

6 الاصطخري، ص. 39.

7 اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن واضح. ــ كتاب البلدان النجف، 1957.

8 ابن حوقل، أبو القاسن محمد. ــ صورة الأرض. ليدن 1938

9 اليعقوبي : ص. 110.

10 ابن حوقل. ص. 83.

11 ابن حوقل. ص. 91

12 ابن حوقل، ص 91 – 92. ويفسر هذا الموقف من ابن حوقل بكونه كان شيعيا و «جاسوسا» للفاطميين.

13 المقدسي، البشاري محمد أبي بكر. (ت. 390) أحسن التقاسم في معرفة الاقاليم. أبريل، 1906.

14 البكري، أبو عبيد الله عبد الله. ــ المسالك والممالك (طبعة) . باريس 1965.

15 أنظر عن مصادر البكري.

E. Levi - provençal. E.I, II. PP. 159-161

وخصوصا André Ferré. - «la source du Kitab al-Masâlik Wa-1- mamalik. d'abou Ubayd al- Bakri» in IBLA, T. 49, N° 158.- 1988. PP.185- 214

16 أنظر عن البكري، ص. 161.

17 يقوم تأويلنا هذا على عدة معطيات ومقارنات سنتوقف عندها في حينها.

18 الإدريسي محمد بن عبيد الله السبكي. — نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. طبع عدة مرات، واعتمدنا نشرة هنري بيبريس : «وصف افريقيا الشمالية والصحراوية» الجزائر، 1957.

19 الادريسي، ص. 39.

20 الإدريسي، ص 40.

21 الإدريسي، ص. 39.

22 أبو عبد الله محمد بن أبي الزهرى، جغرافي أندلسي له كتاب عرف بعناوين مختلفة منها كتاب «السفرة» و «كتاب الجغرافية» بالعين المهملة ، والخريطة المأمونية. أنظر م . المنوني «المصادر العربية لتاريخ المغرب». ص. 45. وقد قام محمد حاج صادق بنشر كتاب الجغرافية ضمن Bultin d'etudes. Orientales, Damas, 1968-

23 الزهرى، ص. 190، وانظر عن أوصافه المتعلقة بموارد المنطقة وعلاقاتها التجارية. الصفحات 188 – 190.

24 لمؤلفين مجهولين، نشأ أحدهما، وهو واضع الكتاب، بالمغرب ويعتبره الأستاذ م . المنوني من حفاظ الموحدين. أنظر م. المنوني، المرجع السابق، ص 44. وقد قام سعد زغلول عبد الحميد بنشر الكتاب بالاسكندرية عام 1958 ثم أعيد طبع نفس النشرة بالدار البيضاء، 1985.

25 الاستبصار، ص. 211 – 212.

26 نفس المصدر، ونفس الصفحة.

27 نفس المصدر، ص112.

28 نفسه، ص 113 .

29 ياقوت الحموى، معجم البلدان. القاهرة، 1906.

30 معجم، 3 : 281.

31 الحميري، محمد بن عبد العليم. — الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس. ط 2. بيروت، 1984.

32 الروض، ص. 330.

33 E. Fagnan, Extraits inédits relatifs au Maghreb, Alger. 1924. PP.41-68

34 ابن سعيد الغرناطي. — كتاب الجغرافية.

35 Extraits. PP. 18-19-

36 ابن سعيد، ص 124.

37 أبو الفداء إسماعيل. — تقويم البلدان. — باريس، 1940.

38 تقويم، ص. 131.

39 العمري أحمد بن يحي بن فضل الله القرشي، «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار». وهو موسوعة ضخمة لم تنشر بعد كاملة.

40 هذا ما لاحظناه من الأجزاء المنشورة من «مسالك» العمري وخاصة نشرة / ترجمة :

Gaudefrey - Demombynes.. Paris- 1927.

والجزء الذي نشره. المنوني ضمن «ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين». الرباط، 1979.

41 ورقات، ص. 299.

42 Extraits, pp. 57-67

43 Extraits, p.73.

44 الوزان، الحسن بن محمد . — وصف افريقيا. — ترجمه عن الفرنسية، د. محمد حجي ود. محمد الأخضر. بيروت 1983.

45 ابن خلدون عبد الرحمن، العبر. — 6 : 142.
الناصري أحمد. — الاستقصا. 1 : 82
46 الناصري، الاستقصاء. 2 : 14.
47 نفس المصدر، والصفحة.
48 الادريسي، ص. 39.
49 البكري، ص. 161.
50 ابن حوقل، ص. 91 - 92.
51 البكري، ص. 161.
52 الادريسي، ص. 40.
53 نفسه، ص. 39.
54 ابن عذاري، البيان المغرب، القسم الموحدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة. الدار البيضاء، 1985. ص 459 - 460.
55 نفسه، ص. 59.
56 نفس المصدر والصفحة.
57 الناصري، الاستقصاء، 2 : 14.
58 م. المنوني، ورقات، ص. 299.
59 الوزان، ص. 117. وانظر بالخصوص الهامش رقم 25.
60 الوزان، ص 120.
61 ابن عذاري، المصدر السابق، ص 459.
62 نفسه، ص. 455.
63 ابن خلدون. — العبر. 6 : 353 ومابعدها.
64 نفسه، 7 : 305.
65 M. Kably, Societé, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Age. Paris- 1986.pp.253-254
66 الوزان. ص. 118 .
M. Kably, Idem, p. 254.

المحــــور الثقـــافـي

دراسة ببليوغرافية لبعض المخطوطات الموجودة بالمكتبات العامة والخاصة بتارودانت

إبراهيم أبو الصواب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
أكادير

إن فكرة البحث حول مخطوطات الجنوب وتارودانت بالخصوص كانت بالنسبة لي فكرة قديمة جدا. فمنذ دراستي بمعهد محمد الخامس بتارودانت وإطلاعنا نحن الطلبة آنذاك، على بعض المخطوطات التي تحتوي عليها خزانة الإمام علي مما كتبه علماء مغاربة ينتمون بالخصوص الى سوس والجنوب عامة، فمنذ ذلك الحين كانت آمالنا معلقة بحقيقة أساسية تتجلى في كون البحث في التراث المخطوط لهذه المنطقة سيجيب لا شك على مجموعة من التساؤلات المرتبطة بالتاريخ العام للمنطقة، وبتاريخها العلمي والثقافي بصفة خاصة.

لقد اجتمعت عدة أسباب جعلتني، بالإضافة الى ما ذكرت، أوجه اهتمامي الى البحث البيبليوغرافي لهذه الجهة، منها فيما يرتبط بمدينة تارودانت، الأسباب التالية :

— الدور السياسي الهام الذي لعبته المدينة عبر مراحل تاريخية عديدة، وما استتبع ذلك من نشاط علمي وثقافي داخل المدينة.

— اعتبار تارودانت أهم مركز حضاري بالمنطقة قبل ظهور مدينة أكادير وتوسعها والعمران يقتضي توسع الصناعات وازدهار العلوم على حد نظرية ابن خلدون.

— انتقال مجموعة كبيرة من تلاميذ وأبناء المدارس العتيقة بسوس، واستقرارهم بتارودانت قبل وبعد الإستقلال، الشيء الذي يجعلنا نفترض أنه وقع برحيل هؤلاء الى المدينة نقل مجموعة كبيرة من مخطوطات تلك المدارس. بعد أن اجتمعت هذه الأسباب أسعدني الحظ بالقيام بعدة زيارات ميدانية الى المدينة من أجل استكمال هذا البحث وكانت النتيجة الأولى أنني فوجئت بما يلي :

ــ خلو المكتبات العامة مما كانت تزخر به من قبل.

ــ ظهور مكتبات خاصة واغتناؤها على حساب مكتبات عامة.

ــ تحجر عقلية أصحاب المكتبات الخاصة، الشيء الذي دفعهم الى إقبار مكتباتهم حيث أصبح من المستحيل أن يطلع أي إنسان على كثير منها. وكان المبدأ الذي اتبعه أغلب هؤلاء هو ما قاله لي أحدهم : «اللي جا كيطلب الكتوب، سد عليه الباب أولا عطيه الكذوب».

ولقد تبين لي أيضا خلال زياراتي لتارودانت أن البحث الببليوغرافي بالمدينة يجب أن يعالج في إطار أشمل يهم طبيعة البحث الببليوغرافي بسوس ويهم كذلك ماضي وحاضر ببليوغرافيا جنوب المغرب من مراكش الى الصحراء. ذلك أن أغلب المؤلفات التي نجدها داخل مكتبات تارودانت هي من تأليف علماء سوس وعلماء الصحراء، كما أن هناك كتبا ألفت بتارودانت أو استنسخت منها توجد داخل مكتبات أرياف سوس، فهناك اذا علاقة أخذ وعطاء بين المدينة ومختلف المناطق الجنوبية تجعل البحث الببليوغرافي بتارودانت بحثا يستمد شموليته في هذا الإطار الجغرافي العام.

هذه الحقيقة أخذتها بعين الاعتبار أثناء تحضير هذا البحث، لذلك فإنني أشير الى العلاقة البيليوغرافية بين تارودانت والمنطقة الجنوبية كلما اقتضى الامر ذلك، غير أنني، لأسباب منهجية، أركز على ببليوغرافية المدينة منبها الباحثين أن هناك، في الارياف القريبة والبعيدة من تارودانت، مكتبات كثيرة جديرة بالبحث والتنقيب وتوجد كلها في ملك الخواص[1].

* / خزائن المخطوطات بمدينة تارودانت / *

إن ندرة المراجع التي تتحدث عن خزانات تارودانت كانت بالنسبة لي أول عائق أمام استكشاف خزانات الاشخاص بالمدينة. فرغم أن الأستاذ المختار السوسي أرخ لبعض الخزائن العلمية الموجدة بأرباض مدينة تارودانت إلا أنه لم يؤرخ للخزائن الموجودة داخل المدينة، باستثناء خزانة السيد موسى القاضي التي أشار إليها إشارة عابرة[2]. وأثناء حديثه عن الاسر العلمية بسوس أرخ لحوالي مائة وخمسين أسرة ذكر من بينها عشر أسر من الأسر العلمية بمدينة تارودانت[3]. وإنني أفترض كما يشير هو نفسه الى ذلك، أن كل أسرة من تلك الأسر تملك خزانة طافحة بالكتب والمخطوطات. وحينما كتب الأستاذ المانوزي

بحثه القيم حول مكتبات سوس تحدث عن المكتبة الملوكية بتارودانت أيام السعديين واعتبرها من أعظم مكتبات العالم آنذاك بما احتوته من مادة غزيرة ومؤلفات تربو على الالاف[4]. وذكر حسب تقييد لاحد علماء أسرته، أنه ماتزال توجد بعض الكتب القليلة من تلك الخزانة تحت يد أسرتهم ورغم ما يبدو من شمولية مقال الأستاذ المانوزي فإن صاحبه، مثلما هو الحال بالنسبة للأستاذ المختار السوسي، لم يتتبع بالتنقيب مختلف مكتبات المدينة، كما لم يعرف بمكتبات الأشخاص التي لاشك أنها كثيرة بتارودانت في ذلك العهد.

إن هذه الندرة من المراجع التي تعرف بخزانات المدينة جعلتني اعتمد اعتمادا كليا البحث الميداني وما يتطلبه من اتصال بالناس، وكسب صداقة الكثير من أصحاب الخزانات أو من لهم معرفة بهؤلاء. وبالتالي جعلتني اعتمد على الرواية الشفوية للحصول على فهارس ووصف محتويات بعض الخزانات التي لم تفتح أبوابها لأحد قط منذ ثلاثين عاما، أي منذ موت أربابها وبقائها في يد أناس لا يعرفون للكتاب من حق إلا التبرك به وإغلاق الأبواب عليه .

أصنف خزانات المخطوطات بمدينة تارودانت، كما جاء في عنوان هذا المقال، إلى صنفين : مكتبات عامة ومكتبات خاصة. بالنسبة للمكتبات العامة توجد بالمدينة المكتبات التالية :

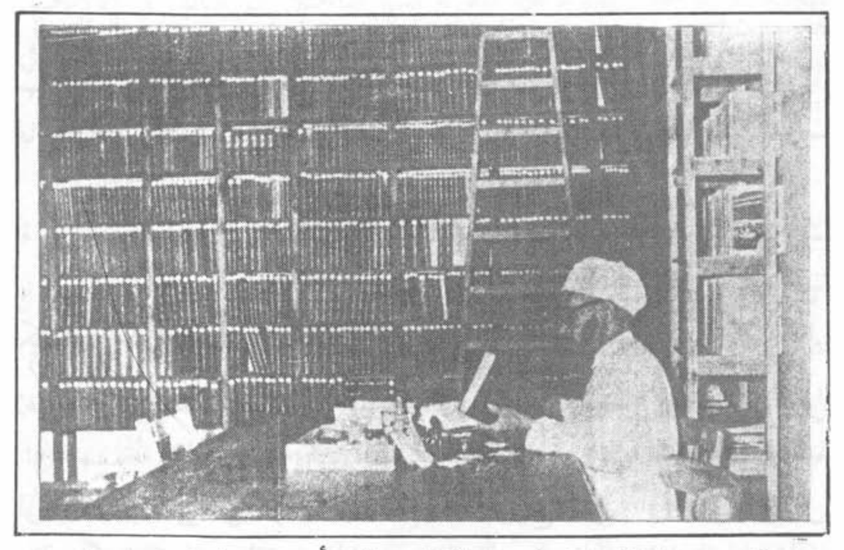
1 – أول مكتبة عامة داخل مدينة تارودانت هي مكتبة الجامع الكبير التي تأسست منذ عهد الدولة السعدية، وبقيت تزخر بالمخطوطات الى منتصف الخمسينات. وبغض النظر عن الكتب الكثيرة التي تحولت من خزانة السعديين الى مكتبة أسكوريال باسبانيا[5]، فإن مكتبة الجامع الكبير تحتوي على مخطوطات أغلبها ألف أو أستنسخ للتدريس بمدرسة الجامع الكبير.

وبمشاركة من الفقهاء المدرسين أنفسهم تحولت مخطوطات هذه المكتبة الى الخزانات الخاصة لاسيما في فترات ضعف المدرسة من الناحية العلمية والمادية. وبذلك انتهت حياة مكتبة الجامع الكبير. ولقد اطلعت على بعض مخطوطاتها في إحدى المكتبات الخاصة بتارودانت.

2 – خزانة مسجد سيدي وسيدي التي تكونت بفضل المخطوطات التي يضعها المحسنون في المسجد وذلك بعد موت علماء من عائلاتهم.ومخطوطات هذه المكتبة تحولت بدورها الى مكتبات الخواص، أو بتعبير أصح كلما وضع كتاب أو مخطوط داخل المسجد الا تحول الى مكتبة فقيه من الفقهاء المترددين على المسجد، وقد اختفت هذه المكتبة العامة منذ الأربعينات من هذا القرن حسب ما سمعت من بعض المسنين بالمدينة.



جانب من مكتبة جمعية علماء سوس



جانب من خزانة معهد محمد الخامس التي أصبحت فيما بعد تحمل اسم «خزانة الامام علي»

3 – خزانة الإمام علي، وكانت في الخمسينات تعتبر خزانة معهد محمد الخامس بتارودانت ثم أطلق عليها اسم «خزانة الإمام علي» بعد أن أصبحت تابعة لوزارة الشؤون الثقافية. كانت النواة الأولى لهذه الخزانة هي خزانة السيد الحاج أحمد الكدورتي وخزانة السيد الحاج عبد الله الكدورتي الخاصتين[6]، وبفضل مجهودات جيش التحرير تحولت إليها خزائن بعض القواد أيام الاستعمار مثل القائد عياد الجراري والقائد مبارك الماسي فيما سمعت. وبذلك تكونت لهذه الخزانة مئات وآلاف الكتب تبلغ فيها نسبة المخطوطات حوالي 80% حسب الروايات الشفوية التي اعتمدت عليها، ورغم أن المسؤولين لم يضعوا إحصاء دقيقا لما دخل الخزانة انذاك من الكتب، إلا أن البعض يقدر كتبها بحوالي أربعة أو خمسة آلاف. لم يكد هذا الركام الهائل من الكتب القديمة والمخطوطات يدخل الى الخزانة، أي خلال السنوات الأولى من دخوله، حتى تم توزيعه وتوجه وجهات شتى نذكر منها مايلي :

– جزء منها دخل إلى المكتبة العامة بالرباط.

– جزء آخر اغتنت به مكتبات خاصة في حواضر مغربية مختلفة.

– جزء ثالث دخل الى خزانة جمعية علماء سوس بتارودانت وسنفصل القول عن هذه الخزانة في الصفحات التالية :

– جزء رابع بقي في خزانة المعهد التي أصبحت بعد هذا التاريخ مباشرة «خزانة الإمام علي » التابعة لوزارة الشؤون الثقافية. غير أن هذا الجزء الباقي لا يشكل الا نسبة ضئيلة جدا بالنسبة للكتب والمخطوطات التي دخلتها فالخزانة لا تحتوي اليوم إلا على مائتي مخطوط فقط، وتشكل هذه المخطوطات الباقية بالنسبة لما في الخزانة اليوم من الكتب نسبة 2% فقط.

4 – خزانة جمعية علماء سوس، وتعتبر هذه الخزانة من أهم الخزائن العامة بتارودانت في الوقت الحاضر، وذلك لما تحتوي عليه من مخطوطات نفيسة ونادرة، لقد تحول إليها قسم كبير من خزانة المعهد سابقا (الإمام علي حاليا) يضم مخطوطات خزانتي السيدين الحاج أحمد والحاج عبد الله الكدورتيين كما يضم أيضا مخطوطات من الخزائن السوسية التي آلت الى خزانة المعهد . يضاف الى ذلك خزانة الأستاذ المختار السوسي الخاصة التي ابتاعتها الجمعية منه. هذا بالإضافة الى ما جمعه أعضاء الجمعية من مخطوطات أخرى في مدارس وخزائن سوس المختلفة، وذلك حسب وسائلهم الخاصة. ومما يؤسف له أن هذه الخزانة أغلقت أبوابها منذ 1963، وجمد نشاطها منذ ذلك الوقت ولم تفتح لباحث قط.

كتب الأستاذ عمر الساحلي قائلا عن هذه الخزانة[7] : «... غير أن هذه الخزانة لا يستفيد منها أحد لحد الساعة، وقد أوصد عليها مع الأسف منذ سنوات وهي عرضة للأرضة بلا شك».

إنني أعتقد أن هذه الخزانة لَوْ فتحت أبوابها لقدمت للبحث العلمي خدمات جلى في هذا الإقليم. وإن جمعية لها ماض مجيد في خدمة العلم بسوس لخليقة بفضل السبق الى انقاذ هذا الإرث من الضياع وذلك بوضع نظام خاص للإستفادة من هذه الخزانة، وفتح أبوابها مثلا داخل إحدى مؤسسات التعليم العالي بالمنطقة.

5 – خزانة المجلس العلمي بتارودانت : يوجد مقرها بالمدرسة القديمة إزاء الجامع الكبير، وتحتوي على مخطوطات ضئيلة. وهي مفتوحة للباحثين رغم حاجتها الى نظام داخلي دقيق لتصبح مفتوحة في وجه الطلبة وعموم القراء.

6 – خزانة معهد محمد الخامس المدرسية : توجد بمقر المعهد وتحتوي على مخطوطات معاصرة مكتوبة بالالة الكاتبة مثل الرسائل الجامعية وبعض الأبحاث التي ألفها أساتذة معاصرون ممن لهم علاقة بالمعهد أو بالمنطقة كلها.

هذه هي الخزانات العامة التي يجدر أن نتحدث عنها هنا. وهي كما نرى ذات أهمية بالنسبة للبحث البيليوغرافي إما من حيث دورها التاريخي أو من حيث قيمتها العلمية في الوقت الحاضر.

وفيما يرتبط بخزانات الخواص، فهي في الحقيقة كثيرة بمدينة تارودانت وسأذكر منها ما وقفت عنده خلال زياراتي للمدينة إما بالإطلاع الشخصي أو بأخذ معلومات شفوية عنها لدى أصحابها أو لدى رجال ثقة اعتمدت عليهم في إنجاز هذا البحث :

1 – خزانة العائلة المصلوتية : تحتوي على مخطوطات كثيرة أغلبها مما استنسخه أفراد العائلة لتوارث العلم فيهم. غير أن لهذه الخزانة روافد أخرى من أرياف تارودانت وأرياف تزنيت ونواحي أكادير والصويرة لتولي بعض أفراد العائلة القضاء في هذه النواحي، ولأن القضاء في ذلك الوقت يستلزم كتابة العقود واستنساخ الرسوم وما يرتبط بذلك من أبحاث فقهية وتآليف قانونية.

2 – مكتبة السيد موسى القاضي التي بقيت في حيازة ابنه السيد أحمد،فبالإضافة الى ما تحتوي عليه من كتب مخطوطة، فهذه الخزانة تعتبر غنية بالرسوم الفقهية وكتب النوازل والفتاوي المرتبطة بفترة الاستعمار، لتولي السيد موسى القضاء بالمدينة خلال هذه

الفترة. وكثير من الناس يعتبرون هذه الخزانة من أضخم وأغنى الخزانات الخاصة بالمدينة، إلا أنه مع الأسف تعتبر أيضا في حكم المعدوم لأن أبوابها لن تفتح، كما يحكى عن صاحبها، حتى يلج الجمل في سم الخياط.

بالإضافة الى هتين الخزانتين الكبيرتين هناك خزانات أخرى تأتي في الدرجة الثانية من حيث كمية المخطوطات الموجودة بها. أما مادتها فهي تتناول مختلف الميادين المعرفية التي سنتحدث عنها في الصفحات اللاحقة.

نذكر من بين هذه الخزائن ما يلي :

3 – خزانة السيد عطفاي.

4 – خزانة آل شيبوب.

5 – خزانة أسرة ابن العباس.

6 – خزانة العائلة السكراتية.

7 – خزانة السيد الحسن الاخصاصي.

8 – خزانة عائلة المزوار.

9 – خزانة عائلة بو تفوست.

10 – خزانة عائلة هرماس.

11 – خزانة السيد المنصار .

12 – خزانة السيد محمد بن علي المنتاكي.

13 – خزانة السيد الرحوم.

وهناك خزانات أخرى من خزائن الخواص تأتي في الدرجة الثالثة من حيت كمية المخطوطات الموجودة بها، وهذه تعتبر من الخزانات الناشئة اليوم بتاوردانت. وتحتوي على عدد لابأس به من المخطوطات ونذكر من بينها ما يلي :

14 – خزانة الأستاذ بوزيد أحمد.

15 – خزانة الأستاذ المتوكل عمر الساحلي.

16 – خزانة السيد ابراهيم الحامدي.

17 – خزانة السيد الياسيني عبد الله.

تشكل المخطوطات بالنسبة لمجموع كتب هذه الخزانات نسبا تتفاوت من خزانة الى أخرى، فإذا رأينا ان نسبة المخطوطات تقل في المكتبات العامة حيث تنخفض بعض الأحيان لتصل الى 2% (خزانة الامام علي مثلا) فإن الأمر ينعكس بالنسبة للخزانات الخاصة حيث ترتفع نسبة المخطوطات لتصل في بعضها حوالي 100% وقد تنخفض الى 20% في بعضها. وقل أن تنخفض الى مستوى أدنى من هذا العدد.

لقد اعتمدت غالبا في تحديد هذه النسبة على الروايات الشفوية التي أدلى بها بعض أصحاب هذه الخزانات، وكذلك على روايات رجال ثقة كانت لهم معرفة قديمة بمحتوى تلك الخزانات قبل موت مؤسسيها. على كل، يمكن أن نقول بصفة عامة : إن نسب المخطوطات في خزانات تارودانت بالنسبة للمطبوع تشكل نسبة لا بأس بها. وحتى أعزز هذا الرأي أسوق هنا المثال التالي :

في يناير 1983 أقيم بمعهد محمد الخامس بتارودانت معرض للكتاب السوسي (الذي ألفه علماء سوس مطبوعا ومخطوطا) وعرض في هذا المعرض حوالي 421 كتاب من بينها 154 مخطوط أي بنسبة تقارب 40%.

وفيما يتعلق بتأليف المخطوطات الموجودة بخزانات تارودانت فإن حوالي 60% منها يعتبر من تأليف علماء سوس أو ما يسمى بعلماء جزولة. ومنها حوالي 20% من تأليف علماء الصحراء. وهناك نسبة أخرى تقدرها الروايات المعتمد عليها بحوالي 20% هي من تأليف علماء ينتمون الى حواضر مغربية أخرى وكذلك بعض علماء الأندلس والمشرق.

العمر الزمني للمخطوطات الموجودة بالمكتبات الرودانية :

حسب أغلب التواريخ التي ألفت أو استنسخت فيها المخطوطات التي اطلعت عليها، وحسب الروايات المعتمد عليها في هذا الباب، فإن في مكتبات تارودانت مخطوطات كثيرة تتموضع زمنيا ما بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر الهجريين. وهناك مخطوطات قليلة ألفت أو استنسخت خلال القرنين السابع والثامن الهجريين. إلا أنني لم أطلع كما لم تفدني الروايات الشفوية المتعمدِ عليها بأن هناك مخطوطات تنتمي الى القرنين الخامس والسادس الهجريين. هذا وإنني لا أستبعد وجود نماذج من هذه الأخيرة داخل مكتبات أغلق عليها نظرا لما تزخر به بعضها من نفائس لا يعلمها أحد.

انطلاقا من هذه المعطيات، فإنني أصور عمر المخطوطات بتارودانت (والمثل ينطبق على المخطوطات بسوس عامة) أصور عمرها الزمني على شكل هرم مقلوب، قاعدته المتسعة تبتدىء من القرن الرابع عشر الهجري نظرا لوفرة المخطوطات في هذا القرن. وتتسع القاعدة كذلك، وبنفس الحجم خلال القرون الموالية أي الثالث، الثاني، الحادي عشر ثم العاشر والتاسع ثم بعد ذلك يضيق الهرم نازلا نظرا لقلة المخطوطات في تلك القرون.
ويضيق الهرم أكثر بعد القرن الثامن حتى يصل الى قمة ضيقة جدا في القرن السادس، ومغلقة تماما في القرن الخامس الهجري.

العلوم التي تغطيها مخطوطات تارودانت والمواضيع التي ألفت فيها

يمكن أن نصنف المخطوطات الموجودة بمكتبات تارودانت الى المجموعات التالية، وذلك حسب مادتها والعلوم التي تتناولها :

I- ما يمكن أن نسميه **بكتب الأجوبة** ، وتشمل الفتاوي والنوازل والدرسات الفقهية بصفة عامة، ويدخل في هذا الباب الرسوم القانونية وعقود القضاء والظهائر وكل ما يرتبط بهذا الموضوع. وأمثلة هذه الكتب المخطوطة هي :

- أجوبة السكتاني.
- أجوبة العباسي.
- العمل السوسي للجشتيمي.
- الفتاوى الفقهية لعلماء أدوز.
- الأجوبة الناصرية.
- نظم الجشتيمي في الفقه[8].

إن القيمة العلمية لهذا النوع من المخطوطات تكمن، في نظري، فيما تقدمه من معطيات للبحث السوسيولوجي حول المنطقة حيث لا نجد فيها فحسب أجوبة فقهية بالمعنى الضيق، لكن نجد فيها أيضا تحليلا للوقائع الاجتماعية في تسلسلها الزمني والمكاني كما نجد فيها سردا لما ترتبط بالواقعة الاجتماعية من علاقات اقتصادية، ثقافية وعقدية، ونجد فيها ذكرا لاسماء الأماكن وأسماء الأشخاص. وفي كل هذا معطيات ذات قيمة علمية لدراسة تاريخ المنطقة الثقافي، وبنيتها السوسيولوجية.

II – المجموعة الثانية من المخطوطات يمكن أن أطلق عليها **كتب الحوليات** وتشمل التاريخ والرحلات والاوصاف الجغرافية والسير الذاتية. ويشكل هذا النوع من المخطوطات داخل مكتبات تارودانت أعلى نسبة بعد مخطوطات المجموعة الأولى. ويمكن أن أمثل لهذا النوع بالنماذج التالية :

ــ صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر للأفراني محمد الصغير.

ــ مناقب الحضيكي لمحمد بن أحمد الحضيكي.

ــ الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة للتمنارتي.

ــ الحضيكيون لمحمد بن علي الصالحي.

ــ حوادث تاريخية عن سوس للحسين الرسموكي.

ــ تاريخ وجغرافية سوس لمرادي عبد الحميد.

ــ تكمن أهمية هذا النوع من المخطوطات في كونها تعتبر مصادر أساسية لتاريخ المنطقة، إننا نجد فيها معالجة مفصلة لكثير من الأحداث التاريخية، كما نجد فيها تاريخا للاعلام و للأماكن، ووصفا للمدن والقرى.

III – المجموعة الثالثة من المخطوطات تتناول **اللغة والأدب** ، وتشكل من بين مجموع المخطوطات نسبة عالية تأتي في الدرجة الثالثة بعد النوعين الأولين. ونمثل لها بالنماذج التالية :

النحو : ــ تحفة الرب المعبود على تعاريف النحو والحدود لأحمد بن محمد الجزولي الهشتوكي.

ــ أيسر المسالك الى ألفية ابن مالك من تأليف : محمد بن العربي الأدوزي.

ــ الأمثلة المختصرة لبعض مسوغات الابتداء بالنكرة للرسموكي.

ــ حاشية فتح الصمد على شرح السبيل العجيب لمعاني حروف مغنى اللبيب بن مبارك الروداني.

البلاغة :

– شرح استعارات ابن كيران للعربي بن ابراهيم الأدوزي.

– منظومة مع شرحها في علم البيان. للافراني محمد الصغير.

نتواجد، بالنسبة لهذه المؤلفات، أمام مدرسة نحوية لغوية سوسية لها مميزاتها بالنسبة لغيرها من اتجاهات النحو العربي. هذه المدرسة تنطلق عموما من الخطوط العريضة التي رسمها أبو موسى الجزولي في كتابه «المقدمة النحوية» الذي يعتبر من أهم مؤلفات النحو العربي في الغرب الاسلامي. ويميز كذلك هذه المدرسة اعتمادها منهجا في الدرس يختلف عن غيره من المناهج النحوية، منهجاً يعتمد الاختصار وإعطاء الأمثلة التي تتوافق وإلمام السوسيين باللغة العربية. ويعتبر كتاب «أيسر المسالك» من الكتب التي تستحق التحقيق والنشر.

هناك نوع آخر من المخطوطات يتجلى في الترجمات من العربية الى تاشلحيت فهو وإن كان من اللائق تصنيفه في بابه حسب المادة التي يتناولها من فقه أو تصوف أو غير ذلك، إلا أنني أرتئي أن يصنف مع كتب اللغة لكونه يقدم للباحث اللغوي مادة مهمة. فالترجمات من العربية الى تاشلحيت وقد يكون العكس، تعتبر مادة مهمة من حيث دراسة طرق الترجمة عند علماء سوس القدماء، وكيفية معالجتهم لبنيتي اللغتين المختلفتي التركيب والصرف، وبالتالي كيفية تناولهم للبنية الدلالية في اللغتين رغم اختلاف حقليهما الثقافي والتداولي.

وهذه بعض النماذج من هذا النوع من المخطوطات مما هو موجود داخل مكتبات تارودانت.

- نظم أمازيغي لنصائح المتصوفة (معجزات الرسول) لمحمد الطاطي.
- كتاب الحوض مترجم الشيخ خليل لمحمد بن علي الهوزالي.
- ترجمة حكم ابن عطاء الله الى تاشلحيت للشيخ الحاج علي الدرقاوي.

وفيما يرتبط بالآداب توجد بمكتبات تارودانت مخطوطات لا بأس بها تتناول الأدب العربي في المشرق والمغرب بما فيه الأدب السوسي والأدب الصحراوي. إلا أن المخطوطات التي لها قيمة إبداعية في نظري هي تلك التي تتناول الشعر. فهناك مثلا شرح ديوان المتنبي لمحمد بن علي النابغة الهوازالي[9]. وهناك مما هو جدير بالدرس والتحقيق ديوان القاضي محمد ابن علي أبو الذي يوجد عند عائلته، وللأستاذ سكال أحمد زكرياء ديوان مخطوط يتضمن حقائق تاريخية عن النضال ضد الاستعمار الاسباني مما صاغه الشاعر في عبارة شاعرية ممتازة. كما أن للأستاذ بوزيد أحمد ديوانا شعريا بالعربية وآخر بتاشلحيت فيهما شعر فني أخاذ. وشعر أحمد بوزيد، مثلما هو الحال بالنسبة لشعر الأستاذ سكال والقاضي أبو، جدير بمن يدرسه ويكتب عنه من طلبة الآداب.

المجموعة الرابعة **كتب التوحيد والتصوف**.

إن المخطوطات التي تتناول مادة التوحيد والتصوف مما هو موجود في خزائن الكتب بتارودانت تعتبر متنوعة من حيث مصادرها. فهناك كتب معروفة ألفها كبار المشارقة وأصبحت متداولة بتارودانت بعد أن تم استنساخها، كما أن هناك كتبا ألفها كبار الصوفية بالمغرب، وهي تشكل نسبة كبيرة داخل مكتبات المدينة، وتعتبر كلها معروفة عند المهتمين بالمادة والمتتبعين لكتب الفهارس. وهناك أيضا مخطوطات من تأليف السوسيين أنفسهم، وهي لا تختلف كثيرا، من حيث مادتها ومنهجها، عن كتب المغاربة والمشارقة اللهم إلا ما يميل إليه التصوف السوسي عموما من اعتماده بشكل بارز على الكرامات وخوارق العادة. وفيما يلي نماذج من تأليف السوسيين في المادتين المذكورتين مما هو موجود بخزانات تارودانت.

— ما يجب على المكلف شرعا للولي الصالح الشيخ أحمد بن موسى السملالي
— نظم في موضوع الإيمان والإحسان لعبد الرحمان الجشتيمي.
— كتاب التوحيد للشيخ التزغتي.
— المنهاج الصحيح في التوسل بالانبياء والأولياء لشكور بن بلخير التغجيجتي.
— مشارق الأنوار لمحمد بن أبي بكر الأزريفي الحامدي.
— الزلال الاصفي للحاج الحسن البعقيلي.
— إيضاح الأدلة بأنوار الائمة للحاج الحسن البعقيلي.

المجموعة الخامسة من المخطوطات تتناول **علوم القرآن والحديث** ، وفيما يلي نماذج منها مما هو موجود بخزانات المدينة .

— شرح البخاري لعبد الرحمان التغرغرتي.
— ضوء المصباح التيوتي جمي[10].
— الضوء الساري في أفق صحيح البخاري لمحمد بن ابراهيم الهلالي.

علوم القرآن :

- الهداية لمن أراد الكفاية في الرسم القرآني محمد بن ابراهيم لمحمد أحجلي.
- الكليات الاساسية من تفسير الفاتحة، العربي بن مبارك السوسي.
- الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة للسيد الشوشاني.
- تفسير القرآن للسجلماسي.

يتميز هذا النوع من الدراسات بالدقة التي يتبعها علماء سوس وعلماء الصحراء في الرواية والإسناد، والبحث عن جزئيات الأمور، وما يتفق منها مع قضاياهم المحلية من عقائد وعبادات ومعاملات...

المجموعة السادسة تتناول مخطوطات مختلفة المادة كالطب والتربية والحساب والمنطق والنجوم والتوقيت والسحر وغير ذلك من العلوم التي يعنى بها علماء تارودانت. صنفت كل هذه المواد في مجموعة واحدة رغم اختلافها وتنافر موضوعاتها، نظرا لأن المخطوطات التي تتناولها قليلة بمكتبات المدينة، وتشكل كل منها نسبة ضئيلة أمام نسبة كل مادة من مواد المجموعات الخمس السابقة. غير أن هذه المواد إذا اجتمعت كلها تقترب نسبتها من النسب المذكورة، لذلك صنفناها في مجموعة واحدة. وهذه بعض نماذجها.

الطب

كتاب الطب المسمى بمجموع المنافع في علم الطب للبعقيلي.
- الفوائد في الطب للمرغيتي السوسي.
- الهدية المقبولة في حلل الطب مشمولة لأحمد بن صالح الدرعي.

التربية

بغية الطلاب (تحصيل المنى) يعقوب الجزولي.

بذل النصيحة يبورك بن عبد الله العباسي.

عمدة الطلبة يبروك عبد الله العباس السملالي.

الحساب

شرح السملالية في الحساب أحمد بن سليمان السملالي.

التوقيت والنجوم والسحر

- شرح روضة الأزهار في علم وقت الليل والنهار، عبد الرحمان بن عمر الجزولي البعقيلي.
- مؤلف في التوقيت وعلوم النجوم، أحمد بن عبد الله بن يعقوب السملالي.
- بعض الأدوية المجربة والجداول المستغربة، على بن عيسى التفلعزتي.

المنطــق

شرح مختصر الإمام السنوسي في المنطق، الإمام السنوسي.

إن كثيراً من الفقهاء المعاصرين ينظرون الى هذا النوع من الدراسات، معتبرين إياها متجاوزة لا قيمة لها في الوقت المعاصر. انهم يفعلون ذلك منبهرين لا شك بالتقدم العلمي لحضارة القرن العشرين. فإذا كانوا على صواب في تجاوبهم مع الاكتشافات المعاصرة، فإنهم مخطئون حين يجردون هذه الدراسات من كل قيمة، ذلك لأن محللي التراث و المهتمين بتاريخ الثقافة يستمدون من هذه الكتب معطيات أساسية لدراساتهم وأبحاثهم : فكتب الطب المذكورة مثلا تقدم لنا وصفا دقيقا لنباتات المنطقة وأعشابها في فترات مختلفة من التاريخ، وهي معطيات مفيدة للباحثين في الكمياء وعلوم النباتات، هذا بالإضافة الى ما تقدمه لمؤرخ الثقافة المحلية من وصف لطرق التداوي في القرون الماضية. ونفس الشيء يقال عن كتب التربية التي تقدم نماذج من العلاقات التي تربط الاساتذة بالتلاميذ والآباء بالابناء، كما تقدم وصفا لطرق التربية ومناهج التدريس في الماضي القريب والبعيد، وهذا جانب من القيمة العلمية لهذه المخطوطات.

إن هناك جانبا آخر للقيمة العلمية لمجموع هذه المخطوطات، لا تتجلى فحسب في الإستفادة من مادتها وما تقدمه من معلومات ترتبط بموضوعها العلمي كما رأينا في تحليلنا السابق. لكن يتجلى بالخصوص في شكلها وتنوع خطوطها. فالمخطوطات الموجودة بخزانات تارودانت تساهم، مما لاشك فيه، بمعطيات تنقصنا عن الجزئيات المرتبطة بالمدرسة المغربية في الخط العربي. ففيها أشكال من خطوط سوسية، وخطوط صحراوية وأخرى افريقية تنتمي الى البلدان الإفريقية المجاورة للمغرب والمتأثرة به في هذا الميدان.

ولقد جرت العادة، حسب ما رأيت من تصفحي لبعض المخطوطات، أن يكتب ناسخ الكتاب إسمه في آخر المخطوط سواء كان مؤلفا أو مجرد ناسخ، وهذا يمكننا من تحديد أسماء بعض الناسخين للكتب خلال تاريخ المدينة. فهناك حسب ما أطلعت عليه.

محمد بن الطبيب السكراتي من ناسخي الكتب في القرن الرابع عشر الهجري.

محمد بن سعيد التوينان من ناسخي الكتب في القرن الثالث عشر الهجري.

عبد الله بن محمد الخياط الروداني من ناسخي الكتب في القرن الثاني عشر.

عثمان بن علي بن حسين الحمودي من ناسخي الكتب في القرن الحادي عشر الهجري.

عبد الله بن علي الرسموكي من ناسخي الكتب في القرن العاشر الهجري.

وغير هؤلاء، وهم كثير فيما يظهر. إلا أن هدفي لا يكمن في تتبع كل الجزئيات المرتبطة بالبحث البيليوغرافي وتعميقها. إنما أريد أن أنبه فقط الى جوانب من التاريخ العلمي لتارودانت مما يجب أن يهتم به المؤرخون الشيء الذي يجعلني أطرح تساؤلات في نهاية هذا البحث حول قضايا من تاريخنا العلمي مما له علاقة باستنساخ الكتب ومهنة الاستنساخ وآلات الكتابة أو وسائلها وتجارة الورق وغير ذلك مما يعتبر مجهولا عند كثير من المثقفين أتساءل كذلك، بهذا الصدد، حول إمكانية الاستفادة من أشكال المخطوطات لدراسة مختلف الطبقات الاجتماعية في تاريخ المنطقة، إذ لكل من حجم الكتاب : الحجم الصغير أو الحجم الكبير، وتنوع المداد أو استعمال مداد واحد، وكذلك نوع الورق، التفنن في الخط.. فلكل من هذه الأشكال دلالة معينة وعلاقة بطبقة اجتماعية ووضع اقتصادي وثقافي معين.

إن البحث في المخطوطات سيجيب لاشك عن كثير من هذه التساؤلات، وسيقدم لمؤرخي الثقافة بالمغرب معطيات جديرة بالاعتبار. غير أن أخطر ما يواجه البحث في مثل هذه الدراسات هو العقلية المتحجرة لكثير ممن توجد في خزاناتهم أجزاء من التراث المخطوط. ولكي أقدم صورة مجسمة لهذه العقلية الخطيرة التي تقف سدا منيعا أمام البحث العلمي اقتبس هنا شهادة للأستاذ المختار السوسي :

يقول بصدد الحديث عن الخزانة التاكركوستية من قبيلة سكتانة بدائرة تالوين : «... وقد وجدت ما وجدت من الخزانة ونوادرها مكدسا في بيوت يكف عليه السقف، وكأن وكف السقف كان دموعا حارة على كنز ضاع بين الجهال...»[11] ويقول في موقف آخر : « وبعد، فإن أكبر آفة على خزائن البادية ان الأحفاد الجهلة يغلقون عليها صيانة لها فيما يزعمون حتى تضمحل بين الأرضة وبين السقوف فإن أنس لا أنس ما رأيته من آثار الشيخ محمد بن ابراهيم التمنارتي حين وجدت الأوراق في تابوت علاه الغبار طبقا عن طبق، فأخذت من الأوراق ما وجدته أثرا قيما وعهدي بالبقايا هناك. وكذلك مررت بدار آل تيسلكيت في تامانارت، فأخبرني أحدهم أن خزانة جدهم قد أغلقوا عليها حتى صارت دقيقا، قال : «فقمت، صيانة لما فيها من أسماء الله واحتراما لها، فصرت أنقل فتاتها في قفة، وألقيه في بئر صبيحة يوم»[12].

يجب الا يغرب عنا أن مساهمات المغاربة في بناء صرح الحضارة الإنسانية بما شاركوا به من علوم واجتهادات ما يزال تاريخا مغمورا يكتنفه كثير من الغموض لا لشيء إلا أن مراجع ذلك التاريخ العلمي ما يزال أغلبها مخطوطا تكتنزه أسرو أشخاص لا يعرفون له من قيمة إلا إغلاق الأبواب عليه، وبالتالي إقباره وإماتته.

إننا لو عرفنا مابذلته الأمم المتقدمة من محاولات جبارة في سبيل إخراج كنوز التاريخ العقلي للبشرية، وذلك بوسائل مختلفة كالنهب والحروب وإغراءات مادية هائلة.. حتى نجحت في إخراج كنوزها وإعادة طبعها وجعلها في متناول الناس[13]. لو عرفنا ذلك وأخذناه مأخذ الجد لاسترخصنا كل ما يمكن أن نبذله من جهد ومال في سبيل إحياء التراث المغربي المخطوط، وإخراجه الى مكتبات عامة ليصبح في متناول الباحثين وعموم القراء، وبالتالي ليتم طبعه حتى تستفيد منه الأجيال الحالية والأجيال القادمة.

إن استخراج التراث المغربي، الذي ما يزال أغلبه إما مخطوطا أو شفويا كما استنتجنا من هذا البحث، يحتاج في الحقيقة الى اهتمام أكثر من جهة واحدة، كما يستدعي تجديد الوسائل التي تتخذ لاستكشافه ومعرفته.

إن هذا البحث يتوجه أساسا الى طلبة كلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير، وكذا الى الباحثين في تاريخ الفكر المغربي والتراث المحلي بمنطقة الجنوب بصفة خاصة، وذلك ليدلهم على أماكن البحث في المخطوطات ويقدم لهم صورة نسبية لما هو موجود بخزانات مدينة تارودانت. وأرجو أن يتحلى هؤلاء بشجاعة أدبية وعزيمة فولاذية ليجدوا داخل المدينة وسائر المنطقة الجنوبية ومنطقة سوس مادة غنية لاستكمال بحوثهم في مستوى الإجازة والدراسات العليا، وبالتالي لاغناء البحث العلمي، وتشجيع الدراسات الجامعية بالمغرب.

أخيرا، إن هذا البحث المتواضع ما كان له لينجز لولا المساعدات المادية والمعنوية التي قدمها لي السادة المحترمين : الأستاذ الراضي اليزيد، الأستاذ بوزيد أحمد، الأستاذ محمد العثماني، السيد أو طالب المختار البونعماني، الأستاذ شاكر عبد الله الكرسيفي، الأستاذ الزيتوني أحمد. كما أود أن أخص بالذكر هنا استاذي وصديقي السيد متقى مبارك لما فتحه أمامي من سبل البحث في غياهب الأماكن المغمورة بتارودانت. أشكر كذلك بعض الذين فتحوا لي خزائنهم بما تحلوا به من شجاعة وحب للعلم يغبطون عليه. وكذلك بعض رجالات تارودانت الذين قدموا لي معلومات أساسية أغنتني عن طرق أبواب توجد وراءها آذان صماء. ونزولا عند رغبة هؤلاء وأولئك الرجال الكرام فإنني لا أذكر أسماءهم هنا.

إلى كل من ذكرت ومن لم أذكر لأسباب خاصة ممن ساعدني في إنجاز هذا العمل أقدم تحية الاعتراف بالجميل وتجلة التقدير لما فعلوه من عظيم الصنع.

الهـوامـش

1) إن مما يؤسف له أن بعض تجار الصناعة التقليدية بتارودانت ممن لهم علاقة بالسياح يقومون بجولات في خزائن الكتب بأرياف تارودانت، يبتاعون بوسائلهم الخاصة كثيرا من المخطوطات ويبيعونها بأثمان غالية للسياح الشيء الذي قد يعرض كثيرا من المخطوطات للضياع والهجرة الى الخارج بإسم «هدايا المغرب التذكارية».

2) سوس العالمة ص 174.

3) المرجع السابق ص ص 121 — 152.

4) الأستاذ محمد المانوزي : الخزانات السوسية ضمن المعسول ج 3. ص ص 331 – 333

5) المرجع السابق ص 332.

6) الأستاذ المتوكل عمر الساحلي المعهد الإسلامي بتارودانت ج 2 ص 181.

7) المرج السابق ج 1 181 على الهامش.

8) أكتفي هنا بإيراد بعض النماذج فقط من أسامي المخطوطات، وأركز على ما ألف منها بالجنوب المغربي سواء بسوس أو بالصحراء لأن المخططات التي تنتمي الى الحواضر المغربية او الى الشرق العربي، مما هو موجود بخزانات تارودانت، تعتبر في أغلبها مطبوعة. وإنما أعيد استنساخها بتارودانت. كما أنني لن أذكر الخزانات التي توجد فيها النماذج المستشهد بها، نظرا لكون هذه الأخيرة يتكرر وجودها داخل أغلب الخزانات المصنفة.

9) إن هذا الشرح السوسي المتميز لديوان المتنبي يعتبر مفقودا، غير أن هناك من اطلع عليه ضمن المخطوطات الأولى التي دخلت الى خزانة المعهد الإسلامي بتارودانت. هذا يدل على أن الشرح موجود، دون شك، بإحدى الخزانات المغلقة مما يدعو الى البحث عنه ومحاولة نشره لتتم به الفائدة.

10) هذا الكتاب يعتبر مفقودا مثل الكتاب السابق. غير أن ما قلناه عن شرح ديوان المتنبي للنابغة الهوزالي يصح أيضا عن هذا الكتاب الذي يعتبره الكثيرون من أهم ما ألفه السوسيون في علم الحديث

11) سوس العالمة ص 173.

12) المرجع السابق ص 175.

13) اندري ماسون، المكتبات العامة ترجمة نعيم الحجار انظر المقدمة. كما ينبغي أن تطالع أيضا بعض فصول الكتاب للوقوف على أعمال جبارة في هذا الميدان أنتجت أكبر المكتبات العامة في العالم مثل : مكتبة الكونغريس. ومكتبة لينين بموسكو والمكتبة الوطنية بباريس..
اكتفينا بهذا الكتاب كنموذج نظرا لكونه مترجم الى العربية، وغرضنا أن يطلع عليه أصحاب المكتبات الخاصة ببلدنا، أولئك الذين تحدثنا عن سلوكهم داخل المقال.

فن الحناء بالجنوب المغربي : تارودانت نموذجا

أمين العلوي الديبي
ثانوية النهضة
مكناس

مـدخـــل :

إن فن الحناء من الفنون التقليدية الشعبية التي تمتاز بعراقتها وبتواترها بالتقليد والمحاكاة، حيث تصور سلوك الشعب النفسي والاجتماعي.

إننا نسميه فنا رغم أنه ليس مؤطرا كاللوحة التشكيلية، ولا يتوفر على سناد أو قاعدة Support / Socle كقطعة منحوتة ــ مثلا ــ ولا يعرض في القاعات والمتاحف كما لا يخضع الى سوق الفن Marché de l'Art

فنحن لا نضع حدودا ولا فرقا بين الفنان والصانع / المعلم، فالعمل الذي تقوم به النقاشة / الحناية أو المرأة في تزيين نفسها بنفسها لا يعتبر عملا فنيا يحمل توقيع صاحبه، ولكن يعتبر من حيث هو، ومن حيث مميزاته وخصائصه الأستتيقية والوظيفية، وإن كان وقتيا وسريع الزوال Ephémere.

فما هي أبعاد ودلالات هذا الفن بالجنوب المغربي عامة، وتارودانت خاصة ؟ وما الغاية منه ؟

قبل المبادرة الى الجواب، نرى من الضروري أن نعرف أولا بالحناء والتزويق بها بين الجواز والمنع مع ذكر التقنيات المستعملة في ذلك.

I – الحناء وتقنيات التزويق بها :

أ – الحنـــاء :

«شجيرة الحنة LAWSONIA INERMIS شجيرة طويلة رفيعة تبلغ ما بين تسعة واثني عشر قدما، وقد تبلغ بالفعل مبلغ الشجرة، وهي من فصيلة الـ HYTHRARIACEAE، ولها زهر أبيض عنقودي عطر وأوراق ناعمة كاملة، وتنبت في الأرض الصالحة في جميع نواحي إفريقيا الشمالية وبلاد فارس والهند.

وتستخرج من زهرها الروائح العطرة والطيوب، ومن مسحوق أوراقها المجففة خضاب تخضب به أظافر اليد وراحتها وأخمص القدم فيستحيل لونها برتقاليا ضاربا الى الصفرة، كما يخضب به شعر الرأس واللحية...»[1].

بـ – التزويق بالحناء بين الجواز والمنع :

أجاز الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، أن توشي المرأة يديها بالحناء، ومعنى التوشية : النقش والتحسين. وروي عن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنكار ذلك، قال (يعني عمر) : «أن تخضب يدها كلها أو تدع». وأنكر مالك هذا على عمر[2]. وقد استغربت أول الأمر انكار المجتهد على الصحابي، حتى وقفت على فتوى الموضوع[3]ونص الغرض منها :

«وسئل عز الدين عمن صح عنده مذهب أبي بكر وغيره من علماء الصحابة في شيء، فهل يعدل الى غيره أم لا ؟ فأجاب : «إذا صح عن بعض الصحابة مذهب في حكم من الأحكام ، فلا يجوز العدول عنه الا بدليل أوضح من دليله، ولا يجب على المجتهدين تقليد الصحابة في مسائل الخلاف بل لا يحل لهم ذلك مع وضوح أدلتهم على أدلة الصحابة، لأن الله تعالى أمر باتباع الأدلة المنصوبة على أحكامه، ولم يوجب تقليدا الا على العامة الذين لا يعرفون أدلة الأحكام الشرعية».

فنخلص مما سبق أن إنكار مالك على عمر قولته المشار اليها لا غضاضة فيه، لأن مالكا قد ثبت عنه من أدلة الجواز مالم يثبت عند عمر من أدلة المنع.

ج – تقنيات التزويق المستعملة في الجنوب المغربي :

إن طرق وتقنيات التزويق بالحناء متعددة[4]وسنقتصر على ثلاث تقنيات تستعمل أيضا في جهات أخرى من المغرب.

ـ التقنيـة الأولـى :

التزويق بالأصبع (السبابة) أو أصبعين (السبابة والوسطى) (صورة رقم 1) وهذه الطريقة تستعمل لخضاب مجموع اليد أو الرجل أو بعضهما أو الاقتصار على رؤوس الأصابع، ووضع نقط ودوائر وأشكال بسيطة مع خطوط...

ـ التـقنيـة الثـانيـة :

التزويق بالمِرْوَد وهي الأداة التي تستعمل للكحل (صورة رقم 2) أو قطعة من الخشب مُبْراة، وهذه الطريقة متداولة في عدة مدن مغربية : فاس، مكناس، سلا، ومراكش[5]..

ـ التقنية الثالثة :

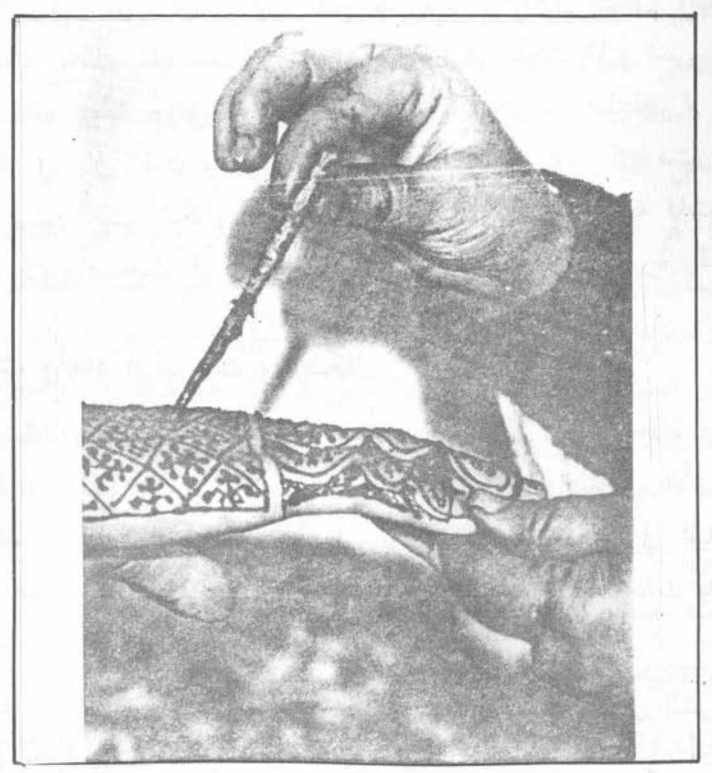
التزويق عن طريق لصيقة / شريط لا صق مخرَّم ومفرَّغ Scotch ajouré يوضع على اليد أو الرجل ويطلى بخليط الحناء الذي يتسرب من خلال التخريم (صورة رقم 3) وبعد ساعات تنزع اللصيقة، فتبقى الرسومات منتشرة على المكان الذي تسرب اليه الخليط. وقد ظهرت هذه التقنية حوالي سنة 1979 في انزكان وتزنيت فطنطان ثم تارودانت[6]، وشاع تداولها في باقي المدن والقرى المغربية (صورة رقم 4)، كماعرفت تطورا سريعا وملحوظا، حيث كانت أشكال الرسومات عند ابتكار هذه الطريقة ذات حجم كبير (صورة رقم 5) وأصبحت في السنين بالأخيرة صغيرة ودقيقة (صورة رقم 6).

II – دلالات وأبعاد الرسومات والأشكال :

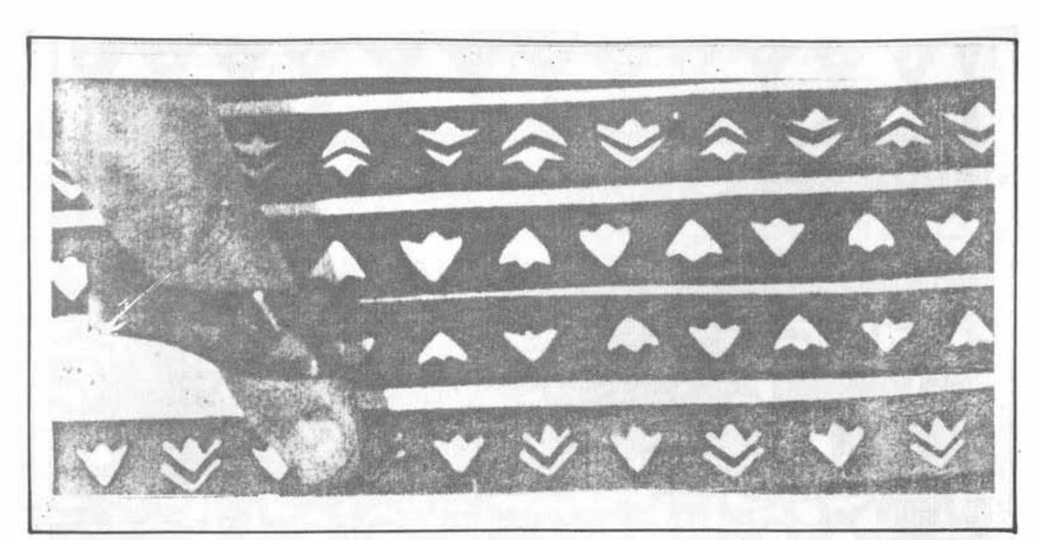
إذا تساءلنا ونحن أمام أيد مخضبة بالحناء عن مصدر عناصر التزويق التي تزينها، سنجد أن المرأة تستمدها من المرئيات المحفوظة في ذاكرتها : الجبال، الأشجار، الفرن، السلم، النوافذ.. فهي لا تنقل هذه الأشياء، بل تنقل الصورة التي في مخيلتها عنها، إنها تعيد خلقها، فتهيئها حسب رغبتها، إذ تحولها ثم تركبها لتشعر بعد ذلك بالراحة والمتعة الذاتية، ونحس نحن بالإعجاب عند مشاهدتها.

وسنتناول بالشرح والتعليق الرسومات والأشكال المتواجدة في الشريط اللاصق، المخرم والمفرم لكثرة استعماله في مدينة تارودانت.

صورة رقم 1



صورة رقم 2



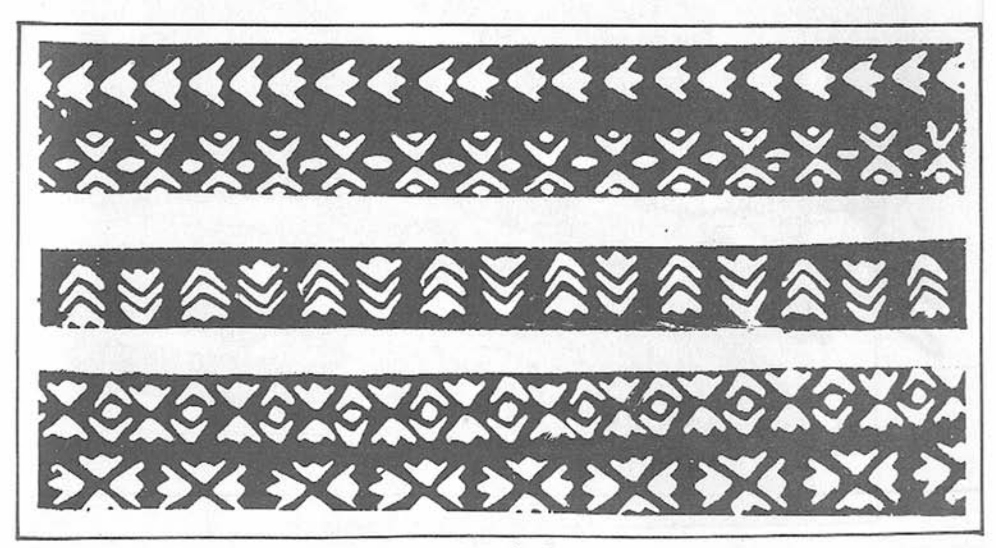
صــورة رقــم 3

صــورة رقــم 4

صــورة رقــم 5

أشرطة لاصقة مخرمة ومفرغة

Scotch ajouré



صــورة رقــم 6

أ – أشكال ورسومات الشريط اللاصق :

هي عبارة عن أشكال هندسية : المعين، المثلث مع خطوط منعرجة ومستقيمة، عريضة ورقيقة، وأخرى متقاطعة ورسوم في شكل v ونقط مختلفة الأحجام... وقد نجد ما يشبه هذه الرسومات في الوشم والنسيج والطرز والخزف (صورة رقم 7) والحلي وخاصة في المشبك (صورة رقم 8). إلا أن أسماءها تختلف من منطقة الى أخرى.

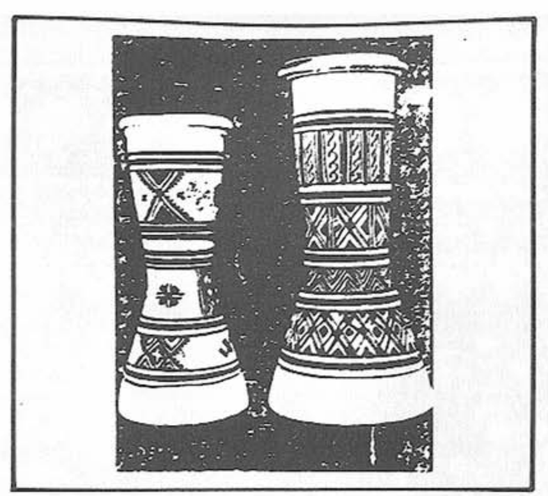
إن أغلبية ابداعات فن الحناء بمدينة تارودانت، تأخذ المثلث «لَمْكَبْ»[7] كقاعدة لرسوماتها فهو يعتبر أسهل شكل هندسي عند رسمه، وينسجم ويتناسق مع مجموعة من الأشكال المحادية له أو المحيطة به، فالمثلث نموذج يعاد تركيبه ويستغلب كليا أو فارغا، أو فارغا مع خطوط منحرفة... (صورة رقم 9).

وتعتمد عملية التكوين / التركيب Composition على الايقاعات الزخرفية Rythmes de décoration حيث أن هذه الايقاعات تتأرجح بين التعاقب Alternance والقلب/العكس Inversion والتكرار Répétition والتماثل Symétrie (شكل 1). ويلاحظ أن هذه الايقاعات توجد في الفنون الزخرفية العالمية، سواء كانت حضرية أو قروية.

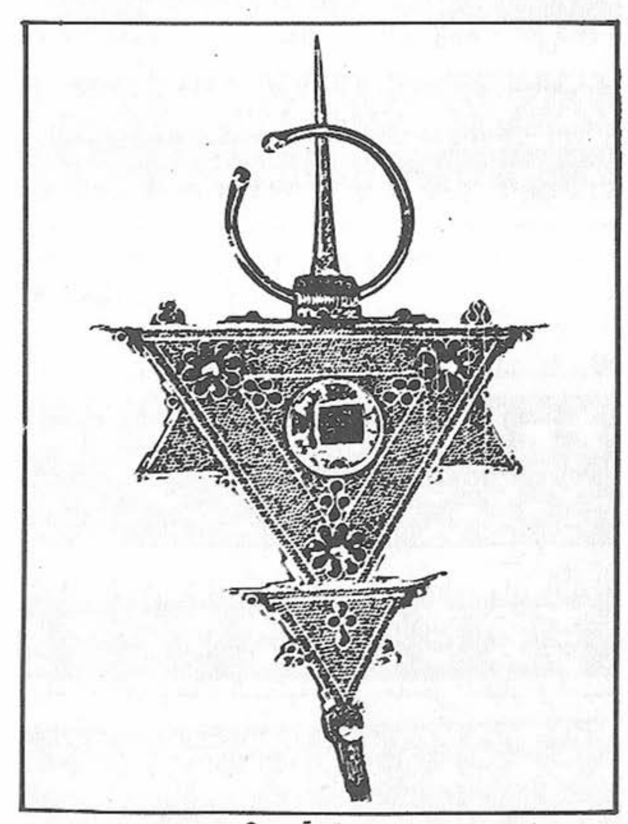
ب — رمزية المثلث :

للمثلث عدة دلالات وأبعاد رمزية، فهو يعبر عن العدد «3» ثلاثة، وعن ثلاثيتي الأخلاق : (حسن الظن — فصاحة / البلاغة — فعل الخير)، (التعقل — الحاضر — القوة — الجمال)، (الولادة — النضج — الوفاة)[9] كما أنه رمز لعناصر الكيمياء القديمة الثلاثة : (الملح — الكبريت — الزئبق)[10].

ويرمز المثلث الى الذكورة لما تكون قمته في الأعلى، والى الأنوثة حينما تكون قمته في الأسفل (شكل 2)، ويمثل في رسم سمي «فُمْ لَخْزانَة» وهو خضاب يستعمل للعروس بمدينة مكناس في ليلة الحناء، وهذه التسمية تعني مدخل الخباء / الخيمة الكبيرة فالمدخل له بعد جنسي، والخباء يرمز الى السكن والدفء والإطمئنان وهو عبارة عن مثلثين متقابلين بالرأس، يحصل عليهما بخيط يدور حول أسفل الأصبع الوسطى من جهة راحة اليد، ويتقاطع على ظهرها ثم يعقد في المعصم. والخيط يحدد الأماكن التي ستخضب بالحناء كما يحدد المثلثين المذكورين (شكل 3).

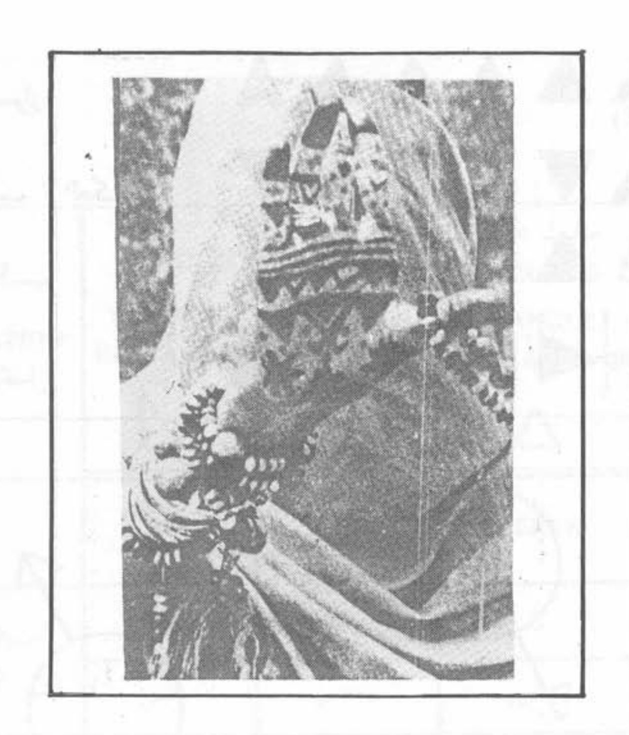


صورة رقم 7



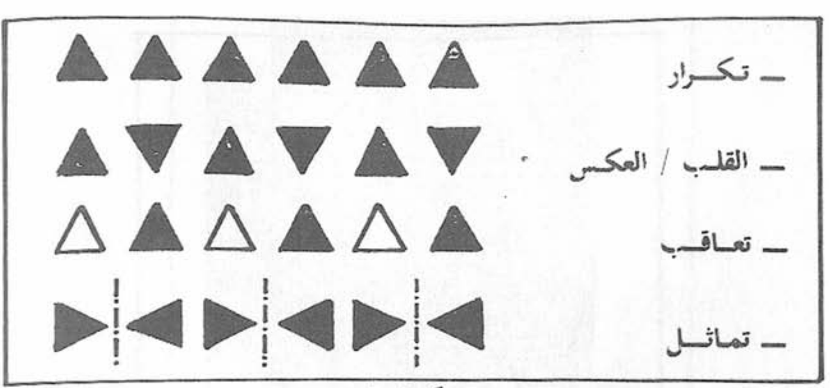
صورة رقم 8

مشبك / خلالة / تزرزاي

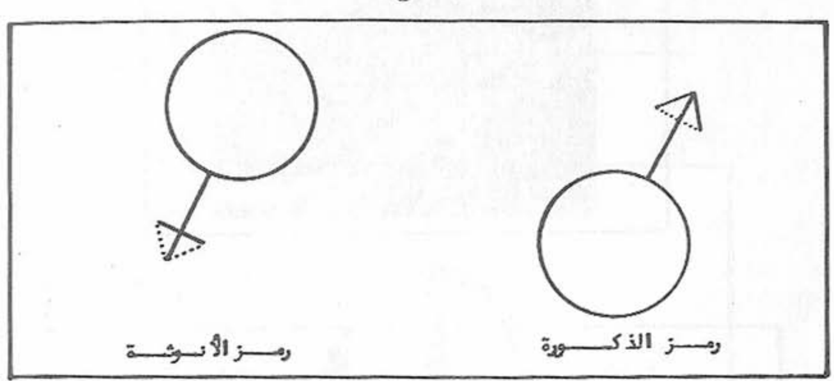




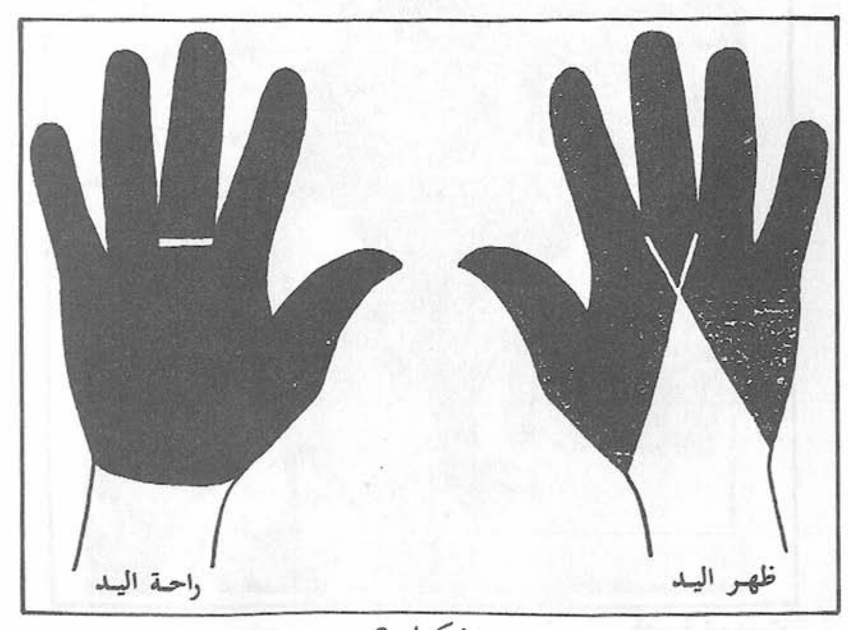
رقصـة تيسنـت



شكـل 1



شكـل 2



شكـل 3

(جدول رقم 1)

INTERPRETATION MYTHIQUE	مثلث قائم TRIANGLE RECTANGLE	مثلث مختلف الأضلاع TRIANGLE SCALENE	مثلث متساوي الأضلاع TRIANGLE EQUILATERAL	مثلث متساوي الساقين TRIANGLE ISOCELE
	EAU	AIR	TERRE	FEU
حروف عناصر الطبيعة	مُ	زَ	ثْ	نَ
	مائي	ريحي	ترابي	ناري

(جدول رقم 2)

INTERPRETATION MYTHIQUE	TRIANGLE EQUILATERAL	TRIANGLE RECTANGLE	TRIANGLE SCALENE	TRIANGLE ISOCELE
	TERRE	EAU	AIR	FEU
حروف عناصر الطبيعة	ثْ	مَ	هـ	نَ
	ترابي	مائي	هوائي	ناري

ويمكننا مشاهدة رقصة «تيسنت» التي تقوم بها فرقة شعبية من جنوب أكادير، حيث يحمل فتى مجدولا تعلق به خنجره وهو يحوم حول فتاة ... وينتهي بهما الأمر الى أن يجدا نفسيهما وجها لوجه... ورقصة الخنجر من الرقصات التي تعبر عن رمز واضح وتدخل في تقاليد الزواج[11]وذلك بظهور المجدول على شكل مثلث نائم، قمته في الأسفل والخنجر قائم (صورة رقم 10)، الشيء الذي يذكر في آن واحد بأصل الرقصة وبطابعها الطرقي...

والمثلث أربعة أنواع، وكل نوع يوافق عنصرا من عناصر الطبيعة : فالمثلث المتساوي الأضلاع يرمز الى التراب، والمثلث القائم يرمز الى الماء والمثلث مختلف الأوضاع يرمز الى الهواء والمثلث متساوي الساقين يرمز الى النار[12]. ونلخص هذا في «نَهمت/ نَتْرِمْ» (الجدولان 1 و 2)، فكل إنسان ينتمي الى أحد هذه العناصر، فإذا كان مثلا «ترابيا» لا يمكنه أن يكون غير ترابي، وكذلك بالنسبة للعناصر الأخرى...

ولازال الصاغة يشكلون في الحلي التقليدية الفضية، وبالخصوص في المشابك «مثلث تانيت» معبودة العالم البوني القرطاجني[13]. ويعتقد البعض أن شكل المثلث رمز للوقاية ضد العين الشريرة[14]وهذا هو سر استعماله بكثرة.

III – الغاية من التزويق بالحناء :

من الطبيعي أن تجميل المرأة وتزينها بالحناء تمليه الحاجة الى الحصول على التوازن النفسي الذي هو نتيجة تحقيق رغبات ذاتية من بينها :

أ ـــ إشباع روح الابتكار باتخاذ فن الحناء وسيلة للتعبير التشكيلي.

بـ ـــ الراحة والمتعة أثناء الإحتفال بعملية التزويق، حيث لا تقوم ـــ المخضَّبة ـــ بأي عمل، فهي مخدومة والأهل في خدمتها، وحتى حينما تريد الأكل تتولى إحدى الحاضرات إطعامها (لكون يديها مزخرفتين بالحناء).

ج ـــ الإثارة ولفت الأنظار برسومات الحناء وبلونها المبهم، المتعذر تحديده والذي يوحي بالحياة والحرارة ويحرك العاطفة[15].

خـــــاتمـــــة

لقد تفاعلت المرأة الرودانية مع التحولات التي طرأت على تقنيات فن الحناء بالجنوب المغربي بفتحها على كل جديد واستعمالها للشريط اللاصق، وعدم الاقتصار على التقنيات المتداولة من قبل.وهكذا وظفت الأشكال والرسومات التي استمدتها من المرئيات المحفوظة في ذاكرتها فكان المثلث أحد العناصر الأساسية في تركيب وتكوين الايقاعات الزخرفية نظرا لسهولة رسمه وانسجامه ورمزيته، وأخيرا ، فإن فن الحناء وسيلة من وسائل التعبير التشكيلي الشعبي، يثير الإعجاب ويبعث على الارتياح.

الهـــوامـــــــش

(1) دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الثامن، ص 119 — 120.

(2) أبو العباس أحمد بن يحيي الونشريسي : المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، الجزء 11، ص 111 و113 — الطبعة الحجرية.

(3) نفس المصدر، الجزء 11، ص 125.

(4) للمزيد، انظر :

- ALAOUI DIBI Amine : L'ART DU HENNE A MEKNES, Mémoire présenté au Cycle Spécial, section: Arts plastiques - Rabat 1981, pp.58-61-

(5) استبدلت منذ بداية الثمانينات بمدينة مراكش تقنية المرود بالمحقنة la seringue.

(6) حديث مع السيد العرومي محمد (عطار) بالقيسارية القديمة بمدينة تارودانت.

(7) «لَمْكَبْ» غطاء مخروط تغطى به«الطبقية».

(8) - Jean CHEVALIER et ALain CHEERANT : DICTIONNAIRE DES SYMBOLES ED. Seghers et ED.Jupiter 1974 - tome 4 - pp. 325 - 327.

(9) نفس المصدر.

(10) نفس المصدر.

(11) رقصات شعبية (مقال غير موقع)
مجلة الفنون المغربية، السنة الأولى، العدد 7 و 8 ربيع الثاني ـ جمادى الأولى 1394 هـ / مايو — يونيه 1974م، ص 59 — 74.

(12) - dictionnaire des Symboles.

(13) مذكرات من التراث المغربي، الجزء الثامن، ص 155.

(14) Jean MAZEL : ENIGMES DU MAROC
ED. Robert laffont - paris 1979. pp. et 245.
وحول العين الشريرة، انظر :
Abdelkebir KHATIBI : la BLESSURE DU NOM PROPRE
.Ed. Denoel - Paris 1974. P. 87 et suivantes

(15) جمالية اللون تكون نتيجة جودة الحناء والخليط المضاف إليها أثناء تحضيرها، فهو إما برتقالي يميل الى الصفرة أو أحمر يميل الى لون العناب (الزفزوف) أو الى السودا، ولهذا يتعذر تحديده.

أ. ع. د.

ملحق رقم 1 :

بعض من مرددات ليلة الحناء
بمكناس وتسمى «أدَرُّوزْ»

بسْمْ الله الرَّحْمانْ الرَّحيـمْ يَـــا الله قدَمْنا لَكْ سيِّدْنـا جبريـلْ يَـــا الله
قدَّمْنا لكْ جَـاهْ الصَّالْحِيـنْ يَـــا الله اللِّي حَيِّـنْ واللِّي نايْميـنْ يَـــا الله
قدَّمْنـا لَكْ سَيِّدْنـا ابْـلاَلْ يَـــا الله اللّـي سِفويَحْكـي للَّهْـلاَلْ يَـــا الله

سِيـرِي لاَاتْخافِـي يَـا لَـلاَّ تَلْقَـانْي سَعْـدْ وَافِـي يالَـلاَّ
سِيـرِي وُبَالَّسلاَمَـة يَـا لَـلاَّ تَلْقَـانْي بُوغْمَامَـة يَالَـلاَّ
سِيرِي يَاوْرِقَةْ الْحَنَّة يَا للاَّ سِيـرِي ثْبْتِـي تَمَّـا يَـا لَـلاَّ

مُدّ يدَّيكْ اعْلى ايْدِيَ يَا للاًّ وُمُدّ يَدَّكْ الْحَنِّي لَكْ يَا لَلاًّ
مُدّ يَدّكْ منْ اكْمامَكْ يا لَلاًّ والْيُومْ وقْفَاتْ لَكْ أيَّامَكْ يَا لَلاًّ
اهْنِيَّـــا يَـــا لَـــلاًّ وَهْنِيِّـــا فـــي دَارْنَـــا

يَعْمـلْ هَـذَا الغْـرُوسَة امباركـــة مسعـــودة بَالْفَـــرحْ والسّعـــادَة
والصَّابَـــة اتْجينَـــا يَارْبِّـــي افْدينَـــا مَنْ الْعْيُـون الْحَاسْدِينَـا

اهْنِيَّـــا يَـــا لَـــلاًّ وهْنِيِّـــا فِـــي دَارْنَـــا

السَّلاَمْ عَلى رسُولْ الله لاَجَاهْ إلاَّ جَاهْ سِيِّدْنا مُحَمَّدْ ألله امْعَ الْجَاهْ الْعَالِـي

ملحــق رقم 2 :

بعض من مرددات ليلة الحناء بمنطقة سوس (بلهجة تاشلحت)

إِمَزّكْ الْحُنَّة إِيسْلانْ . د ق حنة العروسين
الْحَنَّا يَكْنِتْ يوضْرْنِيتْ إغْرَانْ إغْيَّالْنْ أتَّغْمِينْ
أيْلِّي اكْدْ أضَارْنْمْ أفَاسِي أتْدُوتْ أدَامْ إِغْرْضْ الْخِيرْ

الحناء مختلطة نادوا الفتيات ليخضبن وسط أيديهن، تقول أم العروس :
«يابنتي ابدئي برجلك اليمنى ليستقبلك الخير»

أُومَانِنْ أتْكيتْ الْحَنَّا ؟
عَاذْ أوا أُسُوسْ
أذْكغْ إِسْمَنْ رَبِّي الرّجَا تُونْ

من أين أنت أيتها الحناء ؟
الحناء تجيب : أنا من سوس
أطلب من الله أن يتم رجاءكم

الْحنَّا مَادَا وَاتُوفِيتْ ؟ أفُولْكي يْلاً كيكْ
الحنَّا مَادَا وَا تُوفيتْ ؟ رَدَاكْ نلْ أكُوكِ
الْحنَّا مَادا واتُوفيتْ ؟ أكْنسْوَ أتْفَلْ تْجُوتْ أمَانْ إِقُوغْ إ رِيزي

أيتها الحناء عن ماذا تبحثين ؟ والجمال فيك
أيتها الحناء عن ماذا تبحثين ؟ ونحن سنفتح العينْ لتسقين
أيتها الحناء عن ماذا تبحثين ؟ سنسقيك لكي تعطي رائحة طيبة
والماء الذي سنسقيك به سيخرج من المنبع صافيا

قيمة المنتوج الفكري بتارودانت
خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة

عباس الشرقاوي
الثانوية التقنية
أكادير

الحديث عن قيمة المنتوج الفكري بتارودانت خلال قرنين من الزمن قد يبدو حديثا أقرب الى المغامرة الفكرية منه الى حديث علمي رصين مبني على أسس وذلك لأسباب منها :

أولا : وفرة هذا المنتوج ذاته إذ كم سبق لسوس عموما ولتارودانت خصوصا أن أجزئت كل هذه الجزاية مثلما فعلته خلال القرنين العاشر والحادي عشر.

ثانيا : إن الحكم على قيمة هذا المنتوج الوافر والمتنوع في ذات الوقت يطرح إشكالا منهجيا صرفا قد يكون من الصعب تخطيه، ويتجلى هذا الإشكال فيما يلي: إن حكم القيمة في المنطق يتطلب المفاضلة والمقايسة وفي مستوى حديثنا هذا يمكن صياغة الإشكال المنهجي على صيغة سؤال هو : المقايسة والمفاضلة بين هذا المنتوج الفكري الوافر وماذا ؟ قد يكون الجواب الضمني لهذا السؤال، الذي يبدو بريئا وبسيطا في مظهره، هو أن المقايسة يجب أن تكون بين المنتوج الفكري بالمحمدية خلال القرنين 10 و11 وبين ما أنتجته تارودانت خلال القرنين الثامن والتاسع. ولكن إذا كان وضوح الحديث ودقته يتوقفان على محاولة الإجابة عن سؤال بسيط من هذا القبيل فكيف ـــ من الناحية العلمية ـــ نقارن بين معروف معلوم (وهو الإنتاج الفكري لتارودانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر) وبين مجهول مفقود (وهو الإنتاج الفكري للمحمدية خلال القرنين الثامن والتاسع ؟ وأقول مجهول مفقود لأن ما نتوفر عليه من مصادر ومعطيات تشير بصراحة الى أن الدولة المرينية والإمارة الوطاسية بعدها لم تكونا تعيران تارودانت أي اهتمام يذكر في هذا الصدد بل لم يتعد

تعاملهما مع تارودانت إلا على أساس كونها موقعا استراتيجيا حربيا لحراسة الجنوب وبالتالي فالمعلمة الوحيدة التي أضيفت الى تارودانت خلال قرنين من الزمن لم تتجاوز بناية القصبة فيها ودارا للمخزن. ويكفي أن نطالع ما كتبه الحسن الوزان الذي زار تارودانت مرتين مع مطلع القرن العاشر، لنتأكد من ذلك، وأنتم تعرفون ما كان يتمتع به الحسن هذا من دقة الملاحظة والقدرة الخارقة على التركيز وتلخيص ما كان يشاهده عيانا، فكيف يعقل أن يهتم الحسن الوزان بوصف سوقها الكبير بل يهتم حتى بوصف حلقات المشعودين والليالي الساهرة ولا يشير ولو مرة واحدة الى درس يلقى أو كتاب يستنسخ لو كان ذلك موجودا بالفعل.

وعليه فإذا كانت المقايسة والمفاضلة بين المنتوج الفكري بتارودانت خلال القرنين 10 و11 وبين ما سبقه من منتوج خلال القرنين 8 و 9 غير واردة بمقتضى ماسبق التدليل عليه، ألا يمكن أن تعقد هذه المقايسة بين المنتوج الفكري لتارودانت وبين غيره مما كان ينتجه الشرق العربي مثلا ؟ نعم إن مقايسة من هذا القبيل قد تكون ممكنة بفضل الركام المعرفي الذي نتوفر عليه عن الشرق العربي في نفس الفترة (ككتابي على بن ميمون الغماري غربة الإسلام ورسالة الخلان) لن تفي بالمطلوب لأن من شروط القياس السليم الإشتراك في الحدود والمقدمات. والحدود في هذه الحالة مختلفة فكيف يقبل عقليا استنباط حكم من مقدمات نقر مقدما باختلال الشروط التي أتاحتها ؟

لهذا كله وبناء عليه فإني أرى أن أنسب طريقة منهجية لاستنباط حكم القيمة هذا لا يمكنها ــ إن هي أرادت أن تكون متسقة مع نفسها خالية من أي اعتراض أو تناقض ــ أن تخرج عن محاولة المقارنة بين أنواع الإجابات التي قدمها هذا المنتوج الفكري عن الأسئلة التي كانت تطرحها الساحة الاجتماعية والسياسية للمجتمع المدني بتارودانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر، وبمعنى آخر سأحاول تركيز حديثي عن قيمة هذا المنتوج الفكري انطلاقا من محاولة الاجابة عن هذا السؤال العريض، الى أي مدى توفق هذا المنتوج الفكري في الإجابة وبالتالي في تلبية حاجات المحمدية خلال القرنين العاشر والحادي عشر ؟

وحتى أكون منهجيا في حديثي هذا فلا بد من أن أبدأ أولا بطرح أهم هذه الحاجات على أساس أن أختار «تسرا» بعض النماذج على أساس أن هذه النماذج هي أكثر تمثيلية من غيرها وعلى أساس أيضا أنها جاءت بأشياء جديدة من شأنها أن تدفع بحركة الفكرة الى الأمام .

من أولى هذه القضايا وعلى رأسها كلها الخطر الذي كان محدقا بالثغور المغربية وبالتالي التهديد العارم الذي كانت تواجهه أرض الاسلام من تداعي القوى الأجنبية عليه : فالبرتغال ثم الإسبان ومن بعدهم الأتراك كانوا يشكلون تهديدا مباشرا للمغرب ووحدته. لهذا كان الفقه والفرع الخاص مهتما بالجهاد من بين أكثر المسائل الفكرية التي شغلت فئة المفكرين بالمحمدية. ولأن الدولة السعدية إنما كانت قومتها بالسوس وعلى بعد بضع كيلومترات من تارودانت بالذات فإن أصحاب الزوايا من فقهاء وفقراء وقضاة بتارودانت انشغلوا أيما انشغال بهذه القضية بل ان من إحدى مزايا الدولة السعدية في طورها الأول اعترافها الضمني بما كان لهؤلاء من سبق وعناية في حض الناس على الجهاد. وهكذا فإذا كان جل المؤرخين اليوم وعلى رأسهم أندري جوليان وعبد الله العروي يرون في الفترة الممتدة ما بين سنتين 915 و986 المهد الأول لنشوء الفكر الوطني المغربي فإننا نضيف : أن لفقهاء ومثقفي جزولة ومصمودة الحظ الوافر في نشوء هذه الوطنية من خلال إسهاماتهم الكثيرة والمتنوعة (مشاركة عملية وشفاهية ومكتوبة) في تنوير الناس و لم الشعب وتوحيد الصفوف والترغي في الشهادة بواسطة ممارسة الجهاد، ولمن أراد مزيدا من الإطلاع على هذه القضية فعليه بمطالعتها في مضانها لدى قاضي الجماعة بالمحمدية عبد الرحمان التمنارتي في رسالة مطولة كتبها بإسم الأمير يحي الحاحي وهي عبارة عن إعلان النفير العام في أهل سوس بعدما توصلوا باستصراخ أمير الجهاد بالمغرب المجاهد العياشي السلاوي سنة 1025 وتوجد بالضبط في الصفحة 192 من مخطوط الفوائد الجمة.

هذه واحدة نستطيع أن نقول عنها أن المنتوج الفكري للمجمدية كان موفقا في الإجابة عن حاجتها وبما كان يحيط بها من المداشر والقرى.

وأما الثانية فإنها لا تقل أهمية عن الأولى من حيث ارتباطها بالحياة العامة للمجتمع المدني بتارودانت وتخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء تعلق الأمر هنا بالسلوكات الفردية لبعض الأشخاص أو جماعية تهدف الى أحداث ما من شأنه أن يفرق كلمة الأمة ويحدث الإختلاف في الرأي بدل ائتلافه. وبالرغم من أن ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعتبر واجبا دينيا على علماء الأمة كافة فإن الطريقة التي مورست بها في تارودانت تدل على صدق في الموقف وثبات على الرأي قل نظيرهما فيما نعرفه من مواقف عبر تاريخ المغرب، كما أنها تدل من جهة أخرى على وجود نوع من حرية الفكر. ويكفي أن نسوق هنا مثالين عن ذلك : أولهما موقف الشيخ أبي زيد عبد الرحمان البعقيلي الجراد من أحد قواد المنصور على تارودانت لما استشاط هذا الأخير وتمادى في عسفه بالسكان :

تسفه بعض النـاس كبرا ونخوة وجـار فعم النـاس منــه فساد
فوا أسفاه ان الأفاضل قد مضوا وقـام علينـا الأرذلــون فسادوا

وأما الموقف الثاني فهو هذه المرة ليس بين عالم ومسؤول مخزني بل هو بين عالم واحد أعظم أئمة العصر (لقد كان الشيخ أبو محمد الهبطي يعتبر أباه سعيد بن عبد المنعم منفردا من بين مشاييخ ذلك العصر بالتربية النبوية الصحيحة).

هو عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي المناني. فقد كتب الشيخ أحمد بن عبد الرحمن المسكدادي التزركيني رسالة جامعة مانعة الى أستاذه في الطريقة الشاذلية الجزولية عبد الله بن سعيد يؤنبه فيها عما تناهى الى سمعه من أن هذا الأخير بدأ يظهر نوعا من التشوف نحو الرياسة وتأسيس الملك . فخاطبه التزركيني بأسلوب صادق ولكنه عنيف قائلا : « بلغنا عنكم أنكم عازمون على مخالفة الشرع ... وذلك طلب الملك والولاية ومنازعة أرباب الدولة بالقتل والمشاتمة هاه ـــ هاه ـــ هاه كلا لا ثم كلا لا. فأين عقولكم الراجحة وأين بصائركم الثاقبة انتبهوا خير لكم، انتبهوا خير لكم وإني لكم والله من الناصحين» الى اخر الرسالة وهي وثيقة حية تدل من بين ما تدل عليه على علو وصدق في الرأي لا يراعي حقوق المشيخة التي عليه تجاه أستاذه عبد الله بل جعلت مصلحة الأمة فوق أي حق وحتى لو كان حق الاتباع وضرورة السماع والطاعة. لمن أراد مزيدا من الاطلاع فليراجع الرسالة بكاملها عند المختار السوسي الجزء 13 من صفحة 272 الى 275. (من كتابه المعسول) وأما الثالثة فهي تخص دور تارودانت كعاصمة للدولة الناشئة في تكوين الموظفين الأكفاء الذين يستحملون مسؤولية تسيير دواليب الحكم. وهكذا نجد أن محمد الشيخ الكبير كان ذا بصيرة عميقة ونظرة سياسية بعيدة عندما بنى مدرسة الجامع الكبير ومجموعة أخرى من المدارس الصغرى المحيطة بها في كل من اكلي وتيوت وفريجة وسندالة تكون بمثابة روافد لها. ولم يكن قصد محمد الشيخ الأول ايجاد مقر لبث العلم فحسب بل أيضا أراد لمدرسة الجامع الكبير أن تكون مدرسة وطنية لتخريج موظفي الدولة وكذلك كان، فجل موظفي الدولة السعدية الكبار ـــ حتى بعد انتقالها في دورها الثاني الى مراكش تخرجوا من مدرسة الجامع الكبير. فجل أطر المخزن السعدي من قواد جيش وعمال وحيسوبي الدولة وقضاتها وحجابها بل وحتى شعرائها تخرج من مدرسة الجامع الكبير. ويكفي هذه الأخيرة فخرا أنها خرجت سلطان عصره والذي أعاد للمغرب هيبته بين الدول ألا وهو أحمد المنصور الذهبي ذاته فقد تلقى العلم بمدرسة جامعها الكبير على يد استاذه موسى التودماوي .

وأما الرابعة فهي مرتبطة بالثالثة وتخص التعليم. وأستطيع أن أجزم بأنه ما كان لمدرسة الجامع الكبير أن تتوفق في هذه المهمة الجليلة التي انشئت من أجلها لو لا توفرها على ميزة اختصت بها دون غيرها من الحواضر الأخرى (مراكش وفاس) وهي أن المشرفين على التعليم بها بحكم نزاهتهم واستقامتهم الفكرية، من جهة، وبحكم أستاذيتهم لجل ملوك الدولة السعدية، من جهة أخرى، تمكنوا من تحقيق قدر لا بأس بها من الاستقلال الفكري مكنهم أحيانا من الوقوف في وجه ملوك هذه الدولة نفسها دفاعا عن حقوق طالب العلم بالتفكير الجدي في توفير الشروط المادية الكفيلة بنموه وازدهاره. فهذا قاضيها ومفتيها ومتولي مستفاد أحباسها سعيد بن علي بن مسعود الهوزالي كان يتعمد صرف مستفاد الأحباس على طلبة العلم خوفا من الاستيلاء عليه، فقد كان دوما يقول : «انفاقها على طلبة العلم أولى من إدخارها، وتوفير مستفادها ذريعة للتسلط عليها» ولم تمض إلا خمس وعشرون سنة على هذه القولة حتى تعرض تلميذه وخليفته في قضائها من بعده أبوزيد عبد الرحمان التمنارتي الى موقف مشابه مع أميرها حينئذ يحي الحاحي، فقد طالبه يحي بمستفاد أحباس تارودانت ليستعين به على محاربة زيدان في الشمال وأبي علي بودميعة في الجنوب ولكنه رفض الانقياد لأمر من هذا القبيل الأمر الذي أغضب يحيا عليه فأعفاه من خطط القضاء والفتيا ونظارة الأحباس وتغريبه عن تارودانت الى سندالة. إن مواقف تتسم بهذا النوع من الشجاعة الفكرية ما كان لها لتكون لولا توفر تارودانت على تقاليد علمية متجذرة لم تكن موجودة في غيرها من الحواضر.

وأما الخامسة فلها أيضا ارتباط وثيق بما سبقها ويتعلق الأمر بقضية حساسة تمس الدين والدنيا معا ويتعلق الأمر بالقضاء. فهذا الوالي الصالح أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان المسكدادي التزركيني والذي كان يحلو لمحمد الشيخ الكبير أن يقول عنه مقارنا إياه بقطبي التربية في عصره : « سيدي أحمد بن عبد الرحمان يخاف الله ولا يخافنا وسيدي محمد بن ابراهيم التمنارتي يخاف الله ويخافنا، وسيدي عبد الله بن سعيد الحاحي لا يخاف الله ويخافنا» أوقل هذا سيدي أحمد بن عبد الرحمان يصف أحوال تارودانت بعد أن قفل راجعا منها الى بلدته لما سئل عن ذلك قائلا : « فقهاؤهم على ضعيف الفتاوي وفقراؤهم على كثرة الدعاوي وعامتهم على كثرة المساوي». هذا الكلام كان سنة 931 هـ أي أن مدرسة الجامع الكبير لم تشيد بعد أما وقد شرعت هذه المدرسة في تخريج الأطر العليا للدولة فإن قاضيا من بين قضاتها — وهم كثر — هو سعيد بن علي بن مسعود الهوزالي المشار إليه سابقا كان يقول في مهنة القضاء : «أكل الشيخ أولى منها».

ولما تولى قضاء المحمدية مكرها أحدث فيها زوبعة فكرية بلغ صداها أقاصي المملكة وذلك أنه لما رأى معظم بيوعات السوسيين إنما هي بيوع مغلفة وتقع بإسم ما كان يصطلح عليه انذاك ببيع الثنيا تصدى لهذه المسألة بعد استشارة أشياخه سيدي محمد بن عبد الرحمان التمنارتي وسيدي أحمد بن موسى الجزولي. واستصدر قرارا سنة 970 بمنع البيع بالثنيا ووقع به التبريح في الأسواق فأحدث زلزلة تبعها اجتهادات ومناظرات فقهية طويلة تم له فيها الظهور على كل من جاد في هذه القضية مؤسسا بذلك البوادر الأولى لقاعدة فقهية في سوس ستعرف انتشارا واسعا بعده هي العمل السوسي كمتمم للعمل الفاسي والعمل المطلق فيما بعد. وذلك أن الهوزالي اعتمد في هذه القضية قولي سحنون وابن الماجشون رأسا عوض الاعتماد على الفروع بالرغم من أن قولهما لم يكن مشهورا في المذهب أو كما قال أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي في هذه النازلة « قدم المقاصد على الالفاظ كما هو ظاهر من المدونة» وهذه مساهمة عظيمة لتارودانت في إغناء المذهب المالكي قلما انتبه إليها واعطيت ما تستحقه من عناية.

وأما السادسة فهي تخص جانبا أساسيا من حياة المحمدية وحاجاتها كعاصمة لدولة صاعدة وأقصد كل ما يتعلق بالحرف والصنائع وطرق التجارة والطب والهندسة وهنا لا بدّ من الاطالة شيئا ما حتى نستطيع أن نتأكد من كون المنتوج الفكري بالمحمدية في هذا الباب جاء كاستجابة كاملة لما تحتاجه أم لا.

من أخص خصائص العلم المتداول بتارودانت خلال القرنين العاشر والحادي عشر كونه كان عمليا بشكل واضح وقوي، ونستطيع أن نقول إن ما استطعنا الإطلاع عليه من مصادر ووثائق عن هذا الجانب لا يمكن الإجابة على هذا السؤال الا في جزء منه لا غير. وهكذا فإن الناس بتارودانت، كغيرهم من سكان بقية حواضر المغرب، كانوا في أمس الحاجة إلى علمين أساسيين لكي تستقيم دنياهم باستقامة دينهم، وهذان العلمان هما علم الحساب، ويجد تطبيقه العملي في الفرائض وخاصة ما يتعلق بتقسيم التركات والهبات والوقف والإرث، وعلم الفلك وتطبيقه العملي يكون في معرفة أوقات الصلاة والمواسم والدورات الزراعية والاهتداء في الطرق عامة. ونظرا لذلك فقد عرف هذان العلمان تقدما كبيرا بتارودانت بحيث يكفي أن نشير هنا الى المنظومة السملالية المكناة بأجنحة الرغاب في معرفة الحساب لابراهيم بن أبي القاسم السملالي والى شرحها المبسط الذي قام به علي بن أحمد الرسموكي ومدى استمرارها ككتاب رسمي معتمد في تدريس هذه المادة بسوس الى حدود الستينات من قرننا الحالي لكي نتأكد من ذلك.

أما في الفلك فما أكثر ما أنتجته تارودانت في هذا الباب بل إن جل فقهائها كان يتقن هذا العلم نظرا لتوقف مواقيت الحياة العامة عليه. ويكفي أن نشير هنا الى شخص أبي زيد عبد الرحمان عمرو البعقيلي الجراد (الذي يقول في حقه عبد الرحمان التمارتي «شيخنا الفقيه الأديب الفرضي اللغوي... له ذكاء وفطنة متقدمة برع في عدة فنون من نحو وتصريف وحساب وشعر ونجوم، ولفراهته في علم النجوم نقله المنصور الى مراكش للتوقيت به وتعليم علمه» الفوائد الجمة ص 24 من مخطوط خاص.

ومدى ما وصله من تفنن في هذا الباب حتى إنه صنع آلتين للتوقيت تبث احداهما على منارة الجامع الكبير والثانية على منارة جامع القصبة وله في هذا العلم تآليف أشهرها على الاطلاق كتابان هما : «قطف الأنوا من روضة الأزهار وتحصيل المطلوب من ربع الجيوب».

ولكن المحمدية كعاصمة فتية وكقطب لاستقدام العدد الوفير من السكان لم تكن فقط تعيش على التركات والإرث والحرث وتحديد الوقت بل هي مدينة آخذة في التوسيع والازدهار. لهذا فهي كانت محتاجة الى مهندسين وبنائين مرموقين، يضاف الى هذا كونها أصبحت إمارة وقلعة مهمة من قلاع الدفاع عن الدولة الناشئة كما كانت تعج بزراعة صناعية تعتبر مادة استراتيجية في وقتها ألا وهي صناعة السكر لهذا كله فإن تارودانت كانت محتاجة الى مهندسين وعمال مهرة أو ما نسميه بلغة العصر بالتقنيين وخاصة فيما يتعلق بتصفية مادة السكر التي كانت تعتبر وقتها من أدق الحرف وأعقدها. فإلى أي مدى استطاعت مدرسة الجامع الكبير ان تساهم في تخريج هذا النوع من الأطر ؟

بعد مراجعة جل الوثائق المتبقاة عن هذا العصر أجد نفسي مرغما على الإجابة بأن تارودانت ومدرسة جامعها الكبير لم تكن تدخل هذه الإختصاصات ضمن اهتماماتها وربما استثنينا السكة فقد عثرنا على مخطوط صغير يحمل عنوان : السكة بالمغرب لمؤلفه محمد بن يعقوب الايسي المتوفى سنة 1010 هـ والذي قال في حقه أحمد بابا السوادني في نيل الابتهاج : «لم ألق بالمغرب أثبت ولا أوثق ولا أحق ولا أعرف بطرق العلم فيه». وهكذا فإذا كنا نتوفر في جانب المعمار والبناء على أسماء بعض المعلمين الذين ساهموا أو أشرفوا على بناء سورها وتشييد حصونها أو تجديد سواقيها فإن الحقيقة تلزمنا بأن نتعرف بأن هؤلاء لم يكونوا في أغلبهم سوسيين من أبناء المحمدية بل كانوا إما أندلسيين استقدموا من الرباط وسلا واما علوجا أسرتهم الدولة السعدية أو من العناصر التركية الداخلة في تركيبة جيشها.

وما يقال عن البناء يقال أيضا عن صناعة قصب السكر فهذه نصوص الفشتالي في المناهل تصرح بأن متولي هذه الأمور من قبل المنصور كان يهوديا يساعده انجليزي بل أن وثائق دوكاستري تذهب أبعد من هذا عندما تشير وثيقة برتغالية منها الى أن هذا اليهودي أكترى مصانع السكر من المنصور بعدما نقل هذا الأخير زراعته الى شيشاوة.

أما عن سبب عدم اهتمام مدرسة الجامع الكبير بمحاولة ايجاد حلول لهذا النوع من الحاجات التي كانت تعاني منه المحمدية فأعتقد أن مرجعه ليس الى طغيان اهتمام علماء المحمدية بكل ما له علاقة بالشؤون الدينية كما قد يفهم من تلميحات الأستاذ محمد حجي كما يشير الى ذلك صراحة الأستاذ ابراهيم حركات في آخر كتاب له «السياسة والمجتمع في العصر السعدي» بل إني أرى أن مرجع ذلك بالاساس الى الحصار الفكري والمادي الذي كانت تمارسه قوى ذلك العصر على الدولة الناشئة حتى لا تنتقل تلك العلوم ذات الصبغة التقنية الى بلاد المغرب وإلا بماذا نفسر أن أهم الكتب المؤلفة في العصر السعدي والمتعلقة بهذا الجانب العلمي التطبيقي ألفت أصلا إما باللغة الإسبانية أو اللغة العبرانية ثم يقوم بعد ذلك مؤلفوها بترجمتها الى اللغة العربية هذا بالرغم من أن مؤليفها مغاربة ولدينا عن ذلك أكثر من مثال :

1) العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع لأحمد بن قاسم الحجري.

2) رسالة زيج زكوط لأبراهيم السلمنقي.

3) مغنى الطبيب عن كتب أعداء الحبيب (وهو عنوان دال للغاية) للرئيس أبي القاسم الغساني الوزير.

4) سفارة عبد الواحد بن مسعود عنوان الاصيلي من قبل أحمد المنصور إلى الملكة اليزابيط كانت تهدف من بين ما تهدف إليه الإتصال بالعالم الرياضي الانجليزي أدوارد رايت لشراء كرات وساعات ومزاول واستطرلابات وآلات مغناطيسية وأخرى لقياس ارتفاع الإجرام السماوية وتحديد اتجاه القوافل في الصحراء وفي نفس الموضوع نطالع عند دوكاستري (وثائق انجليزية الفئة الأولى) رسالة بعث بها تاجر انجليزي بالمغرب هو طوماس بنهير إلى نفس العالم الرياضي إدوارد رايت يقول فيها : «إن الملك مولاي أحمد مغرم بدراسة علم الفلك والتنجيم ويجل أعمال الأدوات المتعلقة بالشمس والقمر والتي هي من التدبير العجيب للغاية لذلك فإن كرتك وساعتك ومزولتك الأرضية وآلة السدس وآلتك الفلكية المعدنية الجديدة المتخذة للأميال أو أية آلة أخرى تتعلق بذلك سيلقى قبولا حسنا ويمكنك أن تبيعها بأثمان جيدة».

كان هذا بتاريخ 24 يونيه 1600 أي سنتان فقط قبل أن يتوفى أحمد المنصور، الشيء الذي يدل على أن العلوم التطبيقية التي تسمح باختراع الالات المشار إليها في هذه الرسالة لم تكن معروفة بعد بالقدر الكافي، ولو كان الأمر غير ذلك لما اضطر أحمد المنصور إلى تكليف سفيره عنون في أخطر مهمة سياسية كلف بها سفير مغربي على الإطلاق (إذ كان الأمر يتعلق بإنشاء حلف سري بين المغرب وانجلترا ضد المملكة بالإسبانية) وفي ذات الوقت يكلفه بشراء هذه الآلات.

وكخلاصة مركزة لكل ما سبق نستطيع أن نقول أن قيمة المنتوج الفكري لتارودانت خلال القرن التاسع والعاشر اكتسبتها ايجابيا، من شيئين :

أولا : من كونه كان مساوقا لما كان مطروحا على الساحة الفكرية بتارودانت من قضايا، فهو من حيث المضمون توفق الى حد بعيد في تلبية جل حاجيات هذه المدينة.

ثانيا : من حيث الشكل امتازت مساهمات هذا المنتوج بحرية فكرية نسبية مكنته لا فقط من توفير اجابات عملية في مستوى ما كان يجابه به من مشاكل بل أيضا وخصوصا مكنته من أن يضيف الى الركام المعرفي المغربي اجتهادات أصيلة تركت بصماتها على الفكر المغربي في مجالات شتى.

كما أن هذا المنتوج اكتسب قيمته سلبيا في كونه لم يرق الى مستوى الإجابة الشمولية لما كانت تعج به ساحة تارودانت من هموم وحاجات تعد في عمقها من أسباب ازدهار الاقتصاد والعمران وبالتالي توطيد دعائم الاستمرار، والحق أقول أن هذا لم يكن مرجعه إلى تقاعس أو ضعف فيه ولا في اختياراته بقدر ما كان مرده الى الظروف العامة التي كانت تحيط بالمغرب كله، لهذا فهو بريء مما حاول البعض إلصاقه به من تزمت وقصر أفق.

نشاط الأمير محمد العالم العلمي و الأدبي بتارودانت خلال القرن الثاني عشر الهجري

علال معكول
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكنـــاس

تعتبر تارودانت أهم مركز حضاري وعلمي في منطقة سوس، نظرا لاهتمام السعديين بهذه المدينة وبالاقليم عموما، لأنها موطن[1]دعوتهم، فغدت بذلك تارودانت حاضرة سياسية، تتوفر على مظاهر الحضارة والتمدن والفكر والثقافة التي يتطلبها خليفة السلطان، وحاشيته وأعوانه في تلك الناحية، ولكن الأحداث والفواجع التي أصابت المغرب، بعد موت[2]أحمد المنصور الذهبي، أثرت على تارودانت، كما أثرت على المراكز العلمية الأخرى بالمغرب، فتقوقعت على نفسها مكتفية بما تبقى لديها من هذه الأحداث.

وفي العهد العلوي انتعشت تارودانت، خصوصا عندما حل بها الأمير محمد العالم[3]بن السلطان المولى اسماعيل، خليفة لأبيه في إقليم سوس، وكان كما يقول عنه المؤرخ محمد[4]بن العليب القادري : «له خوض في العلوم كالنحو والبيان، والمنطق، والكلام، والأصول وغيرها... وكان حريصا على مجالسة العلماء، وكأنه من خالطه منهم له جاه عنده، وحظوة ومراعاة، ويجزل لهم الصلات»[5]. كما أشار الى هذه المكانة العلمية للأمير محمد العالم ومشاركته الواسعة في العلوم النقلية والعقلية والأدبية، الشيخ أحمد بن محمد

(1) الاستقصا 5/ 3 ــ 6 ، دار الكتاب الدار البيضاء 1955، والحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، د. محمد حجي 405/2، منشورات دار المغرب.

(2) سنة 1012 هـ / 1603 م، انظر (روضة الاس للمقري ــ ص 3 ــ 69 ط. الملكية الرباط، والنشر 98/1 ــ 107 ط. حجي والتوفيق.

(3) لقب بالعالم لعلمه وأدبه (تـ : 1118 هـ/ 1706م) انظر ترجمته في (التقاط الدور ص 296، والنشر 179/2 ط، حجرية، والدر المنتخب المستحسن 404/6 ــ 405 و22/7 ــ 53 مخ خ ح رقم 12184 ز)

(4) (تـ : 1187 هـ / 1773 م) انظر السلوة 351/2 ومقدمة تحقيق التقاط الدور لمولى هاشم.

(5) التقاط الدور ــ ص 296.

بن يعقوب الولالي[1](ت 1128 هـ /1715 م) في إجازته به فقال : «فقد تعاطينا معه علوما سبعة وهي : البديع والبيان، والمعاني، وأصول الفروع وأصول الدين، وقواعد التصوف، وعلم المنطق، والجميع عن بلوغ باعه فيه ينطق..»[2].

وقد حفظ لنا الأستاذ المؤرخ والأديب المرحوم محمد المختار السوسي مخطوطا صغيرا مبتور الآخر، ينسب لرجل لا يعرف إلا بنسبه (الروداني)[3]، واسم هذا المخطوط (نزهة الألباب في ذكريات الأحباب)، «وقد اقترح بعظهم أن تسمى (نفحات الشباب)، ولك أن تختار ما تشاء من الاسمين»[4]دون فيه صاحبه النشاط العلمي والأدبي الذي بعثه محمد العالم في تارودانت. كما دون فيه قصائد شعرية لا تعرف عن أصحابها إلا أسماؤهم ونسبهم كما وردت فيه «وأيا كان فإن فيه ما لم نجده في غيره من أخبار أدباء لم نسمع بهم قبل... ومن هنا نعرف مقدار هذا الكتاب»[5].

ويتجلى هذا النشاط في المحاور الاتية :

1 – المجالس العلمية والأدبية

2 – المساجلات الشعرية بينه وبين بعض أدباء سوس

3 – المباحث النقدية، خصوصا في القصائد التي مدح بها.

1) ومن المعلوم أن المجالس العلمية كان يحضرها كبار العلماء والشيوخ والفقهاء الذين ذهبوا معه الى تارودانت من فاس ومكناس، ومراكش أو التحقوا به فيما بعد، بالإضافة الى من كان يتوفر عليه إقليم سوس من شيوخ وعلماء، وأدباء، فأصبحت تارودانت بهذا النشاط مركزاعلميا، يضاف الى بقية المراكز العلمية الأخرى التي عملت على نشر الثقافة، وانعاش الحركة الفكرية في المغرب في القرن الثاني عشر الهجري، وفي مقدمة هذه المراكز فاس التي كانت كعبة للعلم والعلماء والفقهاء والطلبة، يشدون إليها الرحال لتوسيع الأفق العلمي، ورفع الرواية والسند الى أصول الثقافة العربية وفروعها، حديثا،

---

(1) من تلاميذ أبي علي السوسي، وهو صاحب (مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخبار) مخ. خ. ع. ضمن مجموع رقم 2305 ك، انظر ترجمة الولالي في (التقاط السدرو ص 311، والنشر 194/2 ط. حجرية، والدر المنتخب المستحسن 7/ورقة 387)

(2) الدر المنتخب 7/ ورقة 26.

(3) المعول 286/18.

(4) نفسه 287

(5) نفسه 328.

وفقها، وتفسيرا، ولغة، ونحوا، وبيانا، فيعود الشيوخ والعلماء بعدهذه الرحلة الى مراكزهم ومدنهم وقراهم، حاملين إجازات وأسانيد تخول لهم التصدر في مجالس الدرس والافتاء، والقضاء، وما الى ذلك من أمور الدين والدنيا..

ومن هؤلاء العلماء الذين ضمتهم مجالس الأمير محمد العالم فكانوا «نحو الثلاثين، وما منهم اذ ذاك إلا عالم كبير، كسيدي محمد السملالي[1]، حفيد الشيخ سيدي عبد الله[2] ابن يعقوب، وسيدي محمد بن محمد العباسي[3]، وكان الذي يتولى الدرس[4] بين يدي الخليفة أحد العلماء الذين جاؤا معه من مكناس وإنما يسرد الآخرون مناوبة أحيانا، وأحيانا يسرد سيدي محمد الفاسي[5] الذي هو السارد دائما لمولانا محمد، رحم الله الجميع.. وكان الخليفة هو الذي يثير البحوث، ويجيب كل من يجادله فيه، ولكن لهيبته قلما يقدم على ذلك إلا علماء[6] مكناس، وإلا سيدي محمد المسناوي[7] حين جاء إليه[8]»

فما هي المسائل العلمية التي كانت تثار في مثل هذه المجالس ؟ وردود العلماء عليها ؟ واحتجاجهم لها بالرباهين والأدلة ؟ هذا ما لم تشر إليه المصادر التي واكبت هذه الفترة، فيما استطعنا الوصول إليه حتى الآن، ومنها صاحب (نزهة الألباب) الذي ركز على الجانب الأدبي أكثر من غيره .

ولكن بالرجوع الى المكانة العلمية لهؤلاء العلماء الذين ضمتهم مجالس تارودانت العلمية في عهد الأمير محمد العالم، وفي مقدمتهم محمد بن أحمد المنساوي أدركنا مستويات الدروس، والمسائل التي كانت تثار فيها... فهذا الشيخ الفقيه الأديب الشاعر، كانت له

(1) هو الشيخ بن محمد بن عبد الله بن يعقوب فقيه عالم متصرف. راسل أبا علي اليوسي في بضع المسائل منها تفسير القرآن الكريم بالبربرية، (ت : 122 هـ/ 10710 م) انظر المعسول 51/5 — 61).

(2) الفقيه المحقق شيخ جزولة، واضب على التدريس بمسجد (تازمورت) ما يناهز خمسا وثلاثين سنة، وكان مقصد طلاب العلم في تلك الناحية (ت : 1052 هـ / 1642 م) انظر (الصفوة — ص 125، والمعسول 5 / 8 — 13).

(3) فقيه له نوازل في ميادين علمية كثيرة، (ت : بعد 1112 هـ — بعد 1700 م) انظر المعسول 412/18).

(4) يقصد صحيح البخاري.

(5) لم اهتد الى معرفته.

(6) لم يذكر أحدا منهم بإسمه وكنيته أو لقبه.

(7) أحد أشياخ فاس اللامعين في عصره ، من تلامذة الأمير محمد العالم، ومحمد بن الطيب العلمي، ومحمد اليفرني، وعلي مصباح الزرويلي وغيرهم، (ت : 1136 هـ /1723 م) انظر (التقاط الدرر ص 327، والنشر 2/ 124 ط. حجرية، والسلوة 44/3 — 47)

(8) نزهة الألباب في ذكريات الأحباب / المعسول 18/ 297 — 298.

مؤلفات في ميادين فكرية مختلفة، ونوازل فقهية، منها (رسالة) في التصوف، دافع فيها عن الشيخ عبد القادر الجيلالي[1](ت : 561 هـ/1165 م)، بين فيها أنه من المتصوفة المجتهدين، كما ألف فيه كتاباً آخر سماه (القول الكاشف في صحة الاستنابة في الوظائف)[3]وله فوق هذا وذاك كما يقول المؤرخ محمد بن الطيب القادري : « أجوبة كثيرة في أنواع مختلفة يبدي فيها العجائب من حل المشكلات، والتفطن لدقائق المعضلات»[4].

فالمجالس التي تضم هذا الشيخ وأمثاله تكون حافلة ولاشك بأنواع العلوم الشرعية والعقلية، وما يتخللها من نوادر وحكايات، وأمثال سائدة ، وكانت تنتهي هذه المجالس بسماع القصائد التي قيل في مدح الأمير محمد العالم، كما يحكي مؤلف (نزهة الألباب) عن أصحابه الأدباء الذين كانوا يحضرون تلك المجالس فقال على لسانهم : «وعند الزوال اختتم المجلس، فأشار إلينا الخليفة : هل قلتم شيئا من الشعر ؟ فقلنا نعم، فناولناه الكواغد التي كتبناها، فحين تأمل خطها قليلا ردها، وقال ليسرد كل واحد قصيدته قائما، قال السكتاني[1]فبقيت أنا فحين وصلت هذا البيت :

حظينا بخير الناس علما وحكمة ورأيا سديدا حين يُشتبه الأمـر

تهلل وجهه، فالتفت الى من في يمينه من علماء مكناسة مبتسما»[2]

كما قال المؤلف عن هؤلاء الأدباء الثلاثة من أصحابه محمد الزدوتي[3]ابراهيم السكتاني، ومحمد الهلالي الايلالني[4]الذين كانت تزان بهم مجالس محمد العالم الأدبية :

---

(1) من كبار الزهاد المتصوفين، مؤسس الطريقة القادرية، تصدر للتدريس والافتاء في بغداد حين انتقل اليها، انظر فوات الوفيات 373/2، والنجوم الزاهرة 371/5 وشذرات الذهب 198/4» والسلوة 220/1)

(2) طبع الحجر بفاس عام 1309 هـ / 1891 م.

(3) مايزال مخطوطا انظر الاشارة إليه ضمن مؤلفات المنساوي الأخرى في (هدية العارفين 317/2).

(4) التقاط الدروس 328.

(1) هو إبراهيم السكتاني، أسر مع أصحابه ونقل الى مكناس حيث مات، انظر (نزهة الألباب /المعسول 131/18).

(2) نفسه — ص 298.

(3) فر الى المشرق بعد أسر الأمير محمد العالم، انظر (نزهة الألباب /المعسول 313/18)

(4) قتل في حصار زيدان لأخيه. المصدر نفسه، والحرب ابتدأت بين الأخوين سنة 1114 هـ/ 1702 م واستمرت ثلاثة سنين «هلك فيها أمم ورؤساء، وأعيان يطول ذكرهم» الاتسقصاء 91/7.

«ولم يكد يعهد من كثيرين من فقهاء سوس أدباً عاليا، فبغته من هؤلاء الثلاثة ما عجب[1] منه، فقد وجدهم حفظوا كلهم المقامات وحفظوا قصائد للمتنبي والبحتري وابي تمام، وجرير، والفرزدق، والأخطل، وأبي فراس، وبشار ومسلم بن الوليد، فضلا عن المعلقات، وقد استحضروا كثيرا من حماسة أبي تمام، ومن الحماسة المغربية[2] مع معرفتهم للتاريخ...»[3]

ومن القصائد التي مدح بها ابراهيم السكتاني الأمير الأديب محمد العالم قوله :[4]

(ردانة) في بشر، وحق لها البشر	ففي الأفق من عليائها أشرق البدر
يهنىء بعض الناس بعضهم بـه	وترقص بالأفراح في خدرها البكر
فحتى الجمادات انتشت بـوروده	كان قد غدا من بين أشخاصها فكر
فهذى الرياض المونقات تمايـلت	بمقـدم مولانـا خمائلهـا الخضر

ومن قصيدة محمد الزدوتي في هذا المجلس قوله :[5]

فجاذبنـا الآداب يسبر غوره	وأين من السادات معرفة العبد ؟
يـوالي علينـا اسئـلات كـثيرة	الى أن عجزنا في الأخير عن الرد
شهدنـا بـه حتـى وجمنـا إزاءه	حيارا وقوفا لا نعيد ولا نبدي
كأن جميـع الشعـر تحت عيونـه	فيترك عن قصد، وينشد عن قصد

ومما جاء في قول الهلالي الالني :[6]

هل جئت مولانا لجيشك قائدا	في جانبـيك حمائـل وحسام
أم جئتنـا للـدرس والتعـليم في	أيمانك الصفحـات والأقـلام
أم أنت نعمة ربنـا المهـداة فيـ	هـا كل مـا يتحفـه[7] الأنعـام
فلتزهـون (ردانـة) الغـراء إذ	أضحـى لها بمقـامك الإعظـام
ولتغبـطنها (فـاس)و(الخضراء)[8]و(م)	الأقطار حتى (مصر)ها و(الشام)
فلقد أقمت السوق حالفـة بها	تنتـاب حضرة علـمك الأعـلام

---

(1) قرأوا كلهم في فاس، (نزهة الألباب) المعسول 291/18.

(2) لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي (تـ : 609 هـ /1212 م) انظر (وفيات الأعيان 136/7).

(3) نزهة الألباب / المعسول 291/18.

(4) نفسه 294 ـــ 296.

(6،5) نفسه 294 ـــ 296.

(7) احتفلت الإبل الكلأ : أكلته أو نالت منه

(8) لعله يقصد مكناسة الزيتون.

ولم يقتصر هذا النشاط الأدبي على أدباء سوس وحدهم، بل شارك فيه أدباء من جهات أخرى من المغرب، ذهبوا في صحبة الأمير محمد العالم الى قاعدة سوس الحضارية والعلمية (تارودانت)، أو التحقوا به فيما بعده، ومنهم الشيخ محمد بن أحمد المسناوي، الذي مدحه بقصيدتين اثنتين حين فتح حصن التمناري فقال في الأولى منها :[1]

فجر سعدك لاح شمس نهار	وفخارك ليس فيه مماري
ومعاليك انجدت وأغارت[2]	وتلى أي ذكرها كل قار
ووفود التهاني نحوك جاءت	مهديات عرائس الأفكار
ورياح المنى بنصرك هبت	سائقات له على أقدار
مذنات لكم بأسنى فتوح	وبراعة ذلك التمناري
طالما رماه سواكم فولى	آيا منه بعد طول حصار
وهو يسخر بالجميع ويهزا	ويدليهم بحبل اغترار
وبدا منه اذ رآك ارتياع	أظلت منه سبله في النهار
شام[3] برق نصركم فتدلى	وأتى خاضعا بحكم إضطرار

وقال في القصيدة الثانية[4].

بشراك ياتاج الكرام فقد غدت	أيام سعدك وهي في إقبال
وغدت رياح النصر تخدم مجدكم	وتؤمكم في الحل والترحال
وشدت بزاهر روضكم الهنا	بموشحات البشر والأزجال
ورياض لشتات المنى في أثمرت	أدواحهن بمبتغى الآمال
وأتتك وافدة الفتوح مجيبة	لنداك طائعة على استعجال

المساجلات الشعرية :

ولما كانت المجالس العلمية تتسم بالوقار والجدية، لطبيعة المعارف والعلوم التي تدرس فيها من جهة، واحتراما لمن فيها من فقهاء وعلماء، من جهة أخرى، فإن الأدباء والشعراء يرغبون في الإنطلاق مع سجيتهم، محلقين في أجواء الشعر والخيال، بعيدين عن ما يضايقهم،

(1) الاتحاف 4 /72 ـ 73.
(2) يقال أغار الشيء : ذهب في الأرض، وأنجد : ارتفع. والمقصود هنا أن معالي الممدوح انتشرت في كل مكان.
(3) شام البرق : نظر إليه أين يقصد.
(4) الاتحاف 73/4 ـ 74.

يجد من نشاطهم الذي يأخذ باهتمامهم أكثر من غيرهم، خصوصا في مساراتهم ومستملحاتهم التي يتناولون فيها الأخبار والحكايات المتعلقة بمن سبقهم من الشعراء والأدباء، ويستطردون الى كل نادر وطريف استملاحا واستظرفا..

ومعلوم أن هذا النوع من المجالس الأدبية لا يخلو من مساجلات[1]شعرية أو ما اصطلح عليه الاقدمون بالإجازة، فيبني (الشاعر بيتا أو قسيما يزيده على ما قبله، وربما أجاز، بيتا أو قسيما بأبيات كثيرة)[2]اختبار لقريحته ولزاده اللغوي، ونفسه الشعري، وتفننه في توليد الصور، وتلوينها بالمشاعر والإحساسات، لتثير مكامن النفس، وانفعالات الوجدان «خصوصا وأن مقام السباق يقتضي توظيف كل ما يتوفر عليه الشاعر من لغة، وخيال، وبلاغة، وثقافة... للفوز بالسبق على المتنافسين معه في ميدان الإبداع.

وهذه المساجلات كان يفتتحها في الغالب محمد العالم بعد العياء والتعب من مشاغل الحياة كما جاء في قوله لأصحابه الأدباء : «إنني أعييت كثيرا في هذه الأيام، ولايزيل الإعياء إلا المساجلة في وصف، فهل تساجلون باختياركم في القافية ، وفيما تختارون من وصف ما تريدون ؟ أو أنا أختر لكم ؟ وأبدأ لكم المساجلة في وصف ما أريد من القافية التي أريد ؟ فقال له السكتاني : إن اختيارات الملوك ملوك الاختيارات... فقال : اذن نصف هذه الأواني القهوية على أنها أواني الخمر في روض أريض، ويديرها جميل، على عادة الشعراء المتقدمين وإن لم نقتد بهم والحمد لله، في فساد المروءة والتهتك، وأنا وانتم لا نعرف ذلك بحمد الله، ولكننا نعرف ذلك في كتب الأدب، وأطرق هنينة وقال :

هذي الكؤوس مشعشعات الراح فانهض نلب نداءها يا صاح

ثم قال السكتاني :

ما عذر من ترك العقار بروضة زهراء بين منادمات صباح

فقال الهلالي :

فالوقت طاب وبلبل الاغصان قد ملأ الرياض بصوته الصداع

وقال الرسموكي :

والروض أشهر ورده بخدوده والياسمين بلونه الوضاح

---

(1) مساجلات جمع مساجلة وهي المفاضرة.

(2) العمدة 89/2 ط. 4.

وقال الزدوتي :

فكأن مُبيْضَّ الزهور منضّرا[1] حبب الرحيق أعالي الاقداح

وقال السكتاني :

وكأن محمر الشقائق وجنة دعكت براحة ما جن مزاح

وقال الهلالي :

وكأن ذاك الورد في أشواكه شاك تبدى في أتم سلاح

إلخ....»[2]

وكانت القهوة تدار على هؤلاء الأدباء خلال هذه المساجلة، والخيول تلعب في الميدان تحت أنظارهم، فقال لهم الأمير محمد العالم : «هل لكم في مساجلة أخرى في خيل الحلبة هذه، بألوان خيلها، وسواد ركابها، وأصوات مدافعها[3] ؟» فقال الزدوتي :

سوابق مولانا بروق لوامع ذواهب في دجْن السحاب رواجع

وقال الهلالي :

صفوفا صفوفا، كالعقود تناسقت على صفحات النحر، والنحر ناصع

وقال الرسموكي :

إذا ابرقت من جريها الومضى الخطا ف ترعد ما بين البروق المدافع

وقال الزدوتي :

فلا تستطيع العين تثبت عدّها إذا استرسلت في جريها تتدافع

وقال السكتاني :

كأن الرياح الهوج صفن قوائما لهن، فكيف العاصفات الزوابع

وتنتهي هذه المساجلة بوصف شجاعة الفرسان في لونهم ومرحهم، واستخلاص ما توحي به قوتهم وعتادهم من انتصار على الأعداء الذين يهددون وحدة المغرب واستقراره فقال السكتاني :

إذا اظهروا في الحلَّبة اليوم ما ترى فكيف تراهم إذ تدور المعامع

وقال الهلالي :

فهل كان هذا اللهو إلا عناونا لما هو يوم الجد في الحرب واقع

---

(1) منضر : شديد البياض، والناضر به في كل لون، فيقال : أخضر ناضر وأحمر ناضر، وأسفر ناضر..

(2) نزهة الألباب / المعسول 313/18 ــ 315.

(3) نفسه 315/ ــ 317.

وقال الرسموكي :

فكـل مصون بالجنـود كهـذه حصين الى الآباد ما هو ضائع

وقد أوضح الامير محمد العالم مستوى هؤلاء الشعراء، وانقياد الشعر لهم دون تلكف، في نهاية هذه المساجلة كما قارن بينهم وبين شعراء الأقاليم المغربية الأخرى فقال : «كفى ! فقد بالغتم، وفقتم فوق ما يراد منكم، فالله در مجالس تعلمتموا منها، وأمهات أرضعتكم بلبانها !.. ثم التفت الى المكناسيين فقال لهم : بالله عليكم أترون مثل هذه السرعة في مثل انشقاق المرائر من كثرة التفكير، وهل هناك في المغرب اليوم مثل هذه السرعة في المساجلة ؟ فقال له أحد المكناسيين : أن هذا حقا لنادر...»[1].

3 ـ مباحث نقدية :

إن الحديث عن النقد الأدبي في المغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري، لا يخول من صعوبة، لأن مؤلفات هذه الفترة السالمة من الضياع ما زالت مخطوطة من وجه، ولعدم وجود كتب في النقد الأدبي من وجه آخر إذا استثنينا مقدمة[2]أنس السمير لعلي مصباح الزرويلي[3](ت : 1130 هـ /1717 م)، وما نجده في ثنايا بعض الشروح من ملاحظات نقدية، لاتخلو من أهمية، لأنها أدخل في النقد التطبيقي منه في النقد النظري، مثل شرح الشيخ الحسن بن مسعود اليوسي (ت 1102 هـ /1690 م) لداليته[4]التي مدح بها شيخه محمد بن ناصر الدرعي (ت : 1085 هـ /1674 م) وشرح قلائد العقيان لمحمد ابن قاسم بن زاكور (ت : 120 1708 م) الذي سماه (تزيين قلائد العقيان بفرائد التبيان)[5]، و(عنوان النفاسة في شرح الحماسة)[6]له، وشرح الهمزية[7]لمحمد بن عبد

---

(1) نزهة الألباب /المعسول 315/18 ـ 317.

(2) حققها الاستاذ ممنون أحمد، ولم تنشر بعد (رسالة جامعية /كلية الآداب الرباط)

(3) انظر دراسة صاحب هذا البحث عنه المقدمة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الادب العربي في كلية الآداب بفاس ومقدمة تحقيق ديوانه لمحمد الحسني.

(4) طبعت مع شرحها بمصر عام 1329 هـ /1911 م) ومنها نسخة خطية بـ خع تحت رقم 696 ج.

(5) مخ. خع رقم 7 ج

(6) مخ. خع. رقم 158 ج

(7) مخ. خع. رقم 895 ج.

الرحمان الصومعي[1](ت : 1123 هـ /1711 م)، وشرح[2]توشيح ابن سهل لمحمد الصغير اليفرني[3] وغيرها من الشروح التي يجمعها منهج واحد في الأغلب الأعم، ويمكن أن نجهل خصائصه فيما يأتي :

1 – الشرح اللغوي لا يضاح ما ورد في النصوص المشروحة من ألفاظ غامضة غريبة.

2 – إيضاح معاني تلك النصوص، وشرح ما فيها من أمثال، وحكم، ونوادر، ووضعها في سياقها التاريخي .

3 – الإشارة الى ما في تلك النصوص من بلاغة وبيان، وتحديد العناصر الفنية فيها من استعارة، وتشبيه، وكناية، وبديع، وما الى ذلك من وسائل التعبير الفني.

4 – إبداء الشارح رأيه أحيانا في مباني بعض النصوص المشروحة، أو في معانيها، مما يساهم في اثراء الدراسات النقدية والبلاغية في العصر الذي تنتمي إليه تلك الشروح.

ومن الملامح النقدية في هذا العصر أيضا ما كان يدور في المجالس الأدبية من آراء وأحكام، ومنها مجالس الأمير محمد العالم في تارودانت، التي خصص بعضها لدراسة ما مدح به من شعر، فأجرى الحوار مع أصحابه في المعاني والألفاظ والاخيلة والصور النابعة من تجربة هؤلاء الشعراء، ومعاناتهم، أومن تجارب الفروق بين الذاتي والمكتسب، لتحديد الإضافات ونوعيتها وقيمتها الفنية والاجتماعية والتاريخية المتمثلة في مستوى التعبير من وجه، وفي محتواه من وجه آخر، وبذلك يتمكن الدارس من معرفة المحيط الحضاري الذي يتنفس فيه هذا الشعر والمناخ العلمي والأدبي الذي يتميز به.

وقد عبر الأديب محمد العالم في مستهل انتقاده للقصائد التي مدح بها عن إعجابه بالمستوى الأدبي الذي وجده عند هذه الفئة التي ارتبطت به مؤكدا أنه لا ينتقد إلا من استجاد شعره فقال : «إنني ما فرحت بالقيادة على سوس كما فرحت بوجود الأدب والشعراء في سوس... إننا الآن نسرد تلك القصائد بإمعان... قال السكتاني : فأشار إلي فتبعته، فلما وصلت البيت الثاني :

يهنىء بعض الناس بعضهم بـه   وترقص بالأفراح في المصدع البكر

(1) شيخ صوفي، دفين زاوية الصومعة ساهم في نشر العلم بزاويته في تادلة بناحية بني ملال انظر (التقاط الدور — ص 307، والنشر 188/2 — 189 ط. حجرية والاعلام للزركلي ، /197).

(2) حققه الأستاذ محمد العمري، ولم ينشر بعد.

(3) هوصاحب نزهة الحادي، وصفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، توفي بعد 1150 هـ/ بعد 1737 م) كما جاء عند القادري في التقاط الدور ص 438 — 440، وذكر محمد المكي الناصري أنه التقى به في مراكش سنة 1151 هـ/ 1738 م) وأخذ عنه كثيرا من المرويات والأخبار، انظر (الدرر المرصعة بأخبار صلحاء درعة 1 / ورقة 97 — 99 مخ. خع. رقم 2637 د)

وكان البيت هكذا أصالة، فقال الخليفة : إن المخدع هنا ينبغي أن يبدل، ثم قال : أما يصلح هكذا ؟ :

وترقص بالأفراح في خدرها البكر

فقلنا له : إن البيت الآن قد استتم ما ينقصه»[1].

ومما جاء في آخر قصيدة السكتاني قوله :[2]

وقد قامت الهيجاء حق قيامها ... ودارت رحاها والتظى وسطها الجمر
وقد صابر الشجعان حتى لو بهم ... الى العجز رغما مطعن الأسل[3] المر
وقد فلت الاسياف واندقت القنا ... وكدست الموتى، وضاق بها البر
وجف من أوساط الحلوق لعابها ... وقد ضاقت الأضلاع، وانتفخ السَّحْر
وقد قام ميزان الهزيمة فانثنى ... عن الوالد الحاني ابنه المستحي البر
هناك مولانا يضيء جبينه ... حبورا كان طاغت براحته الخمر

ثم يقول :

إلى أن يرد الجيش ادبارهم وقد ... تقسمهم حد المهند والاسر

فعلق الأمير محمد العالم على نهاية هذه القصيدة سائلا أصحابه الأدباء عن المنبع الذي استقى منه السكتاني هذا المعنى فقال : « ما هو الأصل في هذا المعنى الذي في آخر القصيدة ؟ وقد وصفه وصفا دقيقا». فبادر الزدوتي فقال له : إنه للمتنبي في ميميته المعلومة التي يقول فيها لسيف الدولة :[5]

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح، وثغرك باسم

«فقال الخليفة : لله درك ! فهذا ما أريد، ولكن أبشر أديبنا السكتاني أنه أخذه أخذا، حسنا، وذلك الوصف مما ـــ كذا ـــ جعل للقصيدة قيمة عظيمة في نظري. ثم انشد الزدوتي قصيدته الى البيت الثاني، فانتقد لفظة (الخال) فقال :

إن الأولى أن تكوْن الصدغ، لأن أصل البيت هكذا :

يزين فلق الشعر ذكرك مثل ما ... يزين مَسْك الخال[6] سالفة[7] الخد

(1) نزهة الألباب /المعسول 18 / 299.
(2) نفسه ص 294 ـــ 295.
(3) لاسل : الرماح والنبال، واحدثها أسلحة.
(4) السحر ويحرك ويضم : الرئة، جمع سحور وأسحار.
(5) الديوان 3 / 386 ـــ 387. شرح العكبرى.
(6) لعل المقصود بالخال هنا : الثوب الناعم الموشى.
(7) السالفة : أعلى العنق.

فقال : لو ذكرت صفحة الخد لكان الخال موافقا، ولكن حين ذكرت السالفة وهي موضع الصدغ، كان الصدغ أولى...»[1]

وحين وصل محمد الزدوتي الى قوله :

نعيذك يا مولايا أن تحسب اللّفى[2]   عظما وذر[3]النمل في الوهد كالعلود

قال له محمد العالم : «ألم تكن تحفظ قصيدة المتنبي التي أولها :

وأحر قلباه ممن قلبه شبم [4]

قال : نعم ــ كذا ــ قال : إذن نظرت في بيتك هذا الى قوله :

أعيذها نظـرات مـنك صاقـة   إن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فكان الزدوتي استحيى، فقال له الخليفة : لابأس، فقد تركت المتنبي وورمه، وملت الى عظمة اللفى، وعظمة العلود، فأما أنا فلا أسمي هذا سرقة وإن كان هذا ــ وأشار الى مكناس[5]ــ يسمي كل شيء مثل هذا سرقة، وذلك عندي غلط، ولبيت حسن ملائم للقصيدة، كما أن بيت المتنبي ملائم لقصيدته[6]».

فمن خلال هذه الأحكام يتأكد لنا أن النقد عند محمد العالم لم يكن جزئيا يقتصر على كلمة في البيت، أو على بيت في القصيدة، بل ينظر في العمل الأدبي باعتباره وحدة كاملة متجانسة، وحتى وإن تناول بعض الألفاظ باستبدالها بأخرى فإنما لأجل إعطاء البيت والقصيدة بوجه عام مسحة من جمال، وبعدا في التأثير بالإضافة الى المقارنة بين تجارب الشعراء، وتحديد الفروق بينهم في التعبير عن المعنى الواحد وعن هذه الشمولية في الثقافة الادبية يقول محمد الزدوتي :[7]

كان جميع الشعر تحت عيونـه   فيترك عن قصد، وينشد عن قصد

وإذا كـان محمد العالم لم يفصل البيت عما سبقه أو لحق به عند إصدار الحكم عليه، فإننا وجدنا نقدا جزئيا عند بعض المتادبين، كما يظهر من النص الذي أشار إليه محمد بن الطيب العلمي[8](تـ : 1135 هـ / 1722 م) في الأنيس المطرب انتقد فيه بعض

---

(1) نزهة الألباب /المعسول 299/18.

(2) اللفى : الشيء القليل من لفات العظم إذا أخذت بعض لحمه.

(3) ذر النمل : صفاره.

(4) الديوان 362/3 شرح العكبري.

(5) لم يعينه بإسم أو كنية أو لقب.

(6) نزهة الألباب /المعسول 18 /300.

(7) نفسه 295.

(8) من اشخصيات الأدبية البارزة في هذا العصر، انظر ترجمته في (التقاط الدرر ص 326 ــ 327 النشر 124/2 ط. حجرية).

هؤلاء كلمة وردت في بيت قاله ضمن قصيدة رثى بها شيخه محمد بن عبدالله[1] الشريفي العلمي الوزاني (تـ : 1120 هـ/ 1708 م) الذي يقول فيه :

ان تمت يامحمد اليوم لا تعتب، فمن قبل ماتت الأنبياء

فانكر عليه كلمة (العتب)، فأجابه، قائلا : «... فقد بلغني أنك طالعت قصيدتي العديمة النظير، الفائقة الدر النثير، والروض النضير، المنظومة على الإرتجال، بشهادة عدة من الرجال فانكرت كلمة العتب من ذلك البيت... وقد ذكرت في ايرادك المبني على مرادك؛ إني جعلت الميت ممن لم يرض بالوفاة، ولم يقتد فيه بمن فات، وإن ذلك حمله على من أماته، حيث لم يطل حياته، فنهجه عن ذلك العتاب بهذا الخطاب، وقد حملتني في ذلك اثما كثيرا... قولي لاتعتب نعني على الموت الذي أصاب، فالكل به مصاب، لا على رب الأرباب»[2].

ويظهر لنا من خلال هذا النص ضعف المستوى النقدي، الذي اقتصر عند هذه الجماعة على جزئية، هي ادخل في المنحى الأخلاقي والديني منه في الاتجاه الأدبي، هذا إن كان الناقد قد اقتصر على تلك الكلمة التي لم يذكر لنا ابن الطيب العلمي غيرها في كتابه المذكور.

ونجد في خاتمة الأنيس المطرب نصا نقديا، تناول المؤلف فيه الشعراء الذين ترجم لهم في هذا الكتاب، وأورد فيه نماذج من شعرهم ونثرهم، فصنفهم صنفين[3].

1 – صنف طاوعته الصنعة، وأجاد في فنون الكلام.

2 – وصنف أكثر من الإغراب في الصنعة والافراط في التكلف، دون أن يعين أصحاب هذا الصنف أو ذاك، مع العلم أن جميع أدباء الانيس المطرب، باستثناء ابن زاكور، وأحمد بن عبد الحي الحلبي[4] (تـ : 1120 هـ/1708 م)، فقد افرطوا في الصنعة وبالغوا فيها، مما أدى الى نشوء خصوصية أدبية بين اتجاهين أدبيين متميزين : اتجاه الصنعة؛ واتجاه

(1) كانت له شهرة واسعة في مجال التصوف داخل المغرب وخارجه، انظر (الأنيس المطرب 141، والصفوة 199، والتقاط الدرر 299 والنشر 184/2 ط. حجرية والدر المنتخب 7/ ورقة 239 — 1)

(2) الأنيس ص 308.

(3) نفسه ص 349.

(4) من الشخصيات الصوفية والأدبية في هذا العصر، انظر (الأنيس المطرب ص 9 — 19، والتقاط الدروس 302 — 303).

الطبع. وتجلت هذه الخصوصة بوضوح فيما كتبه علي مصباح الزرويلي عن جماعة الانيس المطرب في (سنا المهتدي وأنس السمير)، تجاوزت حدود النقد الادبي الى السب والشتم حين يقول : «وكان في ذلك الزمن شويعر قد طار إسمه في الشعر، واشتهر بالأدب في فاس... وكانت بيني وبينه مواصلة، وكان أسن مني، وأعلم بالأدب، وكنت أراعي منزلته... فاتصلت القطيعة، وتمت البغضة بيني وبينه، حتى إنه صنع كتاب، فحمدت الله عز وجل على أن لم يصحبني مع تلك الحمر العرج، الرعاع البله»[1].

وعلي مصباح الزرويلي من المدرسة الأدبية التي ينتمي إليها الأمير محمد العالم وأصحابه الأدباء محمد الزدوتي، وإبراهيم السكتاني، ومحمد الهلالي الايلالني الذين زينوا مجالسه الأدبية بتارودانت، ومحمد بن أحمد الشاذلي[2](توفي : 1137 هـ/1724 م) صاحب علي مصباح محمد بن قاسم بن زاكور، بالاضافة الى شيوخ العلم والأدب في هذا العصر ومنهم الحسن بن مسعود اليوسي، ومحمد بن أحمد المسناوي، ومحمد بن أحمد القسطيني مع فارق بين التلاميذ والشيوخ في الإبداع الشعري والأدبي بوجه عام، فكل هؤلاء الأدباء تقل في شعرهم الصنعة الأدبية المتكلفة.

وإذا كانت ملاحظات الأمير محمد العالم النقدية ـــ بالإضافة الى شعره ـــ تنم عن ذوق أدبي رفيع، يتسم بالطبع والحس اللغوي السليم، والإدراك الواسع بأساليب الشعراء واتجاهاتهم، فإنها دعمت اتجاه الطبع الذي عمل على استمراره شيوخ الأدب قي هذا العصر، كما وضع علي مصباح مقدمة تنظيرية لكتابه (أنس السمير) لا نملك غيرها حتى الآن في النقد تدعيما لهذا الاتجاه .

وبقراءتنا لهذه المقدمة، وشروحه في سنا المهتدي وأنس السمير نستنتج الأسس النقدية الآتية :

1 - تفضيل المعنى على اللفظ.

2 - تفضيل الطبع على الصنعة، من خلال حديثه عن الشاعر المطبوع، وإطالة الكلام عن القدماء والمحدثين، وكثرة اختباراته للأقدمين وأصحاب الطبع.

3 - أثر التجربة والتأثر النفسي في جودة الشعر أو ضعفه.

4 - انتقاد المبالغات المفرطة، والغلو في الشعر، والتكلف فيه .

5 - تنقيح الشعر من الألفاظ الغربية الحوشية... إلخ .

---

(1) سنا المهتدي الى مفاخر الوزير أبي العباس التحمدي مخ. خع رقم 11095 ز لوحة 221.

(2) انظر ترجمته في التقاط الدرر ص 331 والنشر 128/2 ـــ 129 ط. حجرية.

وهنا شيء جدير بالتسجيل اثير في مجالس محمد العالم الأدبية بتارودانت يؤكد انتشار الأدب والعلم في بعض البوادي المغربية فضلا عن المدن الكبرى، فالأدباء الذين ساجلهم هذا الأديب الأمير وانتقد شعرهم كلهم من البادية السوسية درسوا فيها وفي تارودانت،والمراكز العلمية المجاورة لها ثم رحلوا الى فاس ليعودوا بعد هذه الرحلة الى بواديهم وقراهم لنشر العلم والأدب فيها، ويتضح هذا من الحوار الذي جرى بين هؤلاء الأدباء وبين صاحبهم[1] الذي ينزلون عنده بتارودانت عندما يأتون إليها للمشاركة في مجالس محمد العالم الأدبية (فحين جاؤوا قلت لهم : أين تحف الأدباء ؟ فقالوا، أو قال أحدهم : اتحسبنا بلداء نهيء القصائد من ديارنا، كأنك لا تعرف أن الأدب والشعر عندنا كالعلم عند الشافعي، وأنت حضري أدبي، ممن يغدو ويمسي الى الحمامات، ويخرج مصقول العراقيب، فإن رأيتم أحدنا نحن الباديين في بداوته وتقشفه تضحكون عليه، ورحم الله من قال في نصرتنا[2] :

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة أوراقهن صقيلات العراقيب[3]

وحينما أقر هؤلاء الأدباء بعجزهم عن الإجابة عن بعض الأسئلة التي وجهها إليهم الأمير محمد العالم في سياق نقدهم لقصيدة محمد الزدوتي «التفت الخليفة الى المكناسيين فقال : لايمكن أن يقر أحد من أهل الحضر بعجزه كما أقر هؤلاء، هم يرون اقرارهم شرفا، وأهل الحضر يرونه عارا، وشتان ما بين أخلاق الناس...»[4].

وانتشار الأدب والعلم في بعض البوادي المغربية في هذا العصر وقبله يرجع الى تنقلات العلماء واستقرارهم في هذا المكان أو ذاك إما لسبب روحي صوفي، أو لأسباب اجتماعية أخرى، وتنافس الزوايا فيما بينها في المجالات الروحية والعلمية والإقتصادية، ومنها الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، والزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة[5] كما تعرف اليوم، والزاوية الناصرية بتامكروت وغيرها .

---

(1) هو صاحب نزهة الألباب في ذكريات الأحباب/ المعسول 287/18.
(2) البيتان لأبي الطيب المتنبي. انظر الديوان 169/1 شرح الكفبرى
(3) نزهة الألباب/المعسول 303/18 — 304.
(4) نزهة الألباب/ المعسول 18 /300
(5) هو حمزة بن عبد الله العياشي الذي شجع العلماء والطلبة على الاستقرار في زاويته كما عمل على توسيع محتويات خزانتها (ت : 1130 هـ /1717 م) انظر (التقاط الدرر 313 والنشر 2 /197 ط. حجرية).

ومما تجدر الإشارة إليه كذلك في هذا المقام أن الأمير محمد العالم لم ينسه نشاطه السياسي والعلمي والأدبي مجالس العلماء وأشياخ مدينة فاس الذين أخذ عنهم المعارف والعلوم الثقافية والنقلية، واللغوية، والأدبية، فكان يبعث إليهم من حين لآخر بقصائد شعرية ترسم ذكرياته ومشاعره وأحاسيسه بألفاظ مؤثرة وصور معبرة عن الروابط العلمية والإنسانية التي تربط بين الطالب وشيوخه تأكيدا لفضلهم عليه واعترافا جميلا به وحنينا الى المعالم الحضارية، والمشاهد الطبيعية التي تأثر بها في هذا الوسط أو ذاك.. ومن ذلك قصيدته التي بعث بها الى شيخه محمد بن أحمد المسناوي حيث يقول في مطلعها :[1]

ألا ليت شعري هل أسرح ناظري ... وللانس إقبال بوادي الجواهر
امتع طرفي في رياض أريضة ... وأقطف ازهارا بها كالزواهر
بحيث نرى أسد العرين صريعة ... وقد فتكت بها ظباء المقاصر
وحيث نرى غلف[2] الحدائق سلسلت ... حديثا صحيحا عن نسيم الأزاهر
وقد نسجت كف النسيم عشية ... ذروع مياه بين تلك النواعر
فأصبحت الأطيار فوق غصونها ... فصاحا تقص فوق خضر المنابر
سقى الله أدواحا بفاس عهدتها ... تغازل أنواء الغيوث المواطر
ولا برحت عين تراها قريرة ... وان قذفت بالقلب جمرة حائر
لك الله من ألف بدرعة جسمه ... وقلب بفاس في قدامة طائر

ثم يقول :

فمن مبلغ عني رسالة شائق ... إلى علم الإعلام صدر الأكابر
إلى العالم النحرير والحجة التقى ... روى فضلها غر السراة الجماهير
إلى شيخنا الأسمى السمي محمد ... إلى الماجد الأرض الكريم العناصر
وأودعها الود الصميم وان نأت ... بي الدار عن بحر من العلم زاخر
ولله ما يشكو الفؤاد من النوى ... ولله ما تطوى بطون الدفاتر
إذا ما ذكرت العهد واشتقت للقا ... جعلت فؤادي بين أضلع صابر
فيا دوحة العلم التي تم عرفها ... جميع البرايا بين باد وحاضر
ويا سيدا حمَّلته كل وارد ... سلامي وقد حملته كل صادر

(1) الدر المنتخب المستحسن 7/ ورقة 32 ــ 34، وذكر الشيخ عبد الرحمن بن زيدان أن القصيدة وجهها الأمير المذكور الى شيخه محمد بن أحمد القسمطيني، انظر (الأتحاف 4 / 78).

(2) غلف : كمام الزهر.

ويا كوكبا قد لاح في أفق الهدى	فألقى سناه في عيون المآثر
الست الذي ترتاح كل عويصة	إلى ذهنه من بين ناه وآمر
حنانيك[1] هاض القلب سهم ابن مقلة[2]	فأدمي، فهل تروي حديث ابن صابر[3]
عليك سلام الله ما شاق شيقا	بريق، وما لاح الضياء لناظر

(1) حنانيك : ومعناه تحنين بعد تحنين، وهو من الألفاظ التي وردت مثناة ولا يعرف لها واحد. انظر (المزهر في علوم اللغة وأنواعها 195/2) لجلال الذين السيوطي، دار الفكر.

(2) ابن مقلة : لعله يقصد به أحد الأخوين أبا علي محمد بن علي الوزير الكاتب المشهور (تـ : 328 هـ/939 م) الذي قطعت يده اليمنى ولسانه لأعمال نسبت إليه في خلافة الراضي بالله فهل ابتعاد محمد العالم عن المحافل العلمية بفاس ومكناسة جعله يشعر بالغربة مثل ما شعر بها ابن مقلة بعد الذي حدث له من الفواجع.
أو يقصد أخاه أبا عبد الله الحسن بن علي بن مقلة الكاتب الأديب صاحب الخط المليح المشهور (تـ : 338 هـ/949 م) انظر ترجمتها في (وفيات الأعيان 113/5 — 118).

(3) في الدر المنتخب المستحسن (ابن صابر) وفي الاتحاف (ابن جابر).
وابن صابر هو أبو يوسف يعقوب المنجنيقي البغدادي الشاعر سمع شيئا من الحديث (انظر هـ/ 1228 م) انظر (وفيات الأعيان 35/7 — 46) فهل يشير محمد العالم في الشطر الأول من هذا البيت الى قول ابن صابر ؟

ما جئت اسئلك المواهب مادحا	أني لما أوليتني لشكور
لكن اتيت عن المعالي مخبرا	لك أن سعيك عندها مشكور

المصدر السابق ص 41
وأما ابن جابر فهناك أكثر من واحد من رواة الحديث، ومنهم محمد بن جابر بن بجير ومحمد بن جابر بن سيار، ومحمد ابن جابر بن عبد الله، فلم أهتد الى أيهم يقصد، انظر (تهذيب التهذيب لابن حجر 88/9 — 90)

ملخـــص المداخلة

تعتبر تارودانت أهم مركز حضاري وعلمي في منطقة سوس، نظرا لاهتمام السعدين بهذه المدينة وبالإقليم عموما، لأنه موطن دعوتهم، فغدت بذلك تارودانت حاضرة سياسية وعلمية تتوفر على مظاهر الحضارة والتمدن والفكر والثقافة... غير أن الأحداث والفواجع التي أصابت المغرب بعد موت أحمد المنصور الذهبي أثرت على المدينة، كما أثرت على المراكز العلمية الأخرى بالمغرب، فتقوقعت على نفسها مكتفية بما تبقى لديها من هذه الأحداث...

وفي العهد العلوي انتعشت تارودانت، خصوصا عندما حل بها الأمير الأديب الشاعر محمد العالم بن السلطان المولى إسماعيل، خليفة لأبيه في إقليم سوس، فنشطت به الحركة العلمية والأدبية في هذه المدينة . ويتجلى هذا النشاط في المحاور الآتية :

1 – المجالس العلمية والأدبية.
2 – المساجلات الشهرية بين الأمير وبين بعض أدباء سوس.
3 – المباحث النقدية، خصوصا في القصائد التي مدها بها.

ومن المعلوم أن مجالسه العلمية كان يحضرها كبار العلماء والشيوخ والفقهاء الذين ذهبوا معه الى تارودانت من فاس ومكناس ومراكش، أو التحقوا به فيما بعد بالأضافة الى من كان يتوفر عليه إقليم سوس من شيوخ وعلماء وأدباء، فأصبحت تارودانت بهذا النشاط مركزا علميا يضاف الى بقية المراكز العلمية الأخرى التي عملت على نشر الثقافة، وانعاش الحركة الفكرية في المغرب خلال القرن الثاني عشر الهجري .

ومن هؤلاء العلماء الذين ضمتهم مجالس الأمير محمد العالم الشيخ محمد بن محمد السملالي، ومحمد بن محمد العباسي، وغيرهما من الشخصيات العلمية والصوفية في سوس بالإضافة الى الشيخ محمد بن أحمد المسناوي، أحد أكابر شيوخ مدينة فاس في عصره . وبالرجوع الى المكانة العلمية لهؤلاء الشيوخ ندرك مستويات تلك المجالس العلمية التي شاركوا فيها، وأهمية المسائل التي كانت تثار فيها.. وهي بدون شك مسائل شرعية وعقلية ولغوية، مع ما يتخللها من نوادر وحكايات وأمثال سائرة .

وكانت تختم هذه المجالس بالأدب والشعر، فيتقدم محمد الزدوتي، وابراهيم السكتاني

ومحمد الهلالي الايلالني بالإضافة الى الأدباء والشعراء الذين اتوا من المدن المغربية الأخرى، بقصائد في مدح الأمير محمد العالم ...

ولم تخل هذه المجالس الأدبية من مساجلات شعرية يختبر فيها هؤلاء الشعراء قرائحهم، وزادهم اللغوي، ونفسهم الشعري، وتفننهم في توليد الصور، وتلوينها بالمشاعر والإحساسات... خصوصا وأن مقاوم السباق يقتضي توظيف كل ما يتوفر عليه الشاعر من لغة، وخيال وبلاغة وثقافة، للفوز بالسبق على المتنافسين معه في ميدان الإبداع..

وكانت تتخلل هذه المساجلات والمجالسس الأدبية أحكام نقدية، نستطيع أن نعرف من خلالها، ومن خلال الآراء النقدية الواردة في شرح بعض الأدباء مستوى النقد الأدبي في المغرب، خلال القرن الثاني عشر الهجري، وإن كان الحديث عن النقد في هذه الفترة لا يخلو من صعوبة، لأن جل مؤلفات هذه الحقبة السالمة من الضياع مازالت مخطوطة من وجه، ولعدم وجود كتب في النقد الأدبي من وجه آخر إذا استثينا مقدمة أنس السمير لعلي مصبح الزرويلي، وما نجد، في ثنايا بعض الشروح من ملاحظلات نقدية، لاتخلو من أهمية، لأنها أدخل في النقد التطبيقي منه في النقد النظري مثل شرح الشيخ الحسن بن مسعود اليوسي لداليته التي مدح بها شيخه محمد بن ناصر الدرعي، وشرح قلائد العقيان لمحمد بن قاسم بن زاكور، وعنوان النفاسة في شرح الحماسة له، وشرح الهمزية لمحمد بن عبد الرحمن الصومعي، وشرح توشيح ابن سهل لمحمد الصغير اليفرني..

وتجدر الإشارة كذلك الى شيء جدير بالتسجيل اثير في مجالس محمد العالم الأدبية بتارودانت، يؤكد انتشار الأدب والعلم في بعض البوادي المغربية فضلا عن مدنه الكبرى، فالأدباء الذين ساجلهم هذا الأديب الأمير، وانتقد شعرهم كلهم من البادية السوسية، درسوا فيها وفي تارودنت، والمراكز العلمية المجاورة لها، ثم رحلوا الى فاس ليعودوا بعد هذه الرحلة العلمية الى بواديهم وقراهم لنشر العلم والأدب فيها..

ومعلوم ان انتشار الأدب والعلم في بعض البوادي المغربية في هذا العصر وقبله يرجع الى تنقلات العلماء، واستقرارهم في هذا المكان أو ذاك، أما لسبب روحي صوفي أو لأسباب اجتماعية أخرى، بالإضافة الى تنافس الزاوايا فيما بينها في المجالات الروحية والعلمية والاقتصادية.. ومنها الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، والزاوية العياشية أو زاوية سيدي حمزة كما تعرف اليوم، والزاوية الناصرية بتامكروت وزاوية أبي المحاسن الفاسي بالقصر الكبير وغيرها..

تارودانت في بعض الكتابات الانجليزية والأمريكية

محمد أبو طالب
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الربـاط

في سنة 1740 صدر كتاب بعنوان The Adventures of Thomas Pellow أي «مغامرات طوماس پيلو» الذي يحكي فيه طوماس پيلو نفسه عن المدة التي قضاها في أحضان السلطان مولاي إسماعيل، وذلك ما بين 1715 حيث وقع أسيرا وسنة 1738 حيث دبر وسيلة الفرار الى بلده. وبعد اعتناقه الإسلام زوجه الملك وكلفه بمهام داخل الجيش. وهكذا يحكي قصة انضمامه الى فيلق الأمير مولاي عبد الله أثناء عملية زحف على الجنوب. وبعد وصف دقيق للرحلة انطلاقا من مكناس وعبر الأطلس مرورا بمراكش وأكادير، وصل الفيلق الى تارودانت التي كان استقبالها حافلا. وأثناء المقام الذي دام ثمانية عشر شهرا واجه الجيش تمرد عدد من القبائل المجاورة بقيادة ستمئة قائد. وكانت القبائل المحيطة بتارودانت تقدم المساعدات باستثناء قبيلة هوارة التي اقتنعت في النهاية بضرورة الدعم المطلوب. وأسفرت المعارك عن أزيد من ألفي قتيل حيث نُقل ألف وخمسمئة رأس من الجثث الى تارودانت، وكان پيلو من بين الجرحى العديدين حيث أصيب في كتفه الأيسر ورجله اليسرى. وفي طريق العودة إلى مكناس التي كانت الأحوال قد أخذت تضطرب بها، واجه الجيش أربعة آلاف مقاتل في معركة بتادلة دامت ثلاثة أيام وأودت بحياة مائة جندي، ولم يستسلم قائدها مولود الجبلي إلا بعد مرور ثلاثة وثلاثين يوما، إلا أنه انتحر فورا.

ويحكي طوماس پيلو عن زيارة أخرى لتارودانت، وذلك قبيل مغادرته للمغرب أو على الأصح حينما كان يتأهب للفرار وهو في حالة تستر.

وتجدر الإشارة إلى أن صاحب هذا الكتاب استقى كثيرا من معلوماته من كتاب آخر هو A Journey to Mequinez أي «رحلة إلى مكناس» لجون ويندوس John Windus، كما أن الكتاب كان موضوع رسالة دكتورة الدولة قامت بإنجازه ماكَالي مرسي بجامعة نيس الفرنسية.

في شهر أغسطس من سنة 1815 تحطمت السفينة الأمريكية American Brig Commerce على شاطىء بوجدور حيث وقع أفراد من طاقمها في أيدي بعض الرحالة الذين حملوهم في اتجاه الصويرة. ويحكي قصة هذه السفينة قائدها جيمس رايلي James Riley في كتاب نشر سنة 1817. يقول المؤلف عن بداية الأسر :

«اجتمع ما يقرب من مائة وخمسين من السكان قرب خباء للتداول في أمرنا وهم جلوس في دوائر متفرقة، في كل دائرة عشرة أفراد. كان البعض ينادي على الآخر بأسماء محمد وأحمد وسيدي عبد الله، مما جعلني أستنتج بأنهم قد يكونوا عربا. ولما نهضوا جميعا توجه إليَّ أحدهم، وكان رجلا مسنا يبدو الذكاء على محياه. ولو أنه خاطبني بلغة لم أعرفها فقد كان في تمام الوضوح حتى أنني استطعت التفاهم معه بواسطة الإشارات»[1].

كان وصول الأسرى إلى وادي نون من مسؤولية الشيخ علي والرئيس بلقاسم ومولاي ابراهيم وآخرين. ومن هناك انتقلوا الى أكَادير التي يقول عنها المؤلف إن ميناءها كان قد أُغلق قبل سنتين بأمر من السلطان، حيث لم يكن هناك إلا أنقاض بواخر متحطمة، مع وجود حركة سمكية. وكان الناس يتحدثون بالإسبانية تارة وبأنجليزية ضعيفة تارة أخرى. ومما أثار انتباه المؤلف نوعية الاستقلالية التي كانت تتمتع بها منطقة سوس البالغ عدد سكانها المليون نسمة. ويُشبّه المنطقة في وصفه لها بأرض كنعان كما ورد ذكرها في الإنجيل من حيث صغر المدن والقرى ونوع الحصون والأسوار المتينة. ويصف الرجال بأنهم شجعان، قلما يتجولون وهم غير مسلحين بالسيوف أو الخناجر، وأنهم مخلصون أوفياء في معاملاتهم، يأخذون الثأر للدفاع عن النفس، وأنهم تجار شاطرون. أما اللغة العربية التي يتحدثون بها فبها انحراف بالمقارنة مع تلك التي يتحدث بها أهل الصحراء. ويتحدث الكاتب عن شخصية سيدي هشام البالغ من العمر ما بين خمسين وستين سنة على أنه أحد قواد المنطقة،كان له جيش متكون من ثلاثين ألف جندي قد هزمهم وأنه بعد انهزامه لجأ عدد كبير من أتباعه إلى تارودانت قصد استرجاع قوتهم وتنظيم أحوالهم.

وعن مدينة تارودانت يقول رايلي بأنها أرض خصبة تنتج مواد كثيرة منها القمح والذرة والتمر والتين والزيتون والبرتقال والليمون والرمان واللوز الحلو والمر وأركَان والعلك وغير ذلك من أنواع الفواكه والخضروات.

1 صفحة 77.

ويعتقد أن طريقة الفلاحة هنا مخالفة للتعاليم الموساوية الورادة في الإنجيل الذي ينهى عن استخدام الحمار والبقر معا في عملية الحرث. ومن مميزات أهل البلد الشجاعة والفروسية واختيارهم لقائدهم عن طريقة الإجماع، وأن الرجال يرتدون لباسا أزرق دون ذراعين ويحلقون رؤوسهم كاملا مرة في الشهر.

في سنة 1791 ظهر كتاب بعنوان «رحلة من جبل طارق الى طنجة وسلا والصويرة وأكادير وتارودانت إلى جبال الأطلس عبر مراكش» لوليام لامبريير William Lempriere، الطبيب الإنجليزي الذي يحكي عن زيارته لهذه المناطق سنتين قبل ذلك. وكان هدف زيارته لتارودانت معالجة الأمير مولاي عبد السلام الذي كان قد طلب مباشرة من القنصل البريطاني[2] بطنجة تهييء هذه الفرصة. إضافة إلى مبعوث الأمير الخاص وفارسين مسلحين لمرافقة الطبيب في رحلته، أعطيت التعليمات لعامل طنجة[3] بتزويد ثلاثة مرافقين مسلحين وترجمان يتقن اللغتين العربية والإنجليزية، وكذا بإعداد خباء أنيق وبغال وغير ذلك مما يتطلبه السفر. وكانت الانطلاقة من طنجة يوم ثلاثين شتنبر ومن أكادير يوم سادس وعشرين أكتوبر حيث كان الوصول إلى تارودانت بعد يومين قطعت فيها مسافة ستة وسبعين ميلا.

وفي الوقت المناسب قابل الطبيب الأمير مولاي عبد السلام الذي استقبله ببيته بمكان يُعرف باسم «الدار البيضاء». وكان المنزل عبارة عن بناية جميلة شيدها الأمير بمساعدة مهندس فرنسي. وكان يتركب من ثلاثة أجزاء، الأول للأمير والثاني للحريم والثالث للخدم. وكان حارس البيت من جنسية إسبانية.

ويصف الطبيب الأمير بأنه كان في سن الخامسة والثلاثين، سمينا في شكله، بسيطا في ملبسه لطيفا في معاملته. ورغم تحذيرات بعض أعضاء الحاشية بشأن الطبيب الذي لم يقنعهم في منظره فقط لأنه كان يحلق لحيته، استقبله الأمير باطمئنان حيث خاطبه قائلا : «bono tibib,bono Anglaise» وطلب منه أن ينظر في المرض الذي كان يعانيه في عينيه حيث فقدت إحداهما قدرتها البصرية، بينما اشتكت الأخرى من خطورة حساسية الضوء. وكان يفحصه مرتين في اليوم ويناوله بعض الأدوية. ولما تحسنت حال الأمير الذي صار يميز بين النور والظلام سمح للطبيب بمعالجة الأميرات، وأهداه ساعته الجيبية الذهبية الخاصة. ومن طريف ما يحكيه الطبيب أنه لما ألح على ضرورة النظر الى لسان السيدة التي كان يفحصها من وراء ستار وبواسطة الترجمان، لاحظ أن ثقبة قد فتحت في الثوب، وإذا بلسان يظهر ثم يختفي بسرعة البرق. أما سيدة أخرى كانت تشتكي من انتفاخ في عنقها فقد

[2] جيمس ماريو ماطرا James Mario Matra

[3] محمد بن عبد المالك

سمحت له بالنظر إليها كاملة، وكانت جميلة المحيا سخية اليد حيث أزاحت أساورها وقدمتها إياه مقابل معالجتها، لكنه رفض الهدية مؤكدا أنه غير قادر على علاجها.

وبعد مدة أخذت الوفود تتوارد طلبا في العلاج إلى أن اضطر الأمير إلى تعيين حارس على باب مقر إقامة الطبيب الذي اضطر هو الآخر إلى رفض الزيارات. ومن بين الأشخاص الذين عالجهم هذا الطبيب قاضي تارودانت البالغ من العمر سبعين سنة تقريبا. وأثناء محادثة مفيدة كان القاضي يطرح أسئلة عديدة حول الحياة في بريطانيا، وخاصة فيما يرتبط بميدان القضاء. وقد تعرّف المؤلف من خلال اتصالاته على شابين سبق لأحدهما أن زار بريطانيا، بينما زار الآخر إيطاليا. وكان لامبريير يقيم بأحسن بيت في ملك يهودي من أخلص خدام الأمير في الملاّح الموجود خارج المدينة. إلا أن استياءه لوضعية هذا المكان أدى به إلى إطلاع الأمير الذي أمر حالا بإحضار ما كان يلزم من تجهيزات. ومن بين الأشياء التي تزخر بها عاصمة سوس والتي تعرض لها الكاتب بساتين النخيل ومنتوج التمر وصناعة النسيج والنحاس الوارد من منجم قرب المدينة. وفي سوق تارودانت الذي ينعقد مرتين في الأسبوع، استحسن عادة غير موجودة بأوروبا، وهي أن الفرس لا يُعرض للمزاد العلني إلا بعد ما يجربه شخص يؤجره صاحب الفرس.

ومن بين أعمال الأمير مولاي عبد السلام الحسنة يذكر إنقاذه لمجموعة من الإنجليز كانت باخرتهم قد تحطمت وهم في رحلة كان الغرض منها زيارة مدينة مراكش.

وبعد مقام دام أربعة أسابيع غادر الطبيب تارودانت يوم 30 نونبر متوجها إلى مدينة مراكش التي وصل إليها يوم 3 دجنبر، حيث دعاه الأمير لزيارة والده السلطان، رغم ما كان يشوب العلاقات المغربية البريطانية من سوء التفاهم آنذاك.

وهذا جميس جاكسن كْري James Jackson Grey في كتابه «تقرير عن مملكة المغرب» أو An Account of the Empire of Marocco الصادر في بداية القرن التاسع عشر يتحدث عن منطقة سوس بكونها من أغنى مناطق المملكة لما تحتوي عليه من مواد أساسية كاللوز والتمر والبرتقال والعنب وغير ذلك من الفواكه الموجودة بكثرة في تارودانت العاصمة، وكذا برأس الواد وجبال إدَا وتَنان. وفي الجنوب أنواع مختلفة من التمر خاصة بُوتُوب وبُوزكري، كما أن الشمع يُنتج بكثرة. وتغرس أشجار الزيتون أيضا بكثرة، حتى إنك تستطيع أن تقطع مسيرة يومين بين تارودانت وراس الواد وسط أشجار كثيفة لا تخترقها أشعة الشمس. ومن منتوجات تارودانت أيضا قصب السكر والقطن والنيلة والعلك وعرق السوس والجلد لصناعة السروج والعديد من الأعشاب الطبية. ويُوزع القمح بالقدر الكافي لسد حاجات

السكان. ومن بين المعادن التي تتوفر عليها المنطقة الكحل والملح والنحاس والفضة. ويتزود سكان المنطقة بخشب العرعار من حاجة لبناء أعمدة بيوتهم. ومن بين النباتات المحلية النبق والترفاس الموجود عادة في شهر مارس.

وعن الحيوانات الزاحفة يحكي الكاتب قصة ثعبانين من حجم كبير كانا قد استقرا وسط الطريق خارج تارودانت حتى أن العبور أصبح شيئا صعبا. ومن خطورة هذا النوع من الثعابين أنه يرسل لهيبا ينتشر في الأرض وأنه إذا ما التوى على ثور سحقه سحقا وابتلعه تدريجيا ثم امتد بعد ذلك وسط الطريق لعملية الهضم.

وأثناء الحديث عن نهر سوس النازل من جبال الأطلس والمخترق لمدينة تارودانت ثم مجموع المنطقة ليكب في المحيط على بعد ستة أميال جنوب أڭادير يصحح المؤلف قولة الشريف الإدريسي بأن النهر يتجه غرب أكادير. ويذكر كذلك أن حالة النهر كانت تسمح بإرساء البواخر به.

ويقول عن طقس تارودانت بأنه ليس هناك أجمل منه في العالم رغم هبوب ريح الشوم لمدة تتراوح ما بين ثلاثة أيام وواحد وعشرين يوما ترتفع فيها درجة الحرارة، مما يؤدي الى التهاب الأرض وتقشير سطوح المنازل.

ويقدر عدد سكانها بخمسة وعشرين ألف، أي أكثر من سكان أڭادير، ولو بعد تقلصه مع مرور الزمن. ومن بين أسباب هذا التقلص تعرض المدينة لعدد من الحصارات أدى آخرها بالناس الى أكل الفيران وإحراق أبواب المنازل لإيقاد النار.

هذه نظرة وجيزة عن بعض نماذج المؤلفات الإنجليزية والأمريكية القديمة التي عنيت بتارودانت ومنطقة سوس. ونظرا للتجارب المفيدة والمعلومات التي يقدمها أصحابها وأصحاب مؤلفات مماثلة، فإنه من المستحب أن تُدرج ضمن المناهج التعليمية بمختلف اختصاصاتها وحسب المناطق المدروسة حتى يمكن استغلالها مناسبا في معالجتها لبعض الجوانب من تاريخ بلادنا، وذلك بعد القيام بما يلزم من الضبط والتحقيق.

المـــراجـــع

1. جيمس جاكسن كري. **تقرير عن مملكة المغرب**. لندن. 1809.

James Grey JACKSON. **An account of the Empire of Marocco.** London, 1809.

2. ويليام لامبرير. **رحلة من جبل طارق إلى طنجة وسلا والصويرة وأكادير وتارودانت إلى جبال الأطلس عبر مراكش**. لندن، 1791.

William LEMPRIERE. **A Tour from Gibraltar to Tangier, Sallee, Mogadore, Santa Cruz, Tarudant, and thence, Over Mount Atlas to Morocco.** London 1791.

3. طوماس پيلو. **مغامرات طوماس پيلو**. لندن، 1870.

Thomas PELLOW. **The Adventures of Thomas Pellow of Penryn, Mariner.** London, 1870.

4. جيمس رايلي. **قصة حقيقية لفقدان الباخرة الأمريكية بريک كومرس المتحطمة على شاطيء غرب إفريقيا في شهر أغسطس 1815 بالصحراء الإفريقية الكبرى**. نيويورك، 1817.

James RILEY. **An Authentic Narrative of the Loss of the American Brig Commerce, Wrecked on the Western Coast of Africa, in the Month of August 1815 ... on the Great African Desart, or Zahahrah.** New York, 1817.

5. جون ويندوس. **رحلة إلى مكناس**. لندن 1725.

John WINDUS. **A Journey to Mequinez.** London, 1725.

المحــــور الجغـرافــي

عناصر الوسط الطبيعي السوسي

الحسن المحداد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
أكادير

يكون وادي سوس حوضا ـــ سفحيا واسعا يمتد بين أعراف الأطلسين الصغير والكبير والساحل الأطلنتي على مساحة 100 16 كلم^{2}وعند عروض° 30 – °31 ورغم موقعه نظريا، داخل الميدان الجاف فإنه ظل يلعب دورا اقتصاديا رائدا ويعرف توسعا عمرانيا منذ القديم وذلك على مستوى الوطن والبلدان الشمال ـــ صحراوية.

غير أن هذا الإزدهار أخذ بعد الحرب العالمية الثانية وتيرة جد متسارعة تجاوزت إمكانيات ومؤهلات وسط هش، الأمر الذي ترجم الى بتر واضح المعالم في توازنات العناصر البيئية البديعة التي تقف أمام التصحر.

من خلال هذا العرض سنحاول، وانطلاقا من الدراسات والمعطيات المتوفرة حول المنطقة، أن نحدد عناصر الوسط الطبيعي السوسي والضغط البشري والإقتصادي الذي تتعرض له مع الوقوف على بعض ملامح الإختلال البيئي التي لم تعد مظاهرها خفية.

1 – عناصر الوسط :

يكون الأطلس الصغير والأطلس الكبير داخل حوض سوس إطارا طبوغرافيا وبنيويا يحف بسهل سوس ولا يجعله ينفتح إلا على المحيط الأطلنتي من جهة الغرب (شكل رقم : 1).

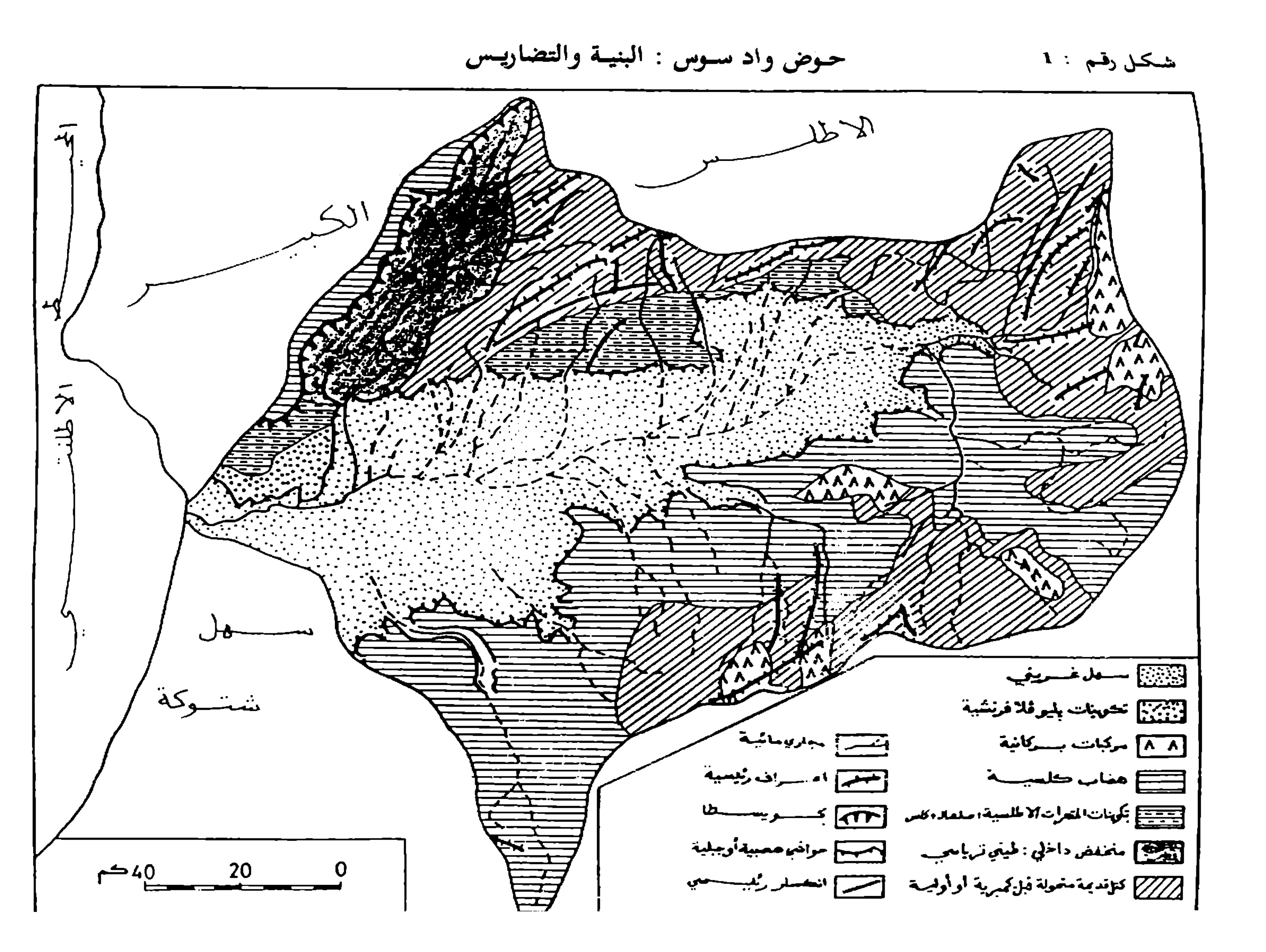
وبذلك يشكل هذا الإطار هيكل وحدة طبيعية يتحكم في كل عناصرها : يلطف المناخ ويراقب النظام المائي كما يحدد نوع الأتربة والنبات ويوجه في نهاية المطاف توزيع السكان.

1 – 1 – البنية والتضاريس :

إن تكوين بنية ونشأة تضاريس الحوض ـــ السفحي لسوس قد بدأ على هامش الدرع الأفريقي منذ ما قبل ـــ الكمبري (أكثر من 570 مليون سنة) واستمر خلال الزمن الثاني والزمن الثالث، ولم يأخذ مظهره الحالي إلا مع الحقبة البليورباعية.

شكل رقم : 1

حوض واد سوس : البنية والتضاريس



1 - 1 - 1 - الأطلس الصغير :

يمثل السفح الجنوبي لحوض واد سوس، ويتخذ مظهرا جبليا كتليا ذا ارتفاعات متواضعة تتزايد في اتجاه الشرق أعلى القمم أكليم ـــ وين ـــ سدرار 2531 م. يشرف الأطلس الصغير على سهل سوس بحزام هضبي مستو ومتقطع. إن هذا المظهر يتوافق مع تقبب واسع على هامش الدرع الإفريقي، وهو عبارة عن قاعدة قديمة ما قبل ـــ كمبرية تتركب من صخور جوفية تغطيها صخور أولية كلسية وشستية تتخذ وضعا بنائيا مائلا يجعلها تنغرز فجأة تحت تكوينات سهل سوس وسهل ماسة.

1 - 1 - 2 - الأطلس الكبير :

يتصل بالأطلس الصغير عند مركب سيروا البركاني، يكون السفح الشمالي للحوض المذكور، يتميز بمظهر متغاير : في الغرب الإرتفاع محدود لا يصل إلى 2.000 م، وتتخذ التضاريس طابعا هضبيا يتعقد عند الإتصال بسوس ـــ وانطلاقا من منخفض أركانة الداخلي تتكثل التضاريس وتتخذ طابعا جبليا ويتزايد الإرتفاع تدريجيا الى أن يصل إلى 4165 م عند توبقال وهي إحدى قمم كتلة أدرار ـــ ن ـــ درن الذي يكون منطلق واد تفنوت أهم روافد واد سوس. هذا الوضع التضاريسي يتطابق مع كتلة قديمة متحولة تتركب من صخور متنوعة يغطيها حوض رسوبي ثنائي ـــ يميل بصفة إجمالية في اتجاه الغرب والكل عرف حركة رافعة عنيفة هي المسؤولة عن ارتفاعات الأطلس الكبير الشاهقة وعن اتصاله المفاجىء بسهل سوس.

1 - 1 - 3 - سهل سوس :

يمثل ثغرة طبوغرافية تنحصر بين الوحدتين التضاريسيتين السابقتين وتنفتح على المحيط الأطلنتي؛ تشغل حوالي 25 % من مجموع مساحة الحوض السفحي لسوس، متوسط الإرتفاع 300 م، الانحدار يتم بشكل خفيف في اتجاه الساحل، تتخللها مجموعة من التلال المتناثرة : لحفاية، بوربيعة، البويضة وتتصل هذه الوهدة بالأطلسين الصغير والكبير عبر مجموعة من مخاريط الانصباب تتفاوت ضخامتها بين الشمال الذي يعرف مخاريط واسعة وجيدة التشخيص والجنوب الذي تظهر به مخاريط ضيقة ومستوية.

من الناحية البنيوية يكون سهل سوس قسما متهدلا شكل اخدودا ارتبط بنزول ركائز الأطلسين الصغير والكبير عن طريق انثناءات وانكسارات عمودية (شكل رقم : 2)، فأصبح بذلك يكون مستوى قاعديا محليا استقبل مواد غرينية وسفحية فتاتية ومحلولات متنوعة كونت ملئا بليورباعيا مختلطا ومتفاوت السمك.

1 - 2 - **مناخ شبه جاف :**

مناخ حوض سوس من النمط المتوسطي الذي يعرف تركزا للتساقطات خلال الفصل البارد، بينما يكون فصل الصيف الأكثر سخونة فترة جافة غير أن الوضع المحمي المذكور، والانفتاح على الأطلنتي، والموقع عند عروض جافة. تمثل عناصر تتدخل لتعقد الظواهر المناخية بالمنطقة بشكل يصعب معه تفسير معظمها نظرا لغياب المعطيات الكافية.

التساقطات ترتبط بالإضطربات الجوية الغربية والجنوبية الغربية، كمياتها متواضعة، وتعرف توزيعا مجاليا وزمنيا غير منتظم : عند الوحدات الجبلية تعرف تزايدا متناسبا مع تزايد الإرتفاع، عند الأطلس الكبير تتراوح في المتوسط بين 700 - 800 ملم في حين لا تتعدى 500 ملم عند الأطلس الصغير مع الإشارة إلى أنها تكون على شكل ثلوج ابتداء من ارتفاع 1400 - 1500م، أمدها أطول عند مرتفعات الأطلس الكبير من الأطلس الصغير، أما عند السهل فإن متوسطها يدور حول 250 ملم مع تناقص واضح في اتجاه الشرق (أدميم 245 ملم تارودانت 233 ملم، أمكور 182 ملم).

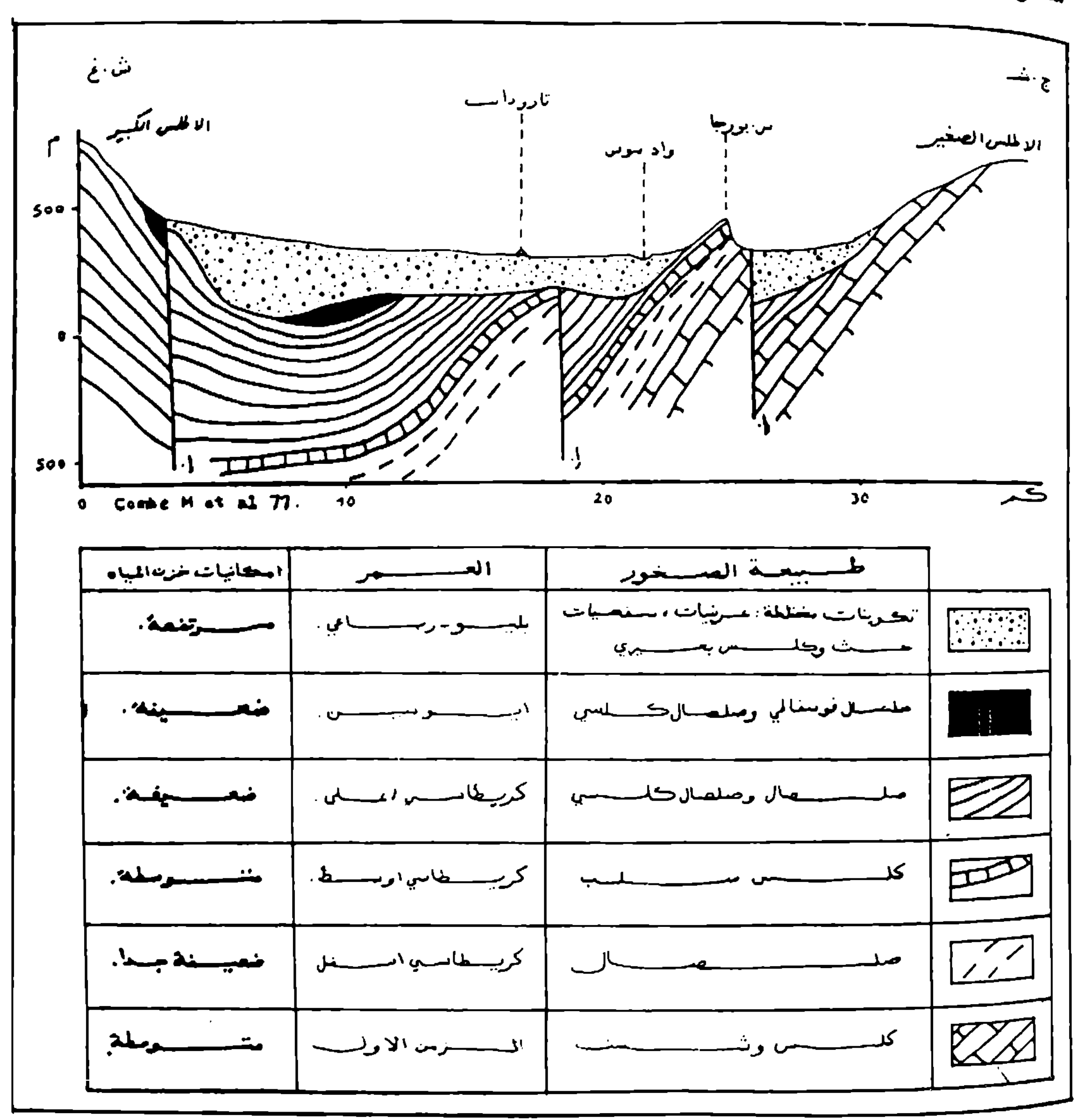
أما نظام هذه التساقطات فإنه يعرف تغيرات فصلية وبيسنوية واضحة، فالأمطار تتوزع بين شتنبر وماي وتعرف تركزين كبيرين هما نونبر — دجنبر ويناير — فبراير، ويتراوح عدد الأيام المطيرة بين 24 في أكادير و22 في أدميم وتارودانت الاختلافات البيسنوية صارخة (أكادير 84 ملم سنة 1935 - 670 ملم سنة 1963.

وعلى الرغم من هزالة الاتاوات المائية المرتبطة بتسلقطات ضعيفة وغير منتظمة فإن جزءا هاما منها يتعرض للتبخر بسبب الحرارات المرتفعة دون أن تتمكن الكتلة الحية من الإستفادة منه.

الحرارات هي الأخرى تعرف تفاوتات مهمة بين السهل والمجال الجبلي : عند السهل، المتوسط السنوي يتراوح بين 18،5° بأكادير، 19.7° بتارودانت، غير أن هذا المعدل يخفي تفاوتات فصلية كبيرة، متوسط الدرجات الدنيا بتارودانت 11.3° وبأكادير 13.2° الدرجات الدنيا المطلقة تتجاوز هذا الحد بكثير إذ أن أقصى درجة دنيا مطلقة سجلت بأكادير هي 2.6°-وذلك يوم 11 فبراير 1935 وبتارودانت وصلت حتى 4°- يوم 1 فبراير 1935، وهذا يعني أن الجمد ممكن حتى عند الساحل لكنه يبقى ضعيف التردد. أما متوسط الدرجات العليا المطلقة فهي جد مرتفعة إذ سجلت تارودانت يوم 31 يوليوز 1922 حرارة 50.2، يوم 27 غشت 1940 عرفت أكادير حرارة أكثر تطرفا هي 51.8°. عند الجبل وفي غياب التسجيلات المناخية الكافية، فإن الحرارات تعرف

المستويات المائية الجوفية بحوض سوس

شكل رقم : 2



	طبيعة الصخور	العمر	امكانيات خزن المياه
	تكوينات مختلطة: عرينيات ، سنحيات حث وكلس بحيري	بليو-رباعي.	مرتفعة.
	صلصال فوسفاتي وصلصال كلسي	ايوسين.	ضعيفة.
	صلصال وصلصال كلسي	كريطاسي اعلى.	ضعيفة.
	كلس صلب	كريطاسي اوسط.	متوسطة.
	صلصال	كريطاسي اسفل	ضعيفة جدا.
	كلس وشست	الزمن الاول	متوسطة

نوعا من الانخفاض بالمقارنة مع حرارات السهل. لكن هذا الوضع ليس عاما إذ يتدخل عنصر التضاريس وتفاوت الإرتفاع لتظهر اختلافات مهمة بين الأعراف والقمم المشرفة والمنخفضات الداخلية والمغلقة.

وفي هذا الصدد يجب أن نميز بين الأطلس الكبير والأطلس الصغير الذي يعرف حرارات مرتفعة نسبيا.

يظهر إذن أن النظام الحراري بحوض سوس يعرف فوارق حرارية سنوية واسعة (تاروادنت مثلا 16.8°)، وتتوافق داخله حرارات الصيف المرتفعة مع الفصل الجاف ومع تردد رياح الشركي التي رغم ضعف ترددها تحدث جوا خانقا وتسبب في تجفيف حاد ينشط بين ماي وشتنبر ويتعدى في متوسطه السنوي 1490 ملم بتارودانت و 1700 ملم في أكادير، ومعنى هذا أن هاتين المحطتين تعرفان خصاصا مائيا يتجاوز 1200 ملم سنويا الأمر الذي لا يمكن أن نتصور معه وجود أي نوع من مظاهر الحياة لولا تدخل عنصر السقيط والرطوبة النسبية التي تتخذ أهمية قصوى تتزايد في اتجاه الغرب، ولولا قدرة التحت ــ تربة على خزن المياه عند سهل سوس على الخصوص.

1 – 3 أهمية المياه الجوفية :

إن الإطار المرفبنيوي والمناخي الذي تم تحديده، يتحكم في طبيعة وحجم الموارد المائية الجوفية التي تمثل ذخيرة مائية ذات قيمة بيئية كبرى داخل حوض سوس وذلك بالقياس مع الموارد المائية السطحية المتوفرة :

1 – 3 – 1 – المياه السطحية :

واد سوس الذي يقوم بتصريف الحوض ــ السفحي المعروف بإسمه يشكل شبكة هيدروغرافية منتظمة تنطلق روافدها الأساسية من الأطلس الكبير، أما روافد الأطلس الصغير فإنها ضعيفة الأهمية ومعظمها يتوقف عن الجريان عند قدم الجبل وقبل أن يصل الى محور التصريف الرئيسي (شكل رقم : 1).

من حيث الجريان، واد سوس يكون نظاما هيدرلوجيا يرتبط في خصائصه بنوع المناخ السائد بالمنطقة وبنظام التساقطات على الخصوص. فمتوسط الصبيب السنوي عند قنطرة أيت ملول لا يتجاوز 10.1 م^3 /ث، وهي كمية هزيلة بالمقارنة مع نظام سبو مثلا 137 م^3 /ث. هذا الصبيب إضافة إلى هزالته يتميز بعدم الإنتظام الفصلي لأن 95% منه تتركز بين نونبر وأبريل، وتتم على شكل فيضانات عنيفة، ويعرف اضطرابات بيسنوية صارخة لأن الاتاوات المائية تتراوح بين 0 م^3 / ث (60 – 1961) و 34 م^3 /ث (62 – 1970).

1 – 3 – 2 – المياه الجوفية :

سهل سوس بفضل وضعه الطبوغرافي والبنيوي (شكل رقم : 2) يتوفر على أهم نظام مائي جوفي داخل الحوض ــ السفحي لواد سوس وذلك بسبب ضعف المستويات الخازنة وعنف ميلها عند المجال الجبلي الأطلسي.

داخل هذا النظام الجوفي سنفرق بين السديمات المائية العميقة والسديمة الحرة.

السديمات العميقة لا نعرف عنها الشيء الكثير حتى الآن، ولكن بصفة إجمالية ومن خلال دراسة البنية الجيلوجية المحلية نجد أن نسبة الطبقات الرسوبية المركبة من الطين والصلصال على الخصوص أي من صخور كتيمة غير نافذة وغير خازنة هي أهم بكثير من نسبة المستويات الكلسية النافذة التي هي نفسها تنغرز بسرعة وبطريقة عمودية في اتجاه الأعماق لتبتعد عن السطح.

أما السديمة الحرة فإنها تشكل مستوى مائيا واسع الانتشار يعم كل سهل سوس يرتبط بأهمية الطمر البليورباعي المركب من أكلاس بحيرية وغرينيات مختلطة أي من مواد ذات إمكانيات اذخار عالية نسبيا.

خصائص ومميزات هذه السديمة نحصرها في كونها تجري في اتجاه الغرب، عمقها يختلف حسب الجهات مع ظهور نزعة نحو التعمق عند قدم الجبل، متوسط سمك المستوى المائي هو 100 م، تقدر المذخرات بحوالي 50 مليار م³، التراقص يتراوح بين 1 و3م ويرتبط بنظام التساقطات والجريان السطحي : نزول خلال فترة الشح بين الربيع والخريف وصعود واحتقان مفاجىء يظهر على أثر الفيضانات الخريفية ــ الشتوية، معدل تركز الأملاح منخفض نسبيا 1،3 غ/ ل، لكنه يرتفع حتى 4 غ/ ل عند الضفة اليمنى لواد سوس قبالة مخرج واد إسن، ويتميز نظامها أخيرا بحصيلة طبيعية موجبة وذلك يرجع الى تنوع مصادر التغذية ندرجها حسب أهميتها :

التسرب المباشر لمياه فيض الأودية الذي يتردد مدة شهر واحد في السنة تغذيه سديمات الحواشي الجبلية، تسرب تهطال السهل نفسه إضافة الى فائض السقي. أما المنافذ فإنها تنحصر في الانبثاقات الطبيعية التي تظهر على طول مجرى واد سوس وفي الجريان الباطني في اتجاه المحيط لكننا نجد أن المنفذ البشري أخذ يتقوى إلى أن وصل حاليا إلى مستويات جد حرجة جعلته يتحكم في نزول مستوى هذه السديمة الموروثة والتي لا تتجدد إلا بنسبة 0،46 % أي بما قدره 230 مليون م³ فقط.

1 - 4 - الاتربة والنبات.

إن التنوع الصخري والتطور الجيمرفلوجي الذي يعرفه حوض سوس السفحي أهله للتوفر على فصائل ترابية مختلفة، مع الإشارة إلى أن مانعرفه عن أتربة المجال الجبلي يبقى جد محدود بالمقارنة مع المجال السهلي الذي يمكن حصر تركيب غطائه الترابي في ثلاثة فصائل نميز بينها من حيث تطورها :

ـــ أتربة ضعيفة التطور : مكونة فقط من مسكة متطورة فوق مواد منقولة عبارة عن غرينيات أو سفحيات أو فوق كثبان رملية، تنتشر عند قدم الجبل حول الأودية وعند الشريط الساحلي، يرتبط ضعف تطورها بجفاف المناخ وعنف التعرية.

ـــ أتربة تعرف نوعا من التطور وتتمثل في : الأتربة المسمرة ذات نسيج رملي إلى رمل ـــ طيني وتنتشر في غابة أدمين وحول الأودية والأتربة القسطلية المتطورة المتحدسلة الغنية بالطين وتظهر عند قدم الجبل أيضا.

إضافة إلى هاتين الفصيلتين نجد الأتربة المالحة التي تنتشر عند سافلة واد إسن الذي يصرف منخفض أركانة البرمترياسي وعند الشريط الساحلي.

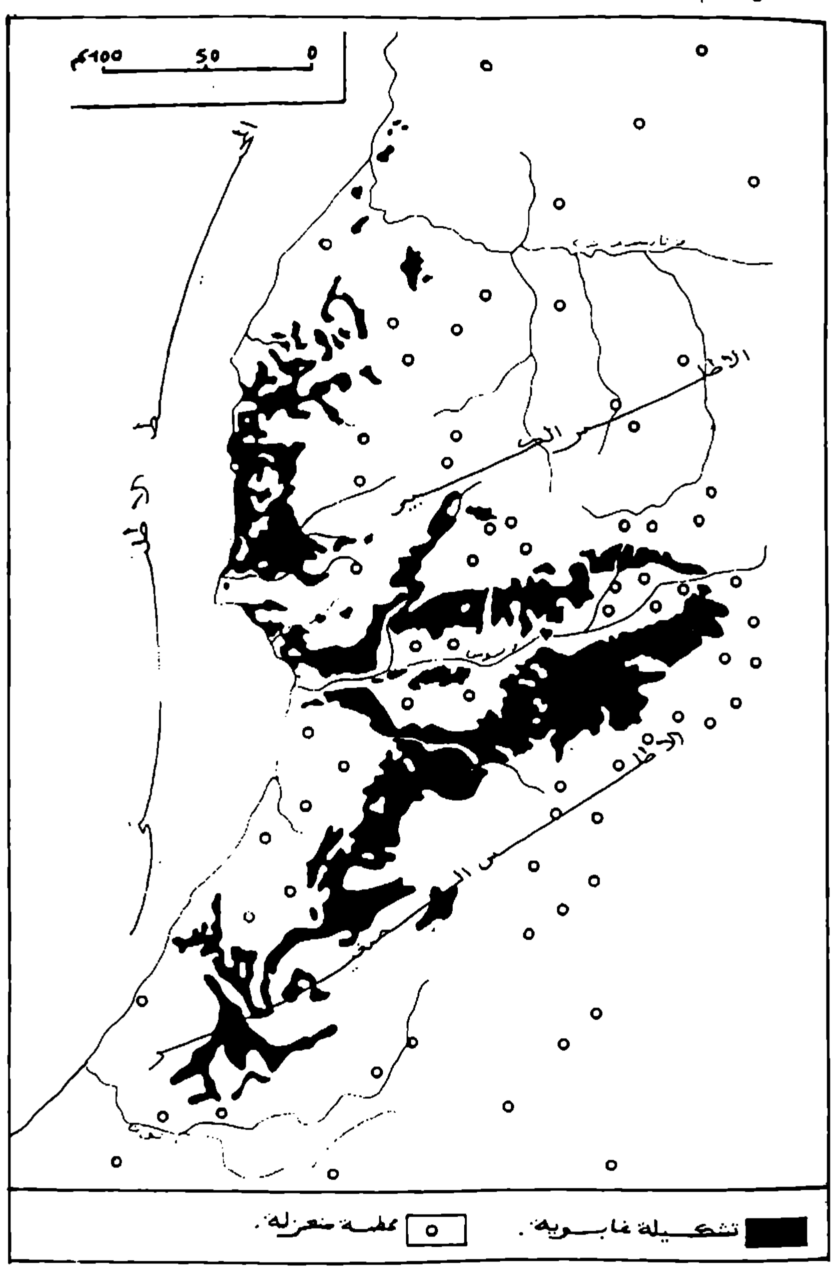
هذه الأتربة المتنوعة رغم تطورها المحدود لاترتبط بالظروف البيومناخية الحالية وإنما يظهر أنها موروثة عن فترات سابقة أكثر رطوبة من الحالي ونفس الأمر ينطبق على الغطاء النباتي على الأقل في بعض عناصره.

إن طبيعة عناصر الحوض ـــ السفحي لسوس البيئية جعلت منه وسطا محميا متميزا على هامش الشريط الصحراي الإفريقي وأهلته ليكون «ملتقى نباتيا» يعرف غنى نباتيا كبيرا خاصة وأن الدراسة النباتية بينت على أنه يحتضن 1240 نوعا نباتيا من الأنواع المغربية أي 30 %، وهي نسبة مرتفعة بالمقارنة مع المناطق المجاورة. هذه الأنواع تنتمي إلى أرومات مختلفة : متوسطية، إبيرية، صحراوية مدارية ومكارونيزية إضافة الى العناصر المستوطنة. وهذا الإختلاط الكبير يعود إلى كون حوض سوس ـــ السفحي ظل يشكل بخصائصه البيئة المعروفة ملجئا نباتيا تحتمي به النباتات كلما حدث أي تغير في ظروف الوسط، ولعل شجرة الأركان تعطي مثالا رائدا في هذا الباب.

شجرة الاركان نوع فريد، أثار انتباه الباحثين منذ القديم، يكون الطبقة الشجرة ويعطي غابة تظهر تكيفا بديعا داخل حوض سوس الذي يمثل المجال المفضل لانتشارها. ففي الوقت الذي تقتصر فيه على الرمل عند الأطلس الكبير وعلى القمم العالية عند الأطلس الصغير وتنعدم بسهل الحوز، نجدها تتوغل وتتقدم بمسافة بعيدة داخل سوس (شكل رقم 3) الذي يحميها من المؤثرات الصحراوية ويوفر لها أتربة وجوا رطبا.

مجال الانتشار الحالي للأركان بالمغرب

شكل رقم : 3



Peltier J-P 82.

يظهر إذن من خلال تحليل عناصر الوسط الطبيعي أن سهل سوس يكون داخل الحوض ــ السفحي لواد سوس محورا للجذب : يجذب إليه الفتاتات والمحلولات الصخرية المتنوعة، ويجذب إليه الموارد المائية والحياة وذلك على حساب المجال الجبلي المحيط به. لذلك يمثل مستقرا مواتيا للإستيطان البشري. وقد استطاع الإنسان السوسي أن يحافظ على توازنات هذاالوسط عن طريق اختيار نماذج عمرانية مناسبة واستعمال تقنيات فلاحية ملائمة تأخذ هشاشة البيئة وهزالة الموارد المائة بعين الإعتبار، الأمر الذي مكن منطقة سوس من المساهمة في تطوير اقتصاد البلاد وازدهار حضارتها. لكن المنطقة بدأت تعرف منذ بضعة عقود تحولا اقتصاديا كبيرا عوضت على إثره التقنيات الفلاحية المحلية بتقنيات «عصرية» وعرف النمو الديموغرافي والتوسع الحضري تطورا قياسيا. ومع هذا الوضع ظهر تهافت كبير على المجال وطلب متزايد على الماء الذي يكون العنصر المحدد والعمود الفقري للبيئة السوسية.

2 - الثقـــل البشـــري

يعتبر حوض سوس من أقدم وأكثف المناطق الشمال ــ صحراوية تعميرا وأصبح هذا الوزن يتميز بضغط قوي ارتبط بنمو ديموغرافي سريع يفوق المعدل الوطني. فخلال مدة 22 سنة، أي بين سنتي 1960 و 1982، قفز عدد سكان الحوض[1] من 000 170 إلى 000 500 نسمة تقريبا، أي بمعدل سنوي يفوق 5% وذلك في الوقت الذي لم يتجاوز فيه المعدل الوطني 2،6% (جدول رقم 1). وقد رافق هذا التطور السريع ارتفاع كثافة سكان الأرياف وتسارع في حركة التمدين التي وصلت الى مستويات حرجة.

2 - 1 - تكدس سكان الأرياف.

يمكن تقدير سكان الأرياف بأكثر من 000 215 نسمة تستقر عند السهل وحده، وقد تكاثر هؤلاء بين 1960 و1982 بنسبة 3،3% سنويا إذ انتقل عددهم في ظرف 22 سنة من 418 103 الى 491 214 نسمة وذلك في الوقت الذي لم تتجاوز فيه نسبة تكاثر الريفيين على المستوى الوطني 1،6% سنويا. وهذا يعني أن سهل سوس يستقبل سنويا 050 5 ساكنا جديدا تقريبا.

وتبعا لهذا النمو السريع عرفت منطقة سوس تكدسا بشريا متزايدا جعل الكثافة السكانية ترتفع بين 1960 و1982 من 53 إلى إلى 102 ن/كلم² تقربا، وأصبحت خمس جماعات ريفية تتعدى كثافتها 100 ن/كلم²، وتحتضن وحدها أكثر من 1/2 السكان الريفيين وحوالي 1/4 مجموعة السكان، بل أن بعض هذه الجماعات عرفت زيادة

تطور عدد سكان سهل سوس

جدول رقم : 1

	سنة 1960	سنة 1982	متوسط التزايد السنوي المطلق	متوسط التزايد السنوي %	معدل التزايد السنوي الوطني %	العدد المحتمل سنة 2002
الارياف	103 118	214 491	5062,4	3,38	1,6	315 739
المدن	57 504	283 285	10262,7	7,51	4,3	488 540
المجموع	160 622	497 776	15 325,1	5,27	2,6	804 279

شكل رقم : 4

توزيع كثافة سكان الأرياف بحوض سوس سنة 1982

المحيط الاطلنتي

الأطلس الكبير

الأطلس الصغير

أكثر من 100 ن/كم²

60 — 100 ن/كم²

20 — 60 ن/كم²

اقل من 20 ن/كم²

حدود سهل سوس

0 160 كم

عالية كتلك التي سجلتها جماعات : أولاد تايمة انتقلت من 96 ن/ كلم² سنة 1960 الى 193 ن/ كلم² سنة 1982، أيت ملول من 57 الى 154، تمسية من 72 الى 144 ن/ كلم².

إن هذا التزايد السكاني المتسارع، كما يظهر، لا يرتبط بالتزايد الديموغرافي الطبيعي وحده وإنما يعود في جزء مهم منه إلى التوافد الذي أخذت تعرفه المنطقة بسبب الدور الإقتصادي الذي أنيط بها خلال العقود الأخيرة.

2 - 2 «الإنفجار الحضري :

إن سرعة نمو السكان الريفيين بسوس تبقى محدودة إذا ما قورنت بسرعة نمو السكان الحضريين. فبعدما لم يكن يشكل هؤلاء سنة 1960 سوى حوالي 500 57 نسمة ونسبة 36% فقط من مجموع سكان المنطقة، انتقل عددهم سنة 1982 إلى 000 284 وأصبحوا يكونون 57 % من مجموع السكان. وتكون بذلك مدن سوس قد عرفت نسبة تزايد سنوي كبيرة تفوق 7% وتتجاوز المعدل الوطني الذي ينحصر في 4،3 % فقط.

على غرار الوسط الريفي فإن هذا التزايد الذي يضيف للمنطقة 260 10 ساكنا جديدا كل سنة لا يرتبط بالتزايد الطبيعي وإنما يعزي الى التوافد الذي يتحكم وحده في نسبة 4،6% من تزايد السكان الحضريين، وذلك إذا ما اعتبرنا أن نسبة التزايد الطبيعي بمدن سوس متساوية مع المعدل الوطني. وهكذا يكون التوافد هو المسؤول عن إضافة قرابة 000 62 ساكن حضري كل 10 سنوات.

وقد تم هذا التزايد بشكل غير متكافىء بين مدن حوض سوس. ذلك أن بعضها سجل نسبة تزايد قياسية مثل : أولاد تايمة 12،9% أكادير الكبرى 8،4%. بينما بقيت تارودانت عاصمة المنطقة التاريخية دون المستوى الوطني تسجل سوى 3،4 %. ولعل هذا كاف للتأكيد على أهمية التوافد وللدلالة على أن اقتصاد المنطقة أصبح ينبني على أنشطة حضرية جديدة وعلى تكثيف الإستغلال الفلاحي. وقد ارتبط هذا النمو القياسي داخل سهل سوس بالنشاط الاقتصادي الذي بني في المنطقة على الفرشة المائية التي تعتبر «أهم فرشة مائية تتوفر جنوب الأطلس الكبير»

3 - التوسع الإقتصادي وتزايد الحاجيات المائية

بعدالحرب العالمية الثانية تم التوصل الى أن سهل سوس يحتضن فرشة مائية هامة سهلة الإستغلال فاعتمد عليها كمحرك للتنمية الإقتصادية، ومع الإستقلال جاءت مخططات التنمية المتوالية لتقرر ما للسياحة الدولية من دور في تنشيط الاقتصاد الوطني. ونظرا لمؤهلات المنطقة حظيت بقسط كبير من الاعتمادات التي خصصت لهذا الغرض.

وهكذا عرف حوض سوس توسيعا في القطاع الفلاحي العصري والقطاع السياحي الدولي وكلاهما له متطلبات مائية كثيرة ويعتمد في تصريف المنتوجات على السوق الخارجية.

3 – 1 – تطور القطاع الفلاحي :

كان سهل سوس يتوفر على 000 22 هكتار تسقي انطلاقا من الفرشة المائية عن طريق الينابيع والآبار، وتستعمل تقنيات متكيفة. وهكذا فإن صبيب الآبار كان لا يتعدى 42 مليون م³ سنة 1935، كما ظلت تتوفر حتى سنة 1950 على حوالي 000 4 ناعورة تسقي قرابة 000 3 هكتار بصبيب عام يساوي 1 م³/ ث، وكانت المنطقة أيضا تحتضن 50 خطارة يبلغ صبيبها العام 600 ل/ث. وكان هذا القطاع السقوي المتوازن مع الموارد المائية يوفر زراعات مختلطة معاشية.

لكن هذا القطاع أخذ يعرف توسعا متزايدا بالاعتماد على الضخ الآلي وبمتوسط 500 1 هكتار/ سنة، فاصبحت المساحة المسقية بطريقة «عصرية» تبلغ عند نهاية الستينات 000 27 هكتار تسقى عن طريق مجموعة من الابار العميقة بلغ صبيبها الاجمالي سنة 1969 حوالي 205 مليون م³ ونضيف أن هذا القطاع يقوم بزراعة البقالة والحوامض، وظهر مؤخرا الموز، أي زراعات لها متطلبات مائية عالية جدا تتعدى 000 20م³/هـ/سنة.

ومع مرور الوقت بدأت تظهر انعكاسات هذا الاستغلال الفلاحي الكثيف المجهد للموارد المائية فجفت الينابيع وتدهورت الخطارات وتراجعت الناعورات وعرفت المدخرات المائية الجوفية خصاصا خصاصا بلغ سنة 1970 ما قدره 85 مليون م³ وهذا أمر جعل مستوى الفرشة المائية يتعمق والقطاع الفلاحي «التقليدي» يتعلق.

هذاالوضع المختل طرح ضرورة مخطط للتنمية الماء ــ فلاحية، فجاء مخطط سنة 1974 ليوصي بتوسيع القطاع السقوي وتعويض الينابيع الجافة بالضخ فتضاعف خصاص الفرشة وأصبح يبلغ 160 مليون م³ سنويا وأصبح مستوى الفرشة المائية ينزل بسرعة حرجة متسوطها 1 م / سنة. وقد زاد من تفاقم هذا الخصاص الجفاف الذي ضرب البلاد مؤخرا.

3 – 2 – توسيع القطاع السياحي :

لقد عملت مخططات التنمية الوطنية على تنشيط السياحة الدولة بالمنطقة فظهر أكادير كقطب سياحي خصبصت له اعتمادات مهمة إذ اجتذب 29،5 % مثلا من مجموع

المشاريع السياحية التي قررها المخطط الخماسي 1973 - 1977. وهكذا حقق هذا المركز نموا قياسيا بلغت نسبته السنوية 37،9% خلال الفترة الواقعة بين 1964 - 1977 فارتفع مجموع عدد الأسرة من 144 الى 9456 سريرا، وأصبح يتوفر على 19،6% من مجموع الطاقة الايوائية الوطنية.

إن هذا التطور في الطاقة الإيوائية رافقه تطور في نمو عدد السياح الأجانب الوافدين. وقد بلغ مجموع الليالي السياحية المسجلة بمراكز سوس السياحية سنة 1978 ما قدره 422 1 ليلة، 25 % من مجموع الليالي المسجلة داخل الوطن في نفس السنة.

وإذا أصبح من المعروف أن النشاط السياحي يعتبر من الأنشطة الإقتصادية المستهلكة للماء بكميات كبيرة، خاصة في المناطق الجافة وشبه ـ الجافة، فإن القطاع السياحي له متطلبات مائية هائلة، لم نتمكن من ضبطها حتى الآن ـ نظرا لكونه موجه إلى السياحة الفخمة وسياحة المجموعات : متوسط حجم المؤسسات الفندقية بأكادير هو 216 سريرا، في حين أن المعدل الوطني لا يتعدى 132 سريرا، وتشكل المؤسسات الفخمة داخله 58،6% من الطاقة الايوائة، ونجده يعتمد على السوق الاوروبي الذي يتمتع أهاليه بتقاليد تستهلك الماء بوفرة.

إذ أضفنا الى هذا التزايد البشري والتوسع الحضري المذكور والأنشطة الصناعية المختلفة التي تعرف تطورا ملحوظا، يمكننا أن نبرر التزايد المستمر في الحاجيات المائية لمدينة أكادير : ففي سنة 1951 كانت هذه المدينة تكتفي فقط بما قدره 100 ل/ث، في سنة 1972 أصبحت تحتاج 400 ل/ث وفي سنة 1985 بلغت الحاجيات 640 ل/ث، ويحتمل أن تصل هذه الأرقام الى 000 2 ل/ث سنة 000 2 ثم 000 4 ل/ سنة 010 2.

من خلال ما سبق يتبين أن الماء يتم التعامل معه بعقلية منجمية في الوقت الذي يعرف فيه صعوبة في التجديد. وهكذا بدأت المنطقة تعرف خصاصا مائيا يتزايد حجمه سنة بعد سنة. ونظرا لكون الماء يشكل عنصرا بيئيا محددا في الأرياف الجافة وشبه ـ الجافة فإن حوض سوس بدأت تظهر به أعراض تدل على أن الوسط الطبيعي بدأ فعلا يعرف خللا في توازنه.

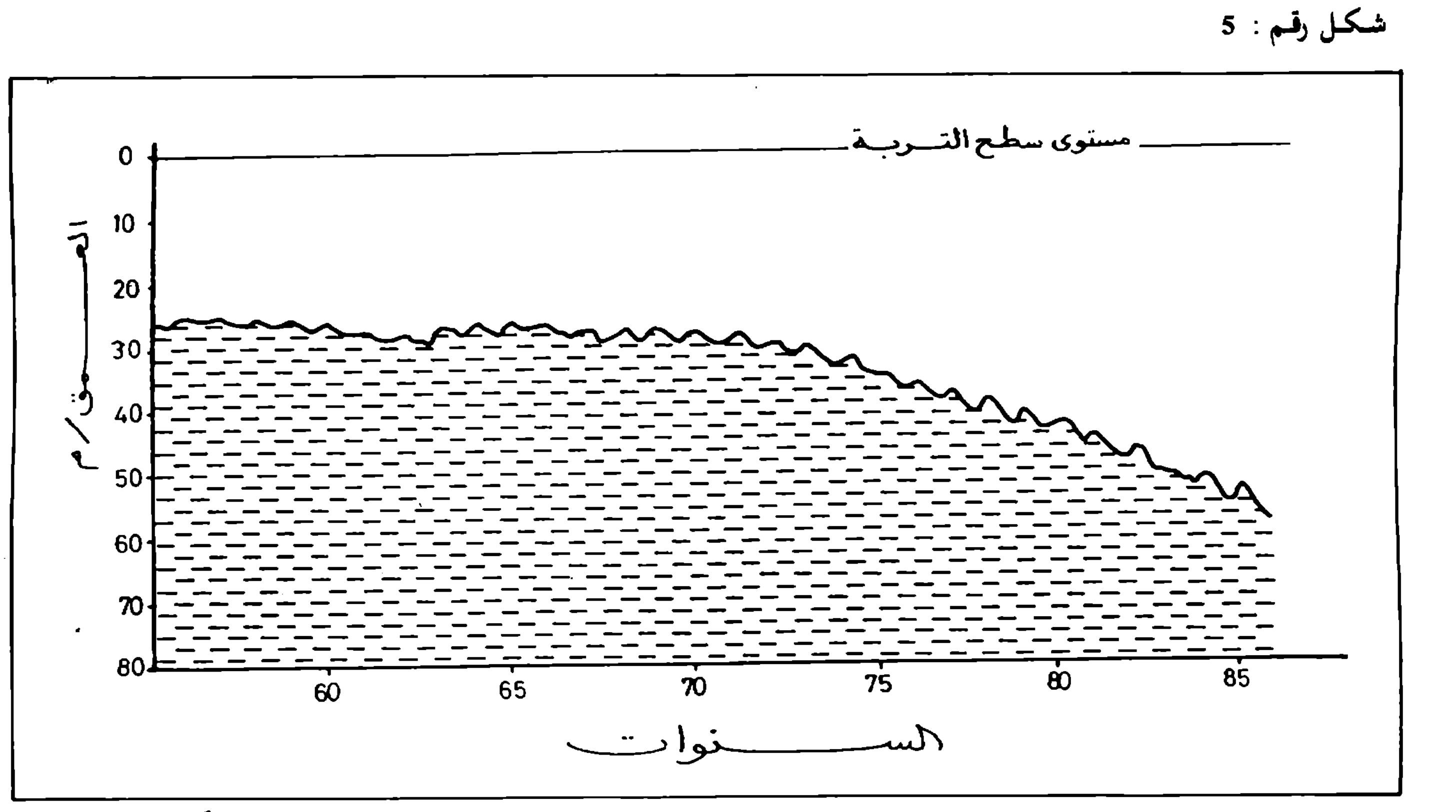
4 - بعض مظاهر الاختلال البيئي :

إن مظاهر الإختلال البيئي بسهل سوس المرتبطة بالإستغلال الكثيف للمجال وللموارد لم تعد خفية، بدأت بنزول مستوى الفرشة المائية وأدت إلى تراجع الغطاء النباتي وتنشيط التعرية.

نـزول الفرشـة المائيـة بالكـردان

(مثـال البنـا الشاهـدة : 2877/70)

شـكـل رقـم : 5



Meilhac A 86.

4 — 1 — نزول مستوى الفرشة المائية :

بسبب الضخ المفرط، ومع تقلص مصادر تزويد الفرشة الذي يعود إلى جفاف المناخ خلال السنوات الأخيرة. عرف مستوى الفرشة المائية بسهل سوس نزولا حرجا فاق كل الإحتمالات خاصة عند العالية (أولاد برحيل، إيكّلي) والوسط (الكردان، تارودانت).

نلاحظ من خلال الشكل رقم : 5 الذي يمثل أحد الآبار الشاهدة المخصصة لمراقبة تراقص مستوى الفرشة المائية بالمنطقة، إن هذا الأخير يعرف حتى سنة **1971** تراقصا لايتعدى متوسط مداه 2 م، ويعزي هذا الوضع الى التعاقب الفصلي الذي يعرفه مناخ حوض سوس. وأنذاك لم يكن مستوى الفرشة يبتعد عن سطح الأرض إلا بعمق 25 م. لكن منذ هذا التاريخ أخذ المستوى المذكور يعرف نزولا سريعا بمعدل 2 م في السنة إلى أن تجاوز 60 م سنة 1986.

إن هذا النزول المستمر لمستوى الفرشة المائية الذي «علق» القطاع الفلاحي التقليدي المسقي وأصبح يخلق المتاعب للقطاع العصري وأظهر تخوفا من غزو ماء البحر للفرشة المائية السوسية، له أثر بليغ على العناصر البيئية الأخرى وعلى الخصوص عنصر النبات.

4 — 2 — تدهور الغطاء النباتي :

نلاحظ من خلال الشكل رقم : 3 أن مجال انتشار الأركان داخل سوس لم يعد يكون كتلة متصلة ومتراصة، وإنما أصبح يتشكل من كتل متقطعة ومنعزلة تبتعد عن مجرى واد سوس وتحتمي بسفوح الأطلسين الصغير والكبير وبالمنخفضات الداخلية. غير أن هذا التقلص لا يتم فقط على مستوى المساحة وإنما أيضا على مستوى الكثافة إذ يلاحظ ميدانيا أن غابة الأركان أصبحت تكون غطاء نباتيا مفتوحا. كما أن الغطاء النباتي السوسي الطبيعي نجده يتعرض للتفقير من حيث الغنى النباتي ومن حيث بعض الأنواع النباتية.

4 — 3 — تدهور التربة :

إن نزول مستوى الفرشة المائية وابتعاده عن سطح التربة وتقلص الغطاء النباتي من حيث مساحته وكثافته يجعل التربة عارية وفي وضع الوجه للوجه أمام عوامل التعرية التي تدل معالمها الحالية المتمثلة على الخصوص في التخديد والتذرية على أنها نشيطة ويتعرض السفح الجنوبي للأطلس الكبير والمجال الممتد بينه وبين مجرى واد سوس لتخديد عنيف أدى الى خلق مشهد مخدد لا يصلح لأي نشاط زراعي خاصة عند الواد الواعر وحول واد

إيسن. أما السفح الشمالي للأطلس الصغير والمجال المتصل بـه فإنه يتعرض للتدرية التي تمكنت من خلق منظر كتيبي متحرك يزحف في اتجاه الشمال وأصبح يهدد الحياة النباتية بشكل واضح.

تبين إذن أن الوسط الطبيعي السوسي الذي يشكل وضعا خاصا ومتميزا شمال الصحراء الإفريقية الكبرى، أصبح بفعل الإستغلال الكثيف يتعرض لضغوط قوية ومختلفة جعلته يعيش أزمة تتزايد حدتها مع مرور الزمن. ولتجاوز هذاالوضع لابد أن تسبق المشاريع الإقتصادية بدراسات مستفيضة متعددة التخصصات تمكن من إدراك عميق للتوازنات البيئية، وأن تأخذ بعين الإعتبار التقنيات المحلية المتكيفة. كما أن الحلول المختارة يجب أن تكون شمولية تنطلق من العلاقات الموجودة بين مختلف جهات الحوض ــ السفحي من جهة والعلاقات الموجودة بين الحوض وباقي أجزاء التراب الوطني من جهة ثانية.

ملخص :

يمثل وادي سوس حوضا سفحيا واسعا يقع على هامش الصحراء الإفريقية الكبرى، لكن وضعه المرفبنيوي المحمي وانفتاحه على المحيط الأطلنتي جعل منه وسطا يعرف مناخا يتأثر بالمحيطية، ويعرف نوعا من الرطوبة تزود فرشة مائية حرة تستقر داخل التكوينات البليورباعية المختلطة والسميكة، التي تطمر منخفض سوس، وتكون موردا مائيا مهما حدد ظهور عصبة بيئية فريدة، وجعل من المنطقة ملجئا يحتضن أرومات نباتية متنوعة.

وقد ظلت تأثيرات تدخلات الإنسان السوسي في عناصر الوسط الطبيعي محدودة، تتم عن عن طريق وسائل متكيفة تستخدم في زراعة معاشية لاتساير دائما في تطورها النمو الديموغرافي، لذلك ظلت منطقة سوس تكون حوضاهجريا مهما على الصعيد الوطني.

لكن منذ الحرب العالمية الثانية، أعطت للمنطقة حركية اقتصادية نشيطة اعتمدت على الفرشة المائية كمحرك لها وعلى السوق الخارجية لتصريف المنتجات. وبموازاة هذه التطورات الإقتصادية برزت تحولات ديموغرافية عميقة جعلت من حوض سوس حوضا توافديا يسجل تكدسا بشريا في الأرياف ونموا قياسيا لدى سكان المدن.

أمام هذ التوسع الإقتصادي والديموغرافي المتسارع الذي ظل يتم على حساب الموارد المائية المحدودة والثابثة، عرفت الفرشة المائية الحرة ـــ التي اتخذت كمحرك لتنمية المنطقة ـــ خصاصا واضحا في حصيلتها، ما فتيء يتوسع مع تعميق الضخ. ومع مرور الوقت، ظهر اختلال في التوازنات البيئية انطلق من نزول مستوى النباتي المحلي وإلى تدهور التربة وسينتهي ـــ إذا سارت الأوضاع على ماهي عليه ـــ بالتصحر.

بيبليــــوغــرافيــا

1) بالعربيـــــة :

- الفاسي إدريس (1987) : الإنسان ومشكل التصحر في المناطق الجافة، «دراسات»، كلية الآداب أكادير، العدد الأول : ص 11 – 26.
- فضل الله عبد اللطيف (1985) : تكاثر السكان وحركة التمدين بسهل سوس وأكادير الكبرى، أعمال ندوة أكادير الكبرى، كلية الآداب أكادير.

2) بالفرنسيـة :

AMBROGGI R. (1963) : Étude géologique du versant méridional du Haut Atlas occidental et de la plaine du Souss, N.M.S.G., Rabat, 157, 322 p.

COMBE M. et al. (1977) : Vallée du Souss – in : Ressources en eau du Maroc, N.M.S.G., Rabat, 231, 3, 169-223.

DEMANGEOT J. (1981) : Les milieux naturels désertiques, S.E.D.E.S., Paris, 500 p.

DIJON R. (1969) : Étude hydrogéologique et inventaire des ressources en eau de la vallée du Souss, N.M.S.G., Rabat, 214, 257 p.

DRESCH J. (1952) : Le Haouz et le Souss – in : Aspects géomorphologiques du Maroc, N.M.S.G., Rabat, 96.

GHANEM H. (1974) : Monographie pédologique de la plaine du Souss, Direc. Rech. Agr., Rabat, 5 vols.

JOLY F. (1957) : Les milieux arides. Définition, extension. Notes maroc., Rabat, 8, 15-30.

MEILHAC A. (1986) : L'eau dans le Souss, eaux et développement, I, 28-47.

Ministère du Plan (1983) : Population légale du Maroc, Direc. de la Statistique, Rabat, 215 p.

POPP. H. (1983) : Un « manmade hazard » : le surpompage dans la vallée du Souss. Aspects socio-géographiques d'une exploitation excessive des eaux souterraines. R.G.M., n° 7, N-S, Rabat, 35-52.

TRICART J. (1969) : Le modelé des régions sèches, S.E.D.E.S., Paris, 500 pages.

(1) نظرا لكون الحدود الإدارية للجماعات المحلية الموجودة داخل الحوض – السفحي لواد سوس لا تتوافق مع حدود هذا الأخير. فقد اعتمد في تحديد عدد السكان على جماعات سهل سوس فقط.

انعكاسات بيئية لبعض التحولات المجالية بتارودانت

سعيد خليل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
أكادير

تشغل البيئة ومشاكلها أهمية قصوى في الأبحاث الجغرافية الحديثة باعتبار هذه الأخيرة تهتم بالمجال وبالمشاكل التي يطرحها واقعه الحالي وآفاقه المستقبلية. ويمكن اعتبار هذا العرض بمثابة مقاربة أولية لبعض المشاكل الحيوية بالنسبة لمدينة تارودانت، إذ يتعلق الأمر بتقلص المجال الأخضر أمام الغزو الحضري المتمثل في تزايد المباني وما لذلك من انعاكاسات خطيرة على الوسط البيئي بهذه المدينة .

ولعل أول ما يثير الإنتباه عند معالجة هذا المشكل هو مدى دقة الموضوع المطروح للبحث وهذا يستدعي إبداء ملاحظتين أساسيتين تعدلان على محدودية النتائج :

أولا : — عدم كفاءة الوسائل العملية التي سنستعملها في المقاربة بالمقارنة مع دقة الموضوع . ولعل مجرد خوض الباحث في هذا الموضوع ولفت الإنتباه إليه بما يتوفر عليه من وسائل محدودة يكتسي بحد ذاته أهمية قصوى.

ثانيا : ضرورة الفصل بين ميكانيزمات هي في الواقع عبارة عن تفاعلات معقدة لعدة عناصر من الوسط.

1 : التضاريس عنصر أساسي في اللحمة الجغرافية.

إن موقع تارودانت ونواحيها وسط سهل سوس في عروض مدارية (30 درجة شمالا)، يجعل العديد من المعطيات البيئية تتحدد بشكل شبه حتمي لتتسم بيئة المنطقة بالجفاف وتجعل مناخها مجالا مهددا على الدوام بخطر التصحر، منطقة حدودية يجب الإنتباه فيها لكل

مس بأحد عناصر التوازن البيئي، بما يشكله هذا المس من خطورة بالغة قد تساهم في نهاية المطاف في تزحزح جبهة التصحر نحو الشمال.

فالمدينة تقع وسط سهل مثلث تضيق قمته نحو الشمال الشرقي لتشكل فاصلا بين الأطلس الصغير في الجنوب الشرقي والجنوب والأطلس الكبير في الشمال ثم يتسع هذا المثلث لينفتح على المحيط الأطلسي غربا. (خريطة 1). هذا التموقع يجعل مدينة تارودانت ونواحيها تعيش وسط مجال شبه مغلق على شكل وهدة تقوم فيه الطبوغرافيا بدور مزدوج حسب الحالات : فإذا كان الانفتاح على الغرب يضمن مرور التيارات القادمة من البحر وغزوها للسهل فإن الجبال تلعب دورا متناقضا أحيانا، فمن جهة يساهم الحاجز الجبلي في تغليب كفة التيارات البحرية وسيطرتها ولكنه يلعب أيضا دورا خطيرا في رفع حرارة الكتل الهوائية القادمة من الصحراء (ارتفاع إضافي ناتج عن تحقيق آلية الفوهن). كما لا يمكن بالاضافة الى هذا التغاضي عن الدور الذي يقوم به المثلث فيما تعرفه المنطقة من حرارة بسبب شكل الحوض المقعر بذاته (سيظهر هذا العامل في خلق منخفض ضغطي في المنطقة صيفا ومرتفع ضغطي شتاء) ولكن أيضا بسبب انخفاض الالبيدو الناتج عن لون التربة الغالبة على المنطقة والتي تميل الى الدكنة.

ليس خافيا على أحد كذلك مدى أهميةالعنصر المناخي في كل تركيبة بيئية وأهمية هذا العنصر بالنسبة لمنطقة سوس ككل، ناتجة بالأساس عن الارتفاع الكبير للحرارات ولمداها وعن قلة التساقطات وعن قوة التبخر.

1.2 : ميكانزمات وخصائص المناخ المحلي :

من غير المستبعد أن يكون الشكل العام لسهل سوس بحد ذاته عنصرا يساهم في حبس تسخن الكتل الهوائية صيفا، وبالتالي يعمل على خلق ضغوط محلية سطحية منخفضة مقارنة بالضغوط المرتفعة فوق البحر والمرتبطة ببرودة المياه السطحية للشواطىء المغربية. هذه الميكانزمات تنعكس في الفصل البارد ليقوم المثلث بحبس وتبريد الكتل الهوائية فيخلق بذلك ضغوطا مرتفعة فوق القارة. ومن شأن ميكانيزمات كهاته أن تولد تيارات هوائية محلية متجهة على العموم من الشرق الى الغرب شتاء ومن الغرب نحو الشرق صيفاً وهذا ما يتأكد من خلال دراسة وردة الرياح بمحطة تارودانت (الرسم : 1).

نتيجة لهذا الوضع، ترتفع الحرارات العليا لتفوق في المعدل 30 درجة مائوية صيفا (حوالي 35، كمعدل لشهر يوليوز وغشت) (الرسم 1) كما قد تصل الحرارات هذه إلى

حوالي 40 درجة (شهر يوليوز 1975) بل تصل الحرارات اليومية الى حوالي الخمسين درجة عند هبوب رياح الشركي. ونستطيع تلمس ظاهرة القحولة والاتجاه نحو القارية من خلال ارتفاع المدى الحراري سواء اليومي (حوالي 17.5 كمعدل لشهري يوليوز وغشت) أو السنوي (حوالي 28.5 كمدى بين أحر وأبرد شهر).

وأمام وضوح النموذج المحلي للدورة الهوائية، وما دام هناك غياب لقياس الرطوبة في محطة تارودانت، فإن السؤال يبقى مطروحا حول مدى وصول الرياح البحرية السابقة الذكر ومدى تأثيرها في تلطيف مناخ مدينة تارودانت، إذ يلاحظ ارتفاع الحرارات العليا في الفترة الحارة أي في الفترة نفسها التي تتجه فيها الرياح من الغرب نحو الشرق وفي هذا الإطار ستدلي لنا المعطيات البيوجغرافية بعناصر إجابة جديدة كما سنرى، وإذا كانت معطيات الدورة المحلية ـــ في تفاعلاتها مع التضاريس ـــ تفسر الى حد كبير تغيرات الحرارة واتجاه الرياح، فإن الالتجاء الى معطيات الدورة الهوائية العامة يبدو ضروريا لشرح جفاف المنطقة وشح الأمطار، إذ أن الضغط المنخفض المشار إليه آنفا يبقى شريطيا وملتصقا بالسطح، في الوقت الذي تعمل فيه الضغوط العليا الشبه مدارية، في الأجواء العليا، على سيادة الجفاف بإجهاض جل ميكانيزمات الإمطار مما يجعل التساقطات ضعيفة وغير منتظمة، بل وتتدخل قوة التشميس وارتفاع الحرارة لتبخر كل الكميات المتساقطة التي ترتوي بها الأرض (الرسم 1).

2. 2 : تارودانت : واحة زيتون :

تعتبر الشجرة عنصرا حيويا من بين مكونات البيئة في المنطقة، فدورها تعرفها المنطقة، بل ويمكن القول أنها كانت ذات انتشار واسع في السهل كله، بيد أن هذه الشجرة تعرضت لعمليات الإجْتثات بشكل قوي مما جعل غابات الأركان تتعرض لتناقص في كثافتها حتى تكاد تختفي تماما. ولا ريب أن شجرة الزيتون قد عوضت شجرة الأركان في تارودانت ونواحيها، إذ تم عن وعي تخصيص مساحات مهمة من المدينة لما يسمى حاليا بالأحزمة الخضراء أو المجالات الخضراء. ولعل الحد الأسفل لزراعة الزيتون في المنطقة (الخريطة : 1) يمثل في الحقيقة حداً إيكولوجيا لمنطقة التأثير المباشر للمحيط، إذ أن الزيتون يتأقلم بصفة مثلى مع الظروف المناخية الشبه جافة بعيدا عن الرطوبة كما أنه يتطلب كمية من البرودة التي لاتتوفر إلا في المناطق البعيدة عن البحر أو المرتفعة. ولذا يمكن القول أن توفر الزيتون بالمنطقة دليل يظهر مدى ضعف تأثير التيارات البحرية على الرغم من أن اتجاه الرياح من الغرب إلى الشرق قد يوحي بعكس ذلك. وعلى سبيل الذكر، تجدر

الإشارة إلى الأهمية التي تكتسيها الشجرة، لا من الناحية الجمالية فقط، بما تلعبه من دور في بلورة مفهوم الانشراح النفسي لدى المشاهد، بل وحتى من الناحية المناخية والتي تمكن في تلطيف الحرارات. ولعل هذا الدور الأخير يتعرض لتغييرات خطيرة قد تمس ببيئة المدينة من جراء تهافت الإنسان على البناء على حساب المجالات الخضراء .

3 : اختيارات التمدن على حساب المجال الأخضر :

ونحن بصدد دراسة تطورات هذا المجال، تجدر الإشارة إلى أننا نهتم فقط بتارودانت داخل الأسوار، كذلك يصح التساؤل عن مدى صلاحية النظرة الغربية لمفهوم المجال الأخضر على مجال ينتمي لحضارة مختلفة كالمجال الروداني بصفة خاصة، ومجال المدن المغربية العتيقة بصفة عامة، فإذا كان المجال الأخضر بالنسبة للبعض يعني تلك المجالات المشجرة الفسيحة، فهو بالنسبة لتارودانت لا يقف عند هذا الحد بل ويشمل أيضا المجالات المشجرة بفناء المنازل أو ما يطلق عليه إسم «الرياض»، إلا أن المشكل يتعقد شيئا ما بعد ذلك حين نقف على مجالات تحتل موقعها بين «الرياض» وبين المجال المزروع، أي ما يمكن أن نطلق عليه إسم المجال الأخضر الموسمي. لكل هذه الاعتبارات المنهجية، وفي محاولة لتلافي هذا الإشكال ارتأينا أن نهتم بالمجال المبني نظرا لسهولة تلمسه في الميدان ولكون تناول أحد المجالين ـــ المبني أو الأخضر ـــ يعني بالضرورة التعرف على الآخر بحكم أن مساحة المدينة داخل الأسوار ذات قيمة ثابتة. وتتبين هذه العلاقة من خلال الصيغة التالية :

المجال المبني = المجال ككل ـــ (المجال الأخضر الصرف + المجال الأخضر الموسمي + مجالات جرداء).

مع الإشارة إلى أن المجالات الجرداء تمثل قيمة ضعيفة مقارنة بباقي المجالات.

وفي هذا الإطار، نشير إلى أن مدينة تارودانت عرفت تطورا مهما منذ ظهورها في عهد المرابطين (الخريطة 2) مرورا بالفترة الموحدية التي تم فيها بناء السور. (الخريطة 3) وقد كان وراء هذا التطور العمراني تطور سكاني ملحوظ (الرسم 2) ترجم على المجال بتقليص الرقعة الخضراء لتنمحي هذه الأخيرة تقريبا في الفترة الحالية بعد أن كانت تحتل – بشهادة الانجليزي خواكين كاتيل الذي زار المدينة في منتصف القرن الحالي، عمدنا إلى استقراء مختلف الوثائق الخرائطية ورخص البناء المسلمة من طرف المصالح البلدية ما بين 1978 و1989، إضافة إلى الصور الجوية والبحث الميداني (الخرائط من 2 إلى 7)، وتم القيام كذلك بحساب للمساحات المبنية في كل خريطة قصد إعطاء ترجمة مجالية للصيغة

المذكورة أعلاه (الجدول1). ويظهر واضحا من خلال هذه الأرقام، أن التهافت على استهلاك المجال بشكل قوي في العقود الأخيرة لا يدع مجالا للشك في إمكانية المس بالتوازن البيئي الذي لعبت فيه الشجرة الدور الأساسي. وتتأكد هذه الإمكانية بشكل أوضح إذا ما اعتمدنا على التصميم المديري ـــ بحد ذاته ـــ والذي يخصص للمجالات الخضراء مساحة لا تتعدى حوالي 10 % فقط من مساحة المدينة القديمة علما بأن نسبة مهمة من هذه المساحة قد تم تفويتها فعلا للبناء، وأن الهندسة المعمارية الحديثة للمدينة أصبحت تستغني عن شكل الرياض الداخلي، بل وتم هدم منازل قديمة ليتم تعويض الرياض بمباني جديدة تستجيب للحاجيات الديموغرافية والاقتصادية الملحة. وفي إطار هذه التحولات المستقبلية، تم وضع خريطة تمثل آفاق المستقبل وتشابه التحولات، معتمدين في ذلك على الوثائق الخرائطية والمعاينة الميدانية وعلى التصميم المديري نفسه (الخريطة 8).

4 : تصحر على الأبواب :

قد يذهب البعض إلى أننا نستعظم الأمر، وأن خطر التصحر المشار إليه مبالغ فيه، والواقع أن هذا الخطر ذو احتمال غير مستبعد، احتمال يجد أسسه في المعطيات العامة والمرتبطة بالخصوص بالموقع العروضي للمنطقة وبالخصائص المحلية ذاتها، والتي حاولنا التطرق إليها فيما سبق. ومن أجل توضيح الأمر وتأكيده، سنعمد فيما تبقى إلى اعتبار الأمر مجرد فرضية تستدعي النفي أو الجزم، وسنحاول الاعتماد على بعض العناصر التي يمكن اعتبارها بمثابة مؤشرات على الاتجاه نحو بيئة صحراوية تتجلى خصائصها في تقلص المجال الأخضر وفيما لذلك من ارتباط بارتفاع الحرارات.

4. 1 – الأسس العلمية للفرضية :

من المعلوم أن الكميات الطاقية الآتية عن طريق الإشعاع الشمسي تتبدد عن طريق قناتين أساسيتين وهما : الحرارة المحسوسة والحرارة الكامنة. أما الأولى فتتجلى بصفة واضحة في الإرتفاع المحسوس لحرارة الهواء أو السطح الذي يمرر الحرارة بعد ذلك الى الجو، أما الحرارة الكامنة فتتمثل بشكل خاص في قيمة الطاقة المحتواة في الجو والمرتبطة بكمية الرطوبة التي يحتوي عليها هذا الجو. وعليه، فإن الرطوبة المتوفرة في الجو في شكل غازي (بخار الماء) تستلزم ـــ للحيولة دون تكدس البخار وتحوله إلى قطرات ماء توفر كمية معينة من الطاقة الشمسية وتبديدها في الإبقاء على الرطوبة في حالتها الغازية. وبشكل آخر، وبما أن الغابات والسطوح المائية تتوفر فيها كميات كبيرة من المياه القابلة للنتح والتبخير، فإن الكميات الطاقية تتبدد أساسا في عملية تحويل الماء إلى بخار عوض المساهمة في رفع حرارة

الجو. وتتفاعل هذه الميكانيزمات كلها في إطار حلقة متكاملة تتيح الديمومة التلقائية لكل نظام بيئي. وقد حاولنا تحديد بعض المعالم فقط من هذه الحلقة من خلال الرسم 5 لتظهر خطورة التوازن من خلال المس بأي من عناصر الحلقة.

وعلى هذا الأساس فمن المنتظر — نظريا على الأقل — أن يسجل ارتفاع ملموس للحرارة في السنوات الأخيرة في تارودانت مواكبة مع التطور العمراني الذي شهدته المدينة على حساب المجال الأخضر. وهذا هو بالذات محور الفرضية التي يناقشها العرض والتي سنحاول اثباتها في مايلي :

2.4 : ارتفاع ملموس للحرارات :

سنحاول تلمس تطور الحرارات من خلال استخدامنا لطريقتين.

4. 2. 1 : طريقة المعـــدلات المتحركـــة :

لجأنا في هذا الإطار إلى تناول التطور باستعمالنا لطريقة المعدلات المتحركة على مدى خمس سنوات، وذلك لما تتميز به هذه من خصائص تظهر بوضوح الإتجاه العام للحرارات بتقليلها من شأن الحالات الشاذة. وقد توصلنا في هذا المجال إلى أن الحرارات عرفت مرحلتين من التطور : أولا تطور نحو الإنخفاض والإستقرار منذ بداية السلسلة المدروسة 1962 إلى حدود 1978 تقريبا، ثم تطور نحو الإرتفاع في المرحلة الثانية إلى حدود نهاية السلسلة سنة 1987 (الرسم 4) وتجدر الإشارة هنا إلى أن العمل بمحطة تارودانت بدأ منذ سنة 1922 ثم نقلت المحطة الى مقر العمالة سنة 1982. وبناء على هذا، فإن التطور الحاصل في اتجاه الحرارات لا يرتبط بشكل كبير بتغيير مقر المحطة، وذلك لطول الفترة الزمنية الفاصلة بين تاريخ بداية اتجاه الحرارات نحو الارتفاع 1978 وتاريخ انتقال المحطة 1982.

4. 2. 2 – دراســة النـزعـة الـعـامــة :

بعد أن تم الكشف عن التطور العام للحرارات بتارودانت بشكل كيفي، سنحاول الآن مقاربة هذا التطور بشكل كمي قصد تحديد مدى قوته. ومن المنطقي لدى دراسة النزعة تقسيم السلسلة إلى قسمين بناء على نتائج الدراسة التطورية السالفة الذكر، إذ بدون اللجوء إلى هذا، سنخلص إلى نتائج لا تمت إلى الواقع بصلة. وقد تبين من خلال هذه الدراسة أن تطور الحرارات في المرحلة الأخيرة يصاغ رياضيا على الشكل التالي :

1 – صيغة المعدل السنوي للحرارات العليا : (الرسم 5).

$$Y = 0,28\ X + 26,26$$

حيث تمثل Y معدل الحرارة بالدرجات المائوية.

و X الرقم الترتيبي للسنة انطلاقا من سنة 1977.

2 – صيغة معدل الحرارات العليا لشهور الصيف (يونيو، يوليوز وغشت) (الرسم 6) $Y = 0,41\ X + 31,07$

يستخلص من هذا، أن الحرارات العليا ترتفع في المعدل بمقدار 0,28 درجة مائوية سنويا، وأن الصيف يزداد في المعدل تسخنا سنة بعد سنة وذلك بحوالي نصف درجة (0,41 درجة). وترافق هذا الإرتفاع في الحرارة ــ طبعا ــ زيادة أخرى في القوة التبخيرية للجو، وبالتالي خلق ظروف غير ملائمة لنمو النبات لعدم توفر الماء اللازم للتبخير بشكل كاف : (النتح – التبخر المتاح التبخر الحقيقي). ثم تكتمل إذن الدورة على المنوال الذي رسمناه (الرسم 3).

2. 3 : مسؤولية الإنسان في هذا التطور.

من اللازم الإشارة إلى أن التغييرات التي تشهدها البيئة السوسية بشكل عام وبيئة مدينة تارودانت بشكل خاص، ترتبط بمعطيات متعددة ومتشابكة. ولا ريب أن الظروف المناخية التي عرفتها المنطقة في بداية الثمانينات، قد ساهمت إلى حد كبير في تدهور البيئة وفي تقلص الغابات والمجالات الخضراء بصفة خاصة، غير أن دور الإنسان في هذا الأمر ليس بأقل شأنا من دور المعطيات الطبيعية. وقد أشرنا ــ من قبل ــ إلى أن فرضية العمل التي انطلقنا منها، تتمحور إلى حد كبير حول هذه النقطة : إلى أي حد يرتبط تطور الحرارات بتارودانت بحركة التمدن التي تشهدها المدينة القديمة والتي تتجلى في زحف المجال المبني على حساب المجال الأخضر ؟

فبعد أن تمت البرهنة في الفقرة السابقة على الإتجاه العام للحرارات نحو الإرتفاع في السنوات الأخيرة، سنعمل الآن على إثبات العلاقة ــ المنتظرة بناء على الأسس العلمية المذكورة ــ بين تقلص المجال الأخضر في المدينة القديمة (أي تزايد المجال المبني) وبين تزايد الحرارات فيها. وقد تم اللجوء لهذا الغرض إلى الوسائل الإحصائية مستخدمين طريقة التعديل بواسطة المربعات الصغرى. وقد كانت النتائج على الشكل التالي :

1) – بالنسبة لعلاقة تطور المساحات المبنية مع المعدل السنوي للحرارات العليا (الرسم 7) تم الحصول في هذا الإطار على معامل ترابط خطي كالتالي $\gamma = 0,53$ وتكتب صيغة مستقيم المطابقة أو التراجع كما يلي :

$$Y = 0,19\ x + .26,26$$

حيث تمثل Y معدل الحرارة السنوي بالدرجات المائوية وحيث تمثل X مجموع المساحات المبنية (العدد الجمعي).

2) – بالنسبة لعلاقة تطور المساحات المبنية مع المعدل الصيفي للحرارات العليا (الرسم 8)، تم الحصول على معامل ترابط خطي يساوي $\gamma = 0,44$

وتكتب صيغة مستقيم التراجع كما يلي :

$$Y = 0,22\ x + 31,55$$

وقد أكدت هذه النتائج وجود علاقة إيجابية بين المعطيين وأن كل زيادة في المساحات المبنية بقيمة هكتار واحد ينعكس على بيئة المدينة بارتفاع الحرارة العليا السنوية بقيمة 0,2 درجات وبارتفاع ملحوظ لدرجات الحرارة العليا الصيفية بقيمة 0,22 درجة تقريبا.

الخــــلاصـــة :

لعل الهدف الأساسي من وراء هذا العرض يتلخص في تلمس تدهور المجال البيئي السوسي عامة ومجال تارودانت خاصة وخطورة هذا الوضع لكون المنطقة منطقة حدودية تدخل في إطار المناطق الحساسة التي يجب على كل الاستراتيجيات ــ التي تهدف إلى محاربة التصحر ــ الانتباه إلى المشاكل التي تعرفها والتي يلعب فيها الإنسان دورا خطيرا بعدم عقلنته لاستغلال معطيات البيئة، وترجيح كفة اختيارات التمدن الضرورية على حساب التوازن البيئي.

المصالح الادارية المعتمد على وثائقها.

ــ القسم التقني، عمالة إقليم تارودانت.

ــ القسم التقني، بلدية مدينة تارودانت.

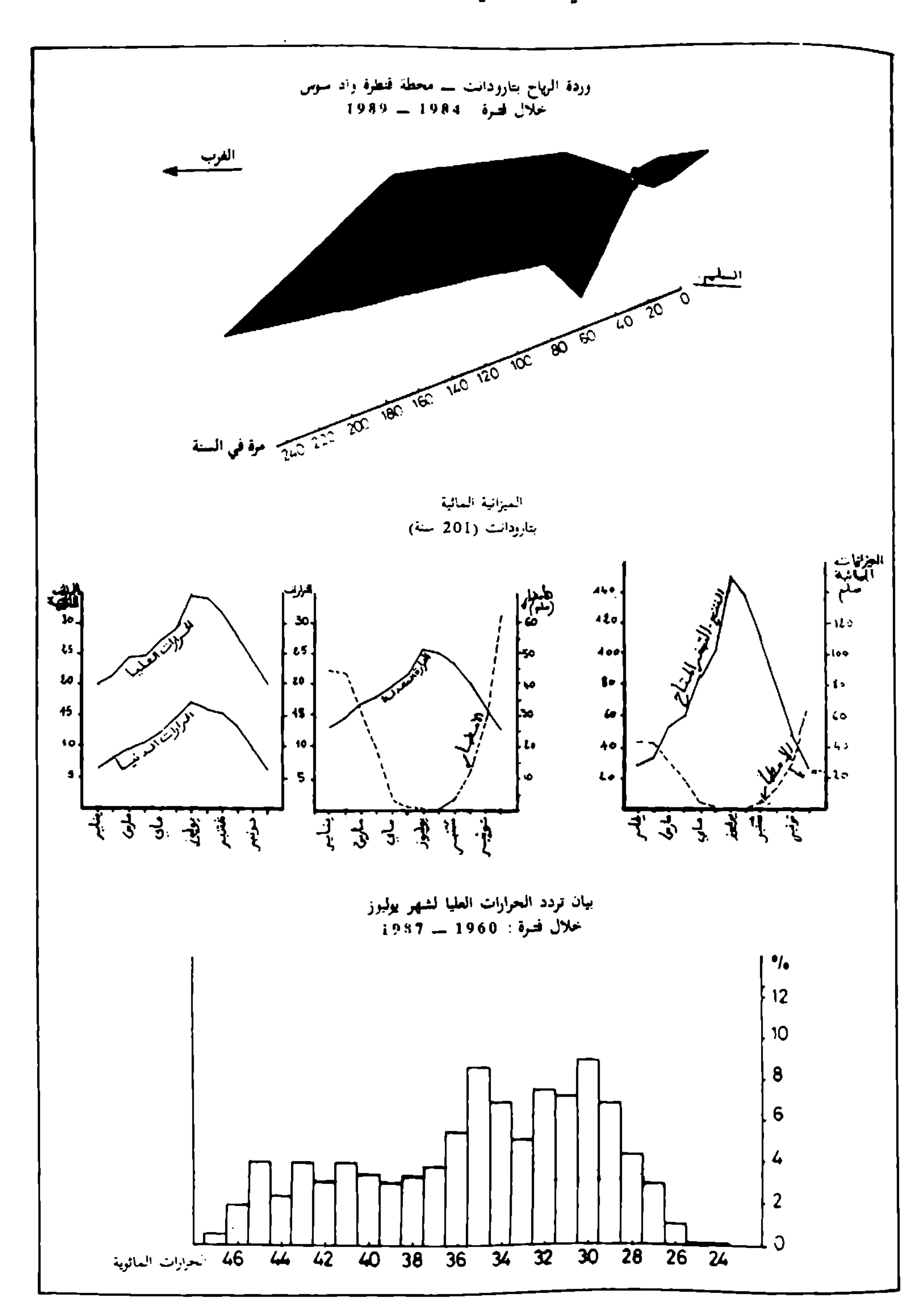
المصــادر.

ــ محمد كسرير، أضواء على تارودانت،معهد محمد الخامس تاروادنت 1970.

- BROUSSE G. et LOUSSERT R. : L'olivier : Techniques agricoles et productions méditerranéennes, G.P. Maisonneuve et Larose, 1978.
- Délégation Provinciale de l'Habitat (Taroudant) : «Evolution spatiale et structures de l'habitat», Juillet 1988.
- Gérard CHAUVAT et Jean REAU : «Statistiques descriptives» Armand Colin, Paris - 1985.
- HNAKA A. Taroudant et Ouled Teïma, Bipole urbain du Souss, Tours, Janvier, 1987.
- JOLY, f. : Notes sur le calcul des indices de THORNTHWAITE. p 5. Notes Marocaines, N° 11/12, 1959.
- O.R.M.V.A. Souss-Massa : Développement hydroagricole de la vallée du Souss, 2ème phase. Plan directeur. S.C.E.T. international, Paris, 1974.

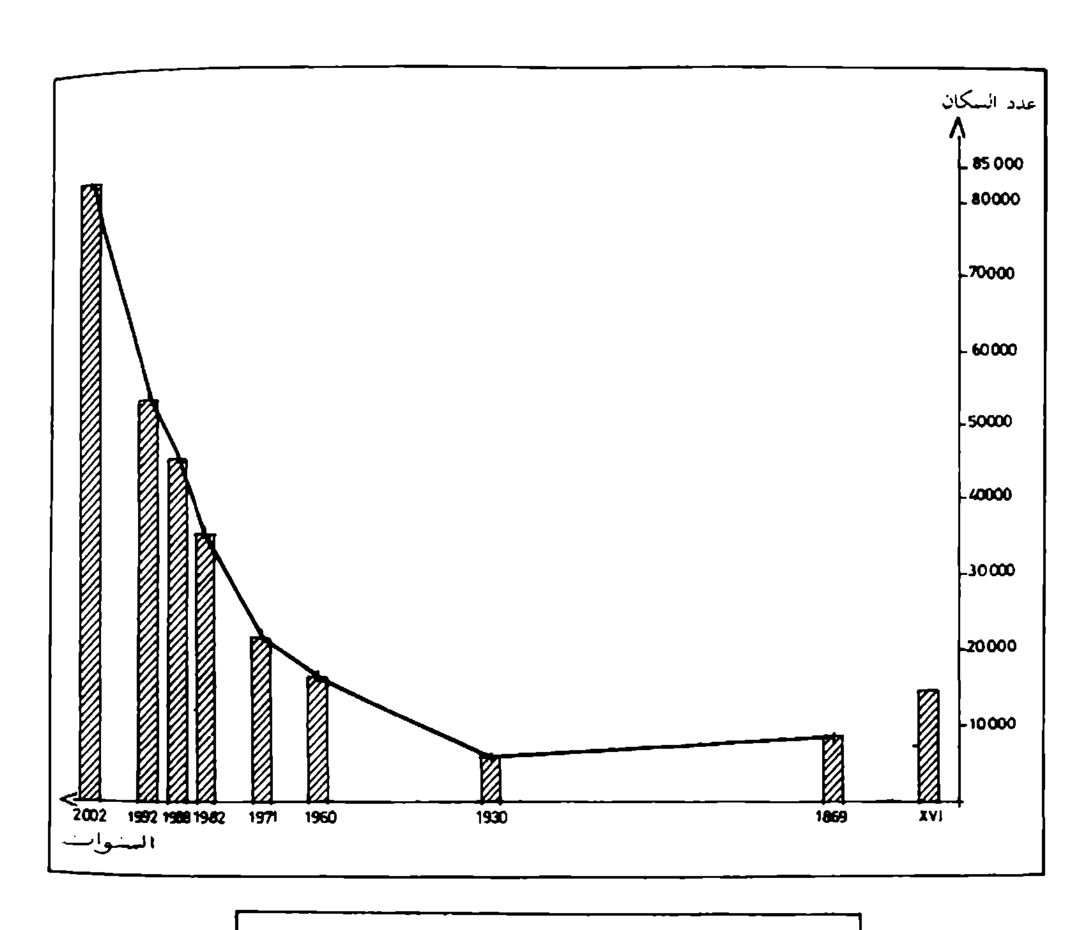
رسـم : 1

معطيـات مناخيـة لمحطـة تارودانـت



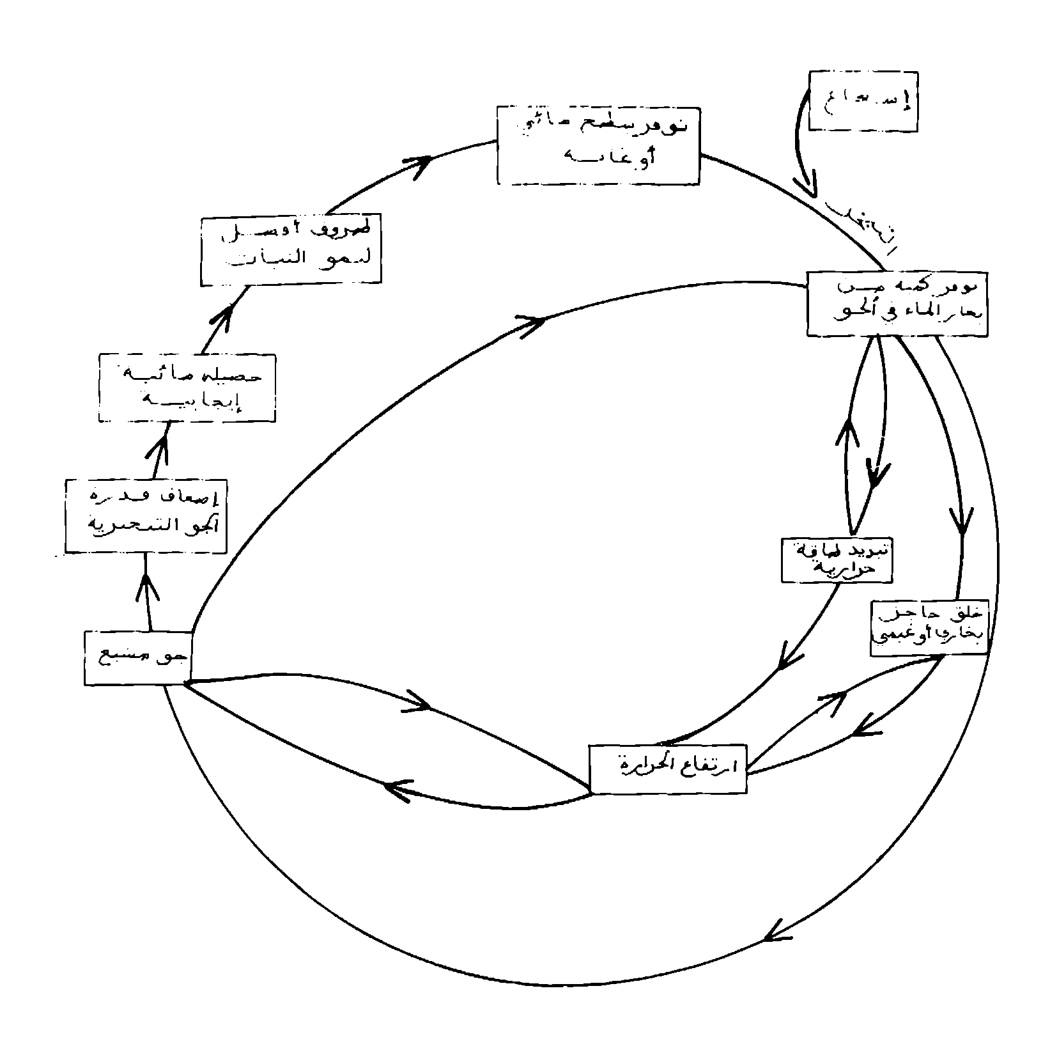
رسـم : 2

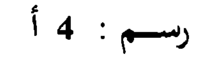
تطور عـدد سكـان تارودانـت



المصدر : مندوبية وزارة السـكنى وإعداد التراب الوطني

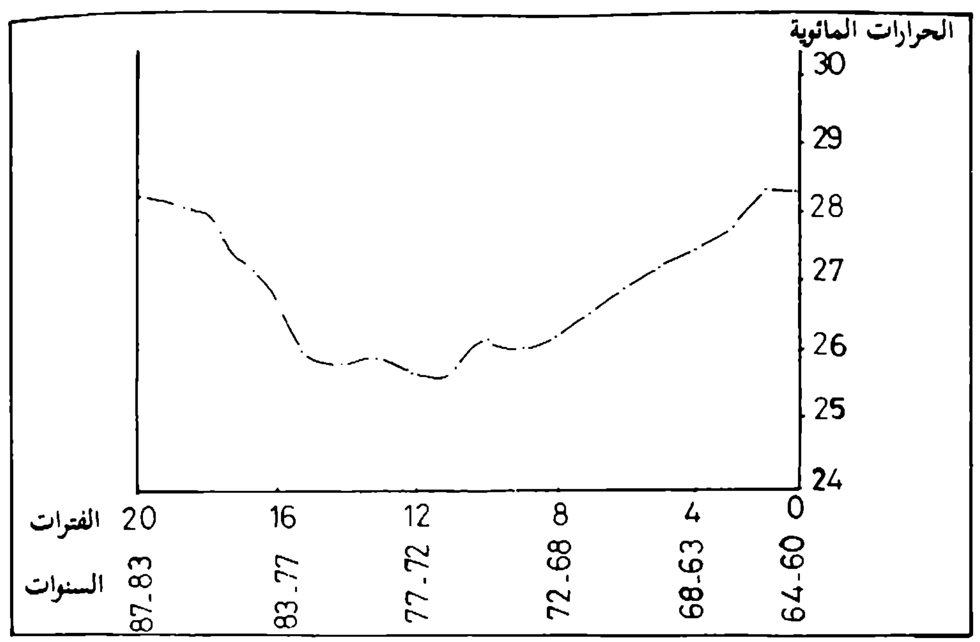
رســم : 3 دورة نموذجية لبعض عناصر الوسط البيئي





رسم : 4 أ بيان تطور الحرارات

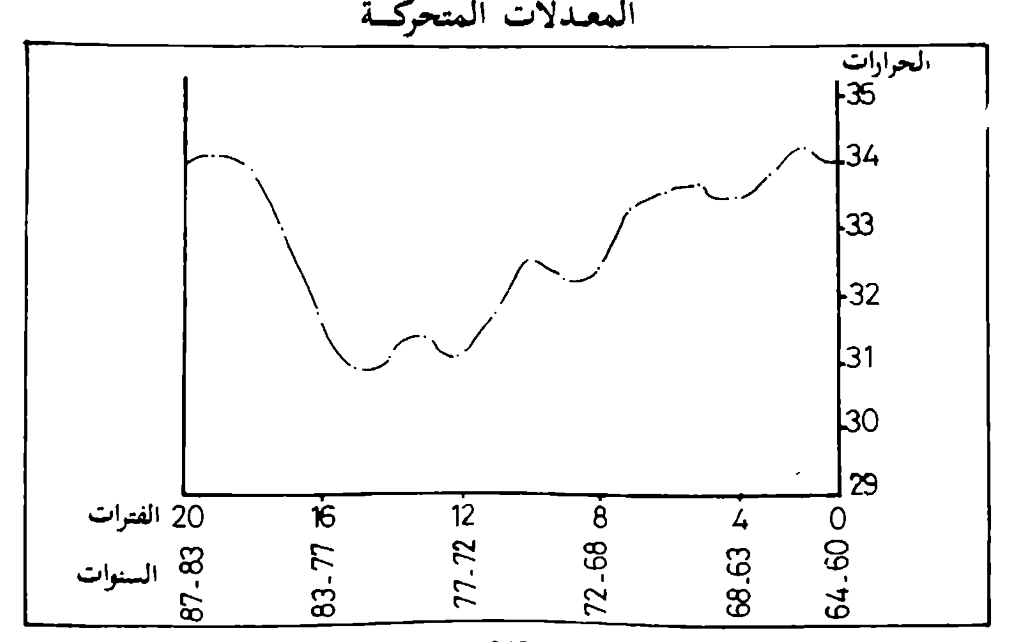
التحرك على مدى خمس سنوات



رسم : 4 ب بيان تطور الحرارات خلال شهور :

يونيو — يوليوز— غشت

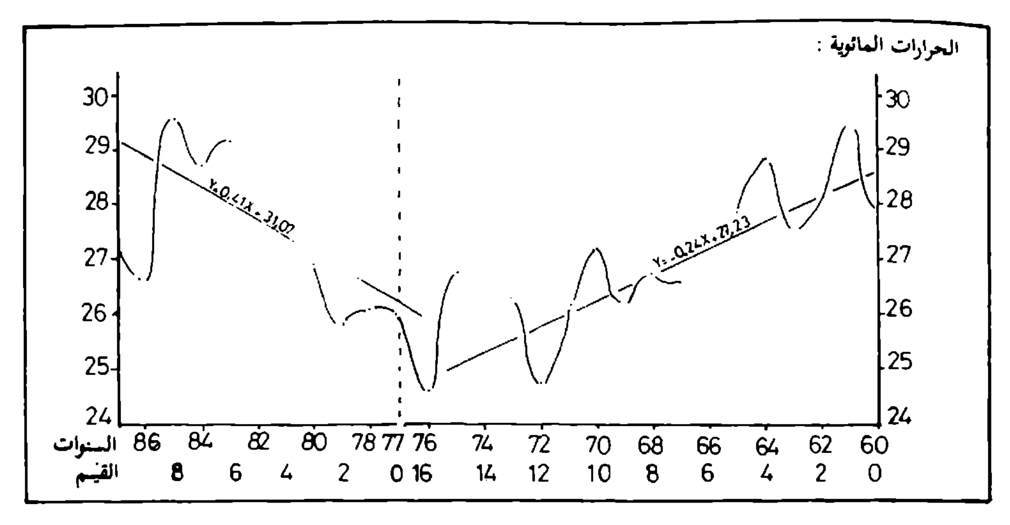
المعدلات المتحركة



رسـم : 5

بيـان تطـور الحرارات لما بين : 1960 ـ 1976

بيـان تطـور الحرارات لما بين : 1977 ـ 1987



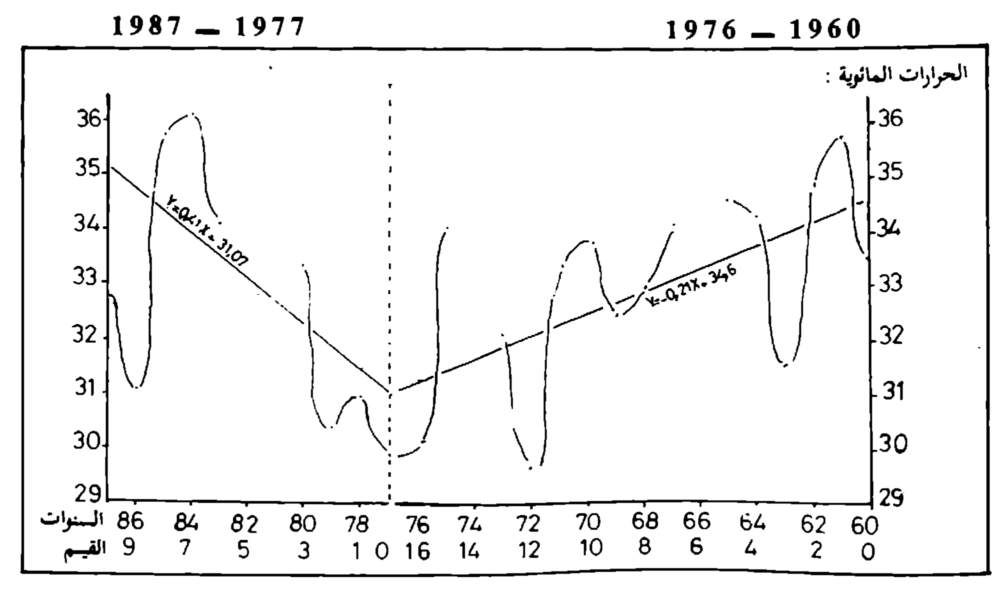
رسـم : 6

بيـان تطـور الحرارات لشهـور :

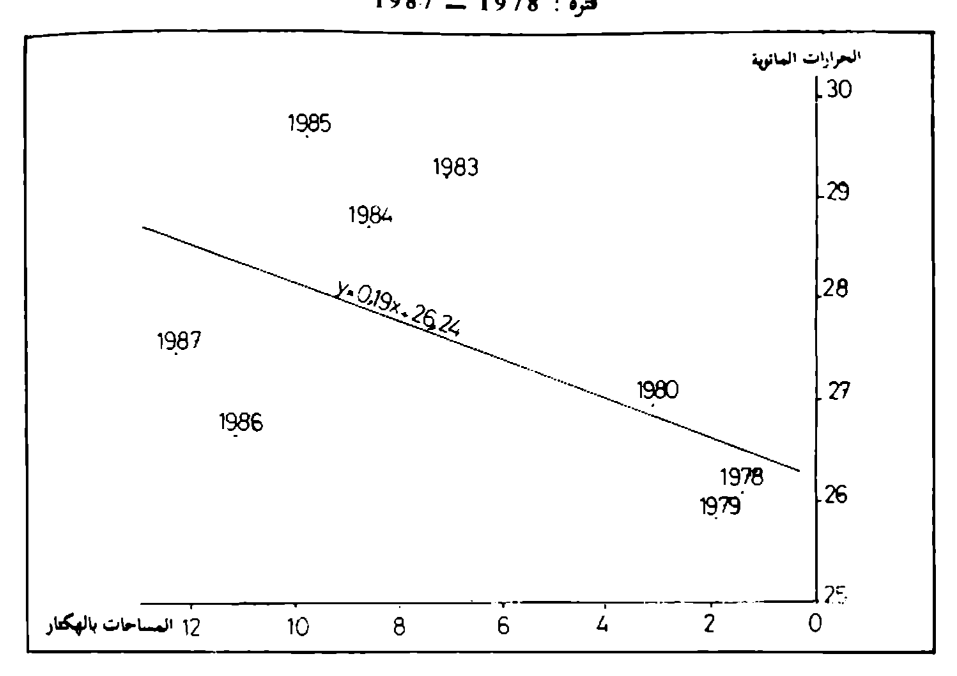
يونيو ـ يوليوز ـ غشت، خلال فترتي :

1960 ـ 1976

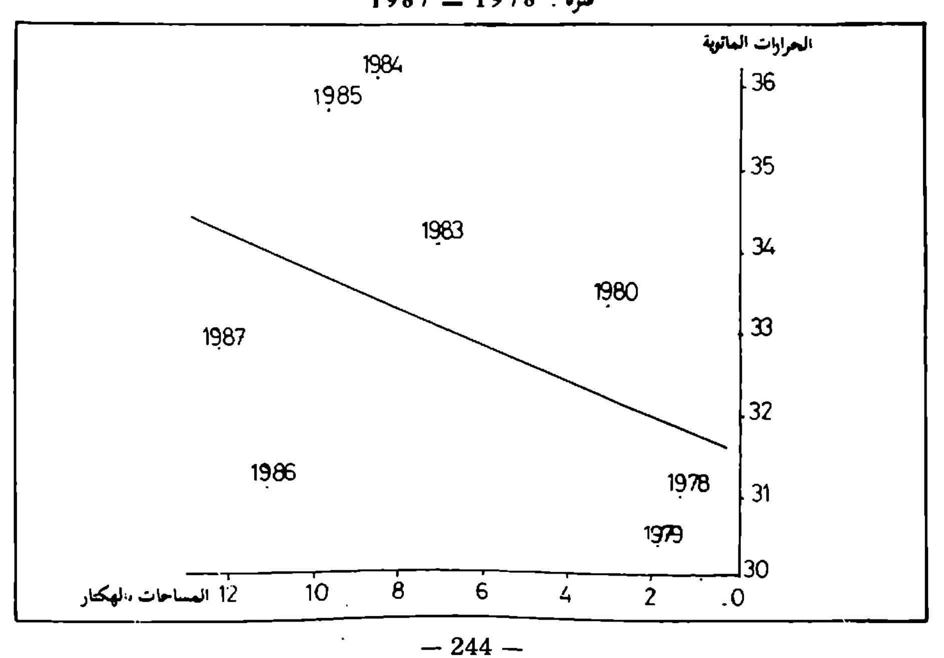
1977 ـ 1987



رسم : 7 بيان يبين العلاقة بين المساحات المبنية بالمدينة
ومعدلات الحرارات السنوية العليا المسجلة في نفس السنة خلال
فترة : 1978 — 1987



رسم : 8 بيان يبين العلاقة بين المساحات المبنية بالمدينة ومعدلات الحرارات
العليا لشهور : يونيو — يوليوز — غشت — المسجلة في نفس السنة خلال
فترة : 1978 — 1987

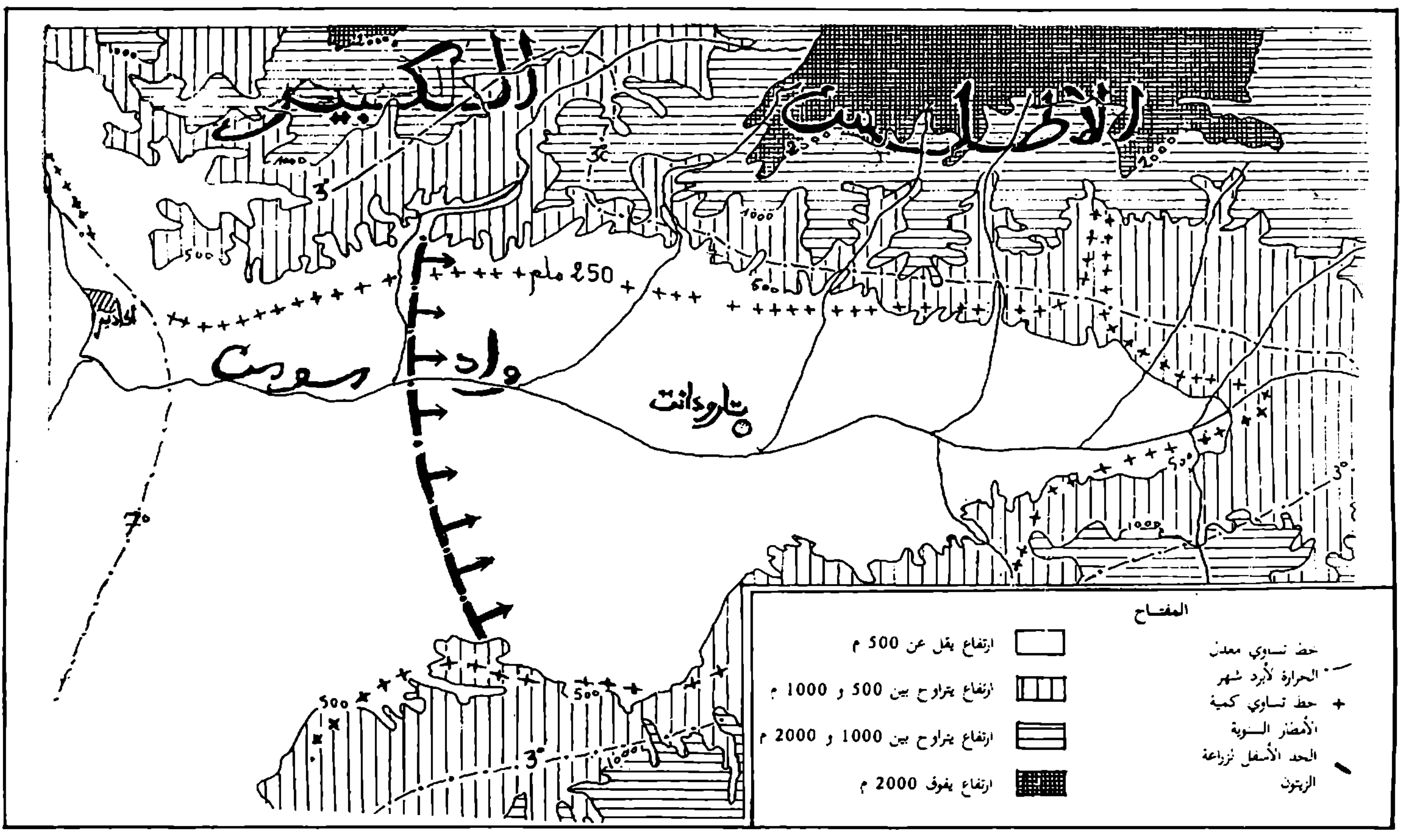


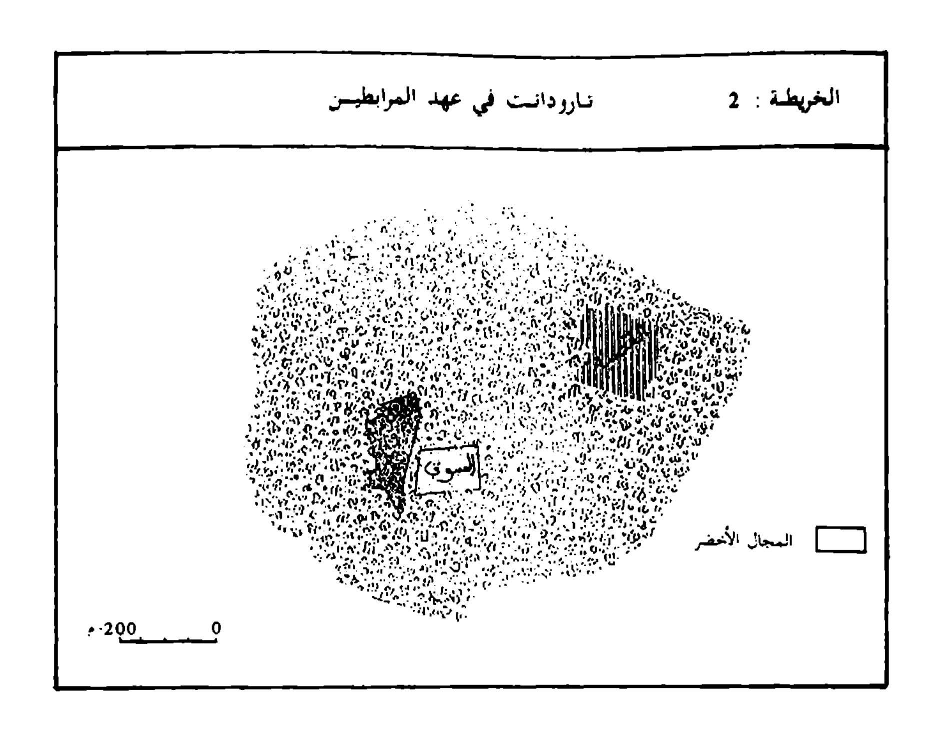
جدول 1 :

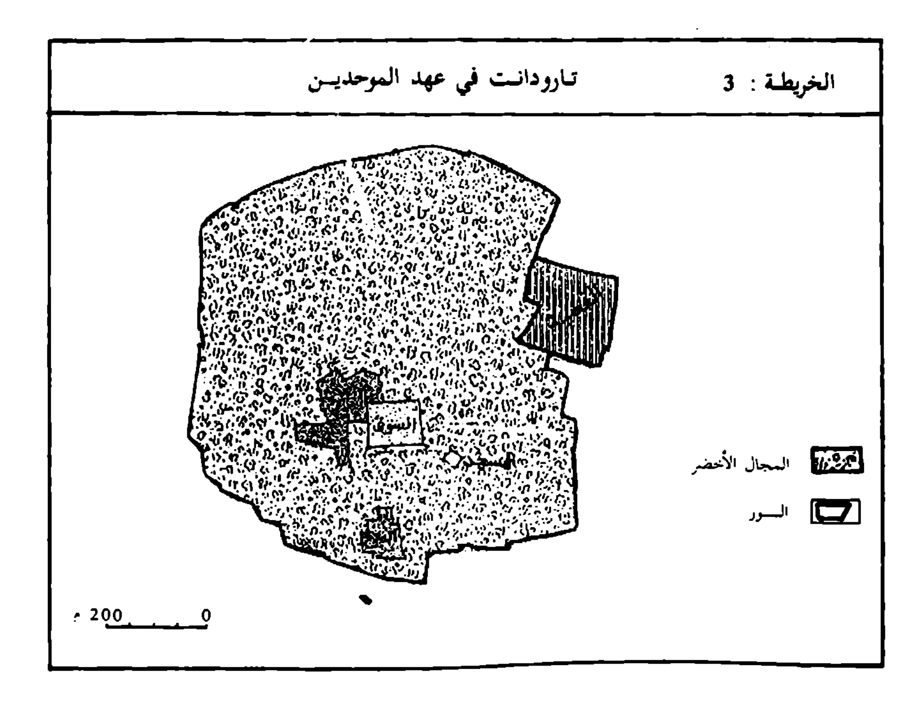
نظرة تقريبية عن تطور المجال المبني بتارودانت

	المساحة المبنية بالهكتار	نسبتها المائوية من مجموع مساحة المدينة	المساحة المضافة خلال الفترة بالهكتار	نسبتها المائوية من مجموع مساحة المدينة
عهد المرابطين	5,6	2,7	–	–
عهد الموحدين	7,9	3,9	2,3	1,1
1900	22	10,8	14,1	6,9
قبل الحماية	32,5	16	10,5	5,2
1950	40	19,6	7,5	3,7
1969	69,6	34,3	29,6	14,6
1978	85	41,8	15,4	7,6
1989	111	4,7	26	12,7

الخريطة : 1 تارودانت في مجالها الطبيعي

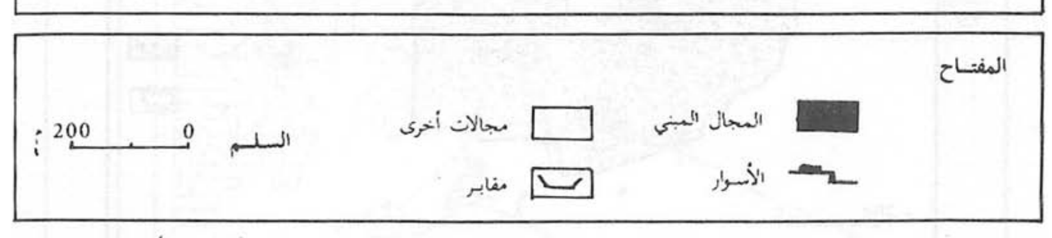



الخريطة : 2
تارودانت في عهد المرابطين
السوق
المجال الأخضر
200 م
0


الخريطة : 3
تارودانت في عهد الموحدين
السوق
المجال الأخضر
السور
200 م
0

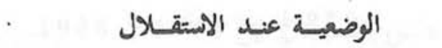
الخريطة : 4 الوضعيـة قبـل الحمايـة

باب أولاد بونونة
باب الخميس
القصبة
درب الشريعة
فرق الحباب
باب ترغونت
اسراك
تلمقلت
درب أقا
الملاح
باب الزرقان



عن أطروحة الأستاذ عثمان هناكا

الخريطة : 5



الوضعية عند الاستقلال

المفتاح

المجال المبني

مجالات أخرى

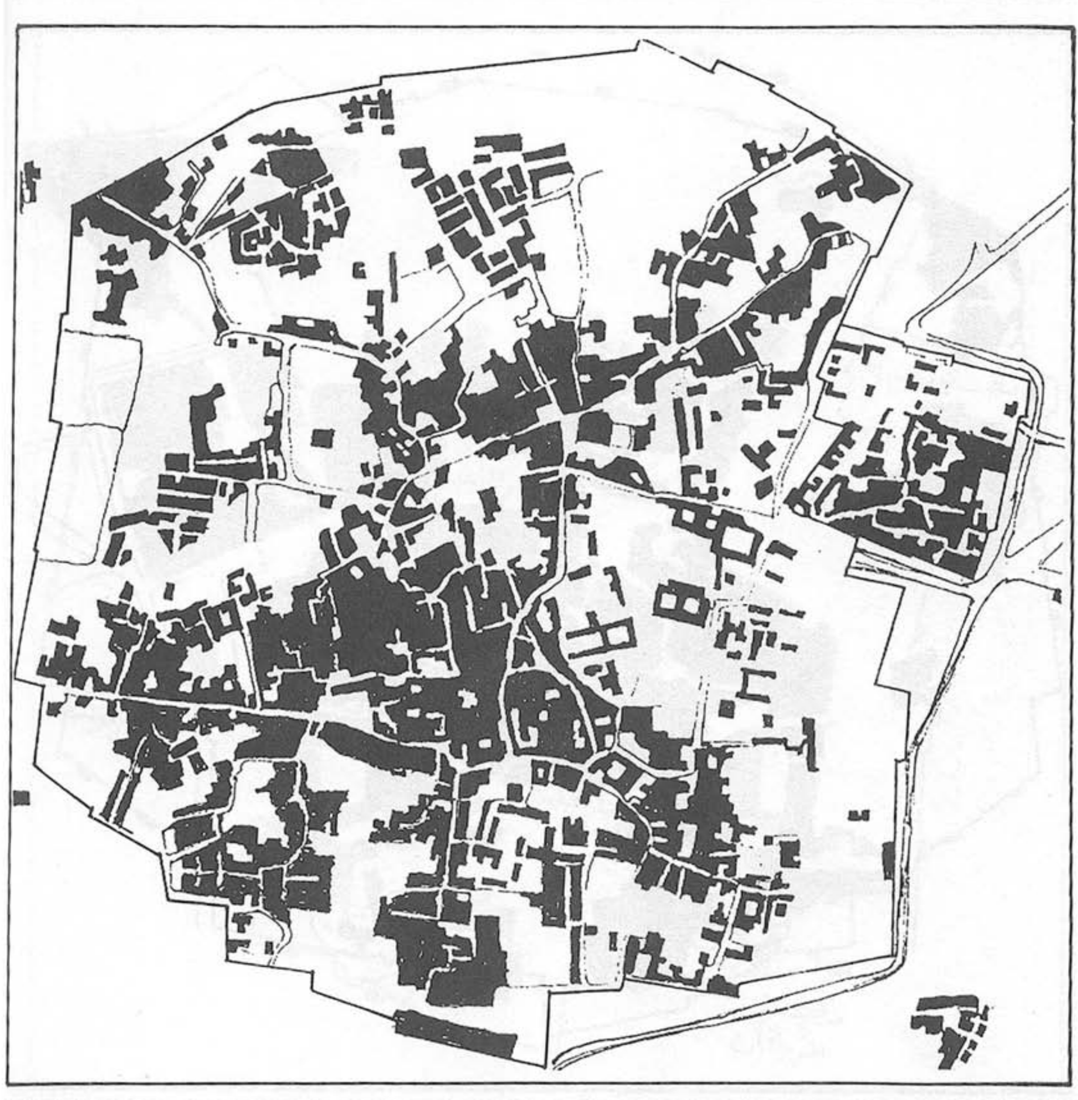
الأسوار

مقابر

السلم 0 200 م

عن أطروحة الأستاذ عثمان هناكا

الخريطة : 6 تارودانت سنة 1978



المفتاح

المجال المبني

مجالات أخرى

الأسوار

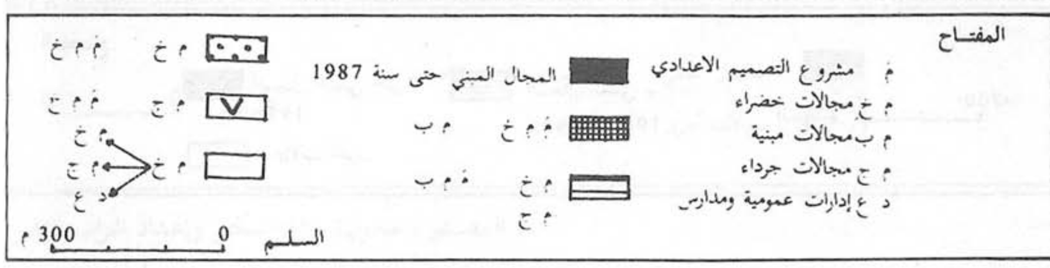
السلم 0 200 م

المصدر : مندوبية وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني

الخريطة : 7 — تطور المجال بين 1978 و 1988



الخريطة : 8 آفاق المستقبل وتماثل التحولات



مساهمة في دراسة أولية
للأعلام الجغرافية بتارودانت

محمد حنداين
ثانوية ابن خلدون
أكادير

لعل البحث الطوبونيمي في المغرب يثير بعض الصعوبات، بعضها متعلق بطبيعة البحث العلمي التاريخي وبوضعيته الحالية، وبعضها الآخر متعلق بجدة هذا النوع من البحث في المغرب.

ورغم ذلك فإن ضرورة البحث العلمي يحتم تجاوز تلك الصعوبات.

وفي ذلك الإطار تكتسب هذه المساهمة مشروعيتها لعاملين أساسيان :

ــ الأول : الوضعية الراهنة لكتابة التاريخ المغربي المتمثلة في محاولة تجاوز «هاجس» الوثائق المكتوبة، والذي ساد منذ عشرين سنة، تأكد خلالها بأن هذه الوثائق ــ على قلتها ومشاكلها ــ لايمكن لها موضوعيا أن تغطي كل جوانب الحياة التاريخية للمجتمع المغربي والذي تغلب عليه الثقافة الشفوية[1].

وفرضت هذه الوضعية بداية طرح تساؤلات حول ضرورة انجاز الكتابة التاريخية المغربية بوسائل أخرى غير الوثائق المكتوبة[2] كالاركيولوجيا، والثقافة الشعبية[3] واللغة الأمازيغية، وأسماء الأعلام onomastique وضمنها «الطوبونيميا» Toponymie والتي حاولنا أن نبين بعض جوانب اهميتها في كتابة التاريخ المغربي.

ــ الثاني : خصوصية «مدينة تارودانت المتمثلة في الأسماء التي تحملها الساحات ــ الأبواب ــ الأزقة ــ الدروب ...» والتي تعبر عن مثاقفة متنوعة وخصبة[4] acculturation إلى الحد الذي يمكن اعتبار المدينة في حد ذاتها «وثيقة تاريخية» متميزة لهذين العاملين مع عوامل أخرى اقترح هذه المساهمة ليس بقصد الاتيان بأشياء جديدة، ولكن بقصد طرح الموضوع للمناقشة ولفت انتباه الباحثين إليه.

1) مسائل منهجية :

1 – حول الطوبونيميا.

1.1 – مفهوم الطوبونيميا.

نشأت «الطوبونيميا» كفرع من فروع علم «الانوماستيك» onomastique الذي يهتم بدراسة أسماء الاعلام، وله فروع متعددة أهمها بالنسبة للمؤرخ هي تلك التي تهتم بدراسة أسماء الأماكن Toponymie والأنهار Hydronymie والأشخاص Anthroponymie وكل هذه المصطلحات هي ذات أصل إغريقي.

ظهرت «الطوبونيميا» كعلم في أوروبا في نهاية القرن 19 بعدما حصل تقدم علمي في اللسانيات التاريخية، التي تعتبر إحدى الوسائل الأساسية «للبحث الطوبونيمي». وعرف هذا العلم تقدما أوليا في كل من فرنسا وألمانيا، لتأثرهما بثقافات شعوب قديمة كالغاليين GAULOIS الذين تركوا أسماء للأنهار وللأماكن في كل من فرنسا ووسط أوروبا، لم تكن مفهومة إلا بعد الرجوع الى اللغة السلتية Seltique التي مايزال يتحدث بها في كل من ايرلندا وبلاد الغال[5].

وفي هذا الإطار ظهر أول بحث علمي طوبونيمي سنة 1860 للباحث الفرنسي H. D'Arbois de Jubainville حول أسماء القرى الفرنسية ذات الأصل الغالي الجرماني والجرماني الروماني ثم بعده جاء بالطوبونيميا الفرنسية Auguste longnon الذي كان يعطي الدروس حول أسماء الأماكن بفرنسا في معهد الدراسات العليا وكوليج دو فرانس ونشرت هذه الدروس سنة 1920، وبعد ذلك أصدر Belge Auguste المجلة العالمية للانوماستيك (Revue Internationale d'onomastique).

2.1 – تقنيات العمل الطوبونيمي :

لدراسة طوبونيميا منطقة معينة، أو بلد معين، يستوجب من الباحث أن يكون عارفا معرفة حقيقية بـ :

- المراحل التاريخية الكبرى لتلك المنطقة.
- معرفة حقيقية للغات الشعوب العابرة أو القاطنة.
- التمكن من المبادىء الأساسية للقواعد اللسانية.

— استحضار معلمة أسماء الاعلام الطبوغرافية لكل فترة تاريخية.
— استحضار القاموس الايتمولوجي للأسماء Dictionnaire Etymologique.
— الحذر العلمي في النتائج.

ينشأ الإسم بطريقة بسيطة عفوية من طرف فرد أو جماعة ضغط (كما هو الشأن بالنسبة للآباء على الأبناء)، وقد تكون له خلفيات ايديولوجية، لكنه في جميع الحالات يعبر ويلخص اهتمامات الناس في فترة معينة، وينتقل هذا الإسم من جيل الى آخر، ويتعرض خلال مسيرته لتعريف مستمر خاصة إذا حدثت عدة عوامل كالتدخل الأجنبي في المنطقة، فيحدث إما موت الاسم أو تحريفه (فـ «يكورتن» أصبح — «يوغرطا»)[6]، كما تقع نفس الحالات عند الاختلاف الفونوتيقي «فأنزك — آن» أصبحت إنزكان[7]نكررها ولا نعرف معناها، كما أن «تطاون» أصبحت تطوان[8]. لم يحدث هذا التحريف في المغرب وحده، بل نجده في كل بلدان البحر المتوسط، فنجد في إيطاليا مدنية ميلانو Milano حرفت من الاسم الجرماني Medialanum[9]، وفي فرنسا حرفت مدينة Oblanc من الإسم الجرماني .Oblincun

إزاء هذه الوضعية المعقدة يتعين على الباحث الطوبونيمي أن يرصد بكثير من التأني التغيرات التي تطرأ على الاسم بفعل الموجات البشرية التي مرت بالمنطقة، لمحاولة رده الى أصله، ووضعه في سياق اللغة التي انتجته لكيون ذا مضامين اجتماعية ثقافية تاريخية، يقدم لنا في نهاية المطاف معلومات في غاية الأهمية لا تجود بها الوثائق المكتوبة، إن وجدت.

2 – ببليوغرافية نقدية أولية :

1.2 – طوبونيميا الفترة الإستعمارية.

ظهرت أول دراسة في هذا المجال حول شمال إفريقيا سنة 1897 وهي لـ Mercier Gustave حول جبال الأوراس[10]، وبالنسبة للمغرب نجد في العشرينات من هذا القرن «شذرات» طوبونيمية عند الباحثين المهتمين بدارسة القرى المغربية كأبحاث Robert Montagne و G. Justinard.إلا أن المهتم الرئيسي بالطوبونيميا في المغرب هو Emile Laoust بدأ بإصدار كتاب قريب الى الطوبونيميا[11]سنة 1920. وبعد 22 سنة من ذلك ظهر أول كتاب حول الطوبونيميا المغربية حول الأطلس الكبير[12]، والباحث معروف في أبحاثه بالاتجاه اللساني، لذلك يمكن ملاحظة طغيان التحليل اللساني على حساب الجوانب الأخرى في كتابه هذا، كما أنه يتسرع في التأويل الشيء الذي يبعد بعض استنتاجاته عن الحذر العلمي في هذا المجال، لكنه رغم ذلك يبقى كتابه هو السياق لطرق هذا الموضوع.

منذ 1942 لم نعد نجد أبحاثا تهتم بهذا الميدان، لانشغال الناس بالحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب لم تكن الأوضاع الامنية تشجع الباحثين للقيام بمثل هذه الابحاث الميدانية.

كانت إذن حصيلة أبحاث الفترة الإستعمارية في هذا الميدان نادرة جدا إذا ما قورنت بالأبحاث التي أجريت في مجالات أخرى.

2.2 - الطوبونيميا المغربية :

مباشرة بعد حصول المغرب على الاستقلال، سادت لدى المؤرخين المغاربة ــ ولازالت ــ فكرة تحرير التاريخ من الالغام الإستعمارية[13]، فبينما يقلل التأليف التاريخي لمدرسة الفترة الاستعمارية من أهمية الوثائق المكتوبة والرسمية بهدف طمس معالم «الدولة المغربية المخزنية» يحاول «التأليف التاريخي الوطني» إلى حد الآن التركيز على وجود هذه الوثائق[14].

فظلت فكرة ارتباط التاريخ بالوثائق المكتوبة هي السائدة الى الآن[15]وعليه ظل التأليف الطوبونيمي منعدما، ما عادا شذرات عرضية نجدها في كتابات المختار السوسي في المعسول وخلال جزولة... حيث يستعرض بعض الكلمات محاولا إعطائها تفسيرا وأصلا دون أن يرتكز على أسس علمية لسانية أو تاريخية، لكنه يعطي الإنطباع بأن هذا العلم يجب أن يهتم به في التاريخ.

علينا أن ننتظر حتى نهاية السبعينات من هذا القرن لنجد مشروع عبد العزيز بنعبدالله حول الإعلام البشرية والحضارية[16]، ونظرا لطبيعة المشروع الموسع نلاحظ أنه لا يرقي الى معلمة حقيقية لأسماء الأماكن Toponymie حيث يكتفي بالصبغة الإستعراضية دون البحث عن أصل الإسم وجذوره التاريخية إلا فيما نذر، لكنه يعطي توجيها ببليوغرافيا مساعدا. وفي نفس السنة كتب الأستاذ محمد شفيق مقالا حول أسماء الأماكن في المغرب، أكد فيه في البداية على أهمية علم أسماء الأماكن بالنسبة للجغرافيين والمؤرخين، ثم قام بجدول ضمنه أهم المصطلحات الجغرافية التي تتكرر باستمرار كأزغار، وأدرار، ثم أصل بعض المدن كمزكان، وأسفي[17]...

في الثمانينات بدأ اهتمام بعض المؤرخين يتجه نحو مثل هذه الدراسات كأحمد توفيق[18] وعلي صدقي[19].

واضح إذن من خلال هذا الاستعراض، أن حصيلة الدراسات حول أسماء الأماكن المغربية ماتزال دون المستوى الذي سيتعذر معه تطوير الكتابة التاريخية المغربية.

3 - الجذور الثقافية لطوبونيميا تارودانت :

إن أسماء الأماكن والاعلام تكون بالضرورة ناتجة عن وضعية بشرية / ثقافية سائدة في تلك المنطقة، حيث تكون تلك الأسماء جزءا من انتاجها داخل ثقافة معينة، تفرضها فئة اجتماعية ضاغطة. وعليه فإن دراسة هذه الأسماء سوف لا تقدم لنا معلومات تاريخية أو جغرافية فحسب، بل ستفيدنا أيضا في دراسة نوعية الثقافة السائدة، وكذلك اهتمامات السكان في فترة معينة من تاريخهم[20]، وعن «طبقات ثقافية» ماضية أو في صراع رمزي مستمر.

1.3 - الثقافة الأمازيغية :

من المؤكد أن منطقة سوس عرفت تعميرا جد عريق. في هذا الصدد يتحدث المؤرخ الروماني Salluste عن قبيلة Jetules التي تستقر في الجنوب المغربي، ليأتي البكري في القرن الثاني الميلادي ليؤكد أن نفس القبيلة «جزولة»[21] تسكن ما بين واد سوس وواد نون[22].

عموما فإن منطقة تارودانت كانت مسكونة منذ القديم، وينتج سكانها أسماء أعلامها وأماكنها تبعا لنمط حياتهم الذي تغلب عليه الزراعة والرعي المستقر، وتبعا لوضعيتهم السوسيو ثقافية، لذلك فإن جل أسماء الأماكن في المنطقة نجدها ذات أصل أمازيغي واضح[23].

2.3 -الثقافة العربية :

اتجه قسم من عرب بني هلال ما بين 1130 و 1160 م وهم عرب بني معقل، نحو سوس وتارودانت، واستوطنت قبائل الشراردة والمنابهة وأولاد يحيا، الأراضي المحيطة بمدينة تارودانت[24]، فعند استقرارهم وقع هناك «انصهار ثقافي» أثر على طوبونيميا تارودانت بشكل ملحوظ، يتبين من خلال بعض الأسماء كالباب والدرب، والقصبة وغيرها.

وفي القرن 16 اتجهت عناصر من الأندلس الى تارودانت للاستقرار بها، وأثروا بشكل محدود على ثقافة تارودانت وهناك عناصر أخرى كاليهود والعبيد لكن هذه العناصر الأخيرة قد لا يكون لها تأثير واسع، لتبقى الثقافة الأمازيغية /العربية هي السائدة. بهذه التشكيلات الثقافية المتنوعة، ستتشكل عليها كل أسماء الاعلام والأماكن لتارودانت ومنطقتها، يتعين وضعها في إطار اللغة التي انتجتها.

4 – طوبونيميا تارودانت (محاولة في التفسير)

1.4 – تارودانت : جل المراجع التي تتحدث عن تارودانت تحاول أن تجد لها تفسيرا، فهناك حكايتان مشهورتان في سوس حول الإسم[25]، بل هناك من ربطه بالثقافة الرومانية وصار بحكم الاستعمال مشابها للألفاظ الأمازيغية.

اعتقد أن اللسانيات التاريخية واللسانيات المقارنة هي التي ستقدم كثيرا هذا البحث، واقترح فرضيتين اِعتبرتهما مؤقتتين الى حين تقدم البحث العلمي في هذا المجال.

– الأولـى :

إن تارودانت إسم محرف عن إسم «تاغودانت» وهو نوع من التين باللغة الأمازيغية «لهجة تاريفت» ويسمى بتشلحيت «تالغودانت» فإذا تحقق لدينا هذا الاسم، فيمكن أن يصبح «الغاء» «راء» في اللغة الأمازيغية أو العكس. ففي المنطقة التي نحن بصددها بالذات ما يؤكد هذا.

نجد قريبا من تارودانت في الأطلس الكبير منطقة «ايداوزداغ» والتي تحولت من «ايداوزدار»[26]وتعني أهل المنطقة السفلى، مما يؤكد إمكانية حدوث هذا التحوير في إسم تارودانت.

أما بخصوص إمكانية إطلاق اسم التين على هذه المنطقة فالدلائل المقارنة كثيرة جدا في المنطقة المحيطة بتارودانت. فنجد «تازارت» وهو التين، إسم عزيب في قبيلة أيت أوزكيد، ويوجد «إغزر نتازارين» في قبلية أيت سمك، «ودار وزارن» في تفنوت وكل هذه المناطق في الأطلس الكبير، قريبة من مجال تارودانت. ولما كان سكان المنطقة ألفوا إطلاق هذا الإسم على الأماكن[27]، ولما كان التين من ذلك النوع الكثير، فلا يستبعد أن يكون لأسم تارودانت صلة بهذا النوع من التين.

– الثـانيـة :

وهي أن تارودانت : «قد تكون لها صلة بما يسمى في المنطقة «دارودان» وتعني بالأمازيغية «الحاجز» وبما أن المدينة محاطة بالسور أطلق عليها اسم «تارودانت» وهي مؤنث لـ «دارودان» وبالتالي فإن إسم «تارودانت» قد يكون له معنى المدينة المسورة[28].

2.4 – **بـاب تاروغونت** : كان هذا الباب يسمى باب الغزو، كتعبير عن الصراع حول المدينة بين المرابطين والموحدين، ثم أصبح يسمى باب تاروغونت، وحسب بعض

المصادر فإن الإسم هو إسم أميرة مرابطية، والإسم بني على الصيغة الأمازيغية، وقد تكون له علاقة «بتالغومت» «الناقة»، ولكن ما أصبح شبه مؤكد لدينا هو أن الإسم له علاقة بالصحراء حيث نجد نفس الإسم.

3.4 – **باب أولاد بنونة** : لقد سبق أن أشرنا إلى أن عناصر أندلسية انتقلت الى تارودانت، فأولاد بنونة هي أسرة أندلسية[29]قدمت إلى المنطقة في القرن 16، **فأصبح إسمها يطلق على هذا الباب لأسباب متعددة لا يمكن تحديدها الآن.**

4.4 – **باب الزركان** : هناك عدة تفسيرات، فالبعض يذهب إلى أن هذا الإسم له صلة ما بقبيلة صحراوية مرابطية تسكن المنطقة، والبعض الآخر يسميه الزرقان وهو نوع من الطير، إلا أن الأصل المستساغ للإسم هو أن «الزركان» كلمة أمازيغية أتت على الصيغة العربية.

فإزركان، ج. أزرك معناه الطاحونة، وهناك معطيات تؤكد هذه الفرضية كوجود معاصير للزيوت في المنطقة، ويتكرر هذا الإسم في المغرب كثيرا، فمرزكان MAZAGAN والإسم ينقسم الى كلمتين هي : صاحبة إزركان : المطاحن، وهو تعبير عن مكان لمصنع المطاحن[30].

5.4 – أساراك Assarag، إسراكين Issaraguen كلمة أمازيغية تعني الساحة. يستعمل «اسراك» الآن للدلالة على وسط المنزل ويقابله في الدارجة المغربية «المراح»، ويمكن لهذا الإسم أن يقدم معلومات عن ذهنية السكان حول المعمار الحضري.

6.4 – مراح البقر، كلمة عربية وهو مكان خاص بالحيوانات مما يؤكد بأن المدينة تقطنها نسبة مهمة من المزارعين، كما أن وجوده بذلك الشكل يدل على أن السكان يمارسون رعيا جماعيا عن طريق ما يسمى «بالنوبة» أو «توالا».

7.4 – تسوكت غزيفين: تسوكت Tassoukt معناها ممر أو «زنقة» مذكر اسكا Assaka ويتكرر هذا الإسم الجغرافي في أسماء الاعلام المغربية ومعناه الممر، غزيفين : طويلة.

8.4 – درب أندلس، نسبة الى الأندلس كتعبير عن وجود تلك العناصر التي ذكرناها سابقا.

– **استنتاج :**

من خلال كل ما سبق يمكن أن نخرج بعدة استنتاجات بعضها متعلق بالمنهج وبعضها متعلق بالموضوع.

بخصوص المنهج : خلال استعمالنا للطوبونيميا يظهر مدى :

– ضعف البحث الطبونيمي في المغرب.

– أهمية الطوبونيميا في دراسة المجتمع المغربي ومجتمعات شمال إفريقيا عموما.

– ضرورة توسيع مفهوم الوثيقة لفهم المجتمع المغربي فهما متنوعا.

– ضرورة التفكير الجدي في تطوير وسائل البحث التاريخي والاجتماعي المغربي بما يقتضي العناية الجدية بالدراسات اللسانية والأمازيغية بالخصوص.

بخصوص الموضوع : تبين من خلال دراستنا الأولية للمدينة ما يلي :

– ضخامة الإرث التاريخي والثقافي والحضاري للمدينة.

– ضرورة الإهتمام بالمدينة في مجال البحث العلمي لتحقيق تراكم «بحثي» يكون في مستوى المدينة التاريخي.

– ضرورة التفكير في المحافظة على هذا الإرث الحضاري الإنساني وصيانته بإنشاء متحف وطني بالمدينة.

الهـــوامـــش

(1) صدقي علي : مساهمة في التعريف بمخطوط «رحلة الوافد...» مجلة كلية الآداب ــ الرباط عدد 13 1988 ــ ص 274.

(2) L. Febure : «Vers une autre histoire» Revue métaphysique et morale, 54 ème année N° 3. 4 Juillet, Octobre 1949 p. : 235.

(3) انظر مقالنا «التاريخ والثقافة الشعبية» البيان الثقافي عدد 4 – 1988.

(4) هناك مدن أخرى لها نفس الخصوصية كتزنيت، ومراكش، وقد تكون هناك مدن أخرى في المغرب أو في شمال إفريقيا.

(5) Paul Lebel : Onomastique. in histoire et ses méthodes, sous la direction de Charles Somaron 1961. p. 678

(6) ثائر أمازيغي في شمال إفريقيا ضد الأمبراطورية الرومانية حوالي 105 ق م أصبح هذا الثائر معروفا لدى الرومانيين «بيوغرطا» الذي هو تحريف لاسم إمازيغي «يوكرثن» ويعني بالأمازيغية «كبيرهم» أو «كبير القوم» انظر ع. العروي مجمل تاريخ المغرب.

(7) مدينة انزكان محرفة من كلمتين أنزك ومعناه بالأمازيغية تل أو ربوة وآن، معناه ذاك. (ذاك التل) وموضع المدينة يوجد فعلا فوق ربوة يمثل قمتها ضريح سيدي الحاج مبارك.

(8) تعرف مدينة تطوان أصلا بتطاون وهي مجمع تط. Tétt وهي العين بالأمازيغية وتطاون معناها العيون. ويتوافق هذا الاسم مع الوظيفة الأصلية لتأسيس المدينة وهي مراقبة العدو.

(9) .Paul lebel. op. cit. p. 685

(10) Gustave Mercier : Etude sur la toponymic de l'Aurés Actes de X ème Gongrés international des orientalistes. Paris 1897

(11) Emile Laoust : Mots et choses bérbéres, Paris 1920

(12) .Emile Laoust : Contribution à une étude de la toponymie du Haut Atlas Paris 1942

(13) Germain Ayache : Etudes d'histoire marocaine éd. S. M. E. R. p. 1983.

(14) Op. cit. p. 63—

(15) نجد في الكتب المدرسية سيادة هذه الفكرة الى الحد الذي يجعل التلاميذ يربطون التاريخ بالنصوص المكتوبة.

(16) عبد العزيز بن عبد الله معلمة المدن والقبائل ط. 1977.

(17) محمد شفيق : أسماء الأماكن في المغرب جلها أمازيغية ــ مجلة البحث العلمي عدد 27 ــ 1977.

(18) لم أتمكن من الحصول على بحث الأستاذ أحمد توفيق حول الاعلام.

(19) SADKI ALi : l'interprétation généralogique de l'histoire nord-africain pourrait-elle être depassée. Hespéris vol. XXV 1987. p. 127.

(20) ساحة الحرية في باريس تعبير عن ثقافة بورجوازية تختلف عن ساحة المتنبي في بغداد وهي تعبير عن فكر قومي عربي.

(21) فيما يخص أصل الكلمة « جزولة» انظر مقال صدقي على المشار أعلاه.

(22) أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر افريقيا والمغرب ص 175.

(23) في اللغة الأمازيغية جل الكلمات التي تبدأ بالتاء. مؤنثة، تمغارت مثلا والتي تبدأ باللألف ، أمغار، مذكرة ونجدها تتكرر في أسماء الاعلام المغربية بكثرة. أسرير — تسريرت، أورير — توريرت.

(24) عمر أفا : مسألة النقود في تاريخ المغرب في ق 19 سوس (1822 - 1906). منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير مطبعة النجاح الجديدة 1988)

(25) الحكاية 1 – بينما كانت إحدى النساء تغسل ملابسها قرب الواد (واد الوعر) فإذا بأبنائها انجرفوا مع تيار النهر السريع فأخذت تصيح تروا دان. معناه الحرفي : الأولاد ذهبوا؟

الحكاية 2 – بينما كان أحد الرعاة يراقب شاة لتضع حملها اختفى القطيع عن الأنظار، وفجأة رب القطيع، وأخذ الراعي يكرر اترو دانت ترو دانت. معناه ولدت الشاة وذهب القطيع .

(26) Emile Laoust : op. cit. p. 80 et suivant.

(27) op. cit. p. 85.

(28) الرواية الشفوية.

(29) عمر أفا المصدر السابق ص 73.

(30) محمد شفيق المصدر السابق ص 240.

أسواق «منطقة» تارودانت :
بعض الملاحظات الأولية

عبد القـادر محاين
المركـز التربـوي الجهـوي
إنزڭان

تعتبر ظاهرة الأسواق الأسبوعية موضوعا غنيا للدراسة، لكون السوق الأسبوعي يعتبر عنصرا أساسيا وحيا في فهم العالم القروي المغربي، سيما وأنه يشكل مناسبة متكررة كل أسبوع، يلتقي خلالها سكان قرى متعددة لقضاء حاجيات مختلفة من بيع وشراء وتبادل الأخبار ومداوات... إلخ.

وتكتسي الأسواق الأسبوعية في الغالب نفس الطابع، وإن اختلفت مواقعها، لكن مع ذلك لكل سوق طابعه المميز ومظهره الخاص، يميزه عن باقي الأسواق تبعا للمناطق وتبعا للنشاط الإقتصادي لكل منطقة ويعكس كل سوق أسبوعي بالتالي حياة قروية متميزة، وبناء على ذلك يمكن أن تساهم دراسة هذه الأسواق في فهم جزء هام من حياة الريف المغربي الذي ما فتىء يعرف تحولات عميقة في كل بنياته وهياكله.

1 - إطـــار الدراســـة :

تشمل هذه الدراسة كل الأسواق الموجودة بالمناطق المحيطة بمدينة تارودانت من مرتفعات أوْلِيمْ وتِشْكَا شمالا، مرورا بممر تيزي ـــ ن ـــ تاست في الشمال الشرقي، وبجبل سروى في الشمال الشرقي وبمركز إغرم في الجنوب الشرقي وصولا الى مدينة أولاد تايمة غرب مدينة تارودانت. ويتعلق الأمر هنا بمجال يغلب عليه الطابع الجبلي (مرتفعات جبال الأطلس الكبير شمالا والنهاية الشمالية الشرقية للأطلس الصغير) إضافة إلى جزء سهلي يتمثل في عالية سهل سوس شرق مدينة تارودانت وجزء من سافلته يمتد غرب المدينة الى مدينة أولاد تايمة.

من الناحية الإقتصادية، يلاحظ تناقض واضح بين المناطق الجبلية من جهة وبين المناطق السهلية من جهة ثانية، ففي الوقت الذي تعيش فيه كل المناطق الجبلية اقتصاداً رعويا في الغالب والمتمثل في بعض قطعان الغنم والماعز وبعض رؤوس الأبقار والتي تجوب مختلف السفوح بحثا عن الكلأ، تعيش فيه المناطق السهلية خاصة المحيطة منها بمدينة أولاد تايمة، وبعض البقع في عالية سهل سوس شرق مدنية تارودانت مباشرة، رخاءا اقتصاديا كبيراً يتجلى أساسا في وجود فلاحة عصرية تتمثل في زراعة مسقية خاصة البواكر والحوامض وبعض الخضر، إضافة الى تربية الماشية على طريقة عصرية.

هذا الإختلاف يمكن ملاحظته بصفة بارزة في أسواق هذه المنطقة مما يزكي ما ذهبنا إليه في بداية هذا المقال.

تقام بهذا المجال خلال كل أسبوع أكثر من ستين (60) سوقا، تختلف من حيث توزيعها المجالي، بحيث يتمركز أغلبها ــ حوالي الثلثين (3/2) بالمناطق الجبلية، ويتوزع الثلث الباقي بين منطقة الدير والمنطقة السهلية (خريطة رقم : 1)، كما تختلف هذه الأسواق من حيث أيام إقامتها، من حيث حجمها ومن حيث أهميتها الإقتصادية داخل مجال نفوذها وتبعا لتمركزها المجالي.

ومن خلال هذا العرض سنحاول إبراز نقطتين أساسيتين : أولاهما : الأهمية الإقتصادية لهذه الأسواق الأسبوعية ومحاولة رصد اتجاه تطور هذه الأهمية، وثانيهما إبراز مختلف العلاقات المجالية الناتجة عن اختلاف أهمية هذه الأسواق.

2 – الأهمية الإقتصادية للأسواق الأسبوعية «بمنطقة تارودانت» :

1.2 – تظهر الأهمية الإقتصادية لهذه الأسواق أولا في كثرة عددها : فهي تبلغ 62 سوقا أسبوعيا بالمنطقة المدروسة، أي بمعدل سوق أسبوعي لكل 8168 من السكان[1]على أن هذا المعدل نسبي. ويخفي الكثير من التناقضات خاصة وأن حوالي 43% من سكان المنطقة يستقرون بالسهل الذي يضم فقط حوالي 18% من عدد الأسواق والباقي سواء بالنسبة للأسواق أو لعدد السكان يوجد بمناطق الدير والمناطق الجبلية، وبالأرقام يصبح عدد السكان بالنسبة لكل سوق في المناطق السهلية هو 19679 نسمة أي أن هذا العدد يفوق المعدل بكثير، و5685 نسمة لكل سوق في المناطق الجبلية ومناطق الدير، أي أن عدد السكان هنا بالنسبة لكل سوق يقل كثيرا عن المعدل. ويعزى هذا التباين أساسا ــ إلى عوامل أخرى متعددة – إلى كون المناطق الجبلية ومناطق الدير تتميز

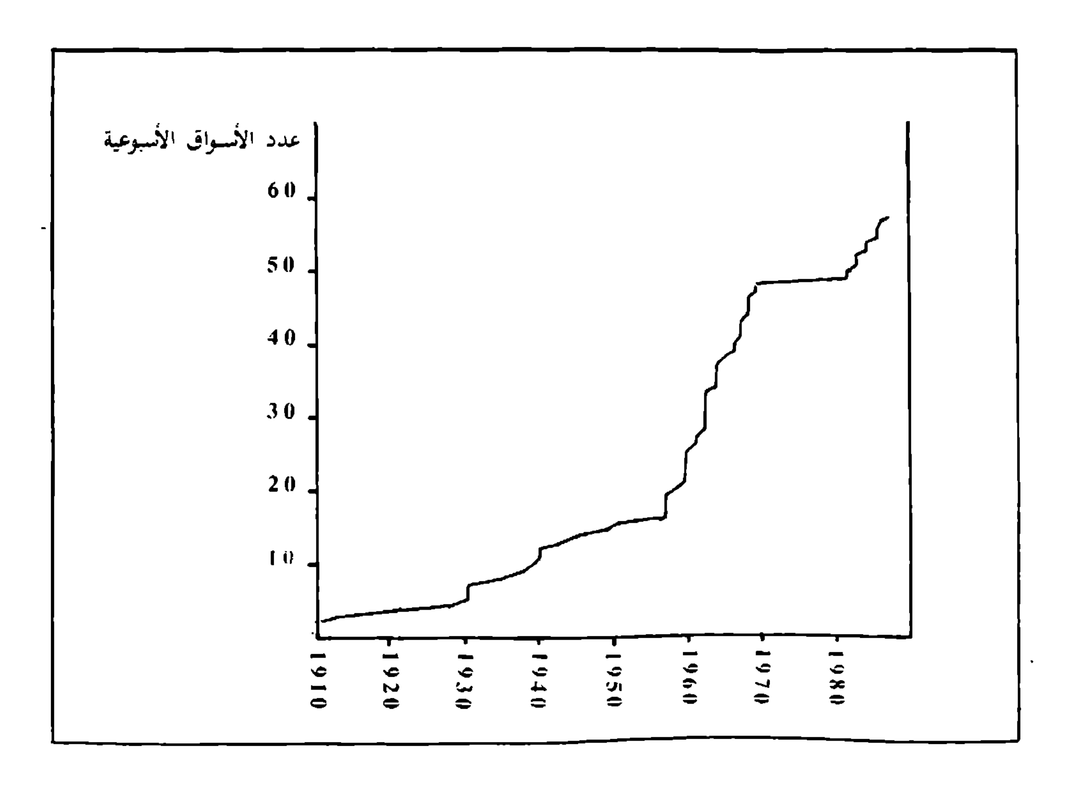
بصعوبة المواصلات السريعة ــ إن لم نقل انعدامها ــ بسبب ضعف أو انعدام التجهيز الطرقي في غالب الأحيان مما أدى الى خلق مجموعة كبيرة من الأسواق بهذه المناطق تسهيلا لقضاء حاجيات السكان[2]عكس المناطق السهلية التي سمح فيها تطور المواصلات والتجهيز الطرقي بسهولة التنقل بالإضافة إلى وجود مراكز حضرية مهمة مثل مدينتي أولاد تايمة وتارودانت، ومراكز قروية مهمة كمركز أولوز، أولاد برحيل سبت الكردان... إلخ. تسمح للسكان بقضاء أغلب حاجياتهم.

ومما يؤكد هذا الطرح التطور الذي عرفه عدد أسواق هذه المنطقة في الزمان.

2.2 – تطور عدد الأسواق الأسبوعية بهذه المنطقة منذ القرن الماضي الى اليوم :

شكل رقم 1 :

تطور عدد الأسواق الأسبوعية بمنطقة تارودانت (3)



خريطة رقم : 1

التوزيع الجغرافي للأسواق الأسبوعية وإطار الدراسة «منطقة تارودانت»

الأطلس الكبير

الأطلس الصغير

تارودانت

أولوز

إكودار

وادي سوس

تالوين

أولاد تايمة

المفتاح:

مرتفعات جبلية

منطقة الدير

سهل

طريق رئيسية

طريق ثانوية

طريق ثلاثية

سوق اسبوعي

سوق داخل مدينة

يوم السوق

الأحد

الاثنين

المقياس

يبدو بعض التعارض بين التواريخ التي عثرنا عليها وبين تلك التي أشار إليها الأستاذ عمر أفا[4]خاصة فيما يتعلق بالأسواق التي كانت موجودة منذ القرن التاسع عشر. فقد بلغ عدد الأسواق ـــ حسب الأستاذ ع. أفا بهذه المنطقة قبيل نهاية القرن التاسع عشر، عشرة أسواق أسبوعية وقد يكون في هذا نوع من الصواب، لأسباب متعددة منها : اعتماد الأستاذ على مجموعة من الواثائق التاريخية. بعض الأسواق التي كانت موجودة في القرن التاسع عشر اختفت لظروف معينة ليظهر من جديد بعد ذلك بعدة سنوات تغيير إسم ومكان ويوم إقامة بعض الأسواق، وأخيرا كون التواريخ التي سجلتها المصلحة الإقتصادية بعمالة تارودانت ـــ والتي اعتمدنا في تطور عدد الأسواق ـــ اعتمد في وضعها غالبا على تقديرات تبعا لروايات شفوية.

وكيفما كان الحال فإن عدد الأسواق الأسبوعية بهذه المنطقة شهد بالتأكيد تطورا كبيرا منذ القرن الماضي الى اليوم وهو ما يعبر عنه بوضوح الشكل رقم 1. فانطلاقا من سنة 1910 إلى سنة 1955 (فترة الحماية الفرنسية) أي خلال مدة 45 سنة نشأ أربعة عشر سوقا أسبوعيا، بمعدل سوق واحد كل ثلاث سنوات تقريبا، بينما شهدت الفترة المتراوحة بين 1956 (بداية الاستقلال) و1967 إنشاء أزيد من نصف الأسواق الأسبوعية المتواجدة حاليا (55،9%)، فخلال 11 سنة فقط نشأت 33 سوقا، بمعدل 3 أسواق كل سنة، ونشير هنا أن سنة 1961 إلى حدود سنة 1980 التي شكلت انطلاقة جديدة لنشوء أسواق إضافية بمعدل سوقين كل سنة.

من خلال هذا التطور يمكن إبداء الملاحظات الاتية :

أ – إزدياد عدد الأسواق الأسبوعية يعني في نفس الوقت ازدياد كمية البضائع المعروضة وازدياد الطلب على هذه البضائع نظرا لارتفاع الحاجيات بسبب النمو السكاني.

ب – التطور الكبير الذي لاحظناه في عدد الأسواق عقب حصول البلاد على الاستقلال يرجع لا محالة إلى توفر المزيد من الأمن على الطرقات وما صاحب ذلك من حرية التنقل[5]زيادة على تشجيع السلطات لاقامة أسواق جديدة بغية استقرار السكان.

ج – رغبة الجماعات المحلية في الحصول على المزيد من المداخيل، وهو ما يفسر إلى حد كبير تطور عدد الأسواق منذ بداية الثمانينات.

ذ – أخيرا فإن تطور عدد الأسواق الأسبوعية دليل واضح على ما لها من أهمية خاصة من الناحية الإقتصادية.

2. 3- الأهمية الإقتصادية للأسواق الأسبوعية عناصر متعددة للتحليل :

يمكن تناول الأهمية الإقتصادية لهذه الأسواق انطلاقا من عناصر متعددة خاصة انطلاقا من تحليل بنياتها وإشعاعها، ودورها على صعيد الجماعات التي توجد بها.

غير أننا في هذا المقال سنكتفي بالعنصرين الأخيرين، أو بعبارة أوضح سنتناول أهمية الأسواق الإقتصادية انطلاقا من المداخيل التي تحققها، ودورها داخل مداخيل كل جماعة محلية، مبرزين من جهة ثانية مجال نفوذ كل منها[6].

1- 3 - 2 - عنصر المداخيل يسمح بتصنيف الأسواق الأسبوعية : فكلما كانت المداخيل مرتفعة إلا وكان تعبيرا عن كثرة المعروضات في السوق وبالتالي كثرة التجار والزبناء الذين يترددون عليه والعكس صحيح.

وعليه واعتمادا على هذا العنصر يمكن أن نصنف أسواق منطقة تارودانت على الشكل التالي :

جدول رقم : 1 **تصنيف الأسواق حسب المداخيل** [7]

صنف الأسواق	المداخيل (الدرهم/الشهر)	نسبتها من المجموع %
أسواق صغيرة جدا	أقل من 1000 د هـ	25،5
أسواق صغيرة	بين 1000 إلى 1999	20،6
أسواق متوسطة	من 2000 إلى 4999	34،9
أسواق كبيرة	من 5000 إلى 9999	11،1
أسواق كبيرة جدا	10.000 د هـ فأكثر	07،9

وتظهر هذه الأسواق على مستوى التوزيع الجغرافي كما هو وارد في الخريطة رقم 2 والتي من خلال قراءتها يمكن الخروج بمجموعة من الملاحظات :

أ - كل «الأسواق الكبيرة» و «الكبيرة جدا» تتمركز بالمنطقة السهلية وعلى الطريق الرئيسية رقم 32 الرابطة بين مدينة أكادير ومدينة ورزازات، وهي أسواق متمركزة إما

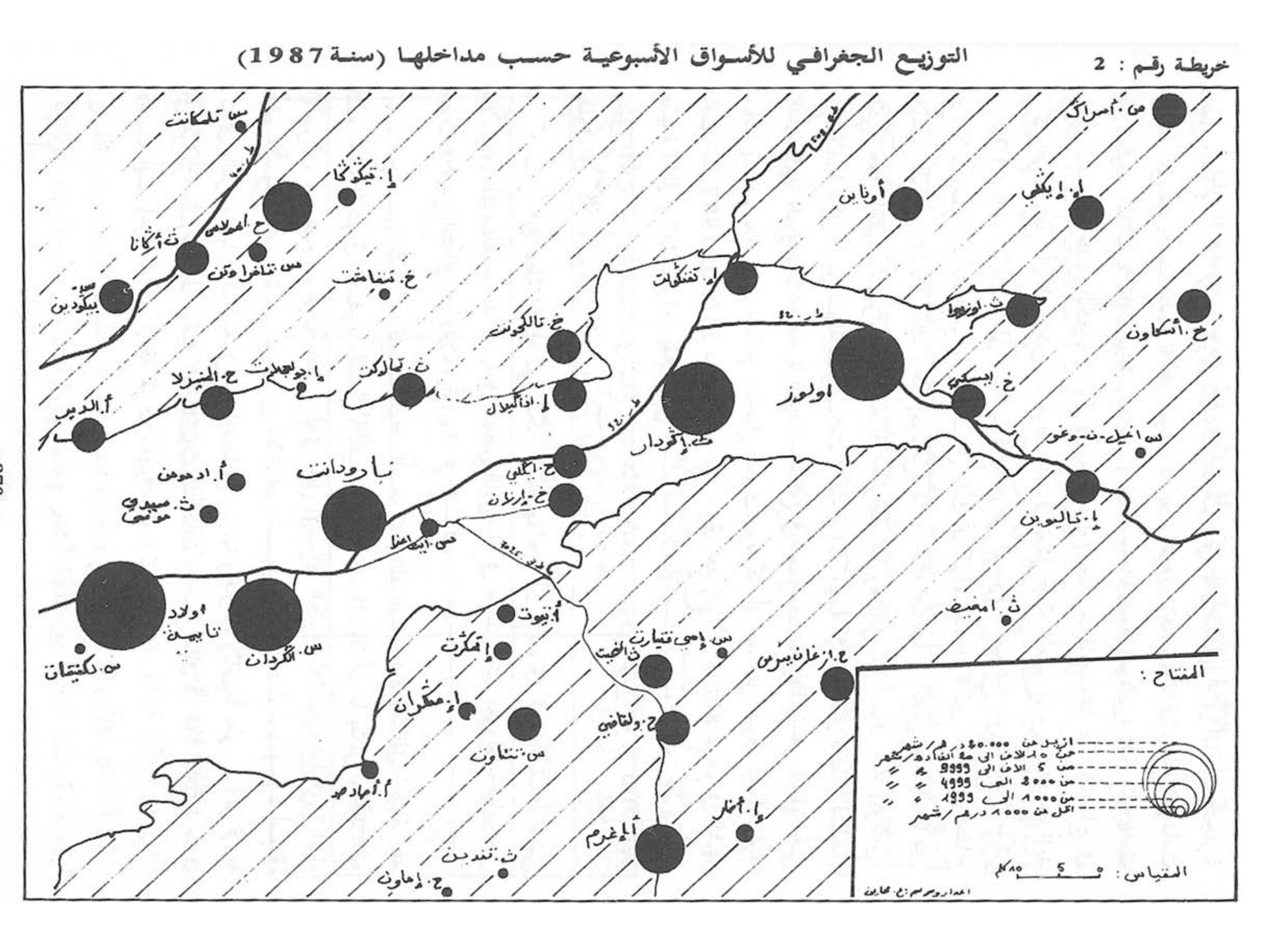
داخل مدن أو مراكز قروية كبرى تنمو بسرعة سواء في عدد سكانها أو في أنشطتها التجارية المختلفة. على أنه يجب استثناء حالتي سوق «أربعاء إغرم» جنوب شرق مدينة تارودانت على الطريق الثلاثية 7025 بين تارودانت وطاطا، وحالة «حد ايمولاس» شمال تارودانت داخل شعاب الأطلس الكبير، فالأول (أربعاء إغرام) يعتبر سوقا مندمجا كل الإندماج في مركز إغرم، بمعنى أن الدكاكين الموجودة بالسوق تعمل طيلة الأسبوع، ويبلغ عددها أزيد من 100 دكان، وتؤدي بالتالي ضرائب فعلية عوض الرسوم الأسبوعية التي تؤديها الأماكن التي لا تستعمل إلا أيام السوق، يضاف الى ذلك أن كراء هذه الدكاكين ساهم في انتفاخ مداخيل السوق. وتكاد حالة «حد إيمولاس» تشبه حالة سابقها في نفس عدد الدكاكين والتي تعمل أغلبها باستمرار نظرا للعزلة الجغرافية الكبيرة التي تميز سوق حد إيمولاس، نظرا لافتقاره إلى طريق سهلة للمواصلات تربطه بمراكز مهمة كما هو الحال بالنسبة لسابقه. كما أن كثرة المعروضات (خاصة الفواكه الجافة) في فصل الصيف الذي هو فصل الجني أساسا يساهم بدوره في انتفاخ مداخيل السوق. ونذكر أن مداخيل سوق أربعاء إغرم فاقت سنة 1987، 11000 درهم ومداخيل سوق حد إيمولاس 8000 درهم في الشهر بطبيعة الحال وكلا السوقين يقلان من حيث عدد التجار بهما عن سوق إثنين تالوين على سبيل المثال، ففي الوقت الذي يبلغ عدد هؤلاء التجار بسوق تالوين حوالي 500 تاجر يقلون في كلا السوقين الاخرين عن 300 تاجر.

ب – الملاحظة الثانية التي يمكن تسجيلها هي أن الأسواق التي أضفناها ضمن «الأسواق المتوسطة» توجد أغلبها في مناطق الدير، أو في مناطق نائية معزولة جغرافيا مثل سوق «خميس اسكاون» و«ثلاثاء أوزيوا» في الشرق.

ج – بينما تتمركز كل «الأسواق الصغيرة» و«الصغيرة جدا» بالمناطق الجبيلة وقد تبدو حالة الأسواق الصغيرة بالسهل (انظر الخريطة) مفارقة. إلا أن ما يفسر تواجد هذه الأسواق، هو عدم مسايرتها للتطور الذي لحقَ الأسواق الكبرى للأسباب المذكورة آنفا، هذه الأسواق الصغيرة هي في طريق الانقراض لسببين أساسيين : أولهما وجود أسواق كبرى بالقرب منها مباشرة تعمل على امتصاص زبنائها وتجارها، وثانيهما تطور مراكز قروية الى مراكز حضرية توفر يوميا كل حاجيات السكان، وأحسن مثال في هذا الباب : سوق «سبت أيت إعزا» بمركز فريجة شرق تادورادنت.

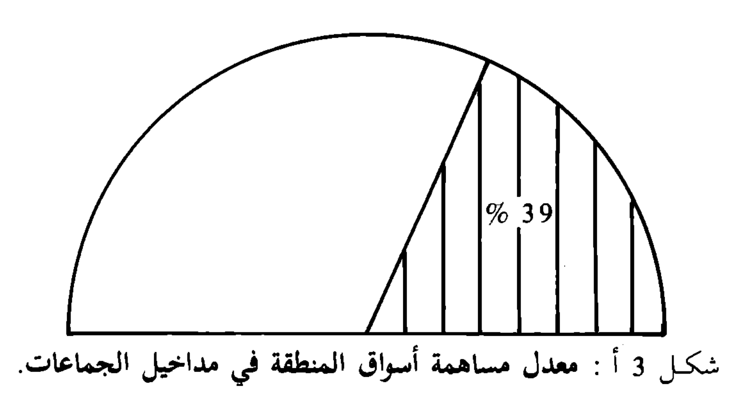
خريطة رقم : 2

التوزيع الجغرافي للأسواق الأسبوعية حسب مداخلها (سنة 1987)

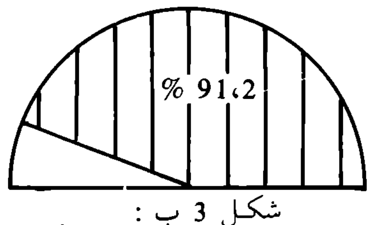


هذا التصنيف الذي أوردناه قد لا يكون معبرا عن الأهمية الإقتصادية لهذه الأسواق إذا ترك هكذا عبارة عن أرقام مطلقة، لذلك تدعو الضرورة إلى رصد ما تمثله مداخيل هذه الأسواق بالنسبة لمداخيل كل جماعة (شكل رقم 3)

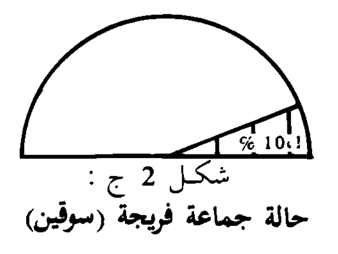
شكل رقم : 2 **نسبة مساهمة الأسواق في مداخيل الجماعات**



شكل 3 أ : **معدل مساهمة أسواق المنطقة في مداخيل الجماعات.**



شكل 3 ب :
حالة جماعة حد ايمولاس (3 أسواق)



شكل 2 ج :
حالة جماعة فريجة (سوقين)

من الواضح إذن أن مداخيل الأسواق الأسبوعية تلعب بصفة عامة دورا حيويا في مداخيل الجماعات حيث تساهم بما يقارب 40% من مداخيل الجماعات كمعدل. غير أن هذا المعدل يخفي الكثير من التناقضات ولعل هذا ما يسعى إلى توضيحه الشكلين 3 بـ و3 ج، مما يوحي بأن هناك اختلافات كبيرة في نسبة مساهمة هذه الأسواق في مداخيل الجماعات التي تنتمي إليها، وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف الأسواق حسب نسبة مساهمتها في مداخيل الجماعة على الشكل التالي :

أ ـــ أسواق تساهم في مداخيل الجماعات بأكثر من 50% (نسب قوية) ويتعلق الأمر على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر، بسوق خميس تلكجونت بـ 64%، سوق سبت الكردان بـ 67%... هذه الأسواق تتمركز في أغلبها في المنطقة السهلية، مما يظهر مرة أخرى أهمية هذه الأسواق والتي لاحظناها منذ البداية.

ب ــ أسواق تساهم بما بين 20 إلى 50% (نسب متوسطة) وكأمثلة عن هذه الأسواق : سوق أحد المنيزلة بـ 47%، سوق إثنين إدّ كيلال بـ 32%.. وهي أسواق توجد كلها في مناطق الدير.

ج ــ أسواق تساهم بأقل من 20 % (نسب ضعيفة) ويتعلق الأمر بالأسواق المتمركزة بالمناطق الجبلية : ثلاثاء أركانة بـ 16 %، سبت تافراوتن 15%.... وقد تم تسجيل حالة خاصة هي حالة سوق مدينة تارودانت، فبالرغم من أنه يقام يومين في الأسبوع الأحد والخميس، إلا أنه مع ذلك لا يساهم إلا بنسبة 6% من مداخيل الجماعة، وهذا شيء بديهي لكون مختلف الأنشطة التجارية الأخرى والخدمات تدر على صندوق بلدية المدينة مداخيل جد مرتفعة بالمقارنة مع مداخيل السوق[8]. هذه المداخيل سواء بالنسبة للأسواق أو بالنسبة للجماعات تعرف أيضا تطورا في الزمان، وسنكتفي في هذا الصدد بمقارنة مداخيل الأسواق بهذه المنطقة سنتي 1978[9] و 1987، ويمكن ملاحظة صنفين من الأسواق، أسواق ازدادت مداخيلها وأخرى تراجعت مداخيلها.

1 – الأسواق التي ازدادت مداخيلها : (بعض الأمثلة المعبرة).

جدول رقم 2 :

إسم السوق	مداخيل سنة 1978 بالدرهم في شهر	مداخيل سنة 1987 بالدرهم في الشهر	نسبة التزايد %
ثلاثاء إكودار (أولاد برحيل)	1600	55 000،00	3337،5
أربعاء الدير	200	2 323،00	1061
ثلاثاء تماتوكت	300	3 000،00	900
أحد أوكوز	6655	40 000،00	501
سبت بيكودين	1000	5 525،50	422
ثلاثاء سيدي موسى	885	1 250،00	41،2

بعض الأسواق التي ازدادت مداخيلها بين سنتي 1978 و1987.

إن أهم ما يمكن تسجيله حول هذا النوع الأول من الأسواق : إن نسبة تزايد مداخيلها كانت كبيرة جدا في فترة لم تتعد عشر سنوات، وإن كانت بعض الحالات مشكوك فيها، خاصة حالة ثلاثاء إكودار : فإما أن الأمر يتعلق بخطأ في حساب مداخيل 1978 أو أن هناك غشا جبائيا، كما أن الغالبية العظمى من هذه الأسواق هي أسواق سهلية أو بعض أسواق منطقة الدير أو أسواق توجد على طرق مهمة للمواصلات مثل سوق سبت بيكودين القريب من الطريق الرئيسية رقم 40 بين أكادير ومراكش، وأخيرا يتأكد من خلال الجدول - ما ذهبنا إليه سابقا من كون الأسواق الصغيرة في المناطق السهلية في طريق الانقراض نظرا لكونها لم تستطع مسايرة التطور الذي لحق الأسواق الكبرى والتي تمتص لها زبناءها وتجارها، وحالة ثلاثاء سيدي موسى هنا موضحة، ففي الوقت الذي تطورت فيه مداخيل كل الأسواق السهلية والديرية الأخرى بأكثر من 200% لم تستطع مداخيله أن تتطور إلا بحوالي 40%، وحتى هذا التطور لم يكن ناتجا عن ازدياد عدد المعروضات وبالتالي ازدياد حجم السوق كما هو الشأن بالنسبة للأسواق الأخرى، بقدرما هو ناتج الى حد كبير جدا عن ازدياد قيمة الرسوم المفروضة على البضائع والمنتوجات.

2 - **الأسواق التي تراجعت مداخيلها** : (بعض الأمثلة المعبرة).

جدول رقم 3 :

إسم السوق	مداخيل سنة 1987 بالدرهم/شهر	مداخيل سنة 1987 بالدرهم/شهر	نسبة التراجع %
سبت تلمكانت	1000	750	-33،3
سبت تافراوتن	2250	1250	-44،4
أربعاء أصاد ص	6000	1528	-74،5
أحد إيماون	1320	475	-177
ثلاثاء تنذين	150	30	-400

بعض الأسواق التي تراجعت مداخيلها بين سنتين 1978 و1987.

أهم ملاحظة يمكن تسجيلها انطلاقا من الجدول أعلاه أن كل هذه الأسواق التي تراجعت مداخيلها، ولو بصفة متفاوتة هي كل الأسواق الموجودة بالمنطقة الجبلية والتي صنفناها ضمن الأسواق الصغيرة والصغيرة جدا، وقد تراجعت مداخيلها بالرغم من ازدياد الرسوم المفروضة على مختلف البضائع التي تعرض بها.

وتجدر الأشارة إلى أن هناك في الحقيقة، نوعا ثالثا من الأسواق وهي التي شهدت مداخيلها استقرارا تاما بين 1978 و1987 ويتعلق الأمر بسوقين: إثنين تفنكولت بـ 3000 درهم في الشهر، وسوق إثنين تيكوكا بـ 1000 درهم في الشهر، لكننا اعتبرناها أسواقا ذات مداخيل متراجعة، أقل من سابقتها بالتأكيد لكنها مادامت ثابتة فهي تتجاوز، كما أن ارتفاع قيمة الرسوم على المنتوجات المعروضة بها لم يساهم في ارتفاع مداخيلها.

تكتسي الأسواق الأسبوعية بمنطقة تارودانت أهمية اقتصادية على صعيد مداخيلها، ففي الوقت الذي تزداد فيه هذه الأهمية بالنسبة لبعض الأسواق، خاصة أسواق السهل وبعض أسواق منطقة الدير، تتراجع فيه أهمية بعض الأسواق الأخرى، خاصة الأسواق التي نعتناها بالاسواق الصغيرة والموجودة أغلبها في المناطق الجبلية. وتنعكس هذه الأهمية المتفاوتة على العلاقات المجالية التي تنسجها هذه الأسواق، ونقصد بالعلاقات المجالية، مختلف التحركات الناتجة عن دينامية هذه الأسواق، من تحركات السكان ونقل المواد والمنتوجات من وإلى وبين هذه الأسواق. وحتى نتمكن من رصد جانب من هذه العلاقات المجالية سنكتفي بعنصر واحد وهو عنصر السكان، ونقصد بهذا العنصر الزبناء الذين يترددون على هذه الأسواق من جهة، ومن جهة ثانية التجار الذين يعرضون مختلف المنتوجات بهذه الأسواق.

3 – العلاقات المجالية للأسواق الأسبوعية في «منطقة تارودانت».

تختلف العلاقات المجالية للأسواق الأسبوعية بهذه المنطقة تبعا لاختلاف أهميتها الإقتصادية والتي تتبع بدورها — وكما رأينا سابقا — التمركز المجالي للأسواق، ولاظهار هذه العلاقات سنقتصر — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — على دراسة تحركات التجار والزبناء مِنْ إِلَى وَبَيْنَ هذه الأسواق.

1 – 3 – تنقلات التجار : تحركات بعيدة المدى :

على مدى كل أسبوع يعرض ما يزيد عن 30 ألف تاجرا[10] بضائعهم في مختلف أسواق منطقة تارودانت، على أن هذه الأسواق بكيفية متساوية بحيث لاحظنا اختلافات

كبيرة جدا بين مختلف الأسواق أثناء عمليات الإحصاء التي قمنا بها، خلال فترات متقطعة بالتأكيد، لكنها همت كل فصول السنة.

ويظهر هذا الإختلاف تبعا للتوزيع الذي تبنيناه منذ البداية والذي مافتىء يتأكد ونقصد بذلك التمركز المجالي للأسواق، كما يبين الجدول الآتي :

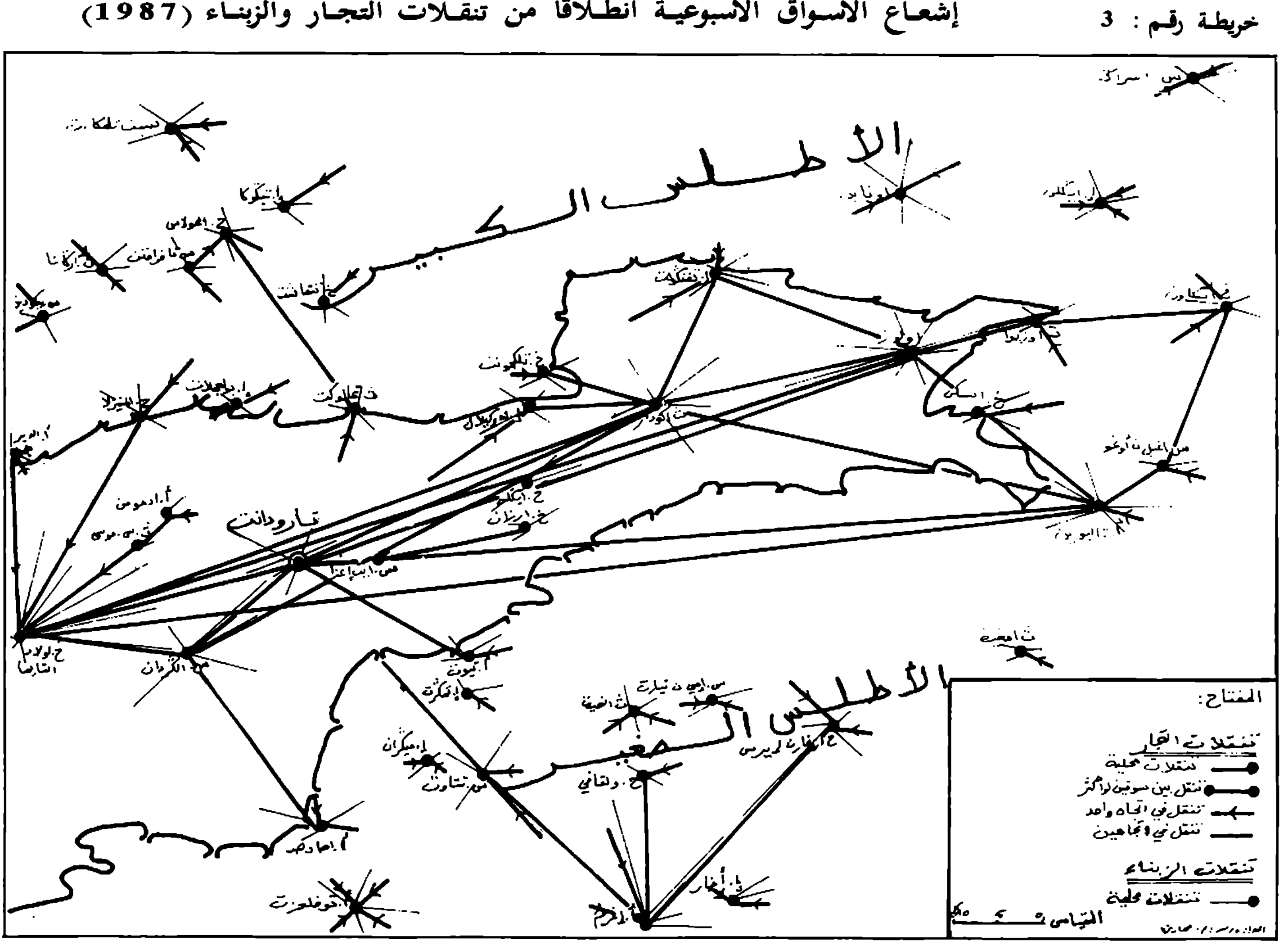
جدول 4 : معدل عدد التجار المترددين على أسواق منطقة تارودانت

صنف الأسواق حسب أماكن تواجدها	معدل عدد التجار الذين يترددون عليها في الأسبوع
أسواق السهل	739 تاجرا
أسواق الدير	433 تاجرا
أسواق الجبل	163 تاجرا

المصدر: إحصائيات شخصية

يتأكد إذن من خلال الجدول أعلاه مدى الفرق الموجود بين أسواق السهل من جهة وأسواق الدير من جهة ثانية وأسواق المنطقة الجبلية من جهة ثالثة من حيث عدد التجار، ويزدا د هذا الفرق شساعة بين كل سوق سواء داخل نفس المجموعة أو الصنف أو بين كل أسواق هذه الأصناف الثلاثة. فأسواق السهل على سبيل المثال منها ما يصل الى أكثر من 2000 تاجر مثل سوق خميس أولاد تايمة ومنها ما ينزل في بعض الأحيان إلى أقل من 10 تجار كسوق سبت أيت إعزا بجماعة فريجة، ونلاحظ نفس الفروق بين أسواق المجموعتين الاخريين. ومن أهم ما يجب تسجيله بالنسبة لهؤلاء التجار أنهم يميلون إلى «احترام مناطق نفوذ بعضهم البعض» إلى حد كبير، حيث أن تجار الأسواق السهلية يقتصرون على أسواقهم في أغلب الأحيان، ونفس الشيء لاحظناه أساسا عند المناطق الجبلية الذين قليلا جدا ما يصلون إلى الأسواق السهلية وعكس هذا وذلك، فإن أسواق منطقة الدير تشهد امتزاجا بين هؤلاء وأولائك، فهي في نفس الوقت لها تجارها «الخاصين بها« كما يلتقي فيها بعض تجار الأسواق الجبلية وبعض تجار الأسواق السهلية (خريطة رقم 3).

خريطة رقم : 3 إشعاع الأسواق الأسبوعية انطلاقا من تنقلات التجار والزبناء (1987)



ولعل من أهم الأسباب المفسرة لهذه الظاهرة، اختلاف رؤوس أموال التجار فبقدر ما يكون رأس مال التاجر بقدرما يعرض سلعته في أسواق «مهمة» وكبيرة، والعكس أيضا صحيح، كما أن عدد زبناء السوق ونوعهم يساهم إلى حد كبير في تفسير هذه الظاهرة.

2 - 3 - تحركات الزبناء : الإقتصار على أقرب سوق.

تشكل الأسواق الأسبوعية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك بالنسبة للغالبية العظمى من سكان منطقة تارودانت مناسبة لقضاء مختلف الحاجيات الضرورية، ولهذا السبب تشهد هذه المنطقة على مدى أسبوع تحرك العديد من السكان في اتجاه الأسواق، مما ينتج عنه حركات في كل الإتجاهات كما تبين ذلك الخريطة رقم 3.

وعلى عكس حركات التجار التي تكون في الغالب بعيدة المدى، وانتقالية من سوق إلى سوق، فإن حركات الزبناء قصيرة المدى لكون السكان يفضلون قضاء حاجياتهم في أقرب سوق.

ويختلف عدد السكان (الزبناء) باختلاف عدد الأسواق الذي يختلف بدوره بين المناطق السهلية والجبلية، وهذا ما يحاول الجدول التالي أن يبينه.

جدول رقم 5 : **معدل عدد الزبناء المترددين على كل سوق من أسواق منطقة تارودانت.**

صنف الأسواق حسب مواقعها الجغرافية	معدل عدد الزبناء الذين يترددون عليها في الأسبوع
أسواق السهل	12 270 فردا
أسواق الدير	8 170 فردا
أسواق الجبل	4 455 فردا

المصدر إحصائيات شخصية (1987)

إن الأرقام الواردة في الجدول أعلاه هي معدلات فقط، وتخفي الكثير من الإختلافات بين أسواق كل مجموعة على أنها تبين بوضوح حجم التنقلات السكانية (زبناء الأسواق) واختلافها بين السهل والدير والجبال.

إن كثافة العلاقات المجالية التي تنسجها الأسواق الأسبوعية بمنطقة تارودانت، انطلاقا من دراسة تنقلات التجار وتنقلات الزبناء تختلف باختلاف التوزيع المجالي للأسواق، وتختلف باختلاف أهمية الأسواق الإقتصادية، ومن هنا يتجلى الإرتباط الوثيق والمتبادل بين الأهمية الاقتصادية لهذه الأسواق وعلاقاتها المجالية، فكلاهما يساعد على تفسير الآخر.

استنتاج :

إن التباين الواضح في الأهمية الإقتصادية للأسواق الأسبوعية بمنطقة تارودانت يساهم فيه إلى حد كبير الإختلاف في موارد المنطقة، كما أن الإهتمام بالمراكز الحضرية والمراكز القروية الكبرى، على الطرق الرئيسية أدى بدوره الى ظهور «نزعة للنزوح» في اتجاه هذه المراكز.

ونتيجة لذلك بدأنا نلاحظ في هذه المنطقة تزايد أهمية بعض الأسواق خاصة أسواق المنطقة السهلية، وفي المقابل تتراجع أهمية بعض الأسواق الأخرى خاصة «الصغيرة» و «الصغيرة جدا». وكل شيء يوحي بانقراض هذه الأخيرة إذا لم يتم تدارك السرعة التي تتراجع بها أهميتها، وإذا نحن علمنا أن الأسواق الأسبوعية تلعب دورا أساسيا في تثبيت السكان، وعلمنا أن الأسواق التي تتراجع في أغلبها أسواق جبلية، وأن الأسواق التي تزداد أهميتها هي أسواق المراكز الحضرية، فإن النتيجة الحتمية لهذا التطور هي «هجرة» السكان الى هذه المراكز الأخيرة، ووقوع المنطقة في المسلسل المعروف والملاحظ في عدد من المناطق في كل بلدان العالم الثالث، ألا وهو فراغ البادية من سكانها على حساب المناطق الحضرية ومايترتب عن ذلك من المشاكل المعروفة.

إن تخصيص مداخيل الجماعات، بل وتدعيمها بمداخيل وإعانات أخرى — بهذه المنطقة لتطوير البنية التحتية في مجال نفوذ كل جماعة، في نظرنا كفيل بالمساعدة على استمرارية البوادي وبالتالي المساعدة على الاحتفاظ على التوازنات الجهوية.

الهـــوامـــش

(1) حصلنا على هذا الرقم بقسمة عدد سكان المنطقة (إحصاء 1982) على عدد الأسواق.

(2) هناك أسباب أخرى أدت إلى نشوء الأسواق أبرزها رغبة الجماعات المحلية في الحصول على المزيد من المداخيل.

(3) انطلاقا من التواريخ التي سجلتها المصلحة الإقتصادية بعمالة مدينة تارودانت ــ (تخص الأسواق الأسبوعية.

(4) لم نتمكن من العثور على تاريخ إنشاءها لذلك فعدد الأسواق الواردة هنا هو 59 سوقا من أصل 62)

(5) لانقصد بهذا تطور وسائل المواصلات والتي قد تكون عاملا مساعدا على اختفاء بعض الأسواق خاصة الصغيرة منها، أكثر مما تساعد على إنشاءها.

(6) اقتصرنا على هذين العنصرين نظرا لكون تناول البنيات التجارية لهذه الأسواق سيتجاوز إلى حد كبير المجال المخصص لهذا المقال، ونظرا لكون عنصر المداخيل يعكس إلى حد كبير بنيات هذه الأسواق، فبقدر ما كانت المداخيل مرتفعة أو ضعيفة بقدر ما يعبر ذلك عن كبر أو صغر السوق.

(7) إحصائيات المصلحة الإقتصادية لعمالة تارودانت عن سنة 1987.

(8) الإحصائيات المتعلقة بمداخيل الجماعات زودتنا بها المصلحة الإقتصادية بـ بعمالة تارودانت.

(9) هذه الإحصائيات مستمدة من : Ministère de l'intérieur: Manuel sur les souks du Maroc, 1978
والجدير بالإشارة أن المقارنة ستهم فقط الأسواق التي كانت موجودة والتي تبلغ نسبتها 83% من الأسواق الموجودة حاليا.

(10) إحصائيات شخصية.

التطور الحديث لسكان تارودانت وناحيتها

عبد اللطيف فضل الله الجامعي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط

ليس باليسير الخوض في إنشاء التاريخ السكاني لمدينة تارودنت،التي هي من بين أعرق المدن المغربية، في الوضعية التي توجد عليها حاليا معرفتنا للجوانب الديمغرافية القديمة. لذا، سيحاول هذا العرض الوجيز فقط رسم الخطوط الكبرى لتطور سكان المدينة وناحيتها خلال العقود الأخيرة، أي الفترة التي تتوفر لدينا بشأنها معطيات إحصائية جيدة نسبيا.

ونبادر بالقول بأنه من الصعب تحديد ناحية مدينة ما، دون دراسة جملة من العناصر وضبط عدة مؤشرات تساعد على رسم حدود هذه الناحية. لذا، في حالة عدم توفرنا على هذه العناصر والمؤشرات الضرورية، سنفرض اعتباطا أن ناحية تارودنت هي إقليمها الاداري، اعتبارا منا أن العامل الاداري أصبح اليوم، أكثر فأكثر، عنصرا أساسيا فعالا في استقطاب وهيكلة المجال بالمغرب، مما يعطي الحدود الادارية بعدا وقيمة متزايدين في إبراز معالم الوحدات الجغرافية.

هذا ونعتمد في هذه اللمحة على معطيات الاحصاءات الرسمية، خاصة الثلاثة الأخيرة منها (1960، 1971 و 1982)، مع القيام باسقاطات لتقدير عدد السكان ونموهم خلال عقد الثمانينات. كما نشير اننا نهتم أساسا بالسكان المغاربة، دون أن نشوش على حساباتنا بإدخال الجماعة اليهودية والجالية الأوربية فيها، باعتبار أنهما، من جهة، لم تمثلا أبدا عنصرا هاما من سكان هذه المنطقة الاسلامية العريقة، ومن جهة أخرى لأنهما اختفتا تقريبا نهائيا منذ نحو ربع قرن.

1 – تضاعف عدد السكان بنحو ثلاث مرات في ظرف نصف قرن.

يغطي إقليم تارودنت حوالي 16.000 كم² في حدوده الحالية، متكونا من 39 جماعة ريفية وأربعة مراكز حضرية. وبالنظر إلى مجموع السكان، يكون هؤلاء قد نموا

بنحو ثلاث مرات خلال العقود الخمسة المنصرمة، بمعدل سنوي يناهز 2 % بحيث تطور عددهم على الشكل التالي :

1936 : 228.000 نسمة

1960 : 353.000 نسمة

1971 : 448.000 نسمة

1982 : 558.000 نسمة

1990 : 645.000 نسمة

يتألف هؤلاء السكان تقريبا كلهم من المغاربة، إذ أن الجماعة اليهودية والجالية الأوربية بقيتا دائما تمثلان أقل من 1% من مجموع سكان الاقليم. فالطائفة اليهودية، التي زاد عدد أفرادها قليلا عن 3000 في الثلاثينات، ظلت حتى الخمسينات تتجمع بنسبة الثلث في مدينة تارود نت، وتؤلف أقليات لا بأس بها محليا مثلما كان الحال لدى قبائل أيدا أوزيكي (جماعة بيفودين) وأرزان (جماعة خميس أرزان) وايدا أوزال (جماعة الفيض) والمنابهة (جماعة اڤلي) وآيت ازلال (جماعة اسكاون) وتفنوت (جماعة أهل تفنوت). غير أن عدد اليهود بدأ في التناقص بعد الاستقلال، وخاصة خلال الستينات، لتحتد هجرتهم وتتلاشى طائفتهم تماما غداة الحرب العربية الاسرائيلية في 1967.

أما الجالية الاوربية، فلم تزد عن بضع مئات حتى عندما بلغت أشدها في بداية الستينات. ذلك أن الطبيعة الجبلية الغالبة على هذه المنطقة الواقعة تقريبا كلها في ما كان ينعت بالمغرب غير النافع، لم تشجع المعمرين الاوربيين على الاستقرار، فلم يكن لهم وجود يذكر سوى بتارودنت نفسها وفي الجهات الشرقية من سهل سوس.

الجدول 1 – تطور عدد الأوربيين واليهود باقليم تارودنت

المجال	1936		1960		1971		1982
	أوربيون	يهود	أوربيون	يهود	أوربيون	يهود	أوربيون
الحضري	137	926	228	950	98	11	91
الريفي	31	2124	434	1434	176	–	66
المجموع	168	3050	662	2384	274	11	157

إذا ما وضعنا جانبا هذه العناصر السكانية العابرة، واعتبرنا المغاربة فقط، وجدنا أن عددهم قد انتقل من 225.000 نسمة في 1936 إلى 353.000 في 1960 ثم 448.000 في 1971 ليتعدى 558.000 في 1982 ونحو 645.000 في 1990،أي أنه حقق زيادة هامة تناهز 420.000 نسمة خلال 54 عاما بمعدل سنوي يداني 7.800 شخص.

والملاحظ أن وتيرة التزايد قد بلغت أوج سرعتها خلال الستينات، بمعدل 2،19% سنويا، بالمقارنة مع الفترتين السابقة (1،89% بين 1936 و 1960) واللاحقة (2،02% بين 1971 و1982).

جدول 2 – تزايد السكان المغاربة بين 1936 و1990

الفترات	الزيادة الاجمالية	معدل الزيادة السنوية	معدل نسبة التزايدالسنوي
1960/1936(*)	128.000	5330	%1,89
1971/1960(*)	95.000	8640	%2,19
1982/1971(*)	110.000	10.000	%2,02
1990/1982(**)	87.000	10.875	%1,96

(*) حسب الاحصاء الرسمي
(**) تقدير

غير أن إيقاع النمو المسجل بناحية تارودنت قد جاء أضعف نسبيا من إيقاع النمو الذي عرفه السكان المغاربة ككل، وذلك منذ عدة عقود، لكن بالخصوص منذ الاستقلال، مما يدل على احتدام ظاهرة النزوح القديمة التي انطلقت بالمنطقة، وما صاحب ذلك من تمهل في معدل التوالد، وربما أيضا من استمرار نسبة وفيات أعلى من المستوى الوطني بسبب ظروف صحية محلية ناقصة جدا في هذه البيئة الجبلية النائية (وفيات الأطفال على الخصوص) وكذا بسبب تشيُّخ السكان. وهكذا، بعدما كانت نسبة التزايد السنوية المحلية تقل بنحو العشر عن المعدل الوطني بين 1936 و1960، لم تعد تمثل سوى ثلاثة أرباع ذلك المعدل منذ 1960.

جدول 3 – مقارنة تزايد سكان اقليم تارودانت بالمعدل الوطني

الفتـــرة	اقليم تارودنت	المغرب	اقليم تارودنت بالنسبة للمغرب (المغرب استدلالي 100)
1960/1936	%1,89	%2,07	91
1971/1960	%2,19	%2,95	74
1982/1971	%2,02	%2,66	76

وتجدر ملاحظة أن تطور معدل النمو الديمغرافي بالمنطقة سجل تزايدا أخف بكثير من تزايد المعدل الوطني بين فترتي 1960/1936 و1971/1960، أي بنسبة 15,9% مقابل 42,5% بينما جاء تناقص المعدلين متشابها بين فترتي 1971/1960 و1982/1971 أي بنحو 9%.

على أساس هذا التطور، ارتفعت الكثافة السكانية العامة من عشرة أشخاص تقريبا في المتوسط عند مستهل هذا القرن إلى 14 في 1936 ثم 22 في 1960 و28 في 1971 لتربو على 35 في 1982 و40 في 1990.وبالطبع، فإن نزعة نمو السكان قد اتخذت هنا، مثلما هو الشأن في كافة المناطق المغربية الأخرى، إيقاعا واتجاها مختلفين حسب المجالين الريفي والحضري.

2 – مظاهر تطور السكان بأرياف تارودانت

إذا كان إقليم تارودنت يتميز بنموه السكاني البطيء نسبيا، مقارنة بالمعدل الوطني وبالخصوص بمناطق أخرى أكثر حيوية، فلأنه يمتد على أرياف جبلية جلها فقيرة يقطنها تسعة أعشار سكان الناحية.

2 – 1 – التعمير الأوربي واليهودي

لم يستقر الأوربيون بأرياف تارودنت إلا بصفة متأخرة، عموما بعد الحرب العالمية الثانية عندما انطلق تهافت المعمرين على أراضي سوس. وكان استقرارهم فعلا بسهل سوس، حول تارودنت وأولاد تايمة، حيث بلغ عددهم نحو 500 في أواخر عهد الحماية. ولم يتناقص هذا العدد بشكل ملموس إلا خلال النصف الثاني من عقد الستينات، مع حركة مغربة الضيعات الفلاحية، ليهبط إلى 176 فرد في 1971 (مقابل 464 في 1960) وفقط 66 في 1982.

على عكس الجالية الأوربية المشتغلة أساسا بالفلاحة، فإن الطائفة اليهودية قديمة بالمنطقة وتركزت غالبيتها في الجهات الجبلية، شرق تارودنت، في الحوض الأعلى لنهر سوس.

ففي 1936، كان بالمنطقة 2124 يهودي يكونون أقليات متفاوتة الأهمية موزعة غالبا في «ملاَّحات» صغيرة بين 16 جماعة، أهمها في زقموزن واولاد برحيل والفيض واولوز، حيث تداني أو تفوق كل منها 200 نسمة. وفي 1960، كان عدد اليهود قد نقص بنسبة الثلث مما يشير إلى أهمية النزوح الذي عرفته الطائفة اذ نزل إلى 1434، قبل أن يضمحل كليا بعد ذلك بسنوات معدودات من جراء موجة الهجرة الجماعية المنظمة نحو المدن الكبرى، خصوصا الدار البيضاء،أو إلى خارج المغرب.

جدول 4 - تطور الطائفتين الأوربية واليهودية بجماعات أرياف تارودانت

الجماعات [1]	أوربيون				يهود	
	1936	1960	1971	1982	1936	1960
أيت عبد الله	9	–	–	–	–	–
ءاغرم	6	1	–	2	4	–
أرفانة	8	2	–	–	83	3
الكدية	–	23	12	1	–	–
خميس بيفودين	1	–	–	–	40	–
أولاد تايمة	–	264	55	8	–	16
سبت الفردان	–	92	88	17	–	–
سبت الففيفات	–	25	–	1	–	–
سيدي موسى	–	–	1	–	–	–
اهل تفنوت	–	–	1	6	196	35
اسكاون	–	–	–	–	154	148
ايبوزيوة والناين	2	–	–	–	102	7
تالوين	5	9	–	9	119	–
زقموزن	–	–	–	–	340	390
احمر	–	–	10	11	–	12
اولوز	–	2	–	–	195	251
الفيض	–	–	–	–	221	108
فريجة	–	2	3	–	9	–
احد افلي	–	3	5	–	139	59
خميس ارزان	–	–	–	–	134	106
اولاد برحيل	–	8	1	2	301	237
تافنفولت	–	3	–	2	55	45
اربعاء اسادس	–	–	–	7	–	–
اثنين ادا وڤيلال	–	–	–	–	32	17
المجموع	31	434	176	66	2124	1434

(1) نسجل هنا، وفي الجداول التالية وكذا داخل النص، أسماء الجماعات كما ورد رسمها في منشور مديرية الاحصاء : «السكان القانونيون للمغرب» حسب الاحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982. وقد يكون ذلك مخالفا لواقع الأمر، الشيء الذي لم نقم بالتأكد منه.

2 - 2 تمهل إيقاع نمو السكان

أما السكان المغاربة، فإن عددهم قد تضاعف بنحو مرتين وثلثي مرة بين منتصف الثلاثينات ونهاية الثمانينات، منتقلا من حوالي 000 217 إلى 000 569، أي بزيادة 000 352 شخص في ظرف نصف قرن، بمتوسط 6.520 ساكن في كل سنة.(جدول 5)

جدول 5 - تطور عدد سكان أرياف تارودانت

السنـــة	عدد سكان	الزيادة الاجمالية	متوسط الزيادة السنوية
1936	217.000	–	–
1960	335.000	118.000	4920
1971	421.600	86.600	7870
1982	506.500	84.900	7720
1990	569.000	62.500	7810

وسجلت نسبة تزايد السكان تمهلا ملموسا خلال العقدين الماضيين. فقد هبطت خلال السبعينات بنحو 20% عما كانت عليه طوال الستينات، أي 1,68% مقابل 2,11%. واعتمادا على نزعة التباطؤ هذه، يمكن تقدير نسبة تزايد سكان أرياف تارودنت في حدود 1,4% حاليا. إلا أن هذا الهبوط تم بسرعة أقل مما حدث على مستوى الأرياف المغربية ككل، مما يخبر أن الهجرة التي عرفتها أرياف تارودنت ظلت أخف نسبيا من معدل هجرة الأرياف المغربية (جدول 6).

جدول 6 - معدل تزايد سكان الأرياف

الفترة الإحصائية	أرياف تارودنت	الأرياف المغربية (استدلالي 100)	أرياف تارودنت بالنسبة لأرياف المغرب
1960 - 1936	%1,83	% 1,50	122
1971 - 1960	%2,11	% 1,83	115
1982 - 1971	%1,68	% 1,45	116

وتبعا لتراجع معدل التزايد في الأرياف، في الوقت الذي ارتفعت فيه بشكل هام بالمراكز الحضرية، فإن حصة الأرياف قد تقلصت بصفة محسوسة في مجموع سكان الاقليم وفي تكاثرهم السنوي. فنصيب الأرياف في هذا التكاثر هبط من حوالي 92 % بين 1936 و1960 إلى 91% بين 1960 و 1971، ثم 77% بين 1971 و 1982 وأقل من 71% فقط بين 1982 و 1990. ويمكن اعتبار أن الأرياف لم تعد تساهم سوى بثلاثة أخماس مجموع الزيادة السكانية السنوية التي تحدث اليوم بالمنطقة، أي زهاء 8000 نسمة من مجموع 000 13 نسمة. وهكذا نزلت حصة هذه الأرياف في سكان المنطقة من 97% في 1936 إلى 95% في 1960، ثم 94% في 1971 و 91% في 1982 ونحو 88% في 1990.

ورغم هذا التمهل في النمو الديمغرافي، فإن الكثافة العامة متزايدة باستمرار إذ انتقلت من حوالي 14 نسمة في الكم² كمتوسط في 1936 إلى 21 في 1960، ثم 26 في 1971 و32 في 1982 لنجدها اليوم في حدود 36.

2 - 3 - الاختلافات المجالية

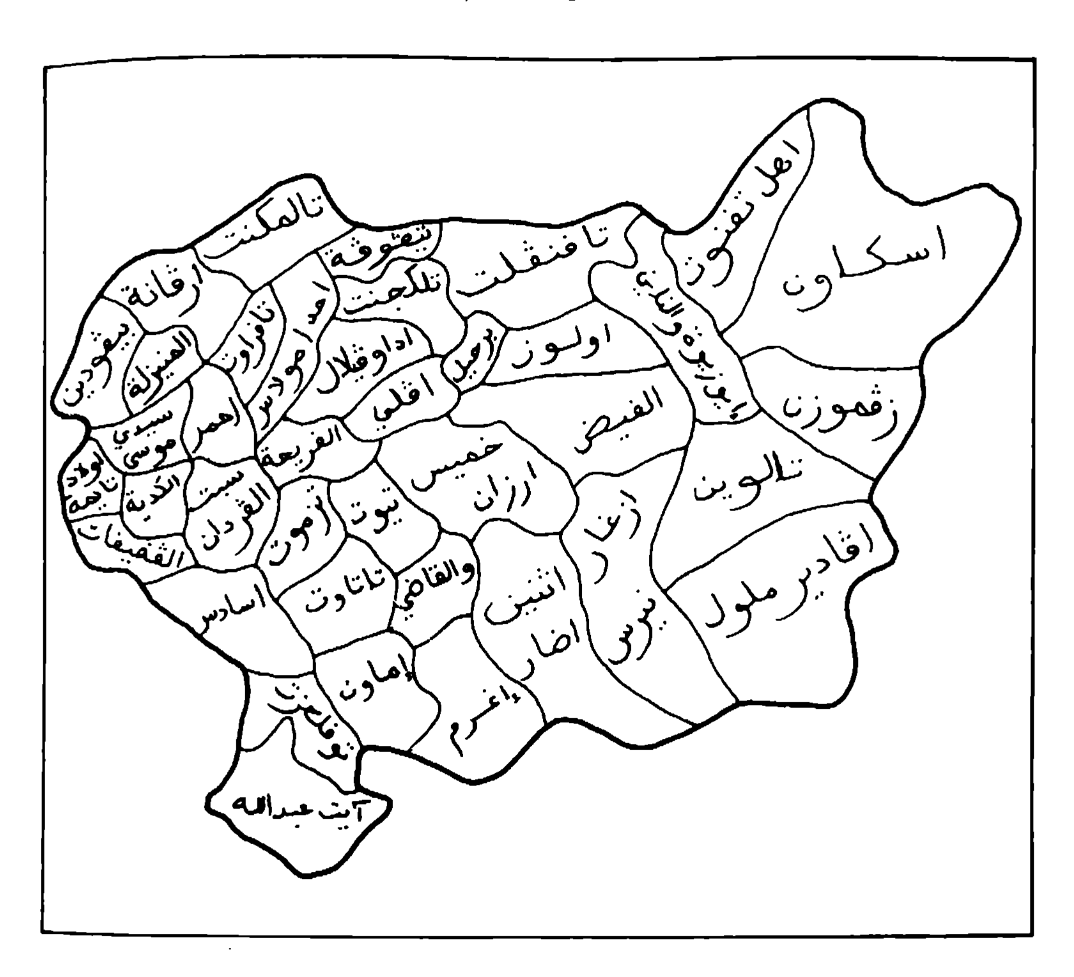
لا شك أن هذه العناصر العامة تختلف كثيرا من جهة إلى أخرى، داخل هذا الاقليم الفسيح، حسب تباين المميزات الطبيعية والامكانات الفلاحية وقدم التعمير. ونتناول أولا ملامح تطور السكان حسب الجماعات داخل الدوائر الادارية الأربع المؤلفة لهذا الاقليم قبل أن نحاول التعرف فيما بعد على الوحدات السكانية الكبرى.

ويلاحظ بادىء ذي بدء التفاوت البين الذي حدث في وتيرة النمو بين عقدي الستينات والسبعينات على مستوى الجماعات الريفية. فبينما زادت 15 جماعة بمعدل يفوق 2% سنويا بين 1960 و 1971، لم تحقق هذا المعدل سوى 9 جماعات بين 1971 و1982. كما أن أربع جماعات فقط هي التي سجلت معدلات تقل عن 1% وجماعة خامسة عرفت تطورا سلبيا في الفترة الأولى مقابل 10 جماعات وثلاث أخرى في الفترة الثانية. (جدول 7)

جدول 7 - عدد الجماعات حسب وتيرة التزايد بين عقدي الستينات والسبعينات

معدلات التزايد السنوية	أكثر من 4%	3 - 4%	2-2,9%	1-1,9%	أقل من 1%	سلبي
1960 - 1971	2	6	7	19	4	1
1971 - 1982	0	5	4	17	10	3

خريطـة 1 : الجماعـات الريفيـة بإقليم تارودانت



في نفس السياق، نجد أن هناك 29 جماعة سجلت تراجعا في معدل نموها بين الفترتين الاحصائيتين السالفتي الذكر، بعضها بشكل كبير جدا، مقابل 8 جماعات ارتفع فيها معدل النمو، لكن تقريبا دائما بنسبة خفيفة، بينما ظل المعدل مستقرا في الجماعتين الباقيتين. (جداول 8، 9، 10 و11).

جدول 8 – تطور نسب النمو في جماعات دائرة تارودانت (%)

الجماعات	1960 - 1971	1971 - 1982	1960 - 1982
فريجة	3,63	3,24	3,43
أحمر	3,31	2,58	2,95
اولاد برحيل	2,34	2,67	2,51
احد افلي	2,60	2,41	2,51
الفيض	2,28	1,78	2,03
اثنين ادا اوقيلال	2,13	1,80	1,96
تازمورت	1,76	1,73	1,74
تافنقلت	1,81	1,45	1,63
اولوز	1,46	1,66	1,56
تيوت	1,63	1,30	1,47
سبت تافراوت	2,14	0,81	1,47
احد إمولاس	1,41	0,69	1,05
خميس ارزان	1,52	0,66	1,09
خميس تلكجنت	0,95	0,40	0,68
اثنين تيفوفة	0,52	1,83	0,64
المجموع	1,97	1,68	1,82

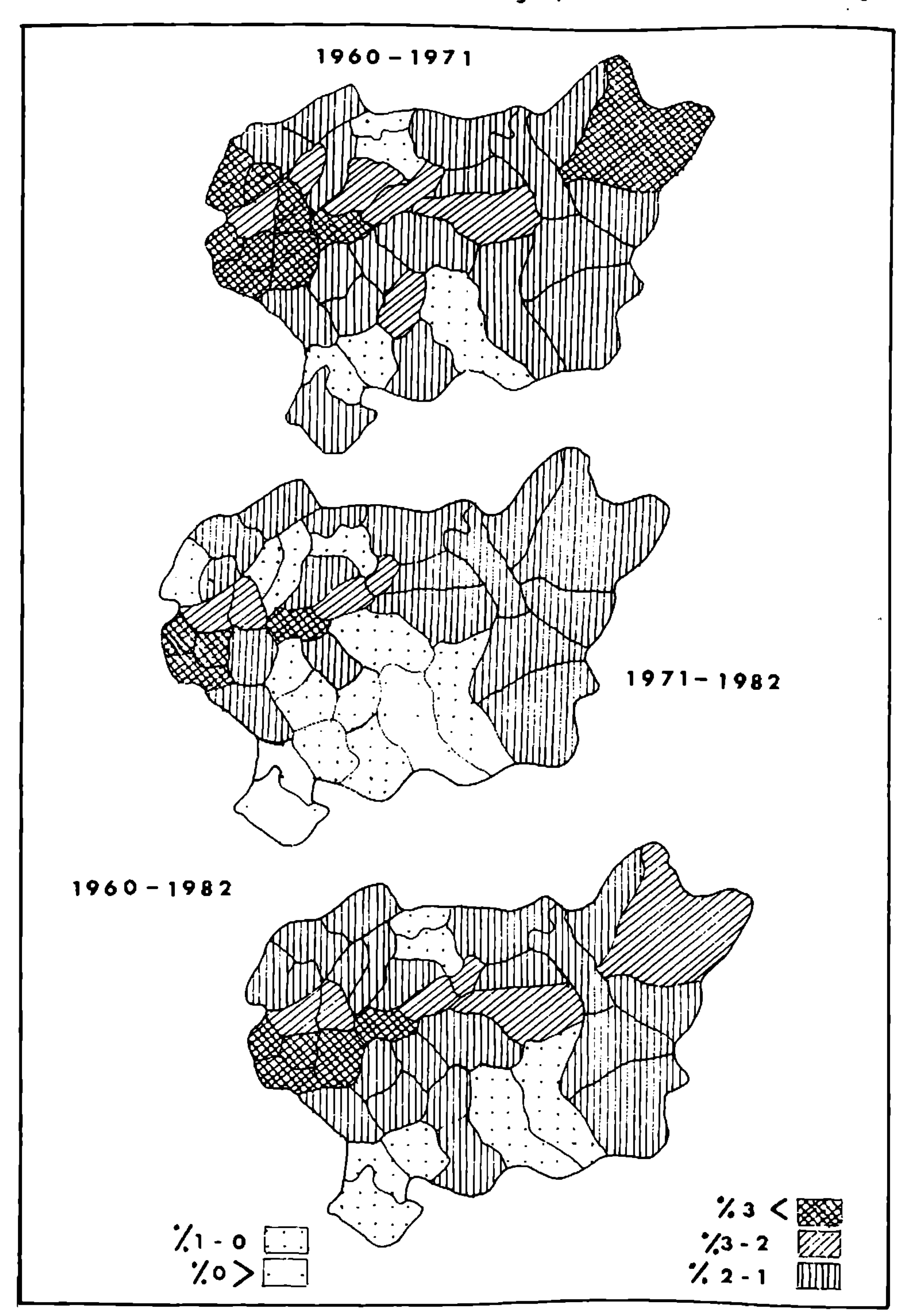
جدول 9 - تطور نسب النمو في جماعات اولاد تايمة (%)

الجمـــاعـــات	1960 - 1971	1971 - 1982	1960 - 1982
سبت الفردان	4,04	3,24	3,64
سبت الققيفات	3,87	2,93	3,38
اولاد تايمة	3,29	3,19	3,24
الكدية	3,06	3,34	3,20
سيدي موسى	2,56	3,21	2,88
خميس بيقودين	3,11	0,87	1,98
أربعاء اسادس	1,93	1,67	1,80
أرقـــانة	1,77	1,54	1,65
احـــد المنيزلة	1,70	1,03	1,36
سبت تالمكانت	1,09	1,37	1,23
الــمـجـمـــــوع	2,96	2,61	2,78

جدول 10 - تطور نسب النمو في جماعات دائرة اغرم (%)

الـجـمـــاعـــات	1960 - 1971	1971 - 1982	1960 - 1982
والقاضي	2,40	0,35	1,37
اغرم	1,72	0,55	1,13
سبت تاتاوت	1,17	0,86	1,01
ازغار نيرس	1,31	0,55	0,93
احد اماون	0,76	0,13	0,44
اثنين توفلعزت	0,88	0,06	0,41
ايت عبد الله	1,20	0,65	0,25
اثنين اضار	0,41	0,09	0,16
المجمـــــوع	1,19	0,19	0,69

خريطـة 2 : نسبة تزايد السكان بالأريـاف



جدول 11 - تطور نسب النمو بجماعات دائرة تالوين (%)

الجماعات	1960 - 1971	1971 - 1982	1960 - 1982
اسكاون	4,25	1,30	2,76
ايوزيوة والناين	1,64	1,85	1,75
زقموزن	1,89	1,57	1,73
اقادير ملول	1,78	1,61	1,69
اهل تفنوت	1,43	1,51	1,47
تالوين	1,22	1,25	1,23
المجموع	2,09	1,48	1,79

ونتيجة لهذا التفاوت في إيقاع النمو (المتأرجح بين + 4% و - 0,65% حسب الجماعات والفترة الإحصائية) تطور عدد السكان بشكل جد متباين من جماعة لأخرى، إذ أنه تضاعف في بعضها بأكثر من مرتين ونصف بينما لم يسجل سوى زيادة طفيفة جدا، أو ظل راكدا، طيلة العقود الثلاثة المنصرمة. (جداول 12، 13، 14 و15).

وبهذا تغير من جهة وزن كل جماعة في مجموع ريفيي الاقليم ومن جهة ثانية زاد تباين الضغط السكاني. فحصة الجماعات التسع التي نمت بمعدل يفوق 2% سنويا بين 1960 و1990 وبالتالي تضاعف سكانها مرتين أو يزيد،مرت من 24% إلى 34% في جملة سكان الأرياف بين بداية هذه المدة ونهايتها.

وانعكس ذلك على مدى الضغط الديمغرافي الذي يظهر من خلال التوسع المستمر الذي عرفه حجم الأسر والتزايد الهام الذي سجلته الكثافات العامة. وبالفعل، فإن متوسط حجم الأسرة بأرياف تارودنت قد انتقل من 4,96 أفراد في 1960 إلى 5,87 في 1971 إلى 6,37 في 1982 ليوجد ربما حاليا في مستوى 6,7 إذا ما كانت نزعة التزايد السابقة قد استمرت. وجاءت ظاهرة تضخم الأسر هذه شبه عامة، إذا ما استثنينا حالة بعض الجماعات بدائرة إغرم التي وقع بها توسع الحجم خلال الستينات ثم تراجع خفيف أثناء العقد التالي، بينما بلغ متوسط هذا الحجم أعلى مستوى له بسهل سوس حيث يداني ثمانية أفراد ببعض الجماعات. (جدول 19/18/17/16)

جدول 12 – تطور عدد سكان جماعات دائرة تارودانت

الجماعات	1960(*)	1971(*)	1982(*)	1990(**)
الفيض	14.200	18.191	22.085	25.000
أولوز	14.547	17.065	20.453	23.000
تافنفولت	12.822	15.623	18.305	20.200
فريجة	7.502	11.103	15.760	19.000
أحمر	7.210	10.321	13.659	16.000
خميس ارزان	11.217	13.248	14.235	14.500
احد اقلي	7.275	9.650	12.540	14.500
احد امولاس	10.739	12.525	13.516	14.000
اثنين ايدا وڤيلال	8.038	10.132	12.333	14.000
سبت تافراوفت	8.963	11.319	12.363	13.000
اولاد برحيل	6.167	7.958	10.634	13.000
تازمورت	7.515	9.102	10.992	12.000
خميس تالكجونت	6.092	6.760	7.066	7.000
اثنين تيفوڤة	4.537	4.272	5.216	6.000
تيوت	3.931	4.696	5.414	6.000
المجموع	130.755	161.965	194.571	217.000

جدول 13 – تطور عدد السكان بجماعات دائرة تالوين

الجماعات	1960(*)	1971(*)	1982(*)	1990(**)
اسكاون	12.469	19.700	22.713	24.500
تالوين	15.988	18.269	20.941	23.000
ايبوز يوة والناين	11.311	13.534	16.560	19.000
اهل تفنوت	12.248	14.321	16.893	19.000
زقموزن	7.727	9.499	11.269	12.500
أقادير ملول	6.805	8.259	9.848	11.000
المجموع	66.548	83.582	98.224	109.000

(*) إحصاء (**) تقدير

جدول 14 - تطور عدد السكان بجماعات دائرة اولاد تايمة

الجماعات	1960(*)	1971(*)	1982(*)	1990(**)
اولاد تايمة	15.307	21.851	30.871	38.500
سبت الفردان	10.543	16.291	23.128	29.000
سبت الڤفيفات	11.193	16.989	23.235	28.000
الكدية	7.928	11.042	15.851	20.000
سيدي موسى	7.488	9.888	13.993	17.500
خميس بيڤودين	7.033	9.846	10.827	11.000
أربعاء اسادس	6.892	8.051	10.197	11.000
سبت تالمكانت	6.250	7.040	8.181	9.000
أرڤانة	4.483	5.436	6.428	7.000
احد المنيزلة	3.527	4.244	4.752	5.000
المجموع	80.644	111.128	147.463	176.000

جدول 15 - تطور عدد السكان بجماعات دائرة اغرم

الجماعات	1960(*)	1971(*)	1982(*)	1990(**)
سبت تاتاوت	7.371	8.379	9.202	9.700
اثنين توفلعزت	8.695	9.571	9.510	9.400
والقاضي	6.704	8.705	9.047	9.300
اثنين اضار	8.946	9.357	9.263	9.200
اغرم	5.770	6.962	7.393	7.600
احد اماون	6.657	7.233	7.339	7.400
أيت عبد الله	7.196	8.209	7.602	7.200
أزغارنيرس	5.643	6.513	6.918	7.200
المجموع	56.982	64.929	66.274	67.000

(*) إحصاء
(**) تقدير

جدول 16 - تطور متوسط حجم الأسر بدائرة تارودانت

الجماعات	1960	1971	1982
الفيض	5,32	6,42	7,12
اثنين ادا وفيلال	5,02	6,05	6,92
أحمر	4,88	6,25	6,88
احد افلي	4,64	6,40	6,81
فريجة	4,75	6,87	6,76
خميس ارزان	5,48	6,31	6,55
تافنفولت	4,90	5,80	6,52
اولوز	4,83	5,69	6,50
اولاد برحيل	4,41	5,78	6,44
خميس تالكجنت	5,00	5,68	6,14
اثنين تيفوتة	6,07	(*)4,78	6,11
تازمورت	4,72	5,53	5,94
احد امولاس	4,55	5,35	5,81
سبت تافراوت	4,58	5,56	5,63
تيوت	4,49	5,20	5,41
المجموع	4,87	6,03	6,44

جدول 17 - تطور متوسط حجم الأسر بدائرة تالوين

الجماعات	1960	1971	1982
أفادير ملول	5,50	6,31	6,96
ايبوزيوة والناين	4,92	5,77	6,70
اهل تفنوت	5,31	5,84	6,50
زنموزن	4,89	5,76	6,49
اسكاون	5,18	5,70	6,27
تالوين	4,86	5,39	6,18
المجموع	5,07	5,73	6,45

(*) 893 أسرة عوض 1293 بمنشور الإحصاء. مما يعطي فقط معدل 3,30!

جدول 18 – تطور متوسط حجم الأسر بدائرة اولاد تايمة

الجماعات	1960	1971	1982
الكدية	5,65	6,60	7,74
سبت القفيفات	5,19	6,84	7,67
سيدي موسى	5,04	6,13	7,31
سبت الفردان	5,26	6,58	7,09
احد المنيزلة	4,53	5,25	6,68
اولاد تايمة	4,97	4,63	6,65
خميس بيفودين	4,69	6,30	6,49
أربعاء اسادس	5,19	6,09	6,17
ارفانة	4,23	5,28	5,90
سبت تالمكانت	4,65	4,98	5,36
المجموع	5,01	6,17	6,86

جدول 19 – تطور متوسط حجم الأسرة بدائرة اغرم

الجماعات	1960	1971	1982
ازغار نيرس	5,46	5,96	5,78
سبت تاتاوت	4,95	5,39	5,69
والقاضي	5,25	4,71	5,51
اغرم	4,63	5,43	5,29
احد اماون	4,82	5,26	5,21
اثنين اضار	5,39	5,22	5,05
توفلعزت	4,94	5,30	5,04
أيت عبد الله	4,44	5,12	4,80
المجموع	4,96	5,26	5,29

وعرفت الكثافات العامة بدورها تباينات صارخة للغاية في تطورها. إذ أنها في الوقت الذي تتعدى فيه 100 ساكن في الكم² كمتوسط حاليا في بعض الحالات (6 جماعات في 1990) تقل فيه عن 20 في حالات أخرى (9 جماعات) كما يظهر من الجدول 20.

جدول 20 – عدد الجماعات حسب تطور الكثافة

متوسط الكثافة	1960	1971	1982	1990
أقل من 10 في الكم²	2	1	1	1
10 – 20 في الكم²	16	10	10	8
21 – 30 في الكم²	10	13	10	8
31 – 50 في الكم²	8	6	10	12
51 – 100 في الكم²	3	8	5	5
أكثر من 100 في الكم²	0	1	3	5
المجموع	39	39	39	39

وزاد تعمق هذه الفوارق مع مرور السنوات والعقود : فالفرق بين أعلى قيمة في متوسط الكثافة (جماعة اولاد تايمة) وأضعف قيمة (جماعة اڤدير ملول) الذي كان هو 15 مرة في 1960 أصبح 18 تقريبا في 1971 و 21 مرة في 1982 ثم 23 مرة في 1990 (جداول 21، 22، 23 و24).

في الجملة، نجد أن الجماعات التي نمت بمعدل يساوي أو يزيد عن 3% سنويا بين 1971 و1982، قد تعززت حصتها في مجموع سكان الاقليم من 18% إلى نحو 27% في ظرف ثلاثين سنة (1960 – 1990)، أي أن وزنها زاد بنسبة النصف، بينما تراجعت حصة الجماعات التي زادت بأقل من 1% سنويا، في نفس الفترة، من 32% إلى 24%، أي أن وزنها هبط بنسبة الربع. (جدول 25).

جدول 21 - تطور متوسط كثافة السكان بدائرة تارودانت

الجماعات	1960	1971	1982	1990
فريجة	39,7	58,7	83,4	100
اولاد برحيل	43,7	56,4	75,4	92
احد اقلي	43,3	57,4	74,6	86
اولوز	54,5	63,9	76,6	86
أحمر	25,3	36,2	47,9	56
سبت تافراوت	32,5	41,0	44,8	47
تافنقولت	30,0	36,6	42,9	47
احد امولاس	33,4	38,9	42,0	44
اثنين تيڤوڤة	30,2	28,5	34,8	40
اثنين ادا اوڤيلال	22,8	28,8	35,0	40
تازمورت	21,4	25,9	31,3	34
خميس تالكجنت	28,5	31,6	33,0	33
الفيض	18,5	23,7	28,8	33
خميس ارزان	20,0	23,6	25,3	26
تيوت	11,6	13,9	16,0	18
المجموع	27,2	33,7	40,5	45

جدول 22 - تطور متوسط كثافة السكان بدائرة تالوين

الجماعات	1960	1971	1982	1990
اييوزيوة والناين	18,7	22,3	27,3	31
أهل تفنوت	19,8	23,1	27,2	31
زڤموزن	17,2	21,2	25,1	28
تالوين	15,5	17,7	20,3	22
اسكاون	9,8	15,4	17,8	19
اڤادير ملول	5,6	6,8	8,1	9
المجموع	12,8	16,1	18,9	21

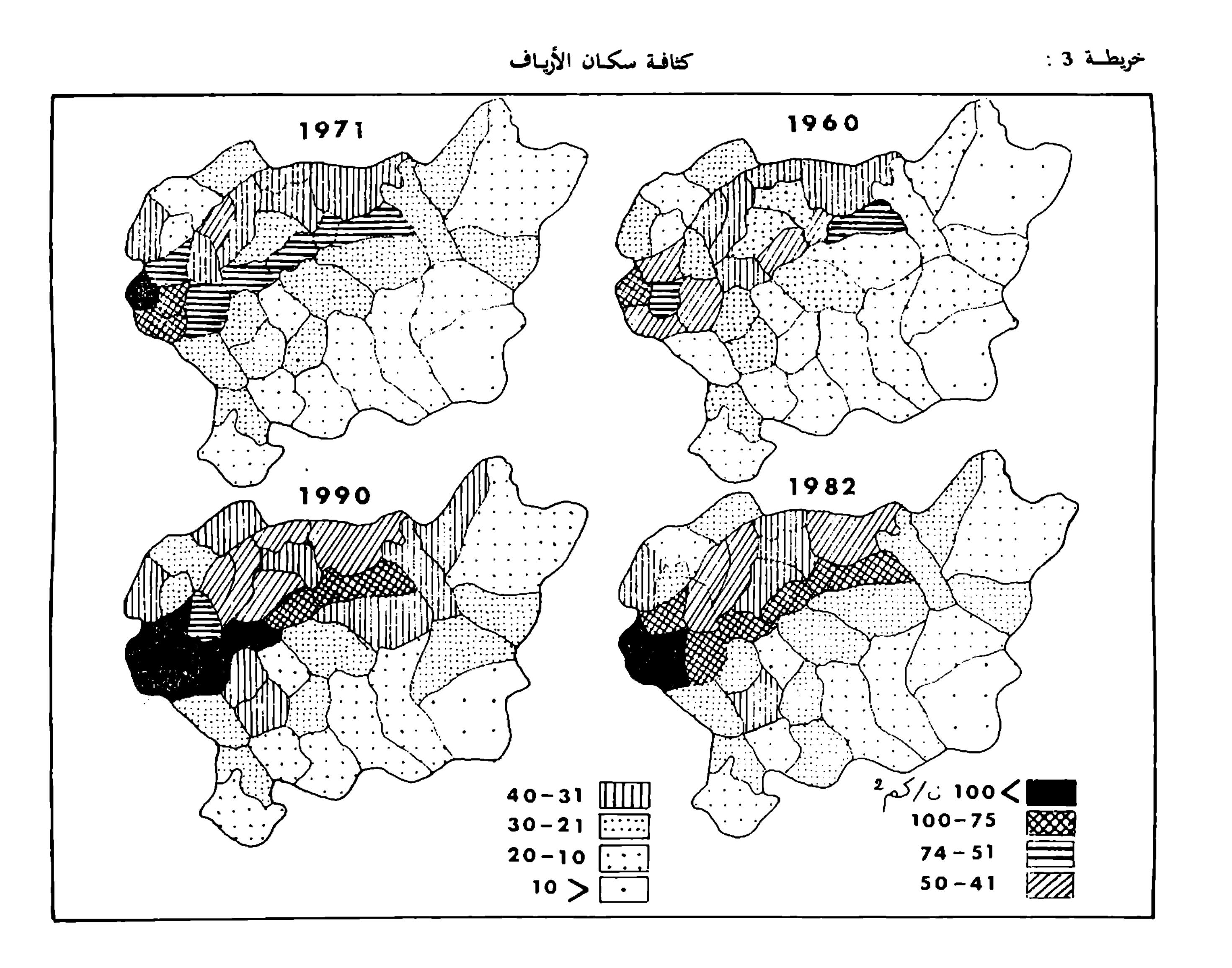
جدول 23 - تطور متوسط كثافة السكان بدائرة اولاد تايمة

الجماعات	1960	1971	1982	1990
اولاد تايمة	83,6	119,4	168,7	210
الكدية	63,4	88,3	126,8	160
سبت الفقيفات	49,3	74,8	102,4	123
سبت القردان	40,7	62,9	89,3	112
سيدي موسى	45,1	59,6	84,3	105
خميس بيفودين	23,9	33,5	36,8	37
سبت تالمكانت	21,0	23,6	27,5	30
اربعاء اسادس	17,6	21,7	26,1	28
احد المنيزلة	16,0	19,3	21,6	23
ارقانة	12,6	15,3	18,1	20
المجموع	32,3	44,5	59,0	70

جدول 24 - تطور متوسط كثافة السكان بدائرة اغرم

الجماعات	1960	1971	1982	1990
سبت تاتاوت	26,0	29,6	32,5	34
والقاضي	18,9	24,5	25,5	26
اثنين توفلعزت	21,7	23,9	23,8	23
اغرم	14,5	17,5	18,6	19
احد اماون	16,0	17,4	17,7	18
اثنين اضار	16,5	17,3	17,1	17
آيت عبد الله	15,9	18,2	16,8	16
ازغار نيرس	10,5	12,1	12,8	13
المجموع	16,8	19,2	19,6	20

خريطـة 3 : كثافة سكان الأرياف



وهكذا نجد أن الجماعات ذات النمو البطيء جدا (أقل من 1% سنويا) قد تراجع عددها وكذا وزن سكانها في مجموع ريفيي الاقليم، وذلك من حوالي الثلث في 1960 إلى أقل من الربع في 1990، بينما ارتفعت حصة الجماعات ذات النمو السريع جدا (أكثر من 3% سنويا)، خلال نفس الفترة، من 18% إلى 27%، كما يظهر من الجدول ر2 الذي يبين أيضا استقرار حصة الجماعات ذات النمو المعتدل في حدود النصف تقريبا.

جدول 25-تطور الوزن السكاني للجماعات.
(حسب نسبة نموها بين 1971 و1982)

نسبة تزايد سكان الجماعات	الوزن السكاني في مجموع سكان الاقليم (%)			
	1960	1971	1982	1990
أقل من 1%	32,4	30,3	26,7	24,3
1 الى 2%	43,5	42,3	41,8	41,3
2,1 الى 3%	6,2	6,6	7,3	7,6
أكثر من 3%	17,9	20,7	24,3	26,7

اعتمادا على هذه العناصر السكانية العامة (نسبة التزايد السنوي، عدد السكان الاجمالي، متوسط الكثافة وحجم الأسر)، ورغم افتقارنا لمؤشرات أخرى ذات دلالة ديموغرافية أهم (معدلات الانجاب والمواليد والوفيات والتزاوج والهجرة وبنيات العمر والجنس والنشاط...) نستطيع أن نلمس مدى الاختلافات المجالية الواضحة الموجودة في تطور سكان الأرياف بإقليم تارودنت.

فبالامكان التعرف على ثلاثة مجالات سكانية كبرى بهذه الأرياف التي تتميز بتباينات هامة على مستوى المعطيات الطبيعية وطرائق استغلال الأرض. وتختلف هذه المجالات كثيرا من حيث قوة الضغط السكاني ومعدلات النمو :

– المناطق الجنوبية والشرقية الشاسعة الممتدة على الأطلس الصغير والتي تمثل أزيد من ثلاثة أرباع مساحة الاقليم. فرغم الظروف الطبيعية العسيرة التي تميزها (فقر التربات وقلتها، قساوة الجفاف وندرة الموارد المائية...) فإن هذه الجهات لا تزال تحتفظ بنحو نصف سكان الاقليم، أي زهاء 277000 نسمة في 1990. غير أن هذه الحصة في تناقص مستمر إذ أنها كانت تمثل أكثر من ثلاثة أخماس في الأربعينات. ومرد هذا التراجع الى حدة النزوح

الذي يشهده الأطلس الصغير عموما، مما جعل نسبة تزايد السكان في هذه الجماعات تنزل الى مستوى 1% سنويا بين 1971 و1982، ودون ذلك خلال الثمانينات. والراجح أن نزعة الهجرة هذه آخذة في الاحتدام نظرا لاستمرار كثافة سكانية أعلى مما تستطيع أن تتحمله هذه الجهات شبه الصحراوية، الصعبة الانفتاح، أي نحو 22 نسمة في الكم² حاليا، مقابل 15 فقط منذ ثلاثة عقود خلت. وهذا يسمح لنا بتوقع بلوغها قريبا الى وضعية استقرار السكان قبل نهاية هذا القرن، لتدخل مرحلة التناقص التي انطلقت بالفعل في ثلاث جماعات واقعة على الهوامش الجنوبية، بدائرة إغرم (ايت عبد الله، اثنين اضار، اثنين توفلعزت) التي سجلت تراجعا في عدد سكانها بين 1971 و1982. وليس هناك شك في أن الجماعات المجاورة، بنفس الدائرة وخارجها، قد سلكت هذا النهج خلال السنوات الماضية.

– السفوح الجنوبية للأطلس الكبير، باستثناء قبائل إيدا وزيكي على طول منخفض اسيف نايت موسى. هنا، على عكس سفوح الأطلس الصغير التي لا تنحدر منها سوى مسيلات مؤقتة الجريان، توجد أودية أهم تجري بها بعض الأنهار الصغيرة التي سمحت بانتشار مساحات مسقية منذ قديم، وبالتالي بتراكم سكاني هام نسبيا. فالكثافة العامة تصل هنا الى 44 نسمة في الكم² في 1990، مقابل 29 في 1960.

ويظهر أن مجال الجماعات السبع الموجودة هنا، والذي يمتد على نحو 13% من مساحة الاقليم ويضم 16% تقريبا من سكانها الريفيين، قد بلغ حد التشبع السكاني لتنطلق به تيارات النزوح بقوة خلال السنوات الأخيرة. فنسبة التزايد تراجعت فعلا من 1,8% سنويا خلال الستينات الى أقل من 1,4% أثناء السبعينات لتنزل الى مستوى 1% في الثمانينات ودون ذلك في العقد التالي.

– وادي وسهل سوس، انطلاقا من أولوز الى أولاد تايمة، على طول أكثر من 110 كم. بينما يضيق الوادي شرقا يزيد انفراجا بعد تارودنت ليتسع أكثر فأكثر بالسهل نحو الغرب. وتنعم أراضي الوادي والسهل بظروف طبيعية أفضل بكثير من باقي الاقليم بسبب توفرها على التربات الجيدة والمياه، خاصة منها الجوفية. هنا يمتد مجال تسع جماعات، على نحو 11% من مساحة الاقليم لكن يتكدس به أزيد من 36% من سكانه الريفيين، بعدما كانت حصتهم 26% في 1960 وحوالي الخمس فقط في الأربعينات.

ورغم كون الكثافة السكانية العامة تناهز 120 نسمة في الكم²، فإن الفلاحة المتنوعة المغلالة، وما تعرفه من تطور وعصرنة، وما تفرزه من أنشطة تجارية وصناعية، تسمح بامتصاص جل الزيادة الديمغرافية المحلية، بل وباستقبال أعداد هامة من الوافدين،

خصوصا من المجالين السابقي الذكر، مما جعل التزايد السنوي يسجل نسبة 2,9% بين 1971 و1982 و2,5% أثناء الثمانينات.

3 – ضعف التمدين وضآلة التأطير الحضري

يعد إقليم تارودنت من بين أضعف المناطق المغربية تمدينا، لا من حيث العدد المطلق للسكان الحضريين، ولا من حيث نسبة هؤلاء في مجموع السكان، وكذا عدد المراكز الحضرية التي لا تتعدى ثلاثة.

بالنظر الى مجموع السكان الحضريين، نجد أن هؤلاء قد تضاعف عددهم بنحو 9 مرات بين 1936 و1990، بحيث انتقلوا من حوالي 9000 الى زهاء 76000 نسمة. وتجدر الاشارة الى أن الطائفة اليهودية ظلت تتراوح بين 900 و1000 شخص حتى بداية الستينات، مكونة بين 10 أو 5% من مجموع الحضريين، لتتلاشى فجأة بعد ذلك. أما الأوربيون، فلم يتعد عددهم 200 في أقصى الحدود. وكان أولئك وهؤلاء يتركزون تقريبا كلهم بمدينة تارودنت.

جدول 26 ـ تطور عدد السكان الحضريين.

السنوات	المغاربة	اليهود	الاوربيون	المجموع
1936*	7533	926	137	8596
1952*	9317	966	17	10300
1960**	17475	950	191	18616
1971**	25700	11	98	25809
1982**	50888	–	91	50979
1990***	76000	–	؟	76000

* تارودنت

** تارودنت، أولاد تايمة وتالوين

*** تقدير سكان المراكز الثلاثة

3 . 1 – مميزات السكان الحضريين

باعتبار السكان المغاربة وحدهم، نجد أن عددهم قد تضاعف عشر مرات منذ منتصف الثلاثينات الى نهاية الثمانينات، بمعدل سنوي يناهز 4,4%. والظاهر أن فترة التزايد

القصوى جاءت، طيلة العقود الأربعة الماضية، خلال السنوات الأخيرة من الاستعمار والأعوام الأولى من الاستقلال، بمعدل يفوق 8% سنويا، بينما هبطت سرعة التزايد إلى أدنى مستوياتها أثناء عقد الستينات. في الجملة، حافظ السكان الحضريون على نفس معدل النمو بين 1936 و1971، في مستوى معتدل (3,6%) ليسجلوا تسارعا واضحا خلال عقد السبعينات (6,4%) يفوق المعدل السابق بنحو 80% أو معدل الوسط الحضري المغربي بنحو الربع.

جدول 27 ـ معدل التزايد السنوي لسكان المدن

الفترة	المعدل المحلي	المعدل الوطني	المعدل المحلي بالنسبة للمعدل الوطني
1960–1936	3,57	4,26	% 83,8
1971–1960	3,57	5,55	% 64,3
1982–1971	6,41	5,09	%125,9
1982–1936	4,24	4,64	% 91,4

واعتمادا على نسب التزايد هذه، فإن سكان المراكز الحضرية الثلاثة الموجودة بالاقليم نموا بنسبة 47% بين 1960 و1971 وبنسبة 98% أثناء العقد التالي. ويكون متوسط الزيادة السنوي هو 1268 نسمة بين 1936 و1990، مع تفاوت كبير حسب العقود :

جدول 28 ـ الزيادة السكانية بالمراكز الحضرية

الفترة	الزيادة الاجمالية	المتوسط السنوي
1952–1936	1784	112
1960–1952	8158	1020
1971–1960	8225	748
1982–1971	25188	2290
1990–1982	25112	3139

في الجملة، أدت سرعة النمو الديموغرافي العالية الى تضاعف عدد السكان الحضريين ثلاث مرات خلال العقدين الأخيرين (1971-1990) إذ انتقلوا من 25700 نسمة الى نحو 76000 نسمة.

غير أن نسبة التمدين بالاقليم لاتزال ضعيفة، في حدود 12% فقط أي ربع القيمة التي تسجلها حاليا على الصعيد الوطني. هذا وأن نسبة التمدين قد عرفت ارتفاعا محسوسا خلال عقد السبعينات خاصة، من جراء احتدام هجرة الأرياف بالاقليم، فانتقلت من 4,9% في 1960 و5,7% في 1971 الى 9,1% في 1982.

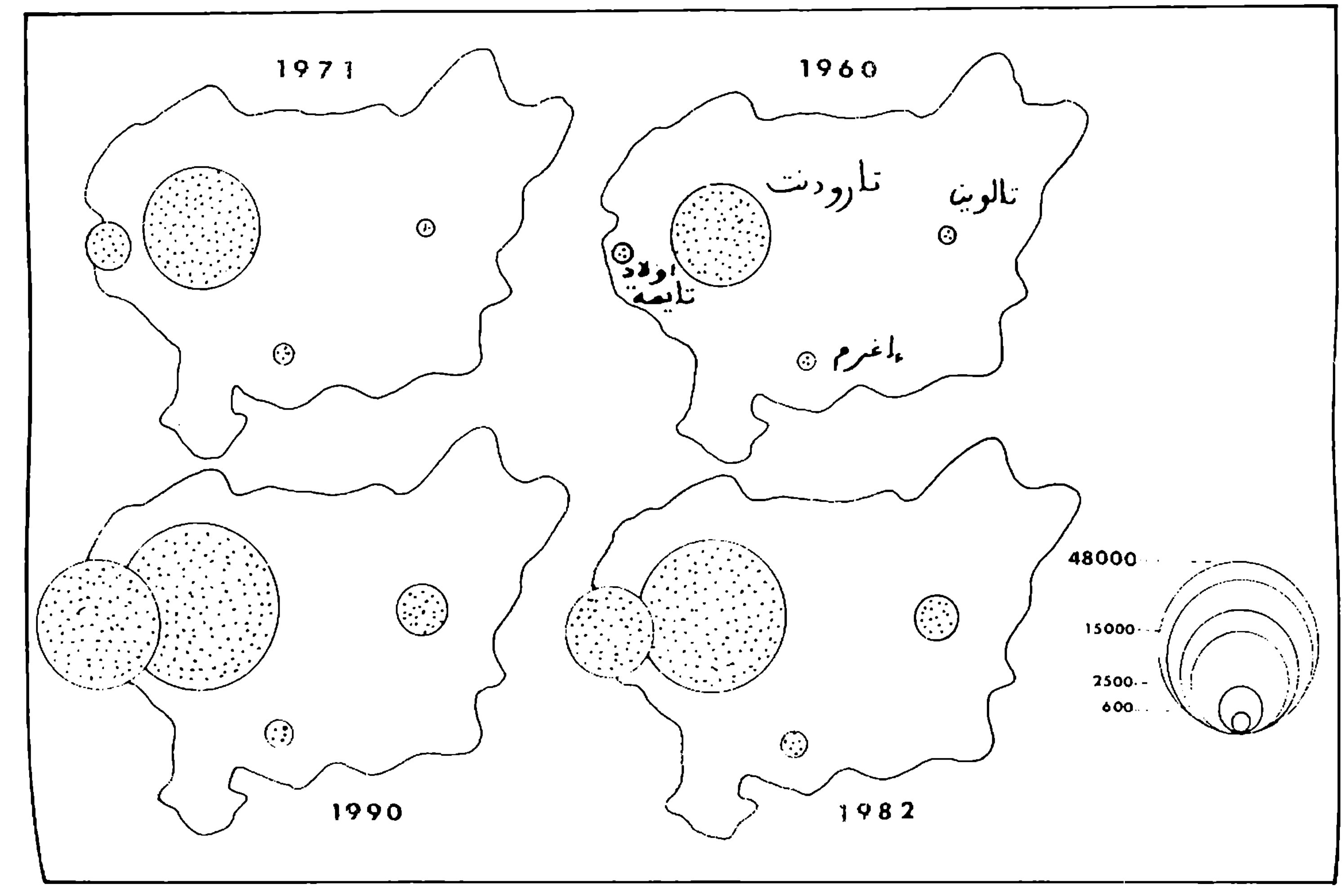
وبالقياس مع وضعية الاقليم، فإن هذا الأخير يتوفر على مدينة كبيرة نسبيا، تارودنت، وعلى مركز متوسط الحجم، يقع في أقصى الغرب، أولاد تايمة، وعلى مركز صغير في جهة الشرق، تالوين، إضافة الى مراكز قروية متفاوتة الأهمية مثل إغرم وفريجة وأولاد برحيل وارقانة وأرزان وغيرها. ونشير الى أنه كان بالاقليم في 1982، نحو 40 دوارا يزيد عدد سكان كل منها على 1000 نسمة، أربعة منها تفوق 2000 نسمة. وجل هذه القرى والدواوير مرشحة للترعرع والتوسع لتصبح مراكز حضرية في أمد قصير أو متوسط، مما سيعزز لا محالة التأطير الحضري بالمنطقة.

3 - 2 - اختلافات النمو حسب المراكز.

عرفت المراكز الثلاثة نموا متغايرا تماما، تبعا لظروف ترعرعه وتطوره الخاصة. فنظرا لحداثته ولوجوده في قلب منطقة فلاحية غنية وعلى محور طريقي جد نشيط، يربط أقادير بتارودنت ومراكش وورزازات، فإن مركز أولاد تايمة هو الذي شهد أقوى وتيرة للنمو خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بفعل التوافد الضخم وما ترتب عنه من زيادة ديموغرافية هائلة وكذا بسبب انسكاب المركز على هوامشه وانصهار دواوير مختلفة داخل مجاله السريع الامتداد. فسكان أولاد تايمة قد زادوا بنحو خمس مرات في مدة 11 سنة بين 1971 و1982، بمعدل 885 نسمة كل عام أو بنسبة تزايد سنوية تداني 15% ! وباعتبار أن نسبة النمو ظلت في مستوى 11-12% سنويا منذ 1982، فإن عدد سكان أولاد تايمة يكون قد وصل إلى نحو 24000 نسمة في 1990.

وسجل مركز تالوين ايقاع تزايد ضئيل جدا بين 1960 و1971، في حدود 1,5% سنويا. لكنه انفجر بعد ذلك إذ غدا متوسط التزايد هو 12,5% في العقد التالي، بحيث بلغ عدد السكان 2611 نسمة في 1982. ويمكن تقدير هذا العدد حاليا بنحو 4000 نسمة.

خريطة 4 : عدد سكان المراكز الحضرية



ومن الصعب تخيل توسع هام لهذا المركز الموجود في منطقة جافة وفقيرة، ذات كثافة سكانية ضعيفة تقل عموما عن 20 ساكنا في الكم²، وتتميز بنمو ديموغرافي بطيء جدا.

أما تارودنت، فنظرا لقدمها وأهمية حجم سكانها، فإن نسبة تزايد سكانها جاءت أخف مما حدث بالمركزين السالفي الذكر، أي بمعدل 3,7% بين 1960 و1982، مع احتدام الايقاع خلال العقد الثاني (4,4%) بالمقارنة مع العقد الأول (3%). وهكذا جاءت الزيادة السكانية الاجمالية خلال السبعينات (13560 نسمة) أكثر من ضعفي ما تحقق خلال الستينات (6200 نسمة) بمعدل سنوي يساوي، على التوالي، 564 و1233 ساكن. ونستطيع تقدير عدد السكان حاليا بحوالي 48000 شخص.

جدول 29 ــ تطور عدد السكان المغاربة ونسب النمو بالمراكز الحضرية

المراكز	عدد السكان				نسبة التزايد السنوي		
	1960	1971	1982	1990	71-60	82-71	82-60
تارودنت (1)	16000	22200	35760	48000	3,02	4,43	3,72
أولاد تايمة	867	2782	12517	24000	11,12	14,65	12,90
تالوين	608	718	2611	4000	1,52	12,45	6,85
المجموع	17475	25700	50888	76000	3,57	6,41	4,98

(1) بلغ عدد سكان تارودنت 8596 نسمة في 1936، من ضمنهم 926 يهودي و137 أوربي، ثم 9317 ساكن في 1952 منهم 966 يهودي و17 أوربيا.

جدول 30 ــ تطور حصة المراكز في الزيادة السكانية الاجمالية (%)

المراكز	1971-1960	1982-1971	1990-1982
تارودنت	75,4	53,8	48,7
أولاد تايمة	23,3	38,7	45,7
تالوين	1,3	7,5	5,6

يظهر الجدول مدى الأهمية التي راح يأخذها مركز أولاد تايمة بعد الاستقلال بحيث انتقلت حصته من حوالي ربع الزيادة السكانية خلال الستينات إلى نحو الخمسين أثناء السبعينات وإلى زهاء نصف الزيادة في الثمانينات، هذا على حساب تراجع حصة تارودنت بالخصوص، وهي المدينة التي نزل نصيبها في مجموع سكان المدن الى أدنى من الثلثين في 1990 بينما كانت تأوي أكثر من تسعة أعشارهم في 1960.

جدول 31 ـــ تطور الوزن السكاني بالمراكز (%)

المراكز	1960	1971	1982	1990
تارودانت	91,5	86,4	70,3	63,2
أولاد تايمة	5,9	10,8	24,6	31,6
تالوين	3,5	2,8	5,1	5,2

3 - 2 - أهمية الهجرة بالمدن

لاشك أن نسب النمو الديمغرافي القوية المسجلة بمدن الاقليم لا يمكن أن تعزى فقط الى الزيادة الطبيعية للسكان. خاصة في حالة أولاد تايمة وتالوين، حيث دنت النسبة من 17% و13% سنويا خلال عقد السبعينات. فهذان المركزان ينموان أساسا بتوافد السكان إليهما، وهو توافد يقع في ظروف سكانية محلية جد متباينة.

فمركز تالوين يقع في منطقة جبلية محدودة الموارد. ورغم سيادة كثافات سكانية ضعيفة على العموم (أقل من 20 ساكنا، بل غالبا أقل من 10، في الكم²، فإن هجرة الأرياف باتت هامة خارج المنطقة، وكذا نحو تالوين الذي هو في نفس الوقت المركز الاداري لجماعته الريفية ولدائرة تضم خمس جماعات أخرى، تمتد على مساحة 5200 كم² وبكتلة سكانية تفوق 000 110 نسمة. ومما يساعد تالوين على اجتذاب نصيب لا بأس به من مهاجري هذه الأرياف الفقيرة، احتضان المركز لبعض التجهيزات الأساسية ووقوعه على الطريق الرئيسية رقم 32 المؤدية من أقادير الى ورزازات.

والظاهر أن المركز يجتذب بالخصوص سكان جماعته التي سجلت أضعف نسبة تزايد ديمغرافي بالدائرة، أي 1,23% فقط كمعدل سنوي بين 1960 و1982، وهو معدل لا يزيد اليوم عن 1%. هذا لا يمنع من امتداد حوض استقطاب السكان نحو مركز تالوين الى الجماعات المجاورة، أي زڭموزن وإيوزيوة والناين وأزغارنيرس التي تعرف كلها نسب تزايد بطيئة. هذا ولا نغفل أن من أسباب تضخم سكان المركز كذلك طفوح هذا الأخير على هوامشه وابتلاعه لبعض الدواوير الصغيرة الواقعة بهذه الهوامش.

على عكس تالوين الذي يظل مركزا متواضعا لا يتعدى 4000 نسمة، فإن مركز أولاد تايمة قد أصبح اليوم مدينة صغيرة متسارعة التوسع، مجاليا وديمغرافيا واقتصاديا، تستقبل أعدادا غفيرة من الوافدين عليها من سوس وكذا من الأطلسين الصغير والكبير الغربيين.

ومرد هذه الهجرة العارمة الى موقع المدينة الممتاز، على أكثر من صعيد. فهي توجد في قلب سهل سوس الخصب الذي يشهد هنا تحولات فلاحية جذرية اعتمادا على الري وممارسة زراعات عصرية عالية المراديد يترتب عنها تقوية انشطة صناعية وتجارية متنوعة مرتبطة بالفلاحة أساسا، وما يتبع ذلك من تكاثف في التعمير. وقد ساعد كثيرا على تضخم المدينة وجودها في منتصف الطريق الرئيسية الواصلة بين أڤادير وتارودنت.

فهكذا، بفعل الهجرة أساسا تضاعف حجم سكان المدينة بنحو عشر مرات بين 1970 و1990، ليناهز اليوم 24000 نسمة، بمعدل 13% سنويا. ومن المرتقب أن يصل عدد سكان المدينة الى نحو 50.000 نسمة في مستهل القرن المقبل، أي ضعف العدد الحالي، في ظرف عقد واحد من الزمن.

أما تارودنت، فإن نسبة نموها الديمغرافي، التي لم تزد عن 3,7% خلال العقود الثلاثة المنصرمة، جعلت عدد سكانها يصبحون اليوم أكثر من ضعفي ما كانوا عليه في بداية السبعينات، هذا رغم أهمية تيارات الهجرة النازحة من المدينة والمتوجهة بالدرجة الأولى الى المدن الكبرى المغربية. فحسب معطيات إحصاء 1982، يكون قد غادر تارودنت نحو المدن الكبرى الأثنى عشر الموجودة آنذاك 2268 نسمة، حوالي 40% منهم صوب الدار البيضاء–المحمدية، و24% إلى أڤادير، و17% إلى الرباط–سلا و8% إلى أسفي، بينما استقطبت كل من المدن الكبرى الباقية 4% أو أقل من المهاجرين الرودانيين.

إذا افترضنا أن هذه المدن الكبرى قد استقطبت من مهاجري تارودنت حصة تتناسب مع وزنها في مجموع السكان الحضريين، أي حوالي الثلثين، يمكن أن نعتبر أن المدن الصغيرة والمتوسطة قد توجه اليها من تارودنت نحو 750 نازح آخرون. وبذلك تكون المدينة قد فقدت عن طريق النزوح، ما يعادل 3000 مهاجر بين 1975 و1982، أي بمتوسط 430 كل سنة.

خاتمة

انطلاقا من الاشارات التي أبديناها خلال استعراضنا لتطور سكان إقليم تارودنت، يمكن استخلاص بعض الملاحظات الأساسية :

1 – تتميز أرياف الاقليم بتباين واضح وصارخ فيما يخص كثافة التعمير وحيوية تزايد السكان، بحيث تتناقص الكثافات ويتمهل إيقاع النمو كلما ابتعدنا عن وادي سوس الذي أصبح، أكثر من أي وقت مضى، العمود الفقري الديمغرافي بالمنطقة، كما هو الحال بإقليم اقادير المجاور، نظرا لما له من ثقل اقتصادي متزايد ونظرا أيضا لتفاقم الأوضاع بالمناطق الجبلية، مما يتسبب في نزوح السكان عن هذه الأخيرة وتكدسهم بالوادي. وتظهر الجهات الشرقية والجنوبية من الاقليم كمجال ضغط ديمغرافي منخفض، دخلت أجزاء عديدة منه في طور الثبات السكاني وأخرى في طور التناقص، مقابل الوادي الذي يبرز كمحور اقتصادي وشريان مواصلات به ضغط ديمغرافي قوي جدا.

2 – يعرف الاقليم حركات هجرية نشيطة، بعضها داخلي وبعضها خارجي. فالاقليم من أهم مناطق النزوح الى خارج البلاد، وذلك منذ عقود عديدة. كما أن الهجرة الى الجهات الأخرى من المغرب، وهي ظاهرة قديمة، تتوجه الى المدن الكبرى بالخصوص. فما بين 1975 و1982، غادر الاقليم نحو 14000 نسمة تجاه هذه المدن الكبرى، ثلاثة أرباعهم من المجال الريفي. وإذا أضفنا إليهم من قصدوا المدن الصغيرة والمتوسطة وكذا الأرياف الأخرى، يمكن تقدير الكتلة البشرية التي غادرت إقليم تارودنت بنحو 20000 نسمة في ظرف سبع سنوات، أي بمعدل 2800 شخص كل سنة. وتستقطب الدار البيضاء وأقادير والرباط – سلا أزيد من ثلثي هؤلاء النازحين. في المقابل يستقبل الاقليم، وخاصة وادي سوس، وافدين من الجهات الجبلية بالأطلسين الكبير والصغير.

3 – تساهم الهجرات الوافدة من خارج الاقليم، ولكن بالدرجة الأولى تلك التي تتحرك داخل الاقليم، ومن أريافه الفقيرة بالخصوص، في تكاثر سكان المراكز الحضرية الثلاثة التي يتوفر عليها الاقليم. فنسبة السكان الحضريين التي كانت أقل من 5% قبل ثلاثين سنة، قد ارتفعت الى نحو 12% حاليا ضمن مجموع سكان الاقليم. ومن المنتظر أن تناهز 18% عند نهاية هذا القرن بنحو 000 140 نسمة من مجموع 000 785 سيضمهم الاقليم، ومع هذا سيستفحل عدم التوازن الموجود حاليا في هذا الباب، بحيث أن المناطق الجبلية ستظل مناطق ريفية يلحقها النزوح، بينما تتعدد المراكز الحضرية في وادي سوس وعلى طول الطرق الكبرى. ويبقى التجمعان الحضريان الأساسيان هما عاصمة الاقليم ثم أولاد تايمة الذي يرتقب أن يأوي من السكان، خلال العقد الأول من القرن المقبل، كتلة تضاهي تلك التي ينتظر أن تقطن تارودنت آنذاك.

مـراجـــع

1 – إحصاءات السكان الرسمية لسنوات 1936، 1951 – 1952، 1960، 1971 و1982.

2 – CERED : Analyses et tendances démographiques au Maroc 1986.

3 – CERED : Situation démographique régionale au Maroc. Analyses comparatives. 1988.

4 – A. FADLOULLAH : Evolution récente de la population et du peuplement au Maroc. in le Maroc : Espace et Société Passau 1990.

منشورات الكلية

1. صدر ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بأكادير.

1. دليل الكلية 1984 — 1985
2. دليل الكلية 1985 — 1986
3. دليل الكلية 1986 — 1987
4. دليل الكلية 1987 — 1988
5. دليل الكلية 1988 — 1989
6. دليل الكلية 1989 — 1990
7. مجلة الكلية «دراسات» العدد الأول (1987)
8. مجلة الكلية «دراسات» العدد الثاني (1988)
9. مجلة الكلية «دراسات» العدد الثالث (1989)
10. مجلة الكلية «دراسات» العدد الرابع (1990)
11. أعمال ندوة أكادير الكبرى : محور التعمير والجغرافيا
12. أعمال ندوة أكادير الكبرى : محور الثقافة والفكر
13. أعمال ندوة أكادير الكبرى : محور التاريخ
14. مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن 19 (سوس 1982 — 1906)،
    ذ. عمر أفا
15. «الشخصية في المسرح المغربي : بنيات وتجليات»،
    ذ. عز الدين بونيت
16. **الدروس الافتتاحية :**
    أ. المغرب العربي وآفاق الاندماج الاقتصادي.
    ذ. حبيب المالكي.
    ب. علاقات المغرب بإفريقيا ملاحظات أولية.
    ذ. عبد الله العروي
    ت. الانسان ومشكل التصحر في المناطق الجافة.
    ذ. إدريس الفاسي
    ج. بنو زهر : نظرات في تاريخ أسرة أندلسية
    ذ. محمد بنشريفة
    ح. شعر الصحراء
    ذ. عباس الجراري
    د. مأساة شيخ المعرة :
    ذ. أمجد الطرابلسي
17. أطلس مدينة أكادير الكبرى (لوحة رقم 7 أ، السياحة في أكادير)
    ذ. محمد بريان

2. منشـورات تحـت الطبــع :

1. أعمال ندوة الصويرة
2. دليل الكلية : 1992 ــ 1993
3. مجلة «دراسات» العدد الخامس 1991
4. ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار
5. أعمال ندوة مدينة الصويرة

3. منشـورات في طريقهـا إلى الطبـع :

1. أعمال ندوة الإنسان والإبل في إفريقيا
2. تاريخ العلاقات المغربية الافريقية :

ذ. أحمـد التوفيـق

3. جمع وتخريج ودراسة مرويات موسى بن عقبة في المغازي،

ذ. محمـد باقشيـش

4. مجلة دراسات : العدد السادس (1992)
5. مجلة دراسات : العدد السابع (1993)
6. مجلة دارسات : العدد الثامن (1994)
7. الدرس الافتتاحي : «التكرار في القراءات القرآنية كآلة من آلات التفسير وجهود سوس العالمة في الموضوع»،

ذ. التهامي الراجي الهاشمي.

8. أطلس مدينة أكادير الكبرى (لوحة : الماء الشروب بالمجموعة الحضرية لأكادير) :

ذ. الحسن المحداد

ROYAUME DU MAROC
UNIVERSITE IBNOU ZOHR

PUBLICATIONS DE LA FACULTE DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES
AGADIR

SERIE DES COLLOQUES ET JOURNEES D'ETUDES N° 2

TAROUDANT

CITE DU SOUSS

Actes des Journées d'Etudes
7 — 8 — 9 Avril 1988

2ème Edition

1997

COMITE D'ORGANISATION

Coordination :

Hassan BENHALIMA, Doyen de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines d'Agadir.

1. Comité scientifique de suivi et d'information :

- ABOUSSAWAB BRAHIM
- AL MAKARI AHMED
- HNAKA ATMANE
- NOUHI MOHAMED
- SOUGRATI MY HASSAN

2. Comité d'acceuil :

- AFA LAHOUCINE
- LAMSAIM ABDERRAZAK
- SIFER MOHAMED
- ZAARI LMBARKI IDRISS

3. Comité chargé de l'exposition

- EL MAGUIRI MOHAMED
- ERREGALI LAHOUCINE
- HNAKA ATMANE
- MOUNTASSIR AL MADANI

4. Comité chargé de la préparation de l'excursion scientifique :

- AZIKI SLIMANE
- HNAKA ATMANE
- LAHYA MOHAMED
- SOUGRATI MY EL HASSAN

5. Comité d'organisation matérielle :

- ABID MOHAMED
- EL ASRI MOHAMED
- CHOUIEKH ABDALLAH
- JABRAN SA!D
- LAMSAIM ABDERRAZAK

SOMMAIRE

EN FRANCAIS

EN ARABE

AXE HISTORIQUE :

AXE CULTUREL :

AXE GEOGRAPHIQUE :

L'IMPACT ECONOMIQUE URBAIN DANS LE SOUSS : LE CAS DU DOUBLET TAROUDANT - OULED TAIMA

Atmane HNAKA
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Agadir

Introduction

L'impact économique urbain a connu, au cours des dernières décennies, de profondes modifications dans le Souss, en raison de la multiplication du nombre des villes. Celle-ci est tributaire des transformations agricoles intervenues dans la plaine, des retombées de l'émigration à l'étranger et des chagements ayant affecté l'organisation traditionnelle des circuits commerciaux.

La campagne soussie, primitivement polarisée par les deux villes traditionnelles Taroudant et Tiznit, se trouve aujourd'hui directement pénétrée par les influences des différents éléments de l'armature urbaine régionale. Paradoxalement,les petits centres de création très récente, ont réussi, en un court laps de temps, à déclasser leurs voisins plus anciens et à s'imposer au sein de leur zone d'influence. Le cas des deux petites villes voisines, Taroudant et Ouled Teïma, qui comptent respectivement 35.848 et 12.519 habitants en 1982, en constitue le meilleur exemple. L'examen de leurs rôles respectifs quant au drainage des produits agricoles, à la redistribution des produits urbains et à la possession d'une partie du patrimoine foncier, permettra de faire le point de leurs aspects de complémentarité et de tiraillement au sein de l'espace rural soussi.

1 - La propriété foncière urbaine : une inégale assise dans la région :

Le mode de domination foncière de notre doublet urbain sera abordé en analysant quatre caractères principaux de cette emprise où s'opposent l'héritage de vieilles structures économiques à Taroudant, et celles résultant de l'évolution récente à Ouled Teïma.

1 -1 - Importance et répartition spatiale de la propriété foncière urbaine

1 - 1 - 1 - Un patrimoine foncier roudani faible limité aux abords immédiats de la ville.

Taroudant a toujours eu la main sur des terres rurales, durant sa longue histoire de ville makhzénienne, puisqu'elle régne sur le plus important terroir oléicole de la plaine. Sa population est restée imprégnée par le mode de vie rural comme dans nombre de villes traditionnelle. Assoussi (M.M) précise dans sa description de la ville vers la fin de la deuxième guerre mondiale que «Les sources de la richesse à Taroudant sont l'agriculture et l'appropriation des vergers d'oliviers et non le commerce.Les plus riches des citadins sont des propriétaires de vergers oléicoles, et sont au nombre de 100, selon

l'attestation d'un grand connaisseur de la Médina»[2]. Il ajoute que la guerre et la politique coloniale ont favorisé l'apparition de nouveaux riches, et cite en l'occurrence deux personnes dont une a pu se procurer uniquement dans le Souss environ 30000 ha. Mais la colonisation s'est taillée dans l'arrière-pays de la cité un domaine non négligeable. Si l'on se limite aux alentours de la ville, correspondant à la commune rurale de Freija où la propriété urbaine était exclusive, la propriété de la colonisation, actuellement récupérée et transférée à la SODEA, était de l'ordre de 350 ha,soit, 16, 2 % de la superficie irriguée de ce périmètre traditionnel.

Après l'Indépendance, la propriété foncière de Taroudant a régressé de façon appréciable du fait de l'émigration de la communauté juive, grand possesseur de terre dans la région, et du départ de nombreux autres citadins vers Agadir [3] et les autres villes du pays, en raison de la crise de l'économie urbaine.

A cela s'ajoutent les opérations de vente ayant intéressé une bonne partie de ces terres, effectuées en faveur de hauts fonctionnaires originaires de Rabat,de Fès et d'Agadir. Les communes de Sebt el Guerdane, d'Ahmar, d'Igli et d'Ouled Berhil ont été les plus touchées par ces transactions.Ainsi d'importantes superficies roudanies ont été transférées aux mains d'autres résidents le plus souvent loin de la région, et de ce fait, la propriété citadine roudanie qui comptait au lendemain de la deuxième guerre mondiale plus de 30000 ha, se rétrécit en 1982 à 2560, 24 ha.

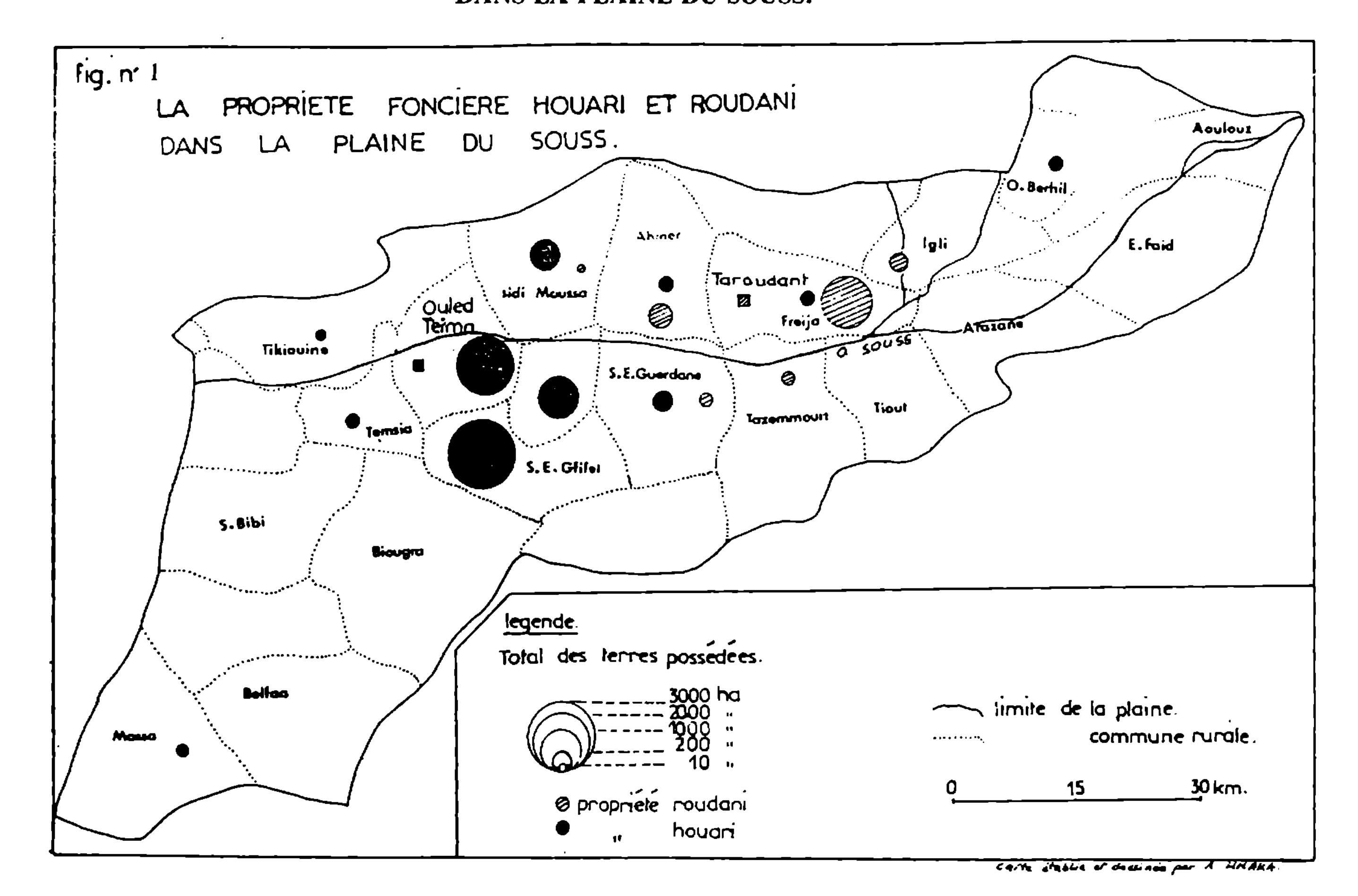
La répartition de ces terres se caractérise par une inégalité considérable selon les communes.En effet,la majeure partie de la propriété roudanie, soit 84,6 % est concentrée dans les communes de Freija (70,2 %) et Ahmar (14,4 %) (fig n°1).

Ces deux communes se trouvent dans la banlieue immédiate de la ville, et correspondent au périmètre traditionnel arboricole et maraîcher situé sur la rive droite de l'Oued Souss.

Cette importante concentration de la propriété s'explique par des facteurs d'ordre physique et socio-économique : rôle des sols d'origine alluvionnaire qui ont été soumis depuis des siècles à l'irrigation ce qui a influé sur leur évolution bien qu'ils conservent de très bonnes qualités agricoles (sol chatain couvrant 30 % de la superficie et sol isohumique 40%), micro-climat favorable aux arbres fruitiers,en particulier aux oliviers à grande possibilité d'irrigation grace à 5 séguias alimentées par les sources de l'Oued Souss (4 kms à l'Est de Taroudant) situation à l'écart de la vague des achats de terres agricoles envahissant la plaine dans les années 60 en raison de l'émiettement accentué de la propriété défavorable à la création d'exploitation moderne; majorité de déshérités, vieillards et veuves, qui, faute de ressources supplémentaires, manifestent un attachement aveugle à tout ce qui a trait au sol et à l'olivier, attitude semblable de la plupart des émigrés parmi les plus jeunes, souhaitant conserver un capital en terres ou tout simplement pour des raisons affectives(le sol et l'olivier restent le symbole de l'appartenance et de l'enracinement).

Il n'en reste pas moins qu'en plus de l'héritage foncier traditionnel, l'appropriation urbaine s'étend à d'autres communes, mais toujours dans le proche entourage de la ville.Il s'agit de petits lopins, récemment procurés ou appartenant à des immigrés nouvellement installés dans la ville. En somme, l'emprise foncière de Taroudant demeure

Fig n°1. **LA PROPRIETE FONCIERE HOUARI ET ROUDANI DANS LA PLAINE DU SOUSS.**



très faible et limitée sur le plan spatial; elle a connu depuis 1975 sinon une constante régression, du moins un très faible développement, contrairement à sa voisine Ouled Teima où l'on assiste, et ce depuis cette même date, à un élargissement rapide de l'assiette foncière.

1 - 1 - 2 - Un élargissement rapide de la propriété Ouled Teimi lié à l'immigration.

Ouled Teïma détient en 1982 - 8615,9 ha. En 1975, la propriété foncière houarie se limitait à 1118 ha, ce qui laisse penser que dans l'intevalle de 7 ans, elle a pu acquérir 7497 ha.

Ce remarquable gain revient en premier lieu, à l'installation à Ouled Teïma, d'un grand nombre d'agriculteurs provenant des différentes communes du Souss-intérieur. En effet, la plupart des agriculteurs houaris se sont procurés (par l'achat ou la construction) des résidences dans ce centre, pôle urbain le plus proche de leur lieu d'origine. Un tel choix ne peut être dicté, que par les impératifs de la vie actuelle, en particulier ceux relevant des besoins en services éducatifs et sanitaires. A cela s'ajoutent d'autres éléments d'ordre économique liés à la volonté de réduire les dépenses considérables résultant des navettes journalières entre le douar et la ville. L'élargissement rapide de l'assiette foncière Ouled Teimi, provient en second lieu de l'extension de la ville, et ce à travers l'engloutissement de nombreux douars voisins, dont une partie des habitants sont des propriétaires terriens.

Quant à la répartition géographique de la propriété Ouled Teimi, il s'est avéré que celle-ci dépasse les limites administratives du cercle,mais reste cependant concentrée dans la couronne immédiate de la ville, en particulier celle d'Ouled Teima, de Sebt El Guerdane, de koudia, et de Sidi Moussa, où elle représente 90,6 % contre 9,4 % dans le reste des communes (fig n° 1)

Cette situation s'explique par le fait que la banlieue immédiate d'Ouled Teima, correspondant aux communes citées ci-dessous, constitue en effet la principale zone d'où sont venus des paysans récemment installés dans cette ville.

Les superficies acquises varient d'une commune à l'autre, en fonction de la distance les séparant du centre. Les communes d'Ouled Teïma, Sidi Moussa, Koudia et Sebt Gfifat sont celles qui ont fourni la majeure partie de la propriété actuellement citadine. Elles constituent les plus riches communes du secteur agrumicole et maraîcher de toute la plaine où la colonisation rurale s'était implantée de façon appréciable.

La proriété Ouled Teimi reste partout ailleurs marquée par une grande faiblesse (carte n° I). Il s'agit surtout des biens récemment achetés par des néo-citadins dans les communes où les conditions régissant la vie agricole dans le Souss, en particulier l'eau sont avantageuses. Depuis 1978, date à laquelle la nappe phréatique a connu une baisse considérable, les houaris très ambitieux, ont commencé à se procurer des terres à l'amont de Taroudant et dans le périmètre irrigué par le barrage de l'Oued Massa. Dans la première zone, Freija, Ouled Berhil et Ahmar sont les communes, disposant encore d'importantes superficies de terres vierges et d'une nappe phréatique moins épuisée, du fait de la situation à l'amont de la plaine et du pompage qui n'est pas aussi accentué qu'à l'aval, sont situées au milieu de la plaine et traversées par les principaux axes

routiers. Une autre raison explique l'élargissement de cette propriété, notamment à Ahmar et à Ouled Berhil, elle tient au fait que c'est la partie du Souss où la vente des terres par les paysans a été la plus poussée de toute la région depuis l'indépendance. C'est un fait exceptionnel dans le Souss. Contrairement à ce qu'on trouve ailleurs, le paysannat local n'accorde que peu d'importance à la terre. Bien souvent on la vend pour mettre fin aux querelles familiales à cause des héritages, pour financer l'achat d'un téléviseur ou d'une moto ou pour célébrer un mariage...

1 - 1 - 3 - Une faible part de la propiété du doublet urbain dans la propriété privée de la plaine.

On a vu précédemment que la propriété foncière présente de grandes disparités du point de vue de son importance et de sa répartition, entre les deux villes. Cependant, elle est partout faible par rapport à la propriété privée. En effet, au niveau de la plaine en général, le rapport entre propriété urbaine et propriété privée permet de remarquer la faiblesse de l'appropriation foncière roudanie et houarie : respectivement 4,8 % et 16,4 % (tableau n°4)

La même remarque est à faire au niveau des communes rurales. A Taroudant, le plus fort taux intéresse la commune de Freija (27,1 %), commune où la propriété roudanie connaît sa grande concentration. A Ouled-Teima, trois des communes rurales les plus proches du centre s'individualisent : Ouled Teima 28,4 % Koudia 30,7 % et Sidi Moussa 10,6 %.

Tableau n°1

Part de la propriété foncière Roudanie et Houarie dans la propriété privée en 1982.

Comune rurale	Sup. de la prop. privée	Prop. Roudani en ha	%	Prop. Houarie en ha	%
Ouled Teïma	8676,52	-	-	2472,23	28,4
Sidi Moussa	8097,55	9	0,1	863,25	10,6
Temsia	4168,37	-	-	94,32	2,2
Sebt. ElGfifat	11311,15	-	-	3159,1	28
Sebt El Guerdane	8122, 5	112,5	1,3	338	4,1
Koudia	4482,65	-	-	1379	30,7
Freija	6165	1796,79	29,1	90	1,4
Ahmar	7604,98	370,45	4,8	92	1,2
Tazemourt	2753,52	82,25	3	-	-
O. Berhil	4482	-	-	70	1,5
Igli	3136,90	189,28	6	-	-
Tikiouine	10450	-	-	08	0,07
Massa	5070,55	-	-	50	0,9
Total	52268,1	2560,24	-	8615,9	-

Source : Dépouillement des enquêtes fichier et gaz-oil + statistiques de la D.P.A concernant la propriété privée. 1984.

En résumé, la propriété foncière de notre doublet est faible dans l'ensemble et très concentrée dans l'entourage immédiat des deux centres . Que ressort-il de l'examen du régime foncier ?

1 - 2 - Le régime de la propriété citadine : de grandes disparités entre les deux villes.

L'étude de la structure interne, un des plus intéressants aspects de la propriété cidatine, fait apparaître des différences assez nettes entre nos deux villes, la taille moyenne de cette propriété est de 26,8 ha à Ouled Teima et de 5,4 ha seulement à Taroudant. Mais les variations les plus singulières sont celles concernant les catégories de propriétés.

Tableau n°2

Structure de la propriété citadine à Taroudant et à Ouled Teima en 1982.

villes	Taroudant				Ouled Teïma			
Catégorie foncière	Sup. tot en ha	%	Nbre de prop. en ha	%	Sup. totlale	%	Nbre de prop.	%
0 - 5	536,67	21	337	71,6	337,33	3,9	127	39,6
5 - 20	1150,22	44,9	113	24	994,97	11,5	89	27,7
+ 20	873,35	34,1	21	4,4	7283,6	84,6	105	32,7
Total	2560,24	100	471	100	8615,9	100	321	100

La lecture du tableau révèle l'inégale répartition des terres des deux villes. Ainsi, la propriété roudanie couvrant 2560,24 ha se répartit entre 471 propriétaires, 377 d'entre eux soit 71,6 % se partagent 536,67 ha soit 21 % des terres. 113 autres (24 % des possédants) se partagent 1150,22 ha (44,9 % des terres). Et enfin les 21 qui restent (4,4 % des possédants) détiennent 873,35 ha (34,1 % des terres). Quand à Ouled Teima, sa propriété qui couvre 8615,9 ha se trouve répartie entre 321 possédants.127 d'entre eux, soit 39,6 % détiennent 377,33 ha, c'est-à-dire 3,9 % des terres. 89 autres (27 % des possédants) se partagent 994,97 ha (11,5 % des terres). Le reste, c'est-à-dire 105 propriétaires (32,7 %) détiennent 7283,6 ha, soit 84,6 % des terres.

L'examen des disparités existantes entres nos deux villes(tableau 3)sur le plan de chaque catégorie, permet de faire les remarques suivantes :

Tableau n°3

Catégories de propriétés et classes de superficies à Taroudant et à Ouled Teïma en 1982.

villes	Taroudant				Ouled Teïma			
Classe de superficies.	surface possédée (h)	%	Nbre de possé - dants	Moyenne par pos - sédant (ha)	surface	%	Nbre de possé - dants	Moyenne par pos - sédant. (h)
0 - 1	79,78	3,1	137	0,5	25,33	0,2	27	0,9
1 - 2	132,95	5,1	104	1,3	61,34	0,7	35	1,7
2 - 3	88,5	3,4	38	2,3	67,6	0,8	25	2,7
3 - 5	235,44	9,2	58	4	183,06	2,3	40	4,5
5 - 10	451,82	71,7	64	7	365,07	4,2	47	7,7
10 - 20	698,4	27,3	49	14,2	629,9	7,4	42	14,9
20 - 30	383	15	11	34,8	733	8,5	28	26,2
30 - 50	204,85	8	6	34,1	1093,1	17,4	37	40,3
50 - 100	285,5	11,2	4	71	2020	23,5	27	74,8
+ 100	-	-	-	-	3037,5	35,2	13	233,6
Total	2560,24	100	471	5,4	8615,9	100	321	26,8

Dans les deux villes, comme on l'a déjà souligné, la petite propriété est la catégorie la plus représentée avec 71,6 % des propriétaires à Taroudant et 39,6 % à Ouled Teima. Mais, il est à noter au surplus que sur le plan des sous-catégories, il existe de grandes disparités en particulier à Taroudant. En effet 51,2 % des possédants n'ont pas plus de 2 ha et se partagent 8,2 % des terres, contre 20,4 % qui ont entre 2,1 et 5 ha pour, 12,6 % de la superficie totale. A Ouled Teïma, au contraire on trouve dans la première classe 19,4 % des propriétaires pour 0,9 % des terres et dans la seconde 20,2 % pour 3,1 %. Il s'agit donc d'une structure microfundiaire. Celle-ci caractérise en particulier le terroir oléicole traditionnel de Taroudant où la propriété moyenne se limite à 1,5 ha. Elle revient au morcellement dû aux partages successoraux. Quant à Ouled Teima où la moyenne est de 2,6 ha, cette situation découle des récentes acquisitions dues en particulier à l'engloutissement des douars voisins où les structures foncières sont marquées par l'exclusivité de la petite propriété, la moyenne propriété montre une certaine similitude quant à sa répartition entre les deux villes, 24 % à Taroudant et 27,71 % à Ouled Teïma. Sur le plan des superficies, cette catégorie reste majoritaire à Taroudant avec 44,9 %. Elle comprend 2 classes bien distinctes; la première (de 5 à 10 ha) représente à Taroudant 13,6 % des possédants et 14,6 % à Ouled Teïma et respectivement 17,7 % et 14,2 % pour ce qui est des terres. La seconde (de 10 ha à 20 ha) intéresse 10,5 % des propriétaires à Taroudant contre 13 % à Ouled Teïma, et pour les superficies 27,3 % contre 7,4 %.

La grande propriété est différemment représentée dans le doublet; à Taroudant elle constitue 4,4% des propriétaires pour 34,1% des terres et à Ouled Teïma 32,7% pour 84,6 % des terrres. La classe 20 à 50 accapare à Taroudant 4,5 % des propriétaires qui se partagent presque 1/4 des terres (23 %).Celle de plus de 50 ne représente

que 0,8 % des possédants qui détiennent 11,2 % de la superficie totale. A Ouled Teïma la première classe (20 - 50) détient 20,3 % des possédants qui se partagent au total 26 % des terres. Quant à la seconde (+ de 50 ha), on trouve 12,5% des propriétaires se partageant plus de la moitié des terres, soit 58,7 %.

Il est à noter en fin de cette analyse que la structure interne de la propriété citadine varie considérablement d'une ville à l'autre. A Taroudant celle-ci reproduit le schéma traditionnel de la répartition de la propriété au Maroc, mais avec une petite nuance concernant la moyenne catégorie qui reste ici prédominante quant au total des terres. A Ouled Teïma, au contraire, cette structure fait apparaître l'importance des propriétaires de la troisième catégorie (grandes propriétés) qui s'individualise après la première avec 1/3 des possédants.

En ce qui concerne la concentration des terres, on constate que dans les deux villes, la majorité des terres possédées sont aux mains des propriétaires de la moyenne et la grande catégorie. Si l'on considère la propriété de plus de 5 ha, on voit qu'à Ouled Teïma 194 propriétaires, soit 60,4 % détiennent 8278,57 ha c'est-à-dire 96 % de la superficie totale. Par contre, à Taroudant, 28,4 % des propriétaires (134) ont au total 2023,57 ha soit 79 % des terres. Ainsi la structure interne de la propriété citadine ne présente pas des caractéristiques semblables, dans les deux villes. A Taroudant, elle paraît plus proche de la structure moyenne de la plaine. Si l'on se limite au phénomène de la concentration l'on note que 24,5% des propriétaires détiennent 70,50% des terres.

1 - 3 - Le mode de faire - valoir de la propriété citadine : une prédominance du faire - valoir direct.

Dans les deux villes, le mode d'exploitation direct est nettement prédominant; il concerne à Taroudant 58,5 % des terres et 99 % à Ouled Teïma. Cependant, il existe certaines différences, entre les deux villes, au niveau du contexte économique du mode de l'exploitation (moderne ou traditionnel). Sur les terres du secteur traditionnel (63,9 % à Taroudant et 5 % à Ouled Teïma), l'exploitation directe concerne à Taroudant 35,1 % et 91 % à Ouled Teïma. Ce qui signifie que, le faire-valoir indirect subsite encore, en particulier sur les terres roudanies où il est majoritaire avec 64,8 %. Le système des khemassats est partiquement inexistant aujourd'hui. Les ouvriers et ceux qui n'ont pas de terre préfèrent l'état de salarié à tout autre système d'association. Cependant, il existe, en particulier dans l'oliveraie de Taroudant un autre mode d'association, le système de cherraâ (le cheraâ qui se charge du travail a le droit au 1/9 de la production). Quant au secteur moderne, la quasi-totalité des terres sont concernées par l'exploitation directe (100 % à Taroudant et 99,8 % à Ouled Teima où la location touche 0,2 %).Ces résultats permettent de dire que la propriété citadine est ici en général destinée à la production et au réinvestissement. A Taroudant, Celle-ci constitue encore, dans les proportions de 41,4% du total de la superficie, une source de rente et un moyen de prélèvement sur la campagne.

Au total, la pénétration économique du doublet urbain dans sa campagne, par le biais de l'appropriation des terres rurales, présente d'importantes différences entre les deux villes, tant par l'importance des terres possédées que par leurs répartitions spatiales,

leurs structures internes et les modes de faire-valoir. La propriété roudanie faible et au développement limité, reflète un héritage traditionnel où subsite encore de vieilles structures économiques. A l'inverse, la propriété Ouled Teïmie, récemment acquise et développée de façon considérable est une manifestation des transformations ayant affecté cette zone depuis l'introduction du système capitaliste. De ce fait, Ouled Teïma devient dans cette partie du Souss un centre qui gère et commande d'importantes superficies en milieu rural, et en tire par conséquent une partie de son dynamisme économique.

Quel rôle joue alors cette ville par rapport à sa voisine dans le domaine du commerce rural ?

2 - La pénétration commenciale de Taroudant et d'Ouled Teïma dans la campagne soussie : concurrence ou complémentarité ?

Taroudant et Ouled Teïma, polarisent une bonne partie des flux concernant l'écoulement des produits ruraux bruts et la desserte de la campagne en produits urbains, dans le Souss-intérieur. Cependant, l'ancienneté de la première, le caractère récent de la seconde, leur situation dans la plaine, leurs équipements commerciaux... leur donnent des rôles d'intervention dans la campagne, de nature et d'importance inégales.

2 - 1 - Ouled Teïma, un pôle dynamique de collecte et de redistribution des fruits et légumes.

La collecte des fruits et légumes[4].

Ouled Teïma se présente, dans cette partie du Souss, comme principal centre de ramassage des fruits et légumes.

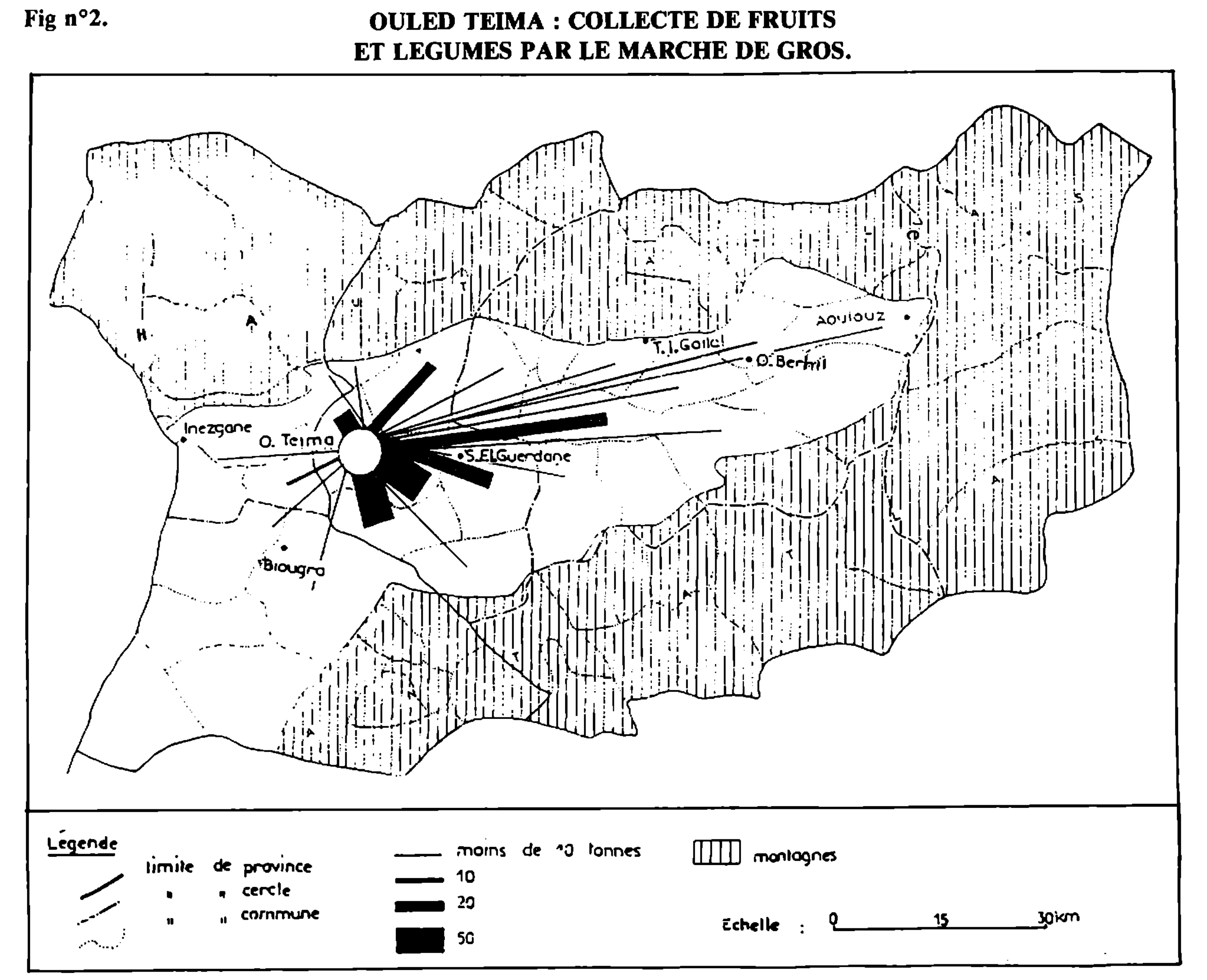
Malgré la proximité d'Inezgane qui dispose d'un marché de gros d'une grande importance, Ouled Teïma se distingue avant tout par le volume exceptionnel des produits collectés, dont les quantités optimales sont enregistrées en hiver, au printemps et au début de l'été (en hiver les apports sont dominés par les primeurs et les agrumes, au printemps les primeurs, et les pastèques à la fin du printemps et au début de l'été). Le marché de gros d'Ouled Teïma, qui se tient quotidiennement sur la place du souk El Khémis (Jeudi) entre 6 h et 14 h, voit passer le jour du souk de 360 à 400 tonnes et environ de 150 à 200 tonnes en un jour normal de la semaine. Ce qui fait en moyenne 6300 à 8000 tonnes de fruits et légumes par mois. De par cette masse, ce marché se place derrière celui d'Inezgane qui totalise mensuellement un volume qui dépasse les 10.000 tonnes.

Le marché de Taroudant, au contraire, destiné en premier lieu au ravitaillement de la ville et qui s'organise deux foix par semaine,ne dépasse guère 60 à 80 tonnes par mois.

On constate donc,qu'au niveau du Souss-intérieur, Ouled Teïma présente une incontestable supériorité, qui se traduit sur le plan spatial en un champ d'action qui couvre une bonne partie de la plaine du Souss, en particulier les communes de la partie située à l'est de ville et celles qui l'avoisinent du Sud et de l'Ouest.

Fig n°2.

OULED TEIMA : COLLECTE DE FRUITS ET LEGUMES PAR LE MARCHE DE GROS.



Toutefois, l'influence d'Ouled Teïma, à ce niveau, ne s'exerce pas avec la même intensité sur les différentes communes rurales de la plaine (fig n°2).

Il se dégage de ce document qu'en général le Souss-aval[5] et en particulier la zone d'Ouled Teima, constitue le principal bassin d'où collecte Ouled Teïma l'essentiel des fruits et légumes (88,4 % de la masse collectée provient de cette zone).

Ceci s'explique par le fait que cette partie du Souss,où les conditions naturelles autorisent, en effet, avec irrigation la production de plein champ sans artifice cultural très couteux, de la plupart des fruits et légumes, concentre l'essentiel des maraîchages, des argumes, des pastèques et melons ; cultures constituant la principale activité agricole de la plaine et l'essentiel du secteur moderne.

Le souss - amont, au contraire, n'envoie que 11,1 % de la masse collectée. Les principales expéditions se font à partir des communes rurales constituant ce qu'on appelle la zone agricole de Taroudant, à savoir, Freija, Igli, Ouled Berhil, Tnine Ida Ougailal, Tazemourt, Arazane et Ahmar. C'est la plus ancienne zone agricole du Souss, où l'olivier et des cultures vivrières se sont répondues le long de l'Oued souss, sur la base des eaux provenant des prises en rivière (déviation, résurgence, drain ou Khettara) en plus des sols fertiles.Ces mêmes conditions ont favorisé par la suite, le développement d'un secteur moderne à base agrumicole,amorcé avec la colonisation,sur la base du pompage. Un nouveau secteur moderne à base céréalière et maraîchère a été cré en 1980 dans un cadre coopératif. Mais, en raison du caractère spéculatif du premier, et coopératif du second, l'écoulement dans les marchés locaux de gros ne touche qu'une très faible partie de la production qui reste dans sa totalité tournée vers l'exportation. Ainsi donc, seule la production des petites exploitations familiales est commercialisée par la voie des souks locaux et les marchés des centres urbains.

Il reste à souligner, que la collecte des fruits et légumes, aspect remarquable de la fonction commerciale de cette ville, s'effectue en général d'une façon unique par commercialisation au marché de gros de la ville. Cette voie intéresse en particulier les petits et moyens producteurs qui transportant au fil de l'année, par leur propres camionnettes ou celles de location la production au marché de gros où le producteur doit faire face à deux types de commerçants aux moyens inégaux : le petit commerçant et le grossiste.

Le premier, au capital très modeste,présente un cas intermédiaire. Il achète au fellah à l'entrée du marché pour revendre, par la suite soit aux détaillants urbains ou forains le jour du souk, soit aux grossistes sur le même marché ou à Inezgane après conditionnement assez sommaire. Parfois, il se trouve qu'il travaille pour le compte d'un grossiste. Ces intermédiaires sont au nombre de 131. Ils se présentent en association souvent à caractère familial, de 3 à 5 personnes, pour pouvoir réaliser des transactions plus importantes et se procurer un magasin pour conditionnement sommaire et une camionnette pour écouler, dans le cas échéant, la marchandise, ailleurs.

Le deuxième, le grossiste, possède toujours un magasin sur le marché ou à l'intérieur de la ville et 2 à 3 camions. Il reçoit le plus souvent, la marchandise du producteur, mais il ne se contente pas toujours d'opérations aussi routinières et il va en acheter

directement dans les vergers ou dans les station de conditionnement (écarts de triage), pour l'envoyer à son associé chargé de la commercialisation dans une autre ville du pays. Parfois, il se charge lui même de cette opération.

Dans le marché de gros d'Oueld Teïma, les grossistes sont au nombre de 45 et 27 d'entr'eux sont originaires d'Ouled Teïma et douars voisins, le reste, soit 18 grossistes sont issus des différentes régions du Maroc, et récemment installés dans cette ville.

L'expédition des fruits et légums.

L'expédition des fruits et légumes en direction des différents éléments de l'armature commerciale régionale concerne 15% des denrées collectées par le marché de gros d'Ouled Teïma, ce qui fait un total d'environ 945 tonnes. L'aire de redistribution reproduit celle de la collecte des produits ruraux bruts (fig n°2). Ceci revient au fait que dans cette région, les fruits et légumes font l'objet d'allers et retours fréquents, expédiés vers la ville, le surplus des envois lointains, les déchets du triage, sont ensuite retournés vers les souks et peuvent même regagner leurs points de départ. En effet, presque toutes les communes rurales de la plaine se ravitaillent en matière de fruits et légumes à Ouled Teïma, y compris même celles qu'y envoient de bonnes quantités. Cette question s'explique par le fait que dans cette région où l'agriculture est tournée vers la commercialisation de la production, voir l'exportation à l'étranger, les petits producteurs aux moyens très modestes ne se contentent plus des ventes directes dans les vergers ou sur les souks locaux, mais préfèrent écouler leur production là où ils ont plus de chance de s'en débarrasser aussi vite et à des prix raisonnables.

A l'instar de la collecte des fruits et légumes, leur redistribution dans les différents souks ou centres de la région est menée de façon permanente par des négociants issus des différentes communes rurales de la plaine et de la montagne avoisinante.

L'action de ces grossistes au nombre de 54 est centrée sur les souks du piémont (Haut et Anti - Atlas). En effet, ces derniers, de par leur situation au contact de régions naturelles différentes et complémentaires, constituent avant tout des marchés hebdomadaires d'approvisionnement d'ordre local.

On conclut qu'au niveau du Souss - intérieur, Ouled Teïma, grâce à sa position à l'aval d'un arrière-pays agricole d'une grande diversité (plaine, montagne), dont la production est destinée en premier lieu à la commercialistion, remplit la fonction de principale pôle de collecte et de redistribution des fruits et légumes. Mais ce qui attire d'avantage l'attention, tant pour le ramassage de ces produits que pour leur redistribution, sur le plan sous - régional (Sous - intérieur), c'est que ce sont exclusivement les ruraux qui s'en occupent. En revanche, le commerçant citadin, à qui revient enfin de compte la question de fixation des prix, limite son activité au marché de gros, où il se contente d'opérations routinières. Ainsi, dans cette zone à caractère rural prononcé, bien desservie par les voies de communications et en raison de l'explosion du transport automobile faisant suite au grand développement de l'économie commerciale capitaliste, le rôle d'Ouled Teïma, au niveau du commerce des fruits et légumes, ne se limite pas uniquement au drainage de la production de son espace environnant, mais consiste aussi à la desserte de ce même espace pour certains de ses propres produits.

2 - 2 - Deux villes de collecte de bestiaux d'importance inégale.

A l'inverse de la collecte des fruits et légumes, celles des bestiaux, fait apparaître nos deux petites villes, comme deux impotants centres collecteurs au niveau du Souss - interieur.

Ceci provient de leur situation dans une région de vieille sédentarisation où l'élevage prenait une grande importance. Celle-ci s'est accrue davantage du fait de la demande en produits de viande et laitiers, faisant suite à l'urbanistation effrénée de la région.

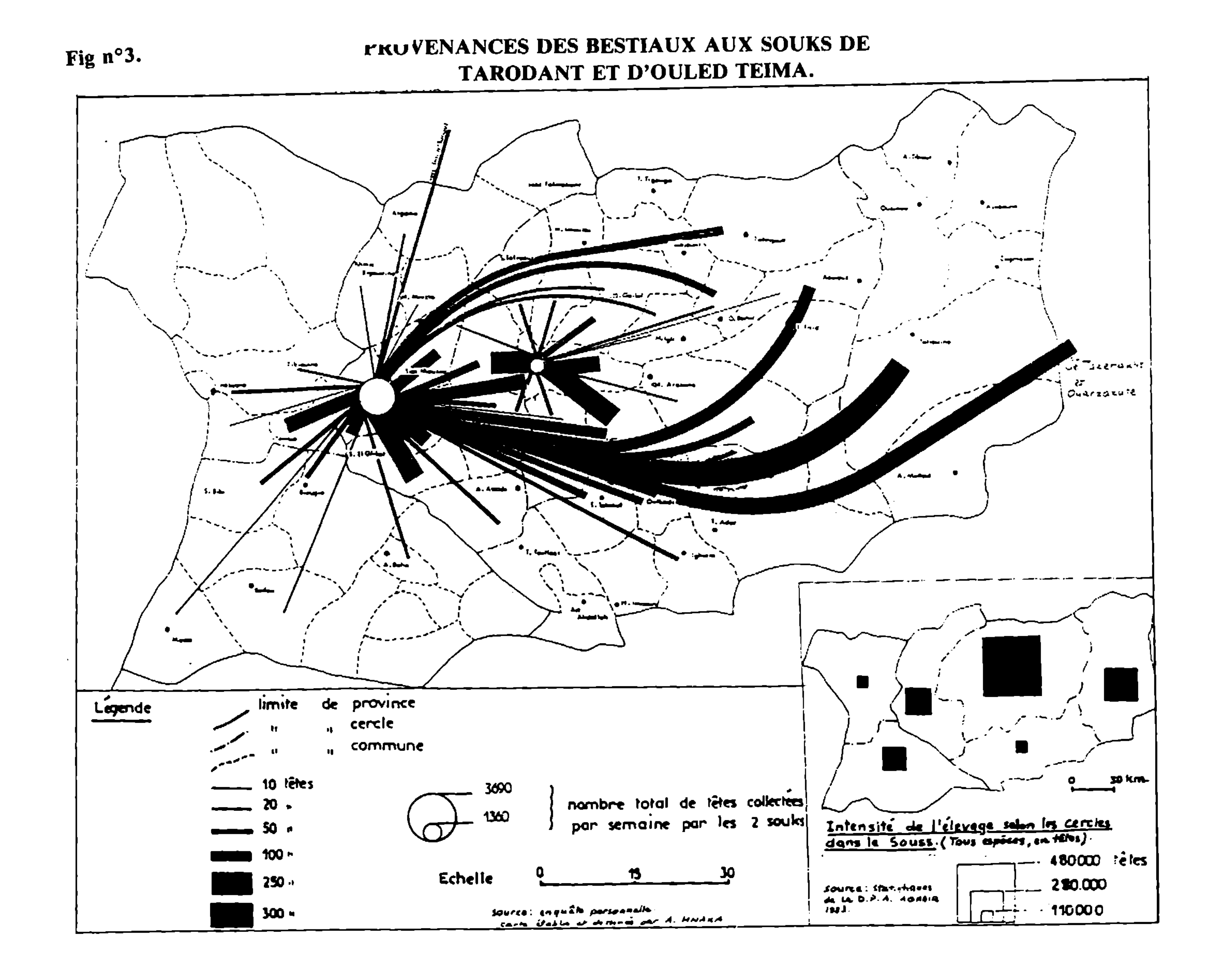
Cependant,leur importance de collecteurs de bestiaux est d'une grande inégalité. En fait, le souk d'Ouled Teïma se distingue par une remarquable supériorité ; il voit passer environ 170.000 têtes par an. A l'inverse celui de Taroudant ne compte annuellement qu'anviron 60.000 têtes, ce qui représente le 1/3 du bétail drainé par le premier, devenu, le plus grand du Souss et un des plus importants du Maroc (7).

La carte n°3 met bien en relief l'inégalité de leur emprise, à ce niveau, sur la campagne. La supériorité d'Ouled Teïma, mentionnée ci-dessus, se traduit sur le plan spatial, en un vaste espace géographique. En effet, son influence déborde le cadre de la plaine du Souss et s'étend au-delà même de ses bordures montagneuses. Des régions lointaines comme le Rhamna acheminent de temps à autre, des effcetifs non moins importants d'ovins, vers le Souss. A l'inverse Taroudant qui semble très étouffée limite son emprise à son environnement immédiat. Nous ne manquerons pas de souligner, que pour les deux villes, la plaine du Souss, reste le principal bassin de collecte de bestiaux. Ainsi, les principaux apports au souk d'Ouled Teïma, soit 75,4 %, viennent des communes rurales les plus riches de la plaine, celles même qui fournissent la quasi - totalité des fruits et légumes, à savoir, Sebt El Gfifat, Koudia, Ouled Teïma, Sidi Moussa, Sebt El Guerdane, Freija, Temsia, Biougra, Massa et Ouled Berhil. Le reste, 25 % provient des communes rurales situées dans les montagnes avoisinantes , ou parfois, de régions lointaines. La carte laisse apparaître également une bonne représentation des communes abritant des souks de bétail, non moins importants et qui semblent en raison de leur emplacement à la porte de la montagne, plus en mesure à faire obstacle à l'extension de l'influence de ces deux villes, tels les souks d'Ouled Berhil (Tlat Igoudar), Sebt El Guerdane, Aoulouz et Tafingoult

L'importance des apports issus de la plaine, s'explique par l'existance d'un système agricole mixte où l'élevage occupe une importante place. En effet, dans les deux secteurs de l'agriculture dans le Souss moderne et traditionnel, l'élevage reste en plus de son grand intérêt dans l'alimentation et le revenu des paysans, étroitement lié aux besoins en fumier des cultures pratiquées, tellement importants à cause de la pauvreté des sols. La collecte des bestiaux par les souks des deux villes, s'organise dans deux circuits. Le premier d'ordre local concerne les apports issus des communes voisines des villes. Il touche à Ouled Teima 29,7 % et à Taroudant 96,1 % du cheptel commercialisé dans leurs souks respectifs. Encore une fois, se confirme le rôle local du souk de Taroudant. Cette voie est empruntée en particulier par tous les fellahs et ouvriers agricoles, venant eux mêmes négocier le jour du souk, le croit de leurs troupeaux ou certaines bêtes engraissées. Ce groupe de vendeurs, mais aussi d'acheteurs, constitue la quasi - totalité

Fig n°3.

PROVENANCES DES BESTIAUX AUX SOUKS DE TARODANT ET D'OULED TEIMA.



des soukiers en bestiaux, soit 89,7 %. Les fallahs sont majoritaires avec un taux de 59,3%. Ce ne sont pas des démunis puisqu'ils apportent par leurs propres camions ou camionnettes des lots d'une moyenne de 5 à 10 bêtes. Le deuxième important groupe constitué des ouvriers agricoles représente 30,4 % des soukiers présents sur le souk de bétail. Ses apports, se font, au contraire, soit pédestrement, soit sur les camionnettes de location.

Dans le cas général,on trouve que l'ouvrier éleveur,est associé soit à un fellah voisin, soit à un commerçant en ville, mais fréquemment à un gérant ou caporal de ferme dans le but de se partager les bénéfices après les ventes. L'ouvrier apprécie énormément une telle association (celle qui le lie au fellah ou au gérant...) qui lui permet d'accéder à la ferme, même pendant les jours fériés et de disposer de façon permanente du bois et des restes du déshérbage, avant tout pour ses propres bêtes. Il devient par voie de conséqence moins exigeant quant au salaire qui compte pour peu de chose devant les privilèges que lui concède l'association avec le patron ou tout simplement le gérant ou le gradien. Ce circuit intéresse également, une catégorie de ruraux, il s'agit de petits maquignon toute la zone durant la semaine pour effectuer des achats soit dans les fermes ou sur les petits souks locaux (Sebt El Guerdane, Tnine Issen, qu'ils entendent liquider ou souk d'Ouled Teïma.

Le deuxième circuit d'ordre réginal est centré uniquement sur la ville d'Ouled Teïma. Il concerne 70,3 % de l'ensemble des apports, mais n'intéresse que 10,3 % des soukiers en bestiaux. Cette catégorie, bien qu'elle regroupe aussi bien les agriculteurs éleveurs que les maquignons reste dominée par ces derniers. D'origine rurale, ces commerçants s'approvisionnent en bétail de toute sorte dans les souks de leurs lieux d'origine, notamment les souks du piémont (Aoulouz, Tafingoult, Ouled Berhil...) pour venir l'écouler à Ouled Teïma, jouant sur les disparités des prix entre la ville et la campagne.

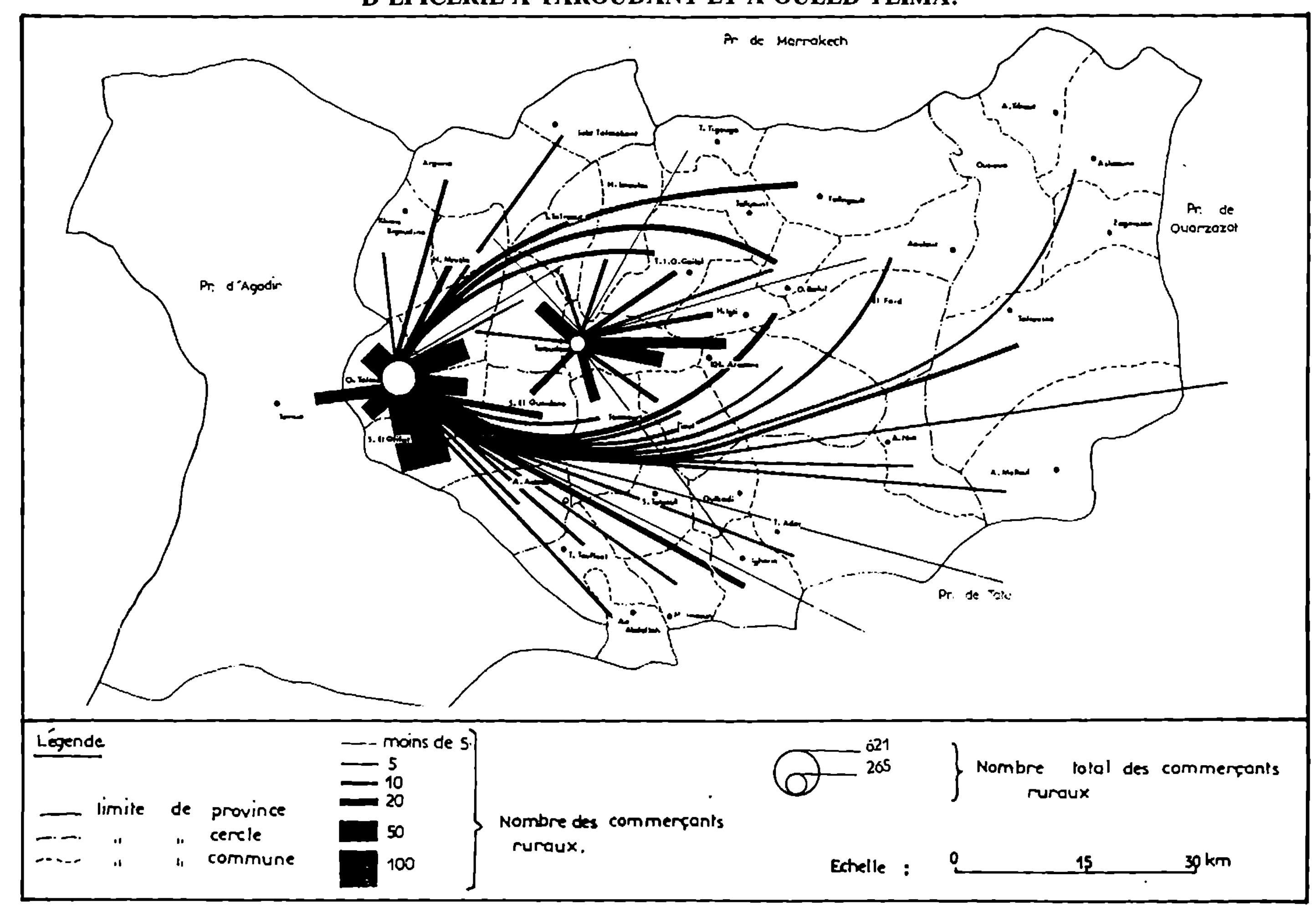
Le rôle très différent des deux villes dans la collecte des produits ruraux bruts (bestiaux, légumes et fruits) est bien indiqué par les recettes de leurs souks, qui sont d'une valeur de 27.143 DH(8) par semaine à Ouled Teïma, et 6.500 DH(9) à Taroudant. Ces montants confirmant la supériorité du souk d'Ouled Teïma constituent pour les deux centres, en particulier pour ce dernier, une importante source de richesse.

L'hégémonie d'Ouled Teïma, ne se limite pas uniquement au niveau de la collecte et de la redistribution des produits ruraux bruts, mais caractérise aussi son rôle dans le commerce des produits d'épicerie.

2 - 3 - Diffusion des produits d'épicerie : primautée incontestée d'Ouled Teïma

L'étude des flux commerciaux, dans le Souss-intérieur, nous a révélé en plus du rôle des villes dans la redistribution des produits d'épicerie, l'importance de celui des souks et des centres commerciaux ruraux fixes. Notons que, chaque douar compte en moyenne une à quatre boutiques, dans les souks et les centres commerciaux fixes, ce type de commerce est bien représenté; 18 % des étalages dans les premiers en moyenne et 31,7 % des établissements dans les seconds.

Fig n°4. **PROVENANCES DES COMMERCANTS RURAUX EN PRODUITS D'EPICERIE A TAROUDANT ET A OULED TEIMA.**



En plus, tous les centres commerciaux ruraux fixes, et toutes les communes rurales comptant plus de 10.000 habitants[10], ont au moins un grossiste à leur disposition.

Ceci montre que la desserte de notre terrain d'étude, en produits d'épicerie se fait par tous les éléments de l'armature de la plaine. Tautefois, les villes gardent à ce niveau un rôle prépondérant ; 60 % des détaillants ruraux du Souss-intérieur s'y approvisionnent et 65 % si l'on considère les commerçants venant des communes rurales et centres de la montagne avoisinante.

Cependant, à l'instar de la collecte des produits ruraux bruts, Taroudant et Ouled Teïma ne revêtent pas la même importance. Le centre d'Ouled Teïma retient l'attention d'abord par le volume exceptionnel des produits de gros commercialisés. En effet, cette ville qui accapare 23 % de l'ensemble des grossistes de la province, devant Taroudant avec 11,5% stocke et redistribue mensuellement environ 309 tonnes[11] de sucre, soit 39,3 % de la masse de sucre consommée sur le plan de la province, devant Taroudant qui distribue 125 tonnes, soit donc 15,8 % du total. Le reste, c'est-à-dire, 44,9 % de la masse consommée est distribué par les grossistes des communes et des centres ruraux fixes.

Si l'on se limite uniquement à l'estimation de la part redistribuée de cette masse de sucre directement par les grossistes sur les détaillants ruraux, dépendant des cercles respectifs aux deux villes, on constate qu'elle est de l'ordre de 24,5 % à Taroudant et de 55 % à Ouled Teïma.

On remarque alors que l'activité des grossistes urbains, si elle reste centrée sur le marché urbain à Taroudant, paraît au contraire plus orientée vers le marché rural à Ouled Teïma. En effet Ouled Teïma frappe ensuite par l'importance de son rayonnement. Comme la montre la carte n°4, la ville d'Ouled Teïma qui ravitaille 43,5 % de l'ensemble des commerçants ruraux de cette partie du Souss, a une aire d'influence plus vaste que ne le laisserait supposer son équipement commercial[12]. Son emprise s'étend sur toutes les communes rurales de la province de Taroudant, et dépasse même les limites de cette dernière. On remarque alors que cette aire reste largement ouverte vers la partie située à l'Est, et en particulier au sud-est de cette même ville, mais reste absente à l'Ouest en raison de l'importance de l'emprise d'Inezgane sur cette partie de la plaine. Au centre et dans le Souss-amont son action n'est pas exclusive, elle interfère avec celle de Taroudant, ville qui n'accapare que 18,6 % de l'ensemble des commerçants ruraux, et ce dans les communes traversées ou tout simplement proches de la route nationale 10 reliant Agadir à Ourzazate, (Ouled Berhil, Igli, Arazane, Tazemourt, Aoulouz...) Ainsi Taroudant qui semble très étouffée, en raison de l'hégémonie d'Ouled Teïma et du rôle joué à ce niveau par les souks et les centres commerciaux ruraux fixes, limite par conséquent son action à son environnement immédiat. En effet 80 % des commerçants ruraux s'approvisionnant à Taroudant viennent des communes situées dans un rayon de 15 à 20 km. Nous ne manquerons pas de souligner, qu'à côté des villes, les centres commerciaux ruraux fixes et surtout, les souks, jouent un rôle non moins important dans l'approvisionnement d'un certain nombre de détaillants ruraux en produits de consommation courante. Leur taux s'élève à 37,9 % de l'ensemble. La

présence dans les souks, en plus des grossistes ruraux locaux, de négociants citadins, notamment à Sebt El Guerdane, Had Igli, Tlat Igoudar, Ouled Berhil, Tnine Tafingoult, Sebt Tataout, Ouled Dahou... explique ces phénomènes.

Ainsi, pour résumer, dans cette partie du Souss, où la desserte commerciale de la compagne se fait par les différents niveaux de l'armature, Ouled Teïma présente une nette primauté d'abord par rapport à Taroudant et ensuite vis-à-vis des autres éléments de l'armature à savoir les centres commerciaux ruraux fixes et les souks communaux. Cette importance, la ville d'Ouled Teïma le doit à sa situation à l'aval d'un arrière pays agricole, qui lui permet de drainer une bonne partie de sa production et de desservir en produits urbains de larges couches de ses populations. Elle provient aussi de l'importance de son appareil commercial de gros (15 grossistes contre 7 à Taroudant) et du grand dynamisme de ses commerçants.

Ces derniers, étaient tous à l'origine des détaillants ou des marchands ambulants à la campagne. Ils ont profité de la situation se présentant dans le Souss après le séisme d'Agadir(1960). Leur réussite précoce sur le plan du commerce de détail dans ce petit centre, leur a donné plus de chance d'obtenir des licences (des bons) permettant d'exercer un véritable monopole sur la commercialisation d'une denrée particulière. Ils se présentent en des associations groupant les membres d'une même parenté, pour gérer ensemble leurs fonds de commerce. Les uns sont chauffeurs de camions, les autres s'occupent du stockage de gros ramené d'Agadir ou de Cassablanca, d'autres se chargent d'approvisionner les clients sur place ou dans les nombreux souks de la région, les instruits dont la plupart ont déjà exercé au début de leur carrière le métier d'instituteur, s'occupent de la gestion et la comptabilité.

A Taroudant, la situation est tout à fait différente. Les grossistes sont des vieux citadins dont les moyens sont moins importants que ceux de leurs homologues d'Ouled Teïma.

2 - 4 - Le commerce soukier urbain et son rayonnement.

Avant d'aborder le rayonnement de ce type de commerce, il convient de noter que nos deux souks n'ont pas, ni la même taille, ni la même structure. En fait, le souk d'Ouled Teïma attire chaque semaine environ 1185 commerçants et prestataires de services[13], alors que celui de Taroudant, réduit à un simple petit souk d'approvisionnement en produits ruraux bruts, ne compte en tout que 123 commerçants. Il s'avère donc que leurs influences seront très variables.

Au souk d'Ouled Teïma, toutes les communes rurales de la plaine, ainsi que celles des piémonts (Haut et Anti-Atlas), envoient des commerçants et des prestataires de services. Néanmoins, les principales provenances se font à partir de communes situées dans les proches alentours de cette même ville, dans un rayon de 30 à 40 km. Le cercle d'Ouled Teïma est majoritaire ; il accapare 60% des envois. La ville et sa commune rurale comptent en commun, 33% des provenances.

La participation de la partie située à l'ouest de la ville, qui comprend le Grand Agadir et les cercles d'Inezgane et de Biougra, est de l'ordre de 33,7 % du total, celle

de Taroudant et son cercle est la plus faible avec 3%. La répartition des soukiers selon les branches commerciales et les lieux de provenance (tableau n°4), permet de constater que le cercle d'Ouled Teïma, prédomine dans toutes les catégories de commerce (plus de 64 %), à l'exception de l'habillement qui reste peu représenté (18,8 %).

Tableau n°4

Répartition des commerçants forains présents dans le souk d'Ouled Teïma les branches commerciales et les lieux de provenance (Soukiers seuls).

Centre et cercle / Type de commerce	cercle de Taroudant		Cercle de Ouled Teima		Agadir et cercles d'inezgan et Biougra		Autres		total %	
Alimentation	-	-	192	80,6	46	19,4	-	-	238	100
Habillement	9	4,4	39	18,8	139	76,8	-	-	207	100
Equipement	1	1	64	61,5	39	37,5	-	-	104	100
Produits ruraux	26	4,7	353	64,2	151	27,2	21	3,9	551	100
Artisanat et services	-	-	67	78,8	18	21,2	-	-	85	100

Source : enquête personnelle 1983/1984

Le Grand Agadir et les cercles d'Inezgane et Biougra restent bien représentés sur le plan des différents types de commerce, avec une nette prépondérance dans le commerce de l'habillement, où ils totalisent un taux de l'ordre de 76,8 % de l'ensemble des commerçants de vêtements présents dans le souk. Ce pourcentage très élevé s'explique par le fait qu'à Ouled Teïma, ville récente et sans traditions commerciales, on s'adonne moins à cette activité qui reste maintenue par les forains originaires de Taroudant, d'Inezgane ou de Biougra, en raison de l'existence dans ces centres, en particulier les deux premiers, d'un équipement commercial de gros très développé à ce niveau.

Au souk de Taroudant, au contraire, les commerçants forains étant exclusivement spécialisés dans la vente des produits ruraux bruts, sont tous, soit, originaires de la ville (40%) soit de son voisinage immédiat (60%).

On déduit enfin, qu'à Taroudant comme à Ouled Teïma, la plaine reste prédonimante sur ce plan, en particulier les communes rurales entourant nos deux villes, dans un rayon de 20 à 40 km.

Cependant, si ce schéma reproduit à Taroudant le même que celui que dessine la collecte des produits ruraux bruts ou la distribution des produits d'épicerie, à Ouled Teïma au contraire, il présente une nouvelle image; les relations paraîssent cette fois plus centrées sur le Souss-aval et en particulier son extrême partie Ouest. Ceci ne peut revenir qu'à l'importance, voire la grande réputation de son souk dans le réseau soukier du Souss.

Nous ne manquerons pas de souligner que la plupart des provenances concernent les déshérités des paysans récemment installés dans les douars péri-urbains d'Ouled Teïma et du Grand Agadir. En effet si l'on se limite uniquement aux commerçants provenant d'Ouled Teïma et sa commune rurale, on constate que 20 % d'entr'eux sont d'origine extérieure à la ville.

Ces commerçants se déplacent toutes les semaines vers ce souk à la recherche d'un petit bénéfice, d'une éventuelle revente d'un produit procuré soit auprès d'un grossiste (Habillement) à Inezgane, soit dans le souk même, auprès d'un fellah (produits ruraux bruts) ou d'un négociant houari (alimentation), parfois, par le biais d'une prestation d'un service.

Cet aspect du commerce soukier, se double d'un autre aspect non moins important, à savoir le rayonnement des forains à partir de ces deux villes.

Avant d'aborder ce dernier thème, il convient de noter qu'avant 1965, c'étaient des commerçants roudanis qui contrôlaient le principal souk de la zone séparant Taroudant d'Ouled Teïma (Sebt El Guerdane), La prépondérance revient aujourd'hui aux Ouled Teïmis (179 contre 24 roudanis). En somme les marchés du Souss-amont attirent 112 forains roudanis contre 38 seulement d'Ouled Teïma. Toutefois, la présence des premiers, comme celle des seconds se trouve dans le détail, partout battue en bréche. Ainsi, à l'exception des souks de Taroudant et d'Ouled Teïma où les provenences locales de forains sont à peine moyennes, respectivement 40% et 34,9%, la présence de nos marchands et par conséquent leurs poids respectifs dans les souks extérieurs demeurent partout très faibles. Les roudanis comptent toujours moins de 8%, ceux d'Ouled Teïma, moins de 4% sauf à Sebt El Guerdane, 24,9% et à Taroudant, 15,3%. Ceci conduit à notre qu'à vrai dire, l'emprise de nos deux villes, sur ce plan ne se manifeste nulle part. Dans tous les souks fréquentés, nos forains sont mis en minorité par les contigents de commerçants ruraux, provenant des communes voisines des souks. Mais cette situation varie, quand à son intensité d'une ville à l'autre en fonction de l'importance des effectifs de commerçants forains émis par chacune d'elles. A Troudant, on peut dire que c'est très normal, en raison du petit nombre de marchands émis par ce centre (160 commerçants). Mais, à Ouled Teïma, ce phénomène devient plus frappant, étant donné qu'il s'agit du plus grand pôle d'émission de commerçants fourains dans cette partie du Souss (411 marchands forains). Une seule raison l'explique. Il s'agit de la répartition de ces forains, en un même jour, sur plus d'un souk. Par exemple le dimanche, on les trouve à Had Agadir, Had M'Nizla, Had Taroudant, Had Ouled Dahou, Had Igli et à Had Aoulouz.

Il n'en reste pas moins que le poids de nos marchands forains, dans les souks fréquentés, pourrait être appréhendé aussi à travers leurs situations professionnelles (grossistes, demi-grossistes, détaillants), et par conséquent à travers leurs poids quant au volume des marchandises distribuées. Mais, avant d'aborder ce point, il convient de souligner qu'en ce qui concerne leur répartition selon les branches commerciales, on note que les Ouled Teïmis vendent essentiellement des produits alimentaires et des produits ruraux bruts. A l'inverse les roudanis se répartissent, de façon presque égale

sur les différentes branches commerciales, en particulier l'alimentation, l'habillement l'équipement et les produits ruraux bruts.

Pour ce type de commerce la fréquentation de l'arrière pays aussi par les forains houaris est une chose très récente. Taroudant, ville isolée mais bien assise, en raison de son histoire, sa tradition commercicale, sa position de noeud de communication solide[14] (principale station routière urbaine dans le Souss-intérieur contrôlant des lignes de Taxis et d'autocars de plusieurs directions, des lignes régionales et nationales), semble avoir sur ce plan plus de chances de pénétration dans la campagne qu'Ouled Teïma, ville de passage.

Cependant, si l'on examine le rayonnement de forains à partir de ces deux centres (fig. n°5), on constate que la zone d'interférence des deux réseaux s'étend dans la partie en amont. Elle englobe les souks situés non loin de l'axe routier principal (n° 10), les souks du piémont et celui de Taliouine.

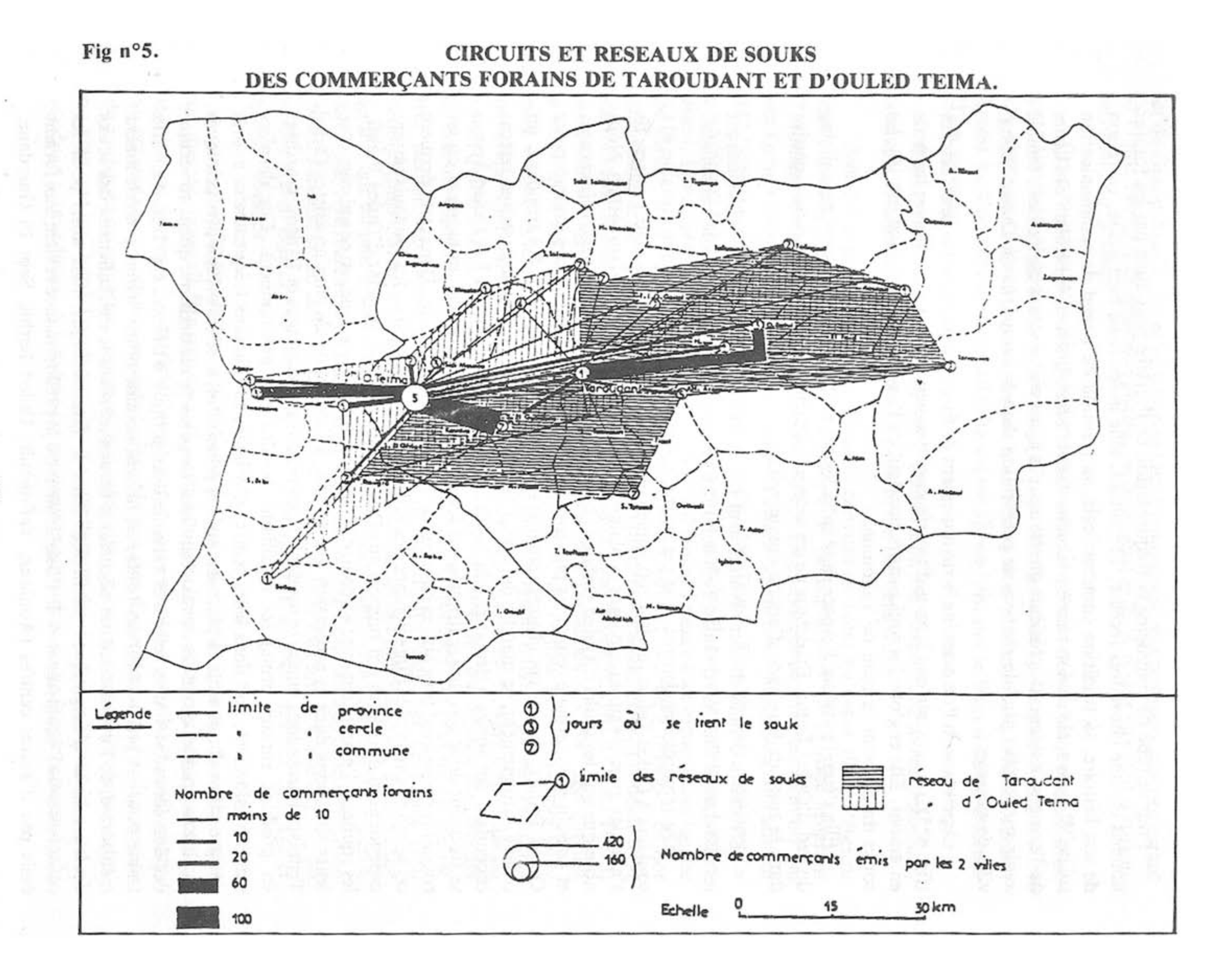
Elle s'étend aussi sur l'espace situé entre les deux villes et dans la partie de la plaine du sud d'Ouled Teïma. En dehors de cet espace l'influence des deux villes reste exclusive dans le reste de leur zone d'action commerciale.

L'examen détaillé de leur rayonnement fait apparaître qu'environ 18 souks attirent les marchands soukiers d'Ouled Teïma, contre une douzaine, pour ceux de Taroudant.

On remarque également, que ces souks, mettent en branle. chaque semaine 411 soukiers à Ouled Teïma, contre 160 seulement à Taroudant. Pour les deux centres, ils s'agit des marchés situés soit dans la plaine, soit dans les piémonts (Haut-Atlas). Nous noterons que les souks d'Ouled Dahou (12 kms à l'Ouest d'Ouled Teïma), d'Inezgane, et de Sebt El Guerdane restent les plus importants du réseau soukier des commerçants Ouled Teïmis; ils attirent chaque semaine plus de 40 forains.Quant à Taroudant, on trouve, uniquement, le marché de Tlat d'Igoudar (Ouled Berhil). Les autres restent cependant des souks à drainage très faible. (moins de 40 soukiers).Les Ouled Teïmis se trouvent donc davantage drainés par les marchés du Souss-aval au moment où les roudanis demeurent plus attirés par ceux de la partie Souss-amont. Dans cette dernière où se manifeste le plus l'interférence des influences des deux villes, les roudanis restent cependant majoritaires par rapport aux Ouled Teïmis.A Tlat Igoudar d'Ouled Berhil, les roudanis l'emportent avec 68 contre 27. Par contre on remarque, en ce qui concerne leurs situations dans la profession que se sont à l'exception de cinq grossistes Ouled Teïmis(alimentation),quatorze roudanis (4 en produits alimentaires et 10 demi-grossistes en produits ruraux bruts) les détaillants forains qui prédominent. Ces derniers s'approvisionnent, soit dans leurs centres d'origine, soit, le plus fréquemment auprès des grossistes forains sur la place des souks, présentant, avec les mêmes prix pratiqués en ville de grandes quantités de marchandises. Le poids de ces derniers, quant au volume des denrées redistribuées reste très variable d'un produit à l'autre. En effet, il est très faible pour les produits ruraux bruts, en raison, comme nous l'avons précédemment mentionné, de l'importance des négociants ruraux assurant le ravitaillement des souks de leurs lieux d'origine, en particulier dans le Souss-amont, mais aussi pour les commerces de l'équipement et de l'habillement où la prédominance revient aux forains émis par d'autres centres (Aoulouz, Tafingoult, Ouled Berhil, Sebt El Guerdane,

Fig n°5.

CIRCUITS ET RESEAUX DE SOUKS DES COMMERÇANTS FORAINS DE TAROUDANT ET D'OULED TEIMA.



Inezgane...). A l'inverse, nos grossistes, en particulier les Ouled Teïmis, détiennent le monopole du commerce de l'alimentation notamment, à Ouled Dahou, Sebt El Guerdane, Igli, Igoudar, en plus du souk de la ville où leur prédominance est exclusive bien sûr.

Notons enfin que nos deux villes distribuent en plus des produits d'épicerie et des biens d'équipement. Sur le plan de ces derniers, et en raison de la primauté de Taroudant dans la diffusion des biens d'équipement domestique et l'éminente supériorité d'Ouled Teïma dans celle des produits d'équipement agricole et de transport on peut parler d'une certaine complémentarité entre les deux villes. Par contre, pour ce qui est du commerce des produits de l'alimentationn, les deux villes desservent inégalement le même espace, si l'on ne compte que le Souss-intérieur. Leurs aires à ce niveau se superposent, ce qui conduit à dire qu'une certaine concurrence existe entre elles. Cette dernière constatation se confirme davantage si l'on les situe dans leur contexte historique. En effet, l'extension du rayonnement commercial d'Ouled Teïma, centre implanté à une époque très récente, se fait en général aux dépens du Fief traditionnel de la voisine, Taroudant. Ce dernier point s'éclaicira davantage avec l'examen de leur aires d'influence respectives.

2 - 5 - Les aires d'influence commerciale : une inégale couverture spatiale des deux villes

2 - 5 - 1 - Des aires d'influence emboitées.

Le Souss et en particulier le Souss-intérieur est un lieu d'une intense superposition de zones d'influence. Cet espace, très bien desservi, s'organise en premier lieu autour du doublet Taroudant-Ouled Teïma, centres très modestes par leurs effectifs de population, mais importants par leurs impacts commerciaux, et ensuite en un second lieu autour du grand Agadir, ville rayonnant sur l'ensemble de la région[15]. La partie située à l'extrême est de la plaine, s'organisant autour de souks puissants, d'Ouled Berhil, Aoulouz et Tafingoult, se trouve pénétrée en plus des emprises des principales villes du Souss, par celle de Marrakech et de Ouarzazate. Il s'agit donc d'un espace très disputé.

La superposition des aires est avant tout un héritage du passé. Au début de ce siècle Taroudant et sa région, comme le rapporte B. Desmazières[16], était très pénétrée par les influences de Marrakech et d'Essaouira. Il précise qu'en «1918, des chameaux encore nombreux, apportant à Marrakech à travers la montagne les amandes, l'huile, le miel et la cire et d'autres produits de la région de Taroudant et remportent en échange de l'orge et du maïs, ainsi que des produits importés». Taroudant était donc la principale ville du Souss et de toute la région sud du Haut-Atlas.

Après 1936, Agadir, vieux comptoir portugais, port actif de l'époque saadienne, ruiné et affaibli par la fondation du port d'Essouira (1774), retrouve son importance à mesure que s'étend la colonisation dans la plaine. Le réseau routier de la colonisation a été réalisé dans le but de servir cette tendance, toutes les routes couvergent vers Agadir, devenue par conséquent le débouché naturel de tout le Sud marocain. Taroudant, qui a peu profité de l'économie moderne du Souss se trouve, à cette époque, prise en étau entre Agadir et Marrakech . B. Desmazières précise «la renaissance d'Agadir, devrait

amorcer un véritable retournement des relations commerciales du Souss, au détriment de Marrakech. Cette conversion n'est pas achevée, Le Ras el Oued (le Souss-amont) commerce encore avec le Haouz à travers le pays goundafa et par la route de Tizi n'test».

L'emboitement des aires est aussi un fait très récent, qui revient à la conjugaison d'innombrales facteurs dans la période de l'indépendance. Dabord l'on trouve le découpage administratif. Dans cette région, seul Agadir a bénéficié très tôt d'une importante promotion administrative. Elle devient en 1959, chef-lieu d'une des plus vastes provinces du royaume, ce qui lui a permis en parallèle de devenir la capitale régionale sur le plan commercial[17]. Taroudant n'a pas eu le droit à cette promotion que dernièrement en 1981.

Ensuite, il y a d'autres éléments, à savoir le grand développement agricole du Souss-aval, l'apparition et le grand essor commercial de certains centres (grande concentration de l'équipement commercial de gros). L'ensembele de ces facteurs ont impliqué la multiplication des doublets (Taroudant - Ouled Teïma, Agadir - Inezgane, Inezgane - Aït Melloul, Biougra - Aït Melloul...) et par conséquent ont accentué les situations d'interférence, de tiraillement, de concurrence entre centres, notre doublet en offre le meilleur exemple.

2 - 5 - 2 - Deux villes inégalement enracinées

La carte n°6 met en relief l'inégale couverture spatiale des deux villes. L'aire très étendue d'Ouled Teïma, s'impose immédiatement. Elle couvre un large espace correspondant à peu près aux limites de celle de la ville régionale, Agadir. L'aire de Taroudant, moins vaste, s'insère dans le cadre de sa province, sans la couvrir dans sa partie Ouest, mais lance comme sa voisine des antennes vers Ouarzazate et Tata.

Dans le détail, l'examen de la carte permet d'apprécier l'inégale intensité de leurs rayonnements respectifs et par voie de conséquence, de déceler les différents niveaux de leur superposition.

La première remarque qui s'impose est la prédominance commerciale de chaque centre sur son proche alentour. l eur intersection se fait au niveau des communes d'Ahmar et de Sebt El Guerdane, là où les deux villes ont de fortes influences. Une deuxième analogie se présente à l'Est du Souss-amont, zone s'organisant en fait autour de souks locaux puissants (Tlat d'Ouled Berhil, Had Aoulouz, Tnine Tafingoult). En effet, dans les communes, d'Ouled Berhil, d'Aoulouz et de Tafingoult, les deux villes ont une moyenne influence. Ouled Teïma la doit à son rôle de collecteur de bestiaux, de collecteur et d'expéditeur des fruits et légumes, mais aussi à son importance dans la diffusion des produits de consommation courante, donc à son commerce urbain, mais surtout à son commerce soukier. Taroudant, à l'inverse, a une influence qui provient avant tout de l'importance de son commerce urbain (distribution des produits d'équipement domestique, des produits d'usage courant et collecte des produits ruraux bruts). En dehors du cadre de la plaine, leurs influences diminuent et se différencient. Dans les communes du Haut-Atlas, leur présence se limite à leurs cercles respectifs. Taroudant reste prépondérante dans les communes de Sebt Tafraouten, Had Imoulas, Tnine Tigouga, Khémis Talkjount et Tnine Ida Ougailal. La même remarque s'applique à Ouled

Fig n°6.

AIRES D'INFLUENCE COMMERCIALE DE TAROUDANT ET D'OULED TEIMA.

Teïma, dans les communes de Khémis Bigoudine et M'Nizla. Par contre son emprise diminue dans celles d'Argana et Sebt Talmakant, communes tiraillées entre Inezgane Ouled Teïma et Imi n'Tanout. Dans l'Anti-Atlas, en particulier dans le cercle d'Igherm, Ouled Teïma l'emporte par une moyenne emprise, dans toutes les communes à l'exception de celles d'Adar et d'Azarhar N'Irs.

Dans le reste notamment à l'Ouest où l'emprise d'Agadir et Inezgane est prépondérante et à l'Est, très pénétré,par les influences de Marrakech et Ouarzazate, les emprises de nos deux villes, sont sinon absentes, comme c'est le cas de Taroudant dans la partie Ouest de sa province, du moins très faibles.

L'on retient enfin de ce chapitre que nos deux centres présentent des nuances quant à l'étendue de leurs rayonnements, l'intensité de leurs interférences et par conséquent leurs rôles respectifs dans le commerce rural régional.

Sur la base de l'intensité de leurs rayonnements, on peut déduire que le Souss-intérieur présente les caractéristiques d'une région prise en étau entre Agadir-Inezgane et Ouarzazate (la partie Est se trouve en plus très pénétrée par les influences de Marrakech).

Cependant, si l'on se limite uniquement au cadre régional du Souss, le Souss-intérieur se définit en tant que sous-région commerciale s'organisant autour de deux pôles internes; deux pôles sous-régionaux Taroudant et Ouled Teïma.

Le centre d'Ouled Teïma, en raison de son dynamisme et son enracinement se faisant aux dépens de ses voisines plus anciennes, Taroudant et Agadir, constitue le pivot commercial du Souss-intérieur.

3 - Le conditionnement à Ouled Teïma et la trituration à Taroudant; deux inégaux champs d'action.

Le rôle de notre doublet dans l'économie de la campagne environnante se fait également par le biais de la collecte des primeurs et des agrumes par les stations d'emballage à Ouled Teïma, et de celle des olives destinées à la trituration à Taroudant.

3 - 1 - Taroudant, un centre de collecte des olives.

Taroudant est le seul centre collecteur des olives dans le Souss. Il doit, cette fonction, qui marque profondément ses relations avec son arrière-pays, d'abord à sa situation au milieu de la plus importante zone oléïcole du Souss, où cet arbre a trouvé, en particulier le long de l'oued Souss les conditions favorables à son développement. Ensuite, il la doit aussi à son important équipement de trituration (44 maâsra).

Les produits collectés ne sont pas tous destinés à la transformation locale, une bonne quantité est livrée aux oléifacteurs gadiris et marrakchis. Les ventes se font sur deux niveaux. Le premier est celui des maâsras où des commerçants, à l'origine oléiculteurs, présentent des cas intermédiaires. Ils possèdent ou louent des maâsras dans lesquels ils transforment leurs propres récoltes ou celles des petits oléiculteurs. Certains d'entre eux possèdant des huileries modernes ou tout simplement rénovées, ne se contentent plus de ces opérations routinières et se livrent à des achats directement dans les vergers,

partout dans le Souss et ses bordures. Dans les dernières années, en raison de la succession de mauvaises campagnes les achats se font très loin, dans le Haouz, et le dir du Moyen - Atlas. Taroudant couvre, à ce niveau, un champ d'action très vaste.

Le deuxième niveau intéresse des négociants forains dressant leurs tentes dans la place de bab El Khémis et celle de bab Zorgane à l'attente des petits oléiculteurs leur fournissant tous les jours durant la campagne les quantités ramassées dans les champs avoisinant la ville. Dans la plupart des cas ces produits sont expédiés vers Agadir mais sourtout vers Marrakech.

Il reste à dire que la collecte et la trituration des olives qui a toujours constitué la base économique de la ville, a traversé ces dernière années, en raison de la sécheresse une grande crise, dont on a pu apprécier l'intensité par le biais des effectifs de maâsra fonctionnant tous les ans. Ils sont passés de 44 en 1978 à 23 en 1980, à sept en 1983. Les huileries modernes, au nombre de 3 n'ont plus fonctionné depuis 1982. Ce qui a imposé la recherche d'autres activités de rechange ou de compléments dans la construction et le commerce des produits ruraux, en particulier, les bestiaux.

Toutefois, une certaine amélioration de la situation s'est annoncée depuis 1987.

3 - 2 - Collecte des produits par les stations : une faible emprise d'Ouled Teïma sur le Souss-intérieur

Ouled Teïma se présente par son équipement de conditionnement, comme principal centre agro-industiel du Souss-intérieur (55,5 % des stations d'agrumes et 72,7 % de celles des primeurs) (Tableau n°4), cependant, elle ne traite qu'une faible partie de la production emballée (15,9% du total des argumes et 14,2% de celui des primeurs), issue de cette zone constituante la principale partie maraîchère et agrumicole du Souss. (92,7% du verger agrumicole et 65% de celui du maraïchage).

Tableau n°4

Place d'Ouled Teïma dans le conditionnement des produits du Souss en 1983.

Centre de conditionnement	Agumes			Primeurs		
	Nombre de stations	Tonnage (T)	%	Nombre de stations	Tonnage (T)	%
Ouled Teïma	5	35.769	15,9	8	-	-
Taroudant (*)	-	-	-	-	-	-
Sebt El Guerdane	4	38.715	17,2	-	-	-
Aït Melloul	-	36.928	16,5	17	8716,2	28,9
Inezgane	-	-	-	I	552,2	1,8
Dcheira	-	-	-	6	2241,2	7,5
Agadir	-	85.790	38,3	1	429,6	1,5
Biougra						
Massa Chtouka	-	-	-	33	13191,1	43,8
Autres	4	27.138	12,1	3	707,9	2,3
Total	23	224340	100	-	30101	100

Source : statistiques de l'O.C.E. 1984

(*) Taroudant : la ville ne compte aucune station de conditionnement.

Les tonnages traités, rapportés à leurs superficies moyennes correspondantes, intéressent seulement 12,2 % du verger agrumicole et 2,9 % de celui des primeurs. Sur la base de ces données, on peut dire qu'Ouled Teïma, n'assure par le biais du conditionnement qu'une faible maitrise sur le Souss-intérieur, son principal bassin d'approvisionnement.

L'influence de l'Ouled Teïma à ce niveau, bien que s'étendant sur l'ensemble des communes rurales bordant l'Oued Souss, n'est importante que dans celle de son entourage immédiat (Ouled Teïma, Sebt El Gfifat, Sidi Moussa, Sebt El Guerdane, Temsia et Koudia). Ouled Teïma, principal pôle commercial du Souss-intérieur, n'est qu'un pôle local de conditionnement, du fait du rôle joué à ce niveau, par Agadir et Aït Melloul. (54,6 % du tatal des argumes et 39,7 % de celui des primeurs) et aussi à cause des stations disséminées dans les fermes (23,3 % des argumes et 42,3 % des primeurs). Cette situation provient de la répartition des stations d'emballage dans le Souss. En effet, les implantations des stations se sont moins faites, en fonction de la localistion des vergers que par rapport à la proximité du port. La concentration des installations de conditionnement à Agadir et Aït Melloul (65,2 % du total), est en effet dictée par la proximité du port, mais surtout par la disponibilité d'une main d'œuvre abondante et bon marché, main d'œuvre exploitée de novembre à juin par ces stations avant de l'être de juillet à octobre par les conserveries de poisson d'Agadir. En outre leur localisation dans les centres urbains offre deux avantages : elle résoud les problèmes de logement qu'exige la présence de grandes masses d'ouvriers et ouvrières, et fournit de plus les sources d'énergie que l'on ne retrouve que rarement dans les campagnes.

La faible importance d'Ouled Teïma quant au conditionnement, découle aussi de la taille de ces stations. Soulignons qu'en ce qui concerne les agrumes, il n'y a qu'une seule station qui puisse être qualifiée de grande (plus de 10.000 T par an), en 1983, celle-ci a traité 40,8% du total conditionné à Ouled Teïma le reste,c'est-à-dire 59,2% est traité par les autres, qui sont de taille moyenne (entre 5.000 et 10.000 T par an). Par contre, pour ce qui est des primeurs, les stations sont toutes petites (moins de 900 T par an).

A cela s'ajoute le caractère privé et indivuduel de toutes les stations, à l'exception de deux dont une est rattachée à une société et l'autre à une coopérative , lesquelles, ne traitent que pour leurs propriétaires. Ceci oblige les autres agriculteurs désireux d'exporter leur production à l'étranger à recourir aux autres stations, en particulier à celles d'Agadir et d'Aït Melloul dans lesquelles on trouve des Ouled Teïmis comme propriétaires ou associés.

Le conditionnement à l'Ouled Teïma, n'intéresse que les gros producteurs. L'absence de petits et la faible représentation de moyens propriétaires s'expliquent par l'importance qu'accordent ces derniers à la commercialisation directe dans les souks et les marchés de gros de la plaine. A cela s'ajoute, comme l'a précisé AZIKI[18], leur méfiance envers les stations de conditionnement en raison de l'absence à leur niveau d'un esprit de responsabilité commerciale.

Ainsi, on conclut que le rôle d'Ouled Teïma dans la collecte des produits destinés au conditionnement reste limité au Souss-intérieur. Il n'est donc, en l'état actuel des

choses qu'un petit centre de conditionnement, mais il constitue localement comme régionalement un important pôle par le capital investi et par son rôle décisionnel dans le domaine de l'gro-industrie dans le Souss (la propriété de toutes les stations d'emballage d'Ouled Teïma et de la plupart de celles du Grand Agadir, revient aux gros producteurs houaris). Cependant, cette ville se réduit, en raison de la dépendance de cette activité à plus de 10 % du marché extérieur, à un simple centre relais, n'intervenant que dans la phase finale d'exécution de décisions qui sont prises souvent dans les centres étrangers. Ce qui pourrait entraîner, en cas de concurrence et mévente, des conséquences néfastes et fâcheuses sur l'économie de cette zone.

Conclusion

L'étude des différents aspects de l'intervention économique de Taroudant et Ouled Teïma dans leur campagne environnante a révélé l'existence de nettes disparités entre elles. Ouled Teïma présente une incontestable supériorité sur sa voisine. Dans le domaine foncier, elle commande d'importantes superficies des terres rurales dont l'exploitation se fait dans le cadre d'un système de production et de réinvestissement, contrairement à Taroudant où le patrimoine foncier citadin est modeste et ne constitue qu'une source de rente et un moyen de prélévement de la production rurale. Ouled Teïma reste donc le principal centre de commandement et de gestion des terres rurales dans le Souss-intérieur.

Au niveau commercial, la même remarque peut être faite. Ouled Teïma de par son rôle dans la collecte des produits ruraux bruts, la redistribution des produits urbains se présente, dans cette partie du Souss, comme principal pôle commercial. En somme, Ouled Teïma pourrait être définie comme capitale économique du Souss-Interieur. Par ailleurs, l'exemple de notre doublet - où s'opposent deux villes, économiquement très inégales et issues de deux générations différentes - reflète l'évolution actuelle des relations ville - campagne dans cette zone du Souss. D'une part l'on enregistre l'accroissement des aspects parasitaires de la pénétration de la ville dans la campagne par le biais de l'appropriation foncière, de la collecte et de la transformation des produits agricoles et d'autre part, la diminution de l'impact économique régional de la ville traditionnelle, Taroudant, devant l'expansion de celui de sa voisine Ouled Teïma, centre plus jeune et plus dynamique.

Dans l'évolution actuelle des choses, peut-on dire que cette dernière est en voie de renforcer davantage son rôle régional, si Taroudant, promue capitale de province en 1981, ne renverse pas cette tendance ?

Notes

1 - La propriété privée citadine a été étudiée par l'exploitation de deux enquêtes réalisées par les soins de la division régionale de l'agriculture : l'enquête fichier (1975) et l'enquête gaz-oil (1982).

1 - Seule la propriété privée citadine a été prise en considération.

2 - ASSOUSSI (M.M). Khilal Jazoula vol n°4 ed, Mehdia, Téouan.

3 - PERE (M) 1967, Agadir ville nouvelle, RGM n° 12 (ancienne série) p. 43. Rabat.

4 - Il est question seulement des fruits et légumes collectés par le marché de gros.

5 - Le Souss-aval correspond à la partie de la plaine située à l'Ouest de Taroudant, (le Souss - amont, partie située à l'Est). Ce zonage a été fait sur la base de l'allure morphologique et comportement de la nappe phréatique occupant la vallée du Souss et s'écoulent vers l'océan.

6 - Le souk de bétail d'Inezgane est le deuxième du Souss après celui d'Ouled Teïma, avec environ 120.000 têtes / an d'après les premiers résultats que nous a confiés ZIRARI (Inezgane pôle commercial du Souss, thèse de 3° cycle en cours).

7 - En raison de l'absence de statistiques plus récentes, portant sur les grands souks collecteurs de bestiaux au Maroc, nous nous sommes limités pour la comparaison sur les résultats de J.F. TROIN (les souks marocains, thèse de doctorat d'Etat, PP. 313. 317, Edisud, Aix en Provence 1975).

8 - Service des recettes du Cercle d'Ouled Teïma (1984).

9 - Estimation personnelle, faite sur la base des entrées dénombrées à l'exhaustif, lors de l'enquête souk 1984.

10 - Rapport semestriel de la délégation régionale du commerce (Ier semestre 1984).

11 - Idem.

12 - Ouled Teïma compte en 1986, 15 implantations de gros (produits d'épicerie).

13 - Ce nombre ne comprend pas les fellahs présents dans le Souk et qui totalisent 507 personnes.

14 - TROIN (J.F) 1982, la petite ville au Maroc : La fin d'un mythe. numéro hors série de l'E.R.A. 706 (CNRS) TOURS.

15 - BEGUIN (H) 1974 : L'organisation de l'espace au Maroc Académie Royale des Sciences d'Outre-Mer. P. 595. Bruxelles.

16 - DESMAZIERES (B) 1948 : L'évolution des grands courants d'échanges commerciaux à l'interieur du Maroc. «Documents C.H.E.A.M. n° 1403 Paris».

17 - PERE (M) op. cité.

18 - AZIKI (S) 1984 : L'agriculture irriguée et l'amanagement d'un espace méridional marocain en pleine mutation : le cas du Souss-Aval. Thèse de doctorat de 3è Cycle. Université Aix-Marseille II institut de géographie, P. 350.

Résumé

L'étude de la pénétration économique des deux villes voisines,Taroudant et Ouled Teïma, dans leur campagne environnante, a révélé l'existance d'une incontestable primauté de cette dernière. En effet, Ouled Teïma, petite ville de création très récente, a réussi à déclasser Taroudant, la plus ancienne médina du Souss, et à s'imposer au sein de sa zone d'influence traditionnelle, Elle est devenue, en un très court laps de temps, le principal centre de commandement et de gestion des terres rurales et le plus important pôle commercial dans la partie intérieure du Souss correspondant à la province de Taroudant.

ملخص

أبرزت دراسة مختلف مظاهر النفوذ الاقتصادي لمدينتي تارودانت وأولاد تايمة في الوسط الريفي المحيط بهما وجود اختلافات جوهرية بينهما. فأولاد تايمة رغم حداثة نشأتها، تسجل تفوقا ملحوظا على جارتها المدينة التاريخية العتيقة، فعلى المستوى العقاري تشرف أولاد تايمة على قيادة وتسيير مساحات شاسعة من الأراضي، يندرج استغلالها في إطار نظام إنتاجي واستثماري، عكس مدينة تارودانت التي أصبحت بها الملكية العقارية الحضرية متواضعة، ولا تمثل إلا موردا للريع ووسيلة للاقتطاع من الانتاج الريفي.

ونفس الملاحظة تنطبق على المدينتين من حيث دورهما التجاري، حيث نجد أن أولاد تايمة تعتبر نتيجة للدور الذي تضطلع به على مستوى تجميع المواد الريفية الخامة وتوزيع المواد الحضرية أهم قطب تجاري في الجزء الداخلي من سهل سوس وحواشيه الجبلية والمطابق للحدود الادارية لعمالة تارودانت.

LES ALLUVIONS DU SITE DE TAROUDANT ET LEUR SIGNIFICATION GEOMORPHOLOGIQUE

Ali AIT HSAINE
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines
Agadir

Introduction

Le site de Taroudant, et en général l'interfluve situé entre l'oued el ouaar et l'oued souss, est constitué d'une puissante série d'alluvions quaternaires, composés essentiellement de limons entrecoupés par des lits de galets. Ces dépôts posent de nombreux problèmes, tels que leur épaisseur, leur âge, leur origine et enfin le problème du passage des dépôts transversaux aux dépôts longitudinaux. Cette étude a pour but d'apporter des éclaircissements sur ces problèmes.

I - Géométrie et géomorphologie du site de Taroudant

Taroudant se trouve dans la dépression du Souss (latitude 30° 28 N et longitude 8° 53 W) à une altitude de 250 m. Elle est dominée du côté nord et de loin par les crêtes et sommets paléozoïques et mésozoïques du Haut-Atlas, et du côté sud par les collines crétacées de sidi Bourja et par l'Anti-Atlas(Fig I et 3).La dépression est drainée par l'oued Souss et ses affluents issus de bassins-versants diversifiés.

Relativement, Taroudant occupe la partie centrale, à la fois, du bassin et de la vallée du Souss (Fig I). Elle est bâtie sur une puissante série de dépôts plio-villafranchiens et quaternaires (200 à 300 m. M. Combe et A. El Hebil 1977, R. Amboroggi 1963) qui fossilisent un synclinal crétacé représenté en surface par quelques témoins telles les collines de sidi Bourja, El Bouida et Al Aricha (Fig 2 et 3). Ce synclinal est déformé par un réseau de failles dont deux encadrent le soubassement de la ville (Fig 2 et 3). La position géographique et l'orientation du relief confèrent à Taroudant un climat contrasté, dont ses grands traits se manifestent par un été chaud et prolongé (25 à 30° Juin-Octobre) et un hiver irrégulier doux à froid (10°). Le gel ne se produit qu'une année sur trois ou cinq grâce à l'ouverture sur l'Océan (M. Combe, El Hebil 1977 ; R. Dijon 1969). La pluviosité ne dépasse pas 250mm, ce qui la range dans le climat semi-aride à aride.

Dans la réalité, la ville de Taroudant se trouve sur un interfluve plat encastré entre l'oued Souss au sud et l'oued l'Ouaar au nord, à l'aval des cônes de déjection de ce dernier oued et de l'oued Irguitène (Fig 3, 4 et 5). Ces deux limites hydrographiques donnent à cet interfluve une forme ovoïde,évasée entre la confluence de l'oued El Hamer avec l'oued el Ouaar au nord et le douar El Fokha au sud. Cet inter fluve ne dépasse guère 250 m d'altitude, il est légérement incliné vers l'ouest et vers le sud (240 à 213 m). Sa platitude lui donne l'aspect d'une terrasse, dont la pente moyenne est d'environ 4 à 5%.

Au niveau de la ville, l'oued el Ouaar n'est qu'à 3 km de l'oued Souss, il coule à cet endroit de l'est vers l'ouest et s'encaisse dans le site de 4 à 7 m avec un lit étroit, il est surplombé par des berges modelées en bad-lands (Fig 4 et 5). En revanche, l'oued Souss à Taroudant coule en surface de l'est vers l'ouest, son lit est large de 1 km et

envahi de sables et d'alluvions (Fig 4 et 5). L'oued s'appuie sur les collines de sidi Bourja et s'éloigne de la ville. Toutefois, ces deux oueds qui se rejoignent aux environs des collines d'Al Aaricha sont cruels en périodes de fortes crues (Fig 4).

Le site de Taroudant emprunte la rive gauche de l'oued el Ouaâr (Fig 4 et 5). Les observations montrent que ce site est menacé par cet oued, non seulement par ses inondations probables, mais surtout, par le phénomène d'érosion lalérale et régressive qui prend naissance des berges de cet oued et qui se développe aussi au pied du rempart nord de la ville (Fig 4). Ce phénomène est fonctionnel pendant chaque écoulement, compte-tenu de la nature des dépôts qui constituent le site.

2 - Statigraphie et sédimentologie du site de Taroudant.

Nos observations ont porté sur plusieurs coupes le long des oueds el Ouaar et Souss, mais aussi sur le cône de déjection de l'oued Irguitène (Fig 4). Les détails de quelques coupes sont schématisés dans la figure 6. Leurs épaisseurs sont cependant inconnues, les plus détaillées sont représentées par les berges de l'oued el Ouaâr, vu son encaissement. Toutes ces coupes montrent presque le même matériel et la même disposition, et pour cette raison, nous limiterons nos descriptions à une seule coupe, mais dans des endroits différents.

2 - 1 - Coupe de la rive gauche de l'oued el Ouaâr à Bab Bounouna de bas en haut (Fig 6).

0 -2 m ? (unité zéro) :	silts violacés à grosses concrétions très dures referment des élèments de graviers. Structure massive en colonnes. Les concrétions présentent la forme en roseaux diffus mais complets. Présence de taches noires ou rouge-violet (oxyde de Mg ?; hydromorphie ?). Matrice sablo limoneuse rouge-ocre consolidée (rubéfaction accusée). Cette unité repose sur les conglomèrats encroûtés enfouis à cet endroit.
2 - 2, 40 m (unité I) :	formation de blocs (de 10 à 51 cm de PGL), de galets et de graviers à matrice sableuse non consolidée. Structure grossière désordonnée. Les galets de 5 cm et les graviers sont abondants ; ils sont sub - anguleux à sub - arrondis et orientés N - S, perpendiculairement à l'écoulement actuel (E - W). Ce matériel est composé de 35% de N -S, perpendiculairement à l'écoulement de 20% de grès calaires ; de 5% de quartz de 5% de quartsites; de gypses; et de 6% de schistes. Tous ces élèments présentent un début d'enrobement. l'ensemble montre une limite franche avec la formation sous-jacente.
2,40 S - 440 m (unité 2) :	sitls rouge-ocre durs, contenant des nodules et concrétions de plus petite taille que celles de l'unité zéro. Quelques cailloux de taille de graviers s'observent mais sont rares. Structure massive en petites

	colonnes et matrice sablo-limoneuse rouge. Cette unité renferme des Hélix en abondance dans d'autres endroits. Elle vient sur la rudite d'une façon nette.
4,40 6m (unité 3 a) :	limons beiges peu compacts surmontant d'une façon diffuse les silts rouges.
6 - 6,40 m (unité 3 b) :	sables fins argileux superficiels de couleur grise poreux et tendres. Le passage des limons beiges aux sables est diffus.

sur la rive droite, au même endroit, les galets et graviers de l'unité I ravinent microscopiquement la formation silteuse de base. Cette unité I renferme 60% de graviers et 35% de galts moins de 5cm, les blocs situés entre 10 et 51cm de PGL ne représentent que 5% seulement.

A l'hôtel Salam, et à l'occasion des travaux d'assainissement, l'observation faite sur deux mètres de profondeur (Fig 6) montre le même matériel, au moins pour les deux unités supérieures 2 et 3.

2 - 2 Coupes décrites à l'oued Souss (Fig 6)

Sur la piste de sidi Bourja-Taroudant et sur la rive droite de l'oued Souss, le rebord de la terrasse qui domine l'oued de + 2 m est constitué de limons gris-clair tendres à Hélix actuels. Cette terrasse se poursuit le long de l'oued. Par contre au pont de Taroudant, sur la rive gauche de l'oued Souss, se voient les unités zéro, deux et trois qui, cette dernière, correspond ici à une dune (Fig 6). A l'aval de l'oued el Ouaâr, les coupes présentent la composition complète des trois unités.

Le passage des premiers dépôts décrits à l'oued el Ouaâr aux limons de l'oued Souss est complexe et très difficile à établir, à moins que, la constitution pétrographique et les facteurs morphogénétiques des unités inférieures des deux oueds soient identiques, dans ce cas, nous comprendrons que la terrasse limoneuse récente de l'oued Souss serait bien l'équivalent de l'unité 3 de l'oued el Ouaâr (Fig 5). En effet, pour mieux comprendre ces rapports dynamiques, l'origine de ces dépôts et les facteurs de leur mise en place, nous nous sommes appuyés sur les spèctres pétrographiques, la granulométrie, la minéralogie et la morphoscopie des sables.

3 - Spèctres pétrographiques du site de Taroudant : détermination des zones d'alimentation et des formations du site et leur interprètation

Les comptages pétrographiques effectués sur la fraction grossière des galets (4 - 6cm) des coupes le long de l'oued el Ouaar à l'aval de Taroudant montrent que les dolérites (Trias) prennent la relève avec 40 à 60% (Fig 4), suivies par les calcaires blancs (Turonien ou Santonien) avec 20 à 40% qui, au sommet des coupes, occupent une proposition égale ou supérieure à celle des dolérites 45 contre 40%. Les grès calcaires (Santonien) ne représentent que moins de 20%, les quartz et les quartzites (Paléozoïque) moins de 10% et enfin les schistes (Palézoïque) moins de 5%. Ces résultats concordent avec ceux obtenus sur les mêmes niveaux stratigraphiques à mi-distance et à l'aval du cône de déjection de l'oued Irguitène : La minéralogie des sables des niveaux intermédiaires et

supérieurs de l'oued el Ouaar fait apparaitre à Bad Bounouna des feldspaths en abondance, suivis par des grès, des schistes, de la calcite, du gypse et finalement des dolérites, alors que la terrasse limoneuse de l'oued Souss ne montre surtout que des grès calcaires ? (M. IKENNE[1] A. AIT HSSAINE). Toutefois, les sables de la coupe décrite en face de l'hôtel Salam présentent une composition pétrographique analogue aux unités 2 et 3 de l'oued el Ouaar avec cependant quelques éléments semblables à ceux de la terrasse limoneuse de l'oued Souss. La part des quartz dans toutes ces formations étant réduite.

Ces observations montrent donc que les grès et surtout les schistes ont subi la fragmentation et l'altrération, ce qui explique leur part très faible ou même absente dans les fractions de galets. Le sommet des coupes indique que les bassins d'alimentation s'installent de plus en plus sur les reliefs calcaires mésozoïques et cénozoïques des bordures. Le site de Taroudant traduit des épisodes d'épandages majeurs liés peut-être à deux sources d'alimentation différentes.La première devrait être représentée par les bassins-versants des oueds el Ouaar et Irguitène dominant directement la ville du côté nord. Ces bassins-versants ont livré d'énormes dépôts lors de la construction des piémonts. Ces oueds remblayaient alors leurs charges jusqu'aux abords de l'oued Souss pendant des périodes différentes. Il n'y aurait donc pas de doute que la ville de Taroudant se trouve sur les dépôts de ce qu'on peut appeler cône-terrasse ou mieux encore galacis-terrasse des oueds el Ouaar et Iruguitène comme le confirme d'ailleurs la nature pétrographique (Fig 4 et 5). La deuxième source d'alimentation devrait être située à l'est de ces deux bassins-versants, elle alimente l'oued Souss à l'est de Taroudant. Les dépôts récents propres à cet oued correspondent vraisemblablement à la terrasse limoneuse, ils viennent se mêler aux dépôts superficiels des cônes à leur aval et non loin de l'oued Souss.Dans ce contexte, le site de Taroudant correspond, au moins, dans sa partie supérieure aux dépôts des cônes de déjection, tandis que les unités zéro et deux reflètent des phases d'épandages majeures dans des milieux rubéfiants et confinés,voire palustres(oxyde de fer,de Mg,structure en roseaux etc...). Chaque épisode limoneux traduit une dynamique peu active des oueds et se termine par une phase sèche (concrétionnement des limons), elle est suivie d'une période d'écoulement énergique traduite par la présence des blocs et galets (unité I etc...) indiquant, au sommet de ces formations, un remaniement probable, il n'est pas aussi impossible que l'unité deux peut être du remaniement de l'unité zéro. Ces résultats peuvent être généralisés au pièmont sud du Haut Atlas occidental,vu la similarité des faciès quaternaires observés de l'est à l'ouest, le long de ce pièmont. Les unités I et 2 peuvent évoquer manifestement le Soltanien, voire aussi l'unité zéro. Des datations sur les Hélix récoltés dans ces niveaux sont en cours.

Granulométrie, morphoscopie des grains de quartz et processus responsables de la mise en place.

Les courbes cumulatives des sables de rive gauche de l'oued el Ouaâr (Fig 7 a) montrent pour les faciès inférieurs (unités 0, I, 2) des allures logarithmiques, évoquant un dépôt en vrac à longue évolution. La courbe 4 indique aussi le même mode de transport, par contre, la courbe 5 a tendance à devenir parabolique traduisant peut-être

---

(1) Enseignant (pétrogaphe) au département de Géologie de la faculté des sciences Agadir.

ici le remaniement des particules fines. Cette courbe sommitale donne une assymétrie positive (SK = 1,7) et un Sorting index de Trask So = 1,9 elle reflète donc un bon classement du côté des particules fines. Toutes ces courbes traduisent un écoulement désordonné à caractère torrentiel.

La morphoscopie des grains de quartz (Tableau I) indique que l'action éolienne, faible dans l'unité zéro, devient de plus en plus importante au sommet de ces formations. Ces conclusions s'affirment aussi pour le dépôt ultime de la coupe décrite en face de l'hôtel Salam (So = 1,4 et Sk = 1,2, Fig 7 b, courbe 3), l'action éolienne se combine à l'écoulement avec un bon tri sur les fines.* En revanche, la terrasse limoneuse de l'oued Souss d'origine fluviatile (So = 2,5 et Sk = 0,7, Fig 7b et tableau I). Ces résultats confirment donc, en quelque sorte, les conclusions des spectres pétrographiques et que le site de Taroudant se trouve bien sur la partie aval des formations sommitales des cônes des oueds el Ouaar et irguitène.

coupes	courbes et figures	aAng%	Em mat %	Arr mat %	RM %	Total
oued et ouaar	I Fig 7 a	68,05	21,05	-	10,52	100 %
rive gauche à bab Bounouna	5 Fig 7a	91,56	36,95	21,73	21,73	100 %
Hotel Salam	3 Fig 7b	27,5	12,5	37,5	22,5	100 %
Terrasse de souss de + 2 m	1 Fig 7b	50	12,5	29,16	8,33	100 %

Tableau 1 : Morphoscopies des grains de quartz des formations du site de Taroudant

* Labsence du picotement ou des traces de choc sur les grains peut faire allusion à l'écoulement diffus, mais la présence des dunes sur le sommet de ces formations et dans le terrain peut appuyer l'idée de l'intervention du vent.

Conclusion

Les principaux enseignements qui se dégagent de cette étude se résument dans les points suivants :

- l'hétérogénéïté du matériel et la variété des faciès du site de Taroudant témoignent, d'une part, d'une diversité des sources d'approvisionnement et d'autre part, d'une variation du régime de l'écoulement dans des milieux peu différents.Ces milieux reflètent les caractères palustres pour l'unité zéro et peut-être aussi pour l'unité deux mais déjà évolués.

-quelques crues à charge solide des oueds el Ouaâr et Irguitène arrivent jusqu'aux abords de l'oued Souss (unité I etc...) attestant une dynamique accrue, cette dynamique se voit atténuée au sommet des formations pour se combiner à l'action éolienne qui, comme l'indique l'unité 3 devient de plus en plus importante.

$ - l'oued Souss lui, jusqu'à la mise en place de la terrasse limoneuse équivalente à l'unité 3 montre une certaine régularité de son rigime, tandisque l'oued el Ouaâr et l'oued Irguitène connaissaient à la même époque un écoulement intermittent, ce qui encourageait l'action du vent, cette action est beaucoup plus manifeste actuellement, elle se traduit dans le paysage par le façonnement des dunes qui se développent aussi dans les lits des oueds (surtout oued Souss Fig 4).

- Les unités zéro et deux ont subi une pédogénisation postérieure dans un milieu rubéfiant favorable à l'altération.

- Le détournement brusque des oueds el Ouaâr,Irguitène et même Souss vers l'est peut être d'origine tectonique.

- l'apparition des ravines et des calanchi à l'aval des cônes est un signe de détérioration du régime de l'écoulement et de dégradation du milieu.

REMERCIEMENTS

Il m'est agréable de remercier le département de Géologie de la faculté des sciences d'Agadir de m'avoir autorisé à faire les traitements granulométriques et morphoscopiques des échantillons.

Bibliographie

- AMBROGGI, R. (1963) : Etude géologique du versant méridional du Haut-Atlas Occidental et de la plaine de Souss.- Thèse de Doct es - Sciencess, 321 p. Notes et mém. Serv. géol. Maroc, N° 157.

- COMBE, M. et ELHEBIL, A. (1977) : Ressources en eau du Maroc : domaines atlasique et sud-atlasique. Notes et mém. Serv; géol. Maroc, t3, N° 231, pp. 85-186.

- DIJON, R. (1969) : Etude hydrogéologique et inventaire des ressources en eau de la vallée du Souss. Notes et mém. Serv. géol. Maroc, N° 214, pp. 72-90.

RESUME

Taroudant se situe dans la dépression de Souss, cette dépression est drainée par l'oued Souss et s'ouvre sur l'Atlantique. Elle est encadrée par les massifs volumineux du Haut Atlas et de L'Anti-Atlas.

Le site de la ville de Taroudant est constitué dans son ensemble de limons épais, altérnés parfois par des lits de galets. L'étude de ce site montre d'une part,que la ville se trouve sur l'aval des formations des cônes de déjéction des oueds el Ouaâr et Irguitène, d'autre part, cette étude indique des variations des environnements de dépôt et du régime des oueds. Ce régime se dégrade au profit de l'action du vent.

ABSTRACT

Taroudant is situated the Souss depression. The lather is drained by the souss dry river, open on the Atlantic Ocean. It is borded by the great montains of the high Atlas and Anti-Atlas. The site of the town is constitued together by thik silts, interbedded by levels of pebbles. The study or this site shows, on the one hand, that the Taroudant is built on formations down the alluvial fan of el ouaâr and irguiten's rivers. on the other hand, this study indicates the variations of deposits environnements and their kind of flow. This torrentiel flow degrades in favour of wind action.

ملخــــص

تقع مدينة تارودانت في منخفض يجري فيه واد سوس، حيث ينفتح على المحيط الأطلنتيكي ينحصر هذا المنخفض بين الهوامش الجنوبية الشامخة للأطلس الكبير والنهاية الشمالية للأطلس الصغير.

يتكون موضع مدينة تارودانت من مجموعة غرينية سميكة متناوبة في بعض الأحيان مع أفرشة حصوية. بينت دراسة هذا الموضع أن المدينة توجد على سافلة تكونات مخاريط الانصباب لوادي الواعر وإركيتن، كما أظهرت تباينات في الأوساط التوضعية وفي نظام الجريان، هذا النظام الذي يتدهور شيئا فشيئا لصالح النشاط الريحي.

Fig 1. **SITUATION DE TAROUDANT DANS LE MAROC (CARRE NOIR).**

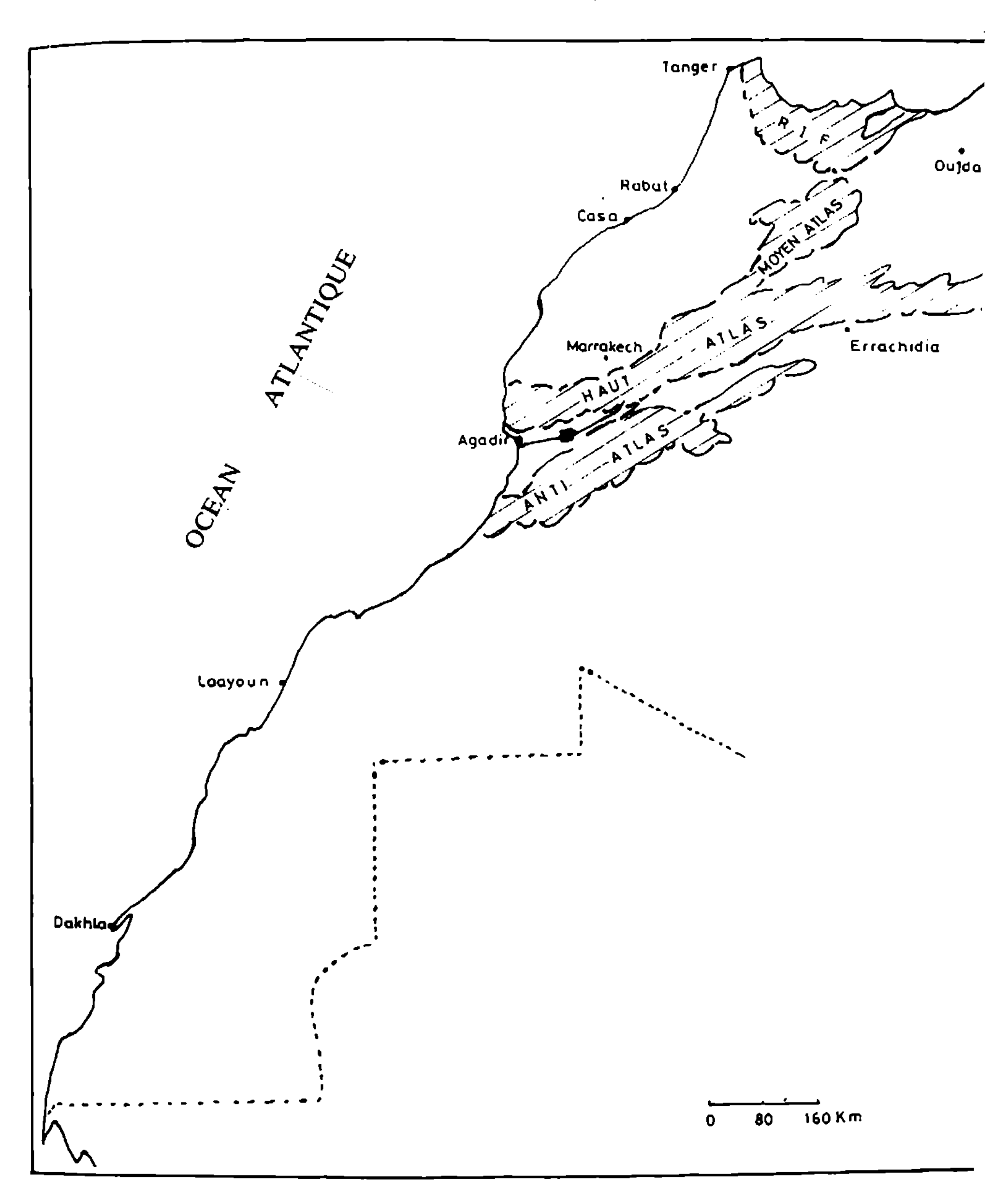
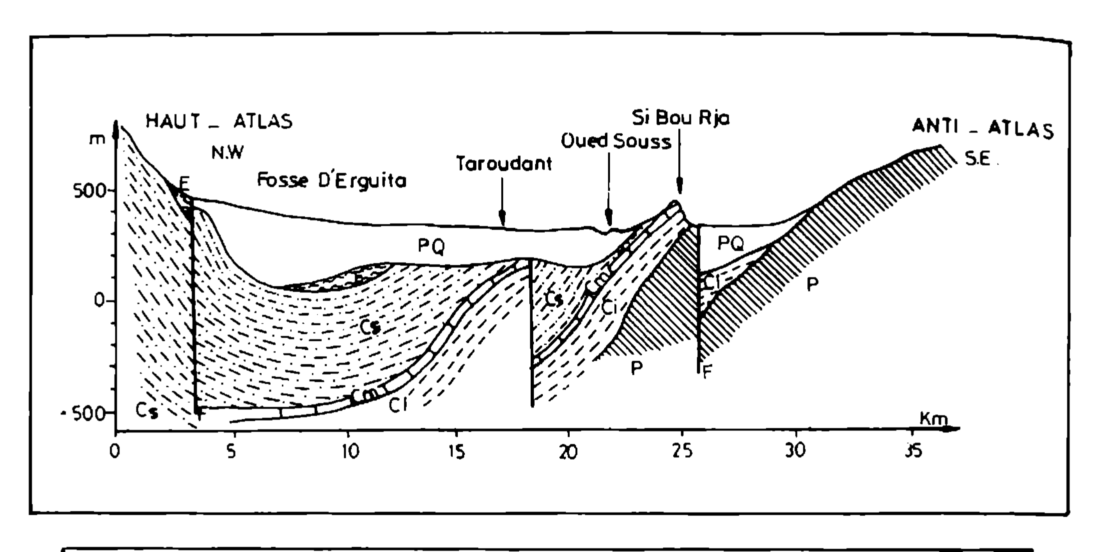


Fig 2. COUPE GEOLOGIQUE DANS LES FORMATIONS DE TAROUDANT (M. COMBE 1977. D'APRES GEOPHYSIQUES ET FORAGES).



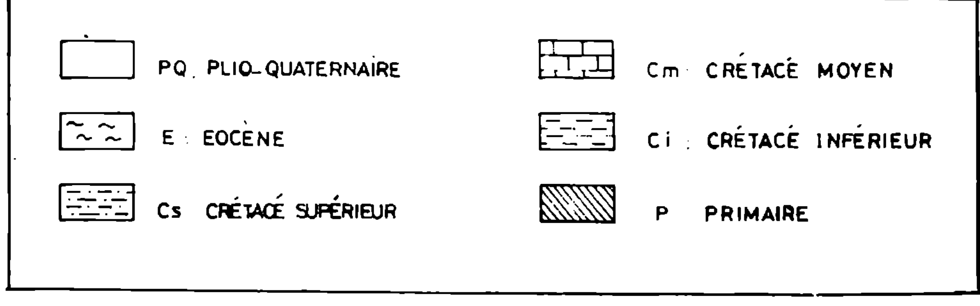
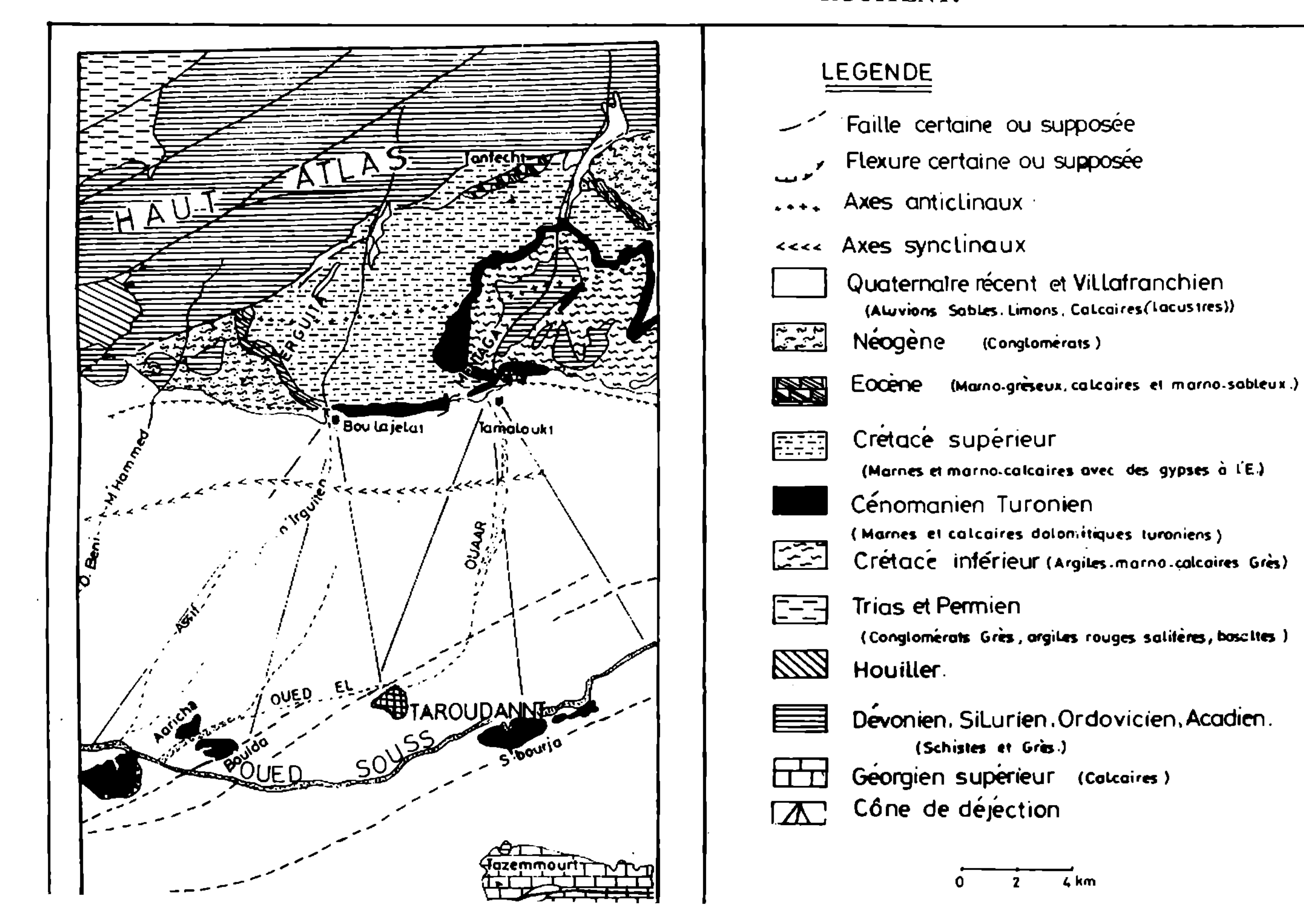


Fig 3.

LITHO-STRUCTURE DES BASSIN-VERSANTS
DES OUEDS EL OUAAR ET IRGUITENT.



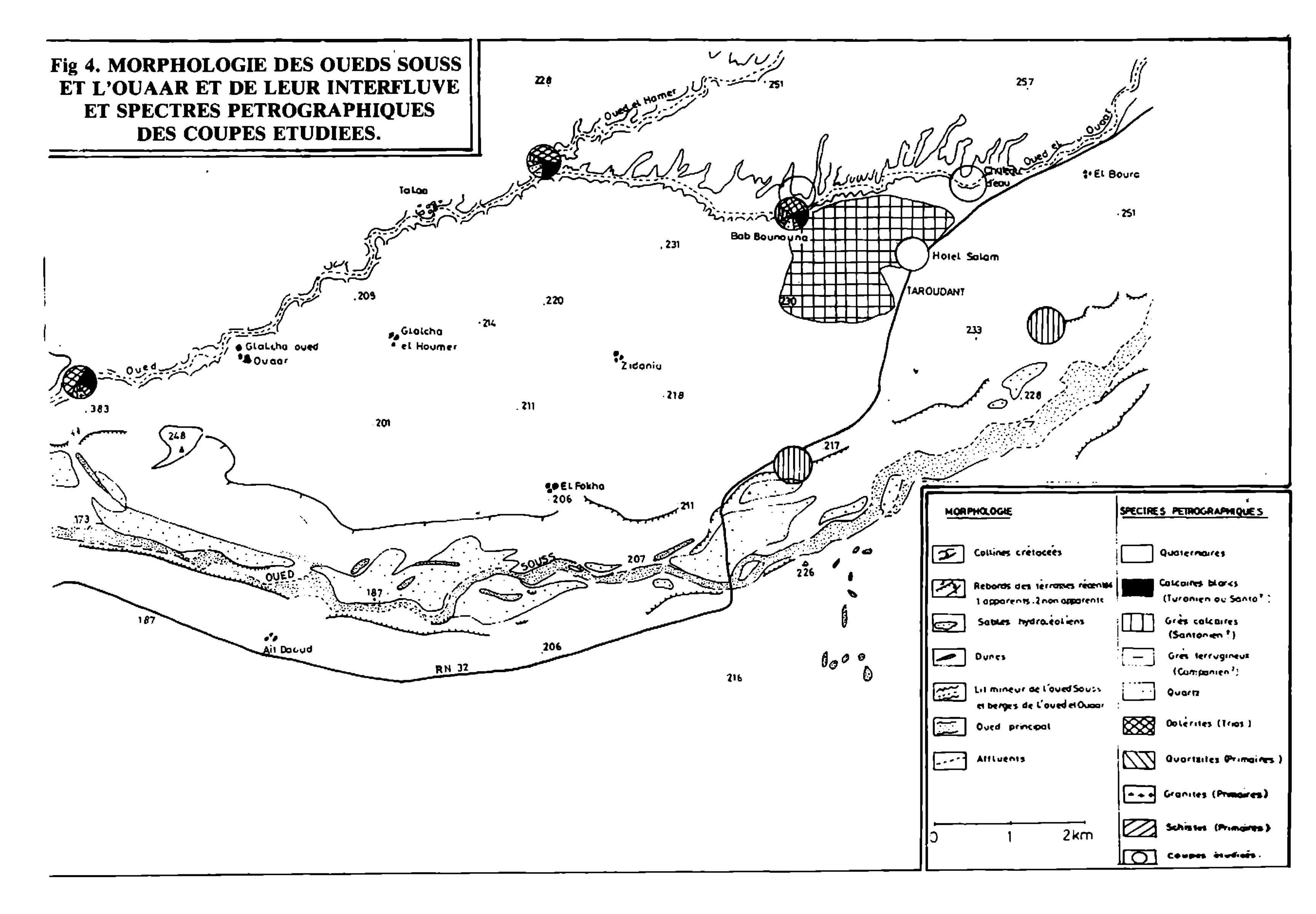
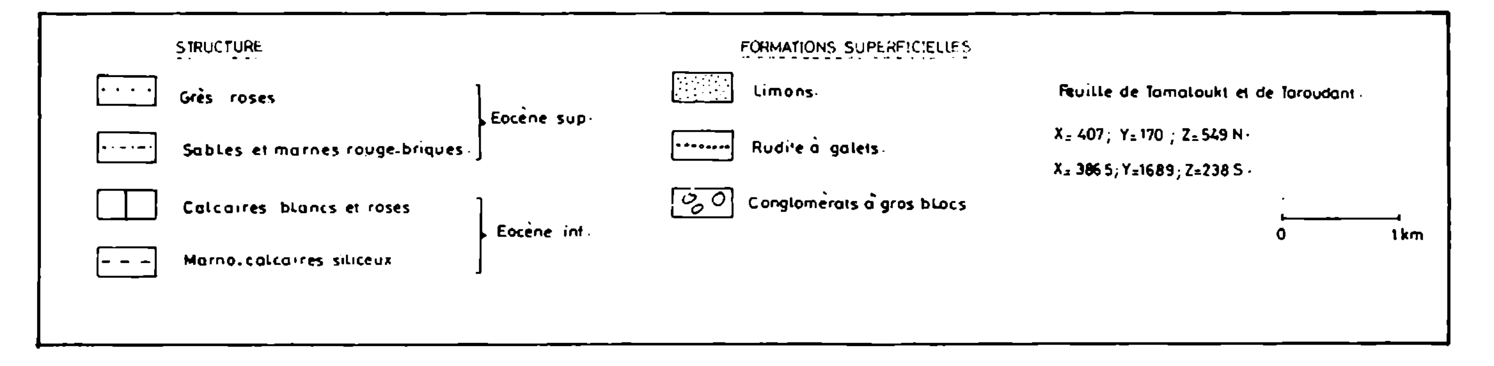


Fig 4. MORPHOLOGIE DES OUEDS SOUSS ET L'OUAAR ET DE LEUR INTERFLUVE ET SPECTRES PETROGRAPHIQUES DES COUPES ETUDIEES.

Fig 5. **COUPE NS SUR LE CÔNE DE L'OUED IRGUITENE A L'OUED SOUSS.**



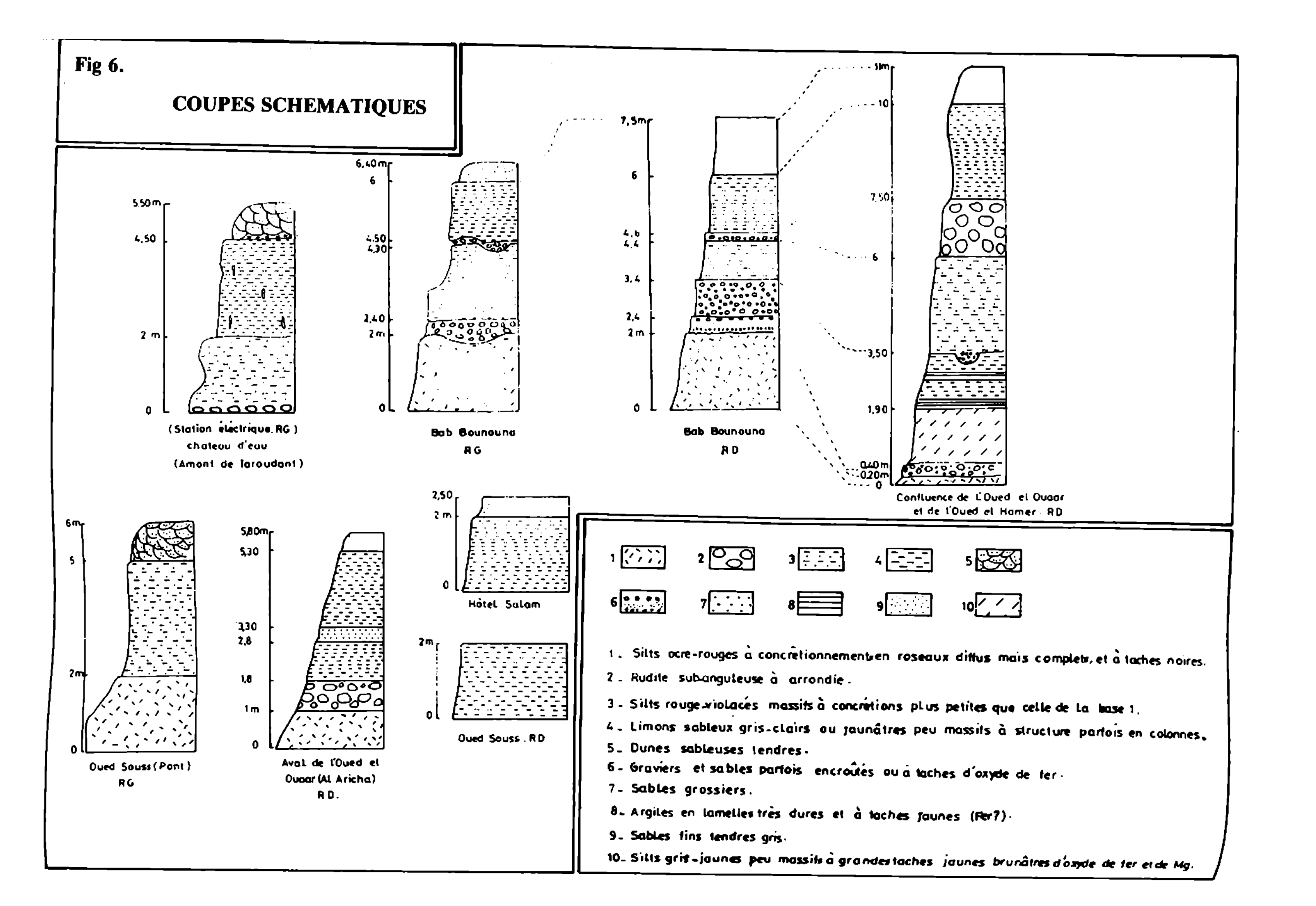

Fig 6.
COUPES SCHEMATIQUES
5.50 m
4,50
2 m
0
(Station électrique. RG)
chateau d'eau
(Amont de Taroudant)
6,40 m
6
4,50
4,30
2,40
2 m
0
Bab Bounouna
RG
7,5 m
6
4,6
4,4
3,4
2,4
2 m
0
Bab Bounouna
RD
11m
10
7,50
6
3,50
1,90
0,40 m
0,20 m
0
Confluence de L'Oued el Ouaar
et de l'Oued el Hamer. RD
6m
5
2m
0
Oued Souss (Pont)
RG
5,80m
5,30
3,30
2,8
1,8
1 m
0
Aval de l'Oued el
Ouaar (Al Aricha)
RD.
2,50
2 m
0
Hôtel Salam
2m
0
Oued Souss. RD
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
1. Silts ocre-rouges à concrétionnement en roseaux diffus mais complets, et à taches noires.
2. Rudite sub-anguleuse à arrondie.
3. Silts rouge-violacés massifs à concrétions plus petites que celle de la base 1.
4. Limons sableux gris-clairs ou jaunâtres peu massifs à structure parfois en colonnes.
5. Dunes sableuses tendres.
6. Graviers et sables parfois encroûtés ou à taches d'oxyde de fer.
7. Sables grossiers.
8. Argiles en lamelles très dures et à taches jaunes (Fer?).
9. Sables fins tendres gris.
10. Silts gris-jaunes peu massifs à grandes taches jaunes brunâtres d'oxyde de fer et de Mg.

Fig 7a. **COURBES CUMULATIVES DE LA RIVE GAUCHE**

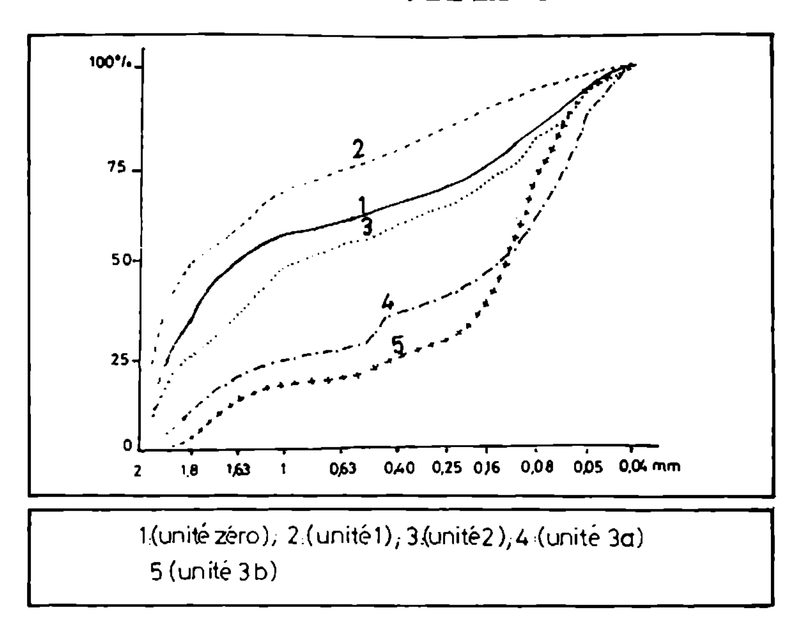
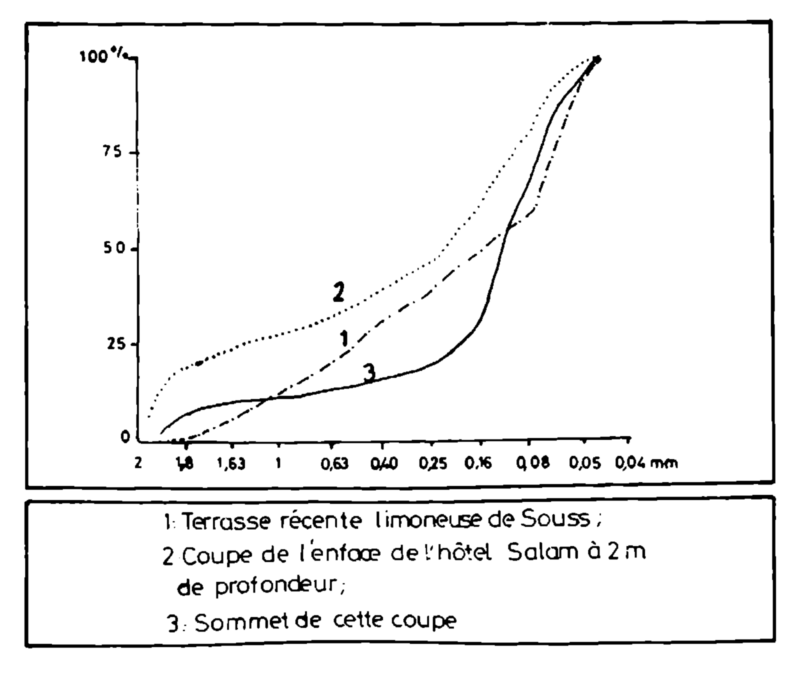


Fig 7b : **COURBES CUMULATIVES DES SABLES DE LA COUPE DECRITE EN FACE DE L'HÔTEL SALAM ET DE LA TERRASSE RECENTE DE L'OUED SOUSS A TAROUDANT.**



Publications de la Faculté

I. TRAVAUX PUBLIES

1. Guide de la Faculté 1984 -1985
2. Guide de la Faculté 1985 -1986
3. Guide de la Faculté 1986 -1987
4. Guide de la Faculté 1987 -1988
5. Guide de la Faculté 1988 -1989
6. Guide de la Faculté 1989 -1990
7. Revue Dirassat N° 1 (1987)
8. Revue Dirassat N° 2 (1988)
9. Revue Dirassat N° 3 (1989)
10. Revue Dirassat N° 4 (1990)
11. Actes du colloque sur le Grand Agadir : Géographie et Urbanisme.
12. Actes du colloque sur le Grand Agadir : Axe culturel.
13. Actes du colloque sur le Grand Agadir : Axe historique.
14. La question monétaire dans l'histoire du Maroc au XIX ème siècle (Souss 1822 - 1906)
    Le Professeur Omar AFA (en Arabe)
15. La conception du personnage patrimonial des années soixante-dix
    Le Professeur AZZEDINE BOUNIT (en Arabe)
16. **Cours inauguraux :**
    a) Le Maghreb arabe et les perspectives d'intégration économique.
       Le Professeur HABIB AL MALKI (en Arabe)
    b) Les relations entre le Maghreb arabe et l'Afrique : remarques préliminaires.
       Le Professeur ABDALLAH LAROUI (en Arabe)
    c) l'Homme et le problème de la désertification dans les régions arides
       Le Professeur DRISS AL FASSI (en Arabe)
    d) Ibn Zohr : aperçu sur l'histoire d'une famille andalouse.
       Le Professeur Mohamed BENCHRIFA (en Arabe)
    e) La poésie du Sahara
       Le Professeur ABBASS AL JIRARI (en Arabe)
    f) La tragédie du Cheikh Al Maârra.
       Le Professeur AMJAD TARABOULSI (en Arabe)
17. Atlas du Grand Agadir : Planche n° 7 a, le tourisme à Agadir.
    Le Professeur Mohamed BERRIANE.

II. TRAVAUX SOUS-PRESSE :

1. Actes des Journées d'études sur Essaouira
2. Guide de la Faculté 1992 - 1993
3. Revue Dirassat n° V, 1991
4. Colloque sur la Résistance Marocaine.
5. Actes du Colloque sur la ville d'Essaouira.

III. PROCHAINES PUBLICATIONS DE LA FACULTE :

1. Actes du colloque sur ''l'Homme et le Chameau en Afrique''
2. Histoire des relations maroco-africaines.
   Le Professeur AHMED TAOUFIQ (en Arabe)
3. Compilation et étude des travaux de Moussa Ibn Oqba.
   Le Professeur Mohamed BAQCHICH (en Arabe)
4. Revue Dirassat N° 6 (1991)
5. Revue Dirassat N° 7 (1992)
6. Revue Dirassat N° 8 (1993)
7. Cours inaugural : ''La répétition dans les lectures coraniques tant que mécanisme d'exegèse et l'apport des Oulémas soussis dans ce domaine'',
   Le Professeur Thami ERRAJI AL HACHIMI.
8. Atlas du Grand Agadir Planche : L'eau potable dans l'Agglomération urbaine d'Agadir,
   Le Professeur Lahcen MAHDAD.



UNIVERSITE IBNOU ZOHR
FACULTE DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES
AGADIR

TAROUDANT

CITE DU SOUSS